لجنة التأليف والترجمة والنشر



تأليف : سير ولتر سكت

تعريب : محمود محمود محمد

خريج جامعة اكستر بانجلترا

عيون الأدب الغربي

العدد الثاني

لجنة التأليف والترجمة والنشر



تأليف : سير ولتر سكت

تعريب : محمود محمود محمد

خريج جامعة اكستر بانجلترا

عيون الأدب الغربي

العدد الثاني

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٩٣٨

تقدمة المعرب

كان من أثر الثورة الفرنسية أن تحرر الفكر الأوربى ، وانطلق من قيوده ، وظهرت الحركة الرومانتيكية فى الأدب الغربى ، وأخذ أتباع هذا المذهب الجديد ينادون بحرية اللفظ وإطلاق الخيال من أسر التقليد .

ومن زعماء هذه الحركة فى الأدب الانجليزى « السر والتر سكُت » « Sir Walter Scott » صاحب هذه الرواية التى نحن بصدد نقلها إلى قراء العربية . بدأ حياته الأدبية بكتابة الأغانى الشعبية ، التى سرعان ما ترددت على كل لسان ، وذاعت بين الناس جميعاً ؛ وكان يسوق فى هذه الأغانى طرفا من القصص التاريخى القديم ، مشيداً بذكر الأبطال الأقدمين ، وما وقع فى سالف الأيام ؛ ولكنه لم يلتزم الصدق والدقة فى رواية التاريخ ، بل كثيراً ما كان يطلق لخياله العنان ، فيخلق شخوصاً من العدم ، ويذكر أحداثا لم تقع ؛ وكانت أحب فترات التاريخ إلى نفسه العصور الوسطى . كان يستهويه منها روح الفروسية ، وميولها العسكرية وحروبها التى لم تنقطع .

وظل سكُت فى أعين الجمهور زعيم الشعراء ، حتى ظهر اللورد بَيرُنْ ، وبزّه ، واجتذب منه كثيراً من المعجبين بأناشيده الشعبية ، فانصرف سكُتْ من الشعر إلى النثر ، وهجر الأغانى إلى الرواية ؛ وكان فى قصصه الروائى — كما كان فى شعره — يعمد إلى إحياء التاريخ الأوسط ، ويرى فيه مجالا واسعا لإرسال الخيال وابتداع القصص ؛ ومن بين القصص التاريخية العديدة التى كتب قصة « الطلّسم » التى نقدمها اليوم إلى القراء الناطقين بالضاد ، وقد وقع اختيارنا عليها دون غيرها لأن موضوعها يتصل بالقارئ الشرق ، ويتناول موقفاً من المواقف المشهورة فى الحروب الصليبية بين رتشارد قلب الأسد ملك انجلترا

وصلاح الدين الأيوبى ؛ والقصة تبسط لنا كثيراً من مميزات العصور الوسطى ، وتبين كيف كان أبناء الغرب من المسيحيين ينظرون إلى أهل الشرق من المسلمين ، كما تبين الروح العسكرى السائد فى تلك العصور ، والاستماتة فى الدفاع عن الدين ، والاعتقاد فى الخرافة والسحر ، وطرفا من حياة الرهبان المسيحيين وقسوتهم على أنفسهم فى أسلوب توبتهم إلى الله وتكفيرهم عن ذنوبهم .

وترى فى الرواية كذلك لونين متباينين من الحب : لوناً شهوانيا مجردا يعزوه « سكت » إلى أهل الشرق عامة ، وآخر أفلاطونيا عذريا ، ويعزوه إلى الغربيين فى ذلك الزمان ، وهو حب لا يمس العاشق فيه معشوقته ، ويكاد يسجد لها من دون الله .

ولعل أدق ما ترويه لنا الرواية تحليلا مفصلا لشخصى رتشارد وصلاح الدين . يعرض لنا « سكت » « رتشارد » رجلا قوى البنية ، غليظ الطبع ، شديد النفوذ على أتباع الصليب جميعاً ، سريع الغضب ، سليم الطوية ، صريح العبارة ، لا يعرف إلى المداراة أو التواء المقصد سبيلا . أما صلاح الدين فيمثل المكر والدهاء ، والصبر وطول الأناة ؛ يعرضه لنا المؤلف فى مستهل القصة متخفياً فى شخص مقاتل من المقاتلين المسلمين ، مقداما شجاعا ، لا يتهيب ولا يخاف ، ثم يخلع عنه زى المحارب ، ويأتى لنا به ثانية متنكراً فى لباس الطبيب أو « الحكيم » ، كما يحب سكت أن يسميه عامداً ، لأنه يريد أن يومئ إلى أن العرب كانت تخلط بين « حكمة » الطب و « حكمة » الفلسفة ورواية الحكم والأمثال ؛ وفى مختتم القصة ينزع صلاح الدين كل معالم التنكر ويبرز لنا فى شخصه الحر الكريم ، جواداً ، سياسيا محنكا ، وحكما عدلا بين الصليبيين .

وكما أن « سكت » يعتذر لنا فى مقدمة الرواية عن مسخه لحقائق التاريخ وتغييره وتبديله فيها ، ويقول إن فى ذلك الفارق بين القصص التاريخى وعلم التاريخ ؛ فنحن نعتذر إلى القارئ المسلم عما قد يجد فى القصة مما يسيئه ونلتمس

لسكت المعذرة فى ذلك ، لأنه يكتب عن حرب دينية بين الصليب والهلال وعن عصر كان التعصب الدينى فيه على أشده ، فمن الطبيعى أن يسخر المسيحى من دين المسلم وأن يهزأ المسلم بعقيدة المسيحى .

والآن أنتقل بالقارئ إلى ما كتب سْكُتْ ، آملا أن يجد فى القصة لذة ومتعة ؛ وأن يتسامح فى شرود المؤلف وهفوات المعرب .

المعرب

نوفبر سنة ١٩٣٧

مقدمة المؤلف

لم ترق قصة « المخطوبة » كثيراً لصديق أو صديقين ، وظنا أنها لا تتلاءم كل الملاءمة وما أخرجنا أخيراً من قصص تحت عنوان « الصليبيين » ، وأكدا لى أن هذا العنوان : « قصص الصليبيين[1] » دون الإشارة المباشرة إلى أخلاق قبائل الشرق ، وإلى الخصومات الخيالية فى ذلك العهد ، يكون بمثابة اللوحة تعلن عن مأساة « هاملت » ولا تذكر شخصية أمير الدنمارك[2] . ولكنى ، من ناحية أخرى ، أدركت المشقة فى رسم صورة حية لجزء من العالم أجهله كل الجهل ، وليس لدى عنه إلا ذكريات باكرة لقصص ألف ليلة وليلة ؛ ولست أعانى من قصور الجهل فحسب ، ذلك الجهل الذى أحاطت بى غيومه كثيفة فيما يتعلق بأخلاق الشرق ، كما تحيط الغيوم بالمصرى ، ولكن هناك كثيرا من معاصرىّ على بينة من الموضوع كأنهم من أهل أرض « جوشن » المكرمة ، فلقد تغلغل حب الأسفار بين جميع الطبقات ، ودفع بأبناء بريطانيا إلى أنحاء العالم طرا ، وتطلعت عيون البريطانيين فى العهد الأخير إلى بلاد اليونان ، التى تجذب النظر بما فيها من آثار الفنون ، وبجهادها فى سبيل الحرية فى وجه حاكم مسلم طاغية ، بل وباسمها ذاته ، حيث لكل عين أسطورتها القديمة ، كما تطلعت إلى فلسطين التى تحببها إلى الخيال ذكريات أكثر من هذه قداسة ، والتى وصفها الرحالة فى العصر الحديث . ولذا فإنى لو حاولت هذا العمل الشاق : وهو أن أبدل بأساليب من بنات خيالى أزياء الشرق الحقيقية ، فان كل رحالة ألاقى ممن ضربوا فى الأسفار إلى وراء ما كان يعرف قديماً « بالرحلة العظمى » ، يحق له بشهادة العين أن يأخذ علىّ

(١) هى مجموعة قصص أخرجها « سكت » كلها يدور حول الحروب الصليبية ومنها قصة « الطلّسم » هذه وقصة المخطوبة التى يشير إليها هنا .

(٢) إحدى شخصيات رواية (هاملت) لشكسبير .

ما زعمت لنفسى ، وكل عضو من أعضاء « نادى الرحالة » يزعم أنه وطأ بقدميه أرض « أدم » له أن يقف منى موقف الناقد الشرعى ويراجعنى فيما أقول .
ولما كان مؤلف « أنا ستاسيوس » ، وكاتب « الحاج بابا » ، قد وصفا عادات الأمم الشرقية ورذائلها وصفاً صادقا صحيحاً ، تمازجه فكاهة « لى ساج » ومقدرة « فيلدنج » على إثارة الضحك ، فقد عنّ لى أن رجلا كمثلى ، الموضوعُ غريب عنه كل الغرابة ، لن يصدر ، وهو راغم ، إلا عما يباينهما مباينة غير مستساغة ؛ أضف إلى هـذا أن شاعر البلاط فى قصته الفاتنة « ثَلَبَـا » قد بين لنا كيف أن رجلا عليما موهوبا مثله يستطيع أن يبلغ فى بحثه بطريقة الاستقراء وحدها شأوا بعيداً فى معرفة العقائد القديمة — وتاريخ الشرق وعاداته ، وبلاد الشرق هى المجال الذى ينبغى لنا أن نبحث فيه عن مهد الإنسان . وسار « مور » على الدرب عينه موفقاً فى كتابه « لَلاّ روخ » كما سار « بيرون » وضم تجاريب مشاهداته إلى واسع اطلاعه ؛ وكتب بعضاً من قصائده الخلابة الفاتنة . وقصارى الكلم إن موضوعات الشرق قد عالجها من قبل علاجا ناجحاً أناس أُقرّ لهم بالبراعة فى هذا الفن ، فبت أستحى من المحاولة فى هذه السبيل .

كانت هذه العقبات شديدة علىّ ، ولما أمسيت أفكر فى الأمر جادا لم تفتر ولم تهن ؛ ولكنى قهرتها فى نهاية الأمر ؛ وما أملت أن أبارى من ذكرت من المعاصرين ، ولكنى رأيت ، من ناحية أخرى ، أن أخلص من الأمر الذى شغل خاطرى زمناً ، دون أن أدخل مع أحد فى ميدان المنافسة .

واستقر بى الرأى أخيراً على تلك الفترة التى تتصل بالحروب الصليبية اتصالا وثيقاً ، والتى التقى فيها صلاح الدين برتشارد الأول ، ذلك الملك المقاتل ، ذلك الرجل الساذج الكريم ، ذلك المثال الصادق للفروسية بكل ما فيها من إسراف الفضائل ، وما فيها من رذائل لا تقل عنها إسرافاً ؛ وقد أظهر الملك المسيحى الانجليزى كل قسوة وعنف ، وهما من صفات السلطان الشرقى ، بينما أبان صلاح الدين عن الحكمة والسياسة البعيدة ، وهما من مميزات الملك الأوروبى ؛

وتباريا أيهما يفضل الآخر فى صفات الفروسية والشجاعة والكرم . هذا التباين الفريد بين الرجلين أمد المؤلف ، كما يظن ، بالمادة التى ينسج منها قصة خيالية لها لذة فائقة ؛ وكان من الشخصيات الثانوية التى أدخلت على الرواية فتاة زعموا أنها من ذوات قربى رتشارد قلب الأسد ، فكان فى ذلك مسخ لحقائق التاريخ استاء له المستر « ملز » مؤلف « تاريخ الفروسية والحروب الصليبية » ، وما نحسب إلا أنه لا يدرى أن القصص الخيالى له ، بطبيعة الحال ، أن يبتدع مثل هذا الابتداع ، وإنها حقاً لضرورة من ضرورات الفن .

وضمت قصتى كذلك الأمير « داود الاسكتلندى » الذى التحق بالجيش فعلا ، والذى لعب دور البطولة فى بعض المغامرات الخيالية وهو فى طريق العودة إلى وطنه ، وقد جعلت منه شخصية من شخصيات الرواية .

وحقا لقد أنزلت من قبل قلب الأسد إلى ميدان القصص ، ولكنى عرضت فيما مضى لصفاته الخاصة أكثر مما عرضت هنا فى «الطلسم» . كان فى القصص السالفة فارساً متنكراً ، أما هنا فهو بصفته الصريحة ، صفة الملك الغازى ؛ ولذا فا تسرّب إلىّ الشك فى أن اسماً كاسم الملك رتشارد الأول ، عزيزاً على الانجليز ، ربما عمل على إدخال السرور إلى نفوسهم أكثر من مرة .

وعالجت كل ما كان يعتقد القدماء ، من صدق ومن خرافة ، بشأن هذا القاتل العظيم الذى كان أكبر فخر لأوروبا وفرسانها ، والذى ألف العرب — حسب ما يقول مؤرخ من بلادهم — أن يسبوا خيولهم إذا ذعرت باسمه المخوف ، فكانوا يقولون « هل تحسبين أن الملك رتشارد فى طريقك فتحيدين عنها آبدة ! » . وأعجب سجل لتاريخ رتشارد الملك قصة خيالية قديمة ترجمت عن أصل نورماندى ، وقد كانت أول أمرها أقرب ما تكون إلى رواية عمل من أعمال الفروسية ، ولكنها حُشيت فيما بعد بأعجب الأساطير وأشدها فزعاً ، وربما لم تتوارد على الأيام قصة خيالية منظومة يختلط فيها التاريخ الحق العجيب بحادثات أكثر من هذه مبالغة

وأشد عبثاً ؛ ولقد سقنا فى ملحق بهذه المقدمة عبارة القصة التى يظهر فيها رتشارد بمظهر الغول يأكل بالفعل لحم البشر .

ومن الأحداث الهامة بالقصة ذلك الحدث الذى استمددنا منه العنوان ، ولربما كان الفرس من بين جميع الأمم التى عاشت أكثرها شهرة بعقيدتهم التى لا تتزعزع فى التمائم والرقى وما إليها من التعاويذ ، التى كانت تُؤَلَّفُ ، كما قيل ، تحت تأثير كواكب خاصة ، وكانت لها قدرة طبية فائقة ، كما كانت الوسيلة التى تسيطر على جدود الرجال ؛ وكثيراً ما ترددت فى غرب اسكتلندا أقصوصة من هذا الضرب ، تتعلق بمحارب صليبى من المحاربين البرزين ، وما يزال الطلسم الذى يشار إليه موجوداً ، بل وما يزال له احترام وتقديس .

وكان السر « سَيْمُن لُكْهَارتْ » صاحب « لى » و « كلارتلاند » ، شخصية لها وزنها أيام حكم « روبرت بروس » وابنه « داود » ، وكان أحد زعماء تلك العصابة الاسكتلندية من الفرسان التى صحبت « چيمس » أو اللورد « دوجلاس » الطيب ، فى حملته على الأرض المقدسة مؤيداً من الملك « روبرت بروس » ، وكان « دوجلاس » يتعجل الفتك بالعرب ، فاشتبك فى حرب مع أهل أسبانيا ولاقى حتفه هناك ، أما « لُكْهارتْ » فقد استأنف مسيره إلى الأرض المقدسة مع من نجا من الفرسان الاسكتلنديين مما أصاب قائدهم ، واشترك مدة من الزمن فى الحروب المشتعلة ضد العرب .

وتواتر الخبر على أنه اشتبك فى المغامرة التالية : أَسَرَ يوماً فى الحرب أميراً ذا ثروة طائلة ونفوذ كبير ، فأتت إلى معسكر المسيحيين أم الأسير العجوزُ كى تخلص ابنها من أسره ، وحدد « لكهارت » ، كما قيل ، قدراً ما لفداء السجين ، فأخرجت السيدة كيساً كبيراً مطرزاً وشرعت تعد نقد الفدية ، كأمٍّ لا تقيم للذهب إلى حرية ابنها وزناً ، وإذ هى كذلك ، سقط من الكيس حجر موثوق بقطعة من النقد ، يقال إنه من العالم السفلى ، فأظهرت الأم العربية عجلةً شديدةً فى التقاطه ، مما جعل الفارس الاسكتلندى يعتقد فى نفاسته وعلوّ قيمته ، إذا

قيس بالذهب أو بالفضة ، فقال : « إنى لن أرضى باطلاق سراح ابنك إلا إن ضممت إلى فديته هذا الحرز » ، فقبلت السيدة ، بل وشرحت للسر « سيمن لكهارت » فضائل التميمة وطريقة استخدامها ، وقالت إنها إذا غمست فى ماء استحال الماء دواءً يوقف نزيف الدم ، ويخفف الحمى ، وأصبحت له خصائص أخرى كثيرة كتميمة طبية .

وبعدما اختبر السر « سيمن لكهارت » العجائب الكثيرة التى تفعلها هذه التميمة ، أتى بها إلى بلاده ، وتركها لورثته ، فميزوها ، هم وأبناء « كليدزديل » عامة ، وما يزالون يميزونها باسم « لى پنى » نسبة إلى وطنه « لى » .

وربما كان أعجب فصل فى تاريخها أنها نجت خاصة من النقمة ، حينما أرادت الكنيسة فى اسكتلندا أن تصب سخطها على كثير غيرها من أسباب العلاج ، التى كانت لها صفة الإعجاز وفعل السحر ، وأنكرت الكنيسة على الناس الالتجاء إليها جميعاً « ما خلا التميمة المعروفة باسم « لى پنى » فقد أراد الله أن يخصها ببعض فضائل الشفاء التى لا تزعم تحريمها الكنيسة » ، وهى ، كما قيل ، ماتزال موجودة ، ويلوذ بسلطانها الناس أحياناً ؛ وأخيراً انحصر فعلها خاصة فى علاج من يعضه كلب مسعور ؛ ولما كان المرض فى مثل هذه الأحوال كثيراً ما ينشأ عن الوهم ، فليس ثمت ما يدعو إلى الشك فى أن الماء بعد أن يصب على « لى پنى » ، تصير له قوة العلاج الناجع .

هذا ما تواترت به الأخبار عن التميمة (أو الطلسم) ، وقد استباح المؤلف لنفسه الحرية فى تحويرة ، وهو يستخدمه فى أغراضه الخاصة .

واستبحنا لأنفسنا كذلك كثيرا من الحرية فى حقائق التاريخ فيما يخص حياة « كنراد منتسرا » ومماته ؛ أما أن « كنراد » كان عدوا لرتشارد فهو ما يتفق عليه التاريخ وقصص الخيال . وتستطيع أن تقدر العقيدة التى سادت بين الناس بشأن ما كان بينهما من صلة ، من الاقتراح الذى تقوم به العرب ، وذلك أن يُولّى « مركيز منتسرا » على أنحاء معينة من سوريا تنازلوا عنها للمسيحيين ، ولكن

رتشارد ، كما جاء فى القصة الخيالية التى تحمل اسمه « لم يستطع بعد هذا أن يكتم غضبه ، فقال إن المركيز خائن اغتصب من فرسان « الاسبتارية » ستين ألف دينار ، وهى عطية من أبيه هنرى ، وقال إنه مرتد ، نجم عن غدره ضياع « عكا » ، وختم حديثه بيمين غليظة أقسمها لمزقنة إربا إربا بالخيول الآبدة ، لو أنه اجترأ يوماً على تدنيس معسكر المسيحيين بمثوله هناك ؛ وحاول « فيليب » أن يتوسط لجانب « المركيز » فرمى بقفازه وقدم نفسه رهينة لإخلاصه للمسيحيين ، ولكن هذا العرض لم ينل قبولا ، واضطر «فيليب» إلى أن يخلى السبيل لرتشارد وسورته » — من « تاريخ الفروسية » .

و « كنراد منتسرا » شخصية هامة فى هذه الحروب ، وقد ألحق به الموتَ فى آخر الأمر ، واحدٌ من أتباع « الشيخ » ، رجل الجبل العجوز ، ولكن رتشارد لم يخلُ من ريبة الناس فى الإيعاز إليه بالقتل .

ويمكننا على الجملة أن نقول إن أكثر الحوادث المساقة فى القصة التالية هى من خلق الخيال ، وأن الحقيقة ، حيثما توجد ؛ لا أثر لها إلا فى أشخاص الرواية .

أول يوليو سنة ١٨٣٢

ملحق بالمقدمة

أصيب رتشارد بالحمى وهو يحارب فى الأرض المقدسة ، وعجز خير أطباء المعسكر عن وصف الدواء الناجع لعلته ، بل لقد كان دعاء الجيش له أنجع علاجا فنقه من مرضه ، وكانت أولى علائم شفائه رغبة شديدة فى أكل الخنزير ، ولكن لحم الخنزير لم يكن من الميسور أن يتوفر فى بلد أهله يمقتونه .

« [1] ولو استمات رجاله لم يجدوا فى هذا البلد لحم الخنزير ولو وجدوه لشروه بالذهب والفضة والمال ، ولحملوه إلى رتشارد الملك ، فيأكل منه ما تيسر ؛ وكان يقيم مع رتشارد فارس عجوز ، لما نما إليه هذا الخبر ، وعرف أن رغبة الملك لم تجب ، قال للحاجب سرا ، لقد اشتد المرض بمولانا الملك ، وأنا أعلم أنه يتوق إلى لحم الخنزير ، ولكنك لن تجده هنا فتشريه ، وليس من بين الرجال من تبلغ به الشجاعة أن يخبره بهذا ، ولئن فعل ، لكان فى قوله حتفه ، والآن ينبغى لكم أن تفعلوا كما أقول لكم ، ولكن بربكم لا تخبروه بشىء منه : خذوا عربيا شابا سمينا ، وتعجلوا بقتله ، وافتحوا جوفه ، واسلخوا جلده ، واسلقوه بأسره سريعا بالدقيق والتوابل ، وبالزعفران الزاهى ، فإذا ما اشتم الملك نكهته فستزول عنه الحمى ويثوب إلى رشده ، وإذا ما استساغ الطعام وأكل أكلة طيبة وتمشى بالحساء ثم استغرق فى النوم وابتل بالعرق ، فإنه بعون الله ، وبمشورتى ، سوف ينتعش عما قريب ويشفى ؛ وإليك صدق ما تم فى موجز من اللفظ : قُتل الكافر الزنيم ، ثم سلق وجىء به إلى المليك ، وقال له رجاله ، مولانا ، لقد آتيناك بلحم الخنزير ، فكل واطعم من حلو الحساء ، وبفضل الله وبركته ليكونن لك فيه الشفاء ، وقبل أن يشرع رتشارد الملك ، شرّح اللحمَ فارسٌ ، وأخذ يلتهمه التهاما ، وأكل الملك اللحم ، وقرض العظام ، ثم أدمن فى الشراب

(١) هذه قصة خيالية عن رتشارد بشأن هذا الحادث ، والأصل منظوم بالانجليزية القديمة .

ساعة ، وبعدما تناول ما أشبعه ، خلّفه قومه ، وأخذوا يتضاحكون ، ثم استلق ساكنا ، وجذب إليه ذراعه ، ولفه حاجبه وأدفأه ، ثم رقد ونام ، وتصبب منه العرق ، ودبت فيه الصحة والعافية ، ثم ارتدى ملبسه ، وهب من مرقده ، وأخذ يمشى هنا وهناك فيما جاوره » اه .

ودحر رتشارد بنفسه جماعة من الأعراب أتوا مهاجمين ، وتروى لنا الأسطر التالية ما انتهت إليه المعركة :

« (١) استراح الملك قليلا ، ثم شرع أحد الفرسان ينزع عنه أسلحته ، كى يريحه ويلهيه ، ثم جىء له بنقيع النبيذ ، وأمر طاهيه قائلا : هات لى رأس ذلك الخنزير عينه الذى أكلت منه ! فإنى ضعيف واهن مجنون ، وإنى الآن لفى خوف من آثامى . قدم لى ذلك الرأس مع طعام العشاء ! ، فقال الطاهى : « ليس عندى هذا الرأس » فقال الملك ، رحماك اللهم ! إنى أرى رأس ذلك الخنزير ، فهاته وإلا فتالله لتفقدن رأسك ! » . ولم ير الطاهى من مطلب المليك مهربا فأعد الرأس ، وقدمه إليه ، فخر على ركبتيه وصاح « هيا ، هيا ! هذا هو الرأس ! رحماك رباه ! » .

ولا مراء فى أن الطاهى كان له بعض المعذرة فى خوفه من سيده يصعق ذعرا لو عرف حقيقة الأكلة المروعة التى يدين لها بشفائه ، ولكن سرعان ما تقشعت مخاوفه .

« (٢)ولما رأى الملك الوجه الأسود ، ولحيته السوداء ، وأسنانه البيض ، وكيف تجهم وانفرجت شفتاه صاح « أى شيطان هذا ؟ » وشرع يضحك كعادته ثم قال : « ماذا ! هل لحم الأعراب لذيذ هكذا ؟ والله ما عرفت من قبل هذا ! أقسم بقضاء الله وقدره إنا لن نموت قط جوعا ، ما دمنا كلما هجمنا استطعنا أن نقتل العرب ، ونأخذ لحمهم ؛ ونطهيه ونشويه ، ونجففه ونقرض لحمه حتى العظام !

(١) هذه القطعة منظومة فى الأصل .
(٢) هذه الأسطر منظومة فى الأصل .

والآن وقد جربته مرة فلآكلن وقومى منــه مزيدا ، ونسد رمق الجوع قبل أن يقتلنا ! » .

وتقدم المحاصَرون يسلمون ويشرطون تأمين أهل البلاد ، وقدموا للظافرين ثروة الجمهور بأسرها ، والآلات الحربية والأسلحة ، وفدية قيمتها مائة ألف بيزنط ؛ وبعد التسليم وقع الحادث الغريب الذى نرويه فيما يلى ، وســوف نسوقه إليك فى أسلوب « چورچ اّليس » الفــكه المحبوب ، وهو جامع هــذه القصص الخرافية وناشرها .

« أخلصت الحامية فى تنفيذ شروط الاتفاق جميعا ، إلا أنها عجزت عن ردّ الصليب ، إذ أنه لم يكن بحيازتها ، فأغلظ لهــا المسيحيون فى المعاملة ، ونمت إلى صلاح الدين الأنباء كل يوم عما يكابد مقاتلوه ؛ ولمــا كان الــكثير منهم رجالا ذوى مكانة عالية ، فقد بعث ملــكهم ، نزولا عند رجاء أصدقائهم ، بالرســل إلى الملك رتشارد ، ومعهم جليل الهدايا التى قدمها فداء للأسرى ؛ وكان الســفراء رجالا ذوى هيبة ووقار ، سنا ومرتبة وفصاحة ، فبلغوا رسالتهم بكل آيات الخضوع ، ولم يتهموا عدالة الظافر فى معاملته الخشنة لبنى جلدتهم ، وإنمــا اكتفوا بالتوسل إليه كى يحدد لهذه الشدة أجلا ، ووضعوا لدى قدميه الــكنوز التى كانت أمانة فى أعناقهم ، وقدموا أنفسهم وزعيمهم رهائن لأى مبلغ آخر يريده الملك ثمنا لرحمته .

« [1] فقال الملك رتشارد بعذب اللفظ : كيف لى أن آخذ الذهب ؟ رحماك اللهم ! قسموا بينكم كل ما حملتم ، فلقد أتيت معى فى السفن والمراكب بذهب وفضة أكثر ممــا يملك زعيمكم وثلاثة من أمثاله . ما بى إلى كنوزه حاجة ! ولــكنى آمركم حبا لى أن تقيموا معى زمنا ، ثم أخبركم بعد هذا بنبأ ، وأجيبكم برأى سديد ، وأقول لــكم بأية رسالة تعودون إلى مولاكم .

---

(١) هذه الأسطر منظومة فى الأصل .

« فقبل الوفد الدعوة شاكراً ، وأصدر رتشارد فى ذات الوقت أمراً سريا إلى قائده بأن يتوجه إلى السجن ، وينتقى عدداً محدوداً من خير الأسرى ، وبعد ما يسجل أسماءهم بعناية فى سجل من الورق ، يأمر بحز رقابهم فوراً ، ثم تسلم رؤوسهم إلى الطاهى ، ويؤمر بأن يزيل شعورهم ، وبعد ما يغلى رؤوسهم فى دست ، يوزعها على صحاف عديدة ، ويقدم لكل ضيف صحفة ، ويربط على جبين كل رأس قطعة من الورق تبين اسم صاحبه وقبيلته .

« وهات [1] لى قبلهم جميعا رأسا حاراً ، كأنى دفعت له ثمنا عاليا ، ولآكلن منه التهاما ، كأنه فرخ طرىّ ، ثم أرى ماذا يفعل الآخرون .

« ونفذ هذا الأمر المروع فى حينه ، وفى منتصف النهار دعى الضيوف ليغتسلوا على أنغام الموسيقى يعزف بها الخدم ، ثم اتخذ الملك له مقعداً ، وتبعه كبار ضباط بلاطه ، عند المائدة العليا ، واصطفت بقيـة الحشد لدى مائدة طويلة دونه ؛ وعلى كساء الموائد وضعت مقادير من الملح على الأبعاد المألوفة ، ولم يكن هناك خبز ولا نبيذ ولا ماء ، فدهش السفراء لهذا النقص ، ولكنهم ما برحوا من الخوف خليين ، ولبثوا يرتقبون فى صمت تقديم الغداء ، وقـد أعلنت مقدمه أصوات المزامير والأبواق والدفوف ، ولشـد ما كان رعبهم وفزعهم حينما رأوا وليمة غير معهودة يقدمها شيخ الحجاب وضباطه ، وغلبهم التشوف ، فثارت مشاعرهم بالتقزز والاشمئزاز ، كما لبثت مخاوفهم مكبوتة فترة من الزمن ، ووجهوا نحو الملك أبصارهم ، وما تغيرت ملامحه قيد شعرة وهو يبتلع اللقمات متلهفا ، كلما شرّح الفارس قطعة وقدمها إليه .

« فتغامز [1] الرجال وقالوا إن هذا إلا أخو الشيطان ، يقتل رجالنا ويأكلهم كما نرى ! .

« ثم وجهوا بعد هذا انتباههم مكرهين إلى الرؤوس التى قدمت إليهم ، وقد

---

(١) هذه الأسطر منظومة بالإنجليزية .

تصاعد منها الدخان ؛ وأرادوا أن يتعرّفوا من ملامح الوجوه المنتفخة المشوهة علائم الشبه بصديق لهم أو قريب حميم ، فعرفوا من العبارات التى كانت تصحب الأطباق ما أكد لهم أن هذا الشبه لم يكن وهما ولا خيالا ، فعرتهم الكآبة وجلسوا فى صمت وجمود يترقبون قضاءهم ، كما قضى على بنى وطنهم من قبل ، بينما كان مضيفهم الضارى ، والغضب ملء عينيه ، والظرف على شفتيه ، يسىء إليهم بالإلحاح فى دعوتهم إلى اللهو والمرح ؛ وبعد لأى ، أزيل هذا السماط الأول ، وجىء مكانه بلحم الغزال والكراكى ، وغيرها مما لذ وطاب ، مصحوبا بأطيب الخمور ، واعتذر لهم الملك عما فات ، وعزاه إلى جهله بذوقهم ، وأكد لهم احترامه الدينى لأشخاصهم كسفراء ، واستعداده لأن يمدّهم بمرشد يهديهم فى عودتهم وهم آمنون ، وكانت هذه المنحة هى كل ما رغبوا إذ ذاك فى طلبه .

« ثم قال [1] الملك رتشارد إلى رجل عجوز ، امض نحو بلدك إلى سلطانك وخفف من أحزانه ، وقل له إنك جئتنا متأخراً ، وإنك أخطأت تقدير الزمن فأبطأت ، وإنا ، قبل أن تأتينا ، كنا قد طهينا اللحم ، وأعدّه الرجال ليقدموه لى ولصحابى فى منتصف النهار ؛ قل له أن ليس وراء مسعاه من جدوى ، حتى وإن حبس عنا طعامنا من خبز وخمر وسمك ولحم وحوت سليمان وثعابين البحر ، فإن أحداً منا لن يموت جوعا ما دمنا نستطيع أن نسير إلى الحروب ونقتّل الأعراب تقتيلا ، فنطهر لحومهم ، ونشوى رؤوسهم . إنى بعربى واحد أستطيع أن أطعم تسعة أو عشرة من خيار رجالى المسيحيين وأشبعهم . إن الملك رتشارد يشهد أن ليس هناك لحم من حجَل أو قطقاط أو مالك الحزين أو الأوز العراقى ، أو الأبقار والثيرة ، أو الأغنام والخنازير ، أكثر تغذية للرجل الإنجليزى من رأس العربى ، فإنه سمين طرى ، ورجالى هزيلون نحيلون . ما دام فوق سوريا هذه عربى واحد حى فإنا لن نفكر فى اللحوم ، فعليه لننقضن سريعا ، وكل يوم نأكل منه بقدر

---

(١) هذه القطوعة منظومة فى الأصل .

ما نستطيع ، ولن نعود إلى إنجلترا حتى نأكلهم جميعا واحداً بعد الآخر » .

من كتاب « أليس » — « أمثلة من القصص الخيالية الإنجليزية القديمة المنظومة » الجزء الثانى ، صفحة ٢٣٦ .

وربما تشوق القارئ إلى معرفة الظروف التى أدت إلى أن يختلط هذا الخيال الجامح — الذى يعزو أكل اللحوم البشرية إلى ملك إنجلترا — بتاريخ الملك ، ويظهر أن المستر « چيمس » ، الذى نحن مدينون له بالكثير مما هو عجيب غريب ، قد وصل إلى أصل هذه الإشاعة العجيبة .

يقول هذا المؤلف « . . . وكان مع جيش الصليب كذلك جمهور من الرجال لا عمل لهم إلا الإفلاس ، يسيرون حفاة ولا يحملون سلاحا ، بل ويسبقون دواب الحمل فى المسير ، ويعيشون على الجذور والأعشاب ، ويظهرون بمظهر تشمئز له النفوس وتشفق منه .

« واعتزم رجل نورماندى كان — كما روى — شريف النسب ، ولكنه أضاع جواده فتابع المسير كجندى من المشاة ، أن يضع نفسه على رأس هذه الشرذمة من المتشردين الذين رضوا به ملكا عليهم عن طواعية ، وبات هؤلاء الرجال يعرفون بين الأعراب باسم « الظافرين » (ويترجمها جويبرت إلى Trudentes) ، وكانوا ينظرون إليهم برعب شديد ، لأنهم كانوا جميعا يميلون إلى الاعتقاد بأنهم يعيشون على جثث أعدائهم ، وهو نبأ كان يتحقق الحين بعد الآخر ، وكان ملك « الظافرين » يعنى بتشجيعه ، وهذا الملك البجل كثيراً ما تعود أن يصفّ أتباعه واحداً بعد الآخر فى خط واحد ضيق ، ثم يأمر بالبحث فيما يحملون بحثا دقيقا ، خشية أن يكون بحيازتهم ولو قليل من المال ، فلا يجدر بهم أن يكونوا من رعيته ، وإذا ألفى مع أحدهم دانقا واحداً أبعده فى الحال عن مخالطة أبناء قبيله ، وأمره بازدراء أن يشترى السلاح ويشترك فى القتال .

« وهذه الكتيبة لم تكن بأية حال من عراقيل الجيش ، بل لقد كانت خدماتها لا تعد ، فهم يحملون الأثقال ، ويأتون بالكلأ والمؤونة والخراج ، ويسيّرون

الآلات وقت الحصار ، وفوق كل هذا ، كانوا ينشرون الرعب بين الأتراك وكان هؤلاء يخشون الموت من رماح الفرسان أقل مما يخشون هذا الفناء الشامل تحت أسنان « الظافرين » [١] .

ومن اليسير أن نتصور أن منشداً جاهلا يجد أذواق هذه الطائفة وضراوتها مسجلة فى روايات تاريخ الحروب المقدسة فينسب أعمالها ونزواتها إلى ملك إنجلترا الذى كانت شراسته من الموضوعات التى تجوز فيها المبالغة كما تجوز فى شجاعته وإقدامه .

---

(١) من « تاريخ الفروسية » لجيمس ، ص ١٧٣ .

الفصل الأول

وأَوَوْا هم كذلك إلى القفر ، ولكنهم كانوا مسلحين[1]

الفردوس المردود

لم تكن الشمس المحرقة فى سوريا قد بلغت كبد السماء ، حينما كان فارس من فرسان الصليب الأحمر — وقد ترك بلاده النائية فى الشمال ، والتحق بجماعة الصليبيين فى فلسطين — يسير الهوينى فى الصحراء الرملية التى تقع على ضفاف البحر الميت (أو بحيرة « اسفلت » كما يطلق عليه أحيانا) حيث تتدفق أمواج الأردن فى ذلك البحر الداخلى الذى ليس لمائه مخرج .

وفى الصباح الباكر كان هذا الحاج المجاهد يكافح الجروف والمنحدرات ، ثم لما تبين الضحى انطلق من هذه الأودية الصخرية الخطرة ، ودخل فى ذلك السهل الفسيح ، حيث المدائن اللعينة التى أنزل الله عليها من عنده نقمة مروّعة شديدة فى سالف الأيام .

وتذكر مسافرنا تلك الطامة الكبرى التى نزلت بوادى « سدوم » اليانع الخصيب ، الذى كانت تتخلله الأنهار كأنه جنة الخلد ، فأحالته يبابا بلقعاً كئيباً ، وصيرته أرضاً جرداء مجدبة لا زهر فيها ولا شجر ، وكأن الله قد أصابها بالامحال أبد الآبدين . تذكر ذلك فنسى ما أصابه من إجهاد وعطش وما كان يحوطه من مخاطر الطريق .

ولما رأى المياه المظلمة يمعج عجاجها ، وهى فى لونها وطبيعتها تختلف عن مياه

---

(١) الإشارة هنا إلى قصة المسيح عليه السلام حينما خرج إلى البادية وحيداً وقضى بها أربعين يوما .

البحيرات جميعاً ، رسم علامة الصليب على نفسه ، وانتابته رعدة حينما تذكر أن تحت تلك الأمواج التي تتكسر في هدوء ، تندثر مدن الوادي التي كانت تتيه يوما بعزها ، فأنزل عليها ربك الصواعق من السماء ، ونفث فيها من باطن الأرض ناراً حامية فدكها دكا ، ولم تبق منها إلا أطلال طمرها هذا البحر الذي ليس في جوفه سمك ولا على سطحه سفين ، ولا يجود — كما يجود غيره من البحار — بقطرة ماء على المحيطات ، كأن مياهه الكئيبة لن تستقر إلا في قاعه الموحش . وكل ما جاوره من يابس « كبريت وملح ، أرض لا زرع فيها ولا ثمر ولا يكسوها عشب[1] » كما كانت في عهد موسى . وتستطيع أن تسمى ذلك اليابس « ميتاً » كذلك ، كما تسمى البحر ، فهو لا ينبت زرعا ولا شبه زرع ، والهواء ذاته يخلو من كل ذات جناح ، كأن الطيور قد نفرت من رائحة القار والكبريت ، التي كانت تبعثها الشمس المحرقة من مياه البحيرة ، فتنتشر في سحاب متكاثف كثيراً ما ينعقد على شكل الميازيب ، كما كانت كسف من المادة الكبريتية الغرينية ، التي تعرف بالنفط ، تطفو مسترخية فوق الأمواج الهادئة الموحشة ، وتمد تلك السحب المتدفعة بأبخرة جديدة ، فتشهد شهادة قوية على صدق قصة موسى .

على هذا المكان المهجور أشرقت الشمس تتوهج توهجا لا يكاد يحتمل ، وكأن كل كائن حي قد توارى عن أشعتها ، اللهم إلا ذلك الشبح الذي كان يسير وحده يشق الرمال السوافي بخطى وئيدة ، ويبدو كأنه المخلوق الفريد الذي يتنفس على سطح هذا الوادي الفسيح ؛ وكان لباس هذا الفارس الراكب ومعدات جواده لا تليق ألبتة بالمسافر في مثل تلك البلاد . كان يرتدي سترة من حلق الحديد ، طويلة أكمامها ، وقفازا براقا ، وصدرة من الحديد الصلب ؛ ولم يكتف بهذا التسليح ، بل كان يعلق كذلك على رقبته درعا ثلاثياً ، ويحمل على رأسه خوذة من قضبان الصلب . يغطيها بقلنسوة وبنيقة من الحديد ، يلف بها حلقه وكتفيه ، وتشغل ما بين لباس رأسه وسترته ؛ وكان يستر أطرافه السفلى ، كما

(١) هذه العبارة من العهد القديم .

كان يستر جذعه ، بحلق من الحديد سهل الالتواء ، وهكذا كان يقى ساقيه وفخذيه ، بينما كان يلبس على قدميه حذاء من المعدن اللامع ، ينسجم فى شكله مع القفاز ، وعلى أحد جانبيه سيف طويل عريض . مستقيم ذو حدين ، له مقبض على هيئة الصليب ، يتسق وخنجرا غليظا على جنبه الآخر ؛ وكان هذا الفارس يحمل كذلك رمحاً طويلا ، رأسه من الصلب ، يرتكز على سرجه ، ويستقر أحد طرفيه على ركابه ، وهذا الرمح هو سلاحه السديد ، يهزه إلى الخلف وهو ممتط صهوة الجواد ، فيعرض العلم الصغير المعلق بطرفه ، ويرفرف العلم مع النسيم العليل ، أو يتدلى فى السكون الميت ؛ وفوق هذا الزى العسكرى المعقد ، كان صاحبنا يرتدى عباءة من القماش المزركش ، نحل وبرها وبدت عليها آثار القدم ، ولكنها كانت مع ذلك عظيمة النفع ، إذ كانت تحمى سلاحه من أشعة الشمس ، ولولا ذلك لشق عليه حمل السلاح من حرارة الشمس ؛ وفى هذه العباءة كان الفارس يعلق هنا وهناك أسلحة تشوه ظاهرها ، ومنها سلاح « النمر الرابض » وعليه هذا الشعار « إننى نائم فلا توقظنى » ، وعلى الدرع آثار من هذه العبارة عينها ، ولكنها كادت تمحى من كثرة الطعان ؛ أما خوذته الاسطوانية الثقيلة فكان سطحها مستويا ، لا يجمله زخرف أو ريش ، وكأن الصليبيين من أهل الشمال — باحتفاظهم بهذا السلاح القوى يدفعون به عن أنفسهم — كانوا يتحدون طبيعة المناخ والإقليم الذى جاءوا ينشبون فيه القتال .

ولم تكن عدة الجواد أقل صلابة أو قوة من زى راكبه ، فلقد كان يحمل سرجا ثقيلا عليه طلاء من الصلب ، يلتقى فى مقدمته بدرع من الحديد ، وفى مؤخرته سلاح يتقى به ويستر به خاصرته ؛ ويتعلق بالسرج شىء كالفأس أو المطرقة أو العصا ، والزمام موثوق بما يشبه السلاسل ، ومقدمة العنان من الصلب المطلى ، وبه خروق يطل منها الجواد بعينيه وأنفه ، وفى وسطه شوكة قصيرة حادة ، تبرز من جبهة الجواد كقرن الثور الوحشى المعروف فى قصص الخيال .

ولكن هذا الفارس وجواده المقدام كانا قد تعودا حمل هذا السلاح الثقيل ،

حتى أضحت هذه العادة لها طبيعة ثانية . نعم إن عددا عديدا من المحاربين من أهل الغرب ، الذين خفّوا إلى فلسطين ، قد هلكوا قبل أن يعتادوا هذا الجو الملتهب ، ولكن هناك قوما آخرين ، بات هذا الجو خفيفا عليهم ، مألوفا لديهم ، ومن بين هذا العدد المجدود كان هذا الخيّال ، الذى كان حينئذ يقطع حدود البحر الميت فريدا ، فإن الطبيعة التى صبت أعضاءه فى قالب من القوة غير مألوف ، وأعدته لأن يرتدى تلك السترة المصنوعة من حلق الحديد دون عناء — وكأن عيونها قد حيكت من نسيج العنكبوت — قد جادت عليه كذلك ببنية قوية كأطرافه ، تتحدى كل تقلبات المناخ ، وتقف دون الكلال وشظف العيش على مختلف الضروب ؛ وكان له طبع يتصف بعض الشىء ببعض صفات هيكله الجثمانى ، فكما أن لجسمه قوة عظيمة وقدرة على الاحتمال ممزوجة بالقدرة على الإجهاد العنيف ، فان فى طبعه — تحت ستار الهدوء والاستقرار — الشىء الكثير من الحرارة والحماسة لحب المجد ، وهما من أبرز صفات أبناء النورمان المعروفين ، التى جعلتهم ملوكاً فى كل زاوية من زوايا أوروبا شهروا فيها سيوفهم الباترة .

ولكن الجدّ لم يجُدْ بمثل هذا الجزاء الوافر[1] على كل أبناء هذا الجنس ، ولم يكن حظ فارسنا هذا الفريد إبّان السنتين اللتين قضاهما غازيا فى فلسطين غير ذكر فى هذه الدنيا ، ومزايا روحية نشأ على الاعتقاد فيها ؛ وكان حظه الضئيل من المال فى ذلك الوقت قد تبدد ، ولكنه — رغم ذلك — لم يعمد إلى الوسائل التى كان يلجأ إليها غيره من أتباع الصليبيين ، الذين كانوا يعوضون ما نقص من أموالهم على حساب أهل فلسطين ، فلم يبتز العطايا من الأهالى البائسين كى يطمئنهم على أملاكهم حينما كانوا يشتبكون مع العرب فى الحروب ، ولم يحاول أن يقتنص الفرصة ويجمع الثروة بفرض الجزية على الأسرى . وكانت تتبعه حاشية ضئيلة من مواطنيه ، أخذت تتناقص شيئا فشيئا كلما قلت الموارد الضرورية للعيش ، ولم يبق له إلا خادم واحد ، كان إذ ذاك طريح الفراش ، لا يستطيع أن يقوم بخدمة سيده ، الذى كان

(١) يقصد مناصب الملكية فى أوروبا .

يسير — كما رأينا — وحيدا فريدا . ولـكن فارسنا الصليبي لم يأبه لذلك كثيراً ، فلقد تعود أن يرى فى مهنده الـكريم خير حارس ، وفى عقيدته فى الله خير رفيق .

ولـكن للطبيعة ضروراتها ، فهى تتطلب الراحة والغذاء لـكل جسم — حتى وإن كان من الحديد — ولـكل طبع — حتى وإن صيغ من الصبر — كما صيغ هذا الفارس ، « فارس النمر الرابض » ؛ فنى الظهيرة ، والبحر الميت لـما يزل بعيداً عن يمينه ، استبشر الفارس بمرأى نخلتين أو ثلاث نمت على حافة بئر أراد أن يتخذه محطا له فى منتصف ذلك النهار ؛ وكذلك جواده الـكريم ، بعد أن كان يسير قدُما بصبر وطيد كصبر صاحبه ، رفع الآن رأسه ، ومد أنفه ، وسارع فى خببه ، كأنه اشتم على بعدٍ ماء الحياة ، حيث الدعة والانتعاش ، ولـكن الله قدر للجواد وراكبه أن يصيبهما بالعناء ، ويحوطهما بالمخاطر ، قبل أن يبلغا ذلك المـكان الرغيب .

وذلك أن فارس النمر الرابض ، الذى لم يفتأ يحدق ، ويمير التفاته إلى جماعة النخل النائية ، بدا له كأن شبحاً يتحرك خلالها ؛ ثم انفصل ذلك الشبح النائى عن تلك الأشجار التى كانت تخفى مسيره بعض الخفاء ، وتقدم نحو الفارس مسارعا ، وتبدّى عن خيّـال على ظهر الجواد ، ولـما اقترب دلت عمامته وحربته الطويلة وقفطانه الأخضر الذى يرفرف مع الريح ، على أنه فارس عربى ؛ ويقول المثل الشرقى : « لا يلاقى الرجل صديقاً فى الصحراء » ، ولم يأبه الصليبى ألبتة إن كان ذلك الـكافر — وقد أقبل على حصان عدّاء ، كأنه ولد على جناح نسر — عدوا أو صديقاً ، بل لعله ، وهو بطل من الأبطال ، الذين أقسموا يمين الولاء للصليب ، ودّ لو أنه كان عدوا ، فاستل رمحه من سرجه وأمسكه بيمينه ولبث به ، وسنانه مرفوع إلى نصفه ؛ وجمع العنان بيساره ، واستحث همة الجواد بمهمازه ، واستعد للقاء هذا الغريب بنفس مطمئنة ، لا يملـكها إلا رجل حداه الظفر فى كثير من المعارك .

وأقبل العربى يعدو ، كما يعدو الفرسان من بنى جنسه ، ما لـكا زمام جواده بأطرافه وبكل جسمه ، غير معتمد على العنان الذى أرسله مرتخيا فى يسراه

بحيث يتسنى له أن يحرك درعه المستدير الرقيق المصنوع من جلد وحيد القرن المحلى بخيوط من الفضة ، الذى كان يحمله على ذراعه ويلوّح به كأنه يريد أن يصد به ، على خفته ، ما قد يصوبه نحوه ذلك الفارس الغربى من طعنات مروعة . أما نصله الطويل فلم يكن مسدّدا ولا مستقراً كنصل عدوه ، وإنما كان يقبض عليه من وسطه بيمينه ، ويهز به فوق رأسه على قيد ذراع ؛ وهرول هذا الفارس العربى نحو عدوه ، ولما دنا منه ، كان يرتقب من فارس النمر أن يهم بجواده للنضال ، ولكن الفارس المسيحى ، وهو جدّ عليم بعادات جنود الشرق ، لم يرض أن ينهك جواده الكريم بعناء لا طائل تحته ، فوقف بغتة ، وهو على يقين أن فى سلاحه وفى عدة جواده القوى ما يكفل له الغلبة — دون أن يسارع فى عدوه — على العدو ، إن تقدم فعلا للنضال ؛ وأحس الفارس العربى باحتمال هذه العاقبة ، وأدركها كما أدركها زميله ، فاقترب من المسيحى حتى لم يكن بينهما إلا قاب قوسين أو أدنى ، واستدار بجواده يساراً بحذق لا يفوقه حذق ، ودار حول عدوه دورتين ، فالتفت الفارس الغربى وهو فى مكانه ، وجابه عدوه نخيب رجاءه ، إذ كان يحاول أن يطعنه من الخلف ، وحينئذ ود العربى لو أنه دار بجواده ورجع القهقرى إلى بعد مائة ذراع ، ثم حاول الهجوم مرة أخرى وأقبل كالبازى على مالك الحزين ، واضطر للمرة الثانية أن يتقهقر دون سجال ؛ ثم اقترب ثالثة مهاجماً كما هاجم فى المرتين السابقتين ، فأمسك الفارس المسيحى توا بمطرقته المعلقة بسرجه ، وأراد أن ينتهى من هذه المراوغة التى قد ينهكه العدو فيها بحركاته ، فصوب المطرقة بيد من حديد ، وهدف لا يحيد ، إلى رأس العدو الذى لم يخله إلا أميراً أو أرفع من أمير ، وأدرك العربى هذه الضربة المروعة التى قُصد بها فرفع درعه الرقيق وحال بين المطرقة وبين رأسه ، ولكن الضربة كانت شديدة الوقع فهوت بالدرع على عمامته ، وقد خففت العمامة من حدة الضربة ، ولكن الرجل سقط عن جواده مغلوباً ، وقبل أن ينتفع المسيحى من هذا الخذلان ، خفّ عدوه وهب من مصرعه وجذب جواده — وقد خف إلى جواره —

وامتطى صهوته دون أن يمس الركاب ، واسترد كل ميزة حاول فارس النمر أن يسلبه إياها ، ولكن الفارس كان بدوره قد تملك من مطرقته ثانية ، فحاول الرجل الشرقى — وقد تذكر قوة عدوه وحذقه فى إصابة هدفه — أن يأخذ لنفسه حذرها ويظل بمنأى عن منال المطرقة التى أحس بوقعها منذ حين ، وأبان عن رغبته فى المقاتلة عن بعدٍ برمى السهام ، فدك نصله الطويل فى الرمال بعيداً عن ساحة الوغى ، وشد بقوة قوساً قصيرة كانت إلى ظهره ، ثم ركض بجواده ودار به دورتين أو ثلاثاً أوسع مدى من دوراته السالفة ، وفى خلالها أطلق النشاب ستا على المسيحى بمهارة لا تخطئ ، ولولا زى متين يقى به المسيحى نفسه ما كان له أن ينجو من جراح ستة من طعن السهام ، ثم أطلق العربى سهماً سابعاً فصادف من لباس العدو مكاناً كان أقل من غيره صلابة ، فسقط المسيحى سقطة شديدة من فوق الجواد ، ولشد ما كانت دهشة العربى حينما نزل يتفرس حال صريعه فألفى نفسه على حين غرة فى قبضة ذلك الأوروبى ، الذى ما لجأ إلى تلك الحيلة إلا لكى يأتى بعدوه تحت مناله ؛ ولكن العربى ، وهو فى هذه القبضة المميتة ، استطاع أن ينجو بخفته وسرعة خاطره ، فخلص نطاق سيفه من قبضة فارس النمر وأفلت من تلك اليد القاضية ، وامتطى جواده الذى كان يرقب حركاته بذكاء كذكاء الإنسان ، ثم انصرف ؛ ولكنه فقد فى هذه المعركة الأخيرة سيفه وجعبة سهامه ، وكلاهما معلق بنطاقه الذى اضطر أن يخلّفه وراءه ، وفقد كذلك عمامته أثناء النضال ، فرغّبت هذه الخسارة هذا الرجل المسلم فى المهادنة ، فقارب المسيحى ومد إليه يمناه مسالما لا متهددا .

وباللغة الفرنجية التى كانت تستخدم عادة للتفاهم مع الصليبيين قال العربى : « إن بين أمتينا هدنة عن القتال ، فلماذا ينشب بينى وبينك النضال ، هلا عقدنا بيننا صلحا ؟ » .

فأجاب فارس النمر الرابض وقال « لقد رضيت ، ولكن كيف تكفل لى رعايتك للهدنة حقها ؟ » .

فأجاب الأمير وقال : « نحن أتباع النبي لا نحنث فى العهود ؛ إنمـا ينبغى لى أنا ، أيها النصرانى الشجاع ، أن أطلب إليك الضمان ، غير أنى أعترف أن الخيانة والشجاعة قلما يجتمعان » .

فأحس الصليبي حينئذ بأن ثقة المسلم فيه قد أخجلته من الشكوك التى ساورته .

وأمسك بمقبض سيفه وقال : « وحق هذا الصليب لأكونن لك رفيقا مخلصا أيها العربي ما كتب علينا أن نبقى متلازمين » .

فأجاب عدوه قائلا : « أقسم بمحمد رسول الله وبرب محمد أن ليس لك فى قلبي خيانة ، فهلم بنا إلى تلك العين ، فوقت الراحة قد وجب ، وما كاد الماء يمس شفتى حتى اضطررت أن أنازلك حينما اقتربت » .

فأجاب فارس النمر الرابض توا بالرضا والقبول ، وسار العدوان جنبا إلى جنب ، قاصدين مكان النخيل ، لا يبدو عليهما غضب ، ولا تلمس فيهما أثرا من شك .

الفصل الثانى

كثيراً ماتتخلل الأزمانَ العصيبة فتراتٌ يسود فيها الأمن وتصفو فيها النفوس ، ولقد كانت الحال كذلك بنوع خاص فى عهود الأقطاع القديمة حينما كان السائد بين الناس أن الحرب يجب أن تكون للبشرية شغلها الشاغل وعملها المجيد ، فكان لفترات الصلح أو الهدنة لذة دونها أى لذة ، يستمتع بها على قلتها المحاربون فى تلك العصور ؛ بل إن الظروف عينها إذ ذاك ، التى كانت تجعل هذه الفترات عرضاً زائلا ، كانت تحببها إلى النفوس ؛ وكان البطل يرى أن من بذل الوقت فى غير طائل أن يكنّ فى قلبه ضغينة لعدوه — وقد التقى به فى القتال يوماً ، وقد يلتقى به فى معركة حامية الوطيس فى صبيحة اليوم التالى — وكان الرجال يعرفون أن فى عهدهم ، وفى ظروفهم ، مجالا تنفجر فيه عواطفهم الملتهبة ، فكانوا يستمتعون بكل ما أوتوا من قوة ، بصحبة بعضهم بعضاً فى الفترات القصيرة التى كانت تتيح لهم أن يتحادثوا آمنين ، على قدر ما تسمح لهم به تلك الأوقات العصيبة ، اللهم إلا إذا احتدم النزاع بين الرجل وعدوه ، أو أثارت نفسيهما ذكرى إحن خاصة لا تتعلق بغيرهما .

وكان يفل من حدة الفروق الدينية ، بل والعصبية الشديدة ، التى كانت تستفز أتباع الصليب وأتباع الهلال على السواء ، شعور سام ، هو من طبيعة أمثال هؤلاء المحاربين ، شعور كانت تلهبه وتقويه روح الفروسية حينذاك ؛ وهذا الدافع القوى أخذ يمتد أثره شيئاً فشيئاً من المسيحيين إلى أعدائهم الألداء من العرب من أهل أسبانيا أو فلسطين ، ولم يعد عرب فلسطين ، كما كانوا من قبل ، أولئك المتوحشين المتهوسين الذين هبوا من وسط صحراء العرب بالقرآن فى اليمين ، والسيف فى اليسار ، يعرضون الإسلام أو القتال ، أو الجزية والرق ، على كل من تحدثه نفسه أن يقف

فى وجه دين محمد نبى مكة [1] ؛ وقد عرضوا ذلك على أهل الشام وأهل اليونان ، وهم قوم غير محاربين ؛ ولـكنهم حينما التحموا بمسيحيى الغرب — الذين كانت قلوبهم تشتعل حماسة للدين ، لا تقل عن حماسة العرب أنفسهم ، والذين يتصفون بالإقدام والشجاعة التى لا تقهر ، والذين إذا طعنوا أصابوا — أخذوا عنهم شيئاً من أخلاقهم ، وحذوا حذوهم خاصة فى تقاليد الفروسية الـكريمة التى كانت متأصلة فى النفوس تأصلا استهوى عقول أولئك القوم الغزاة الشامخين ؛ وهذا فضلا عن أن العرب كان لهم سجالهم ، وكانت لهم ألعابهم فى عرض الفروسية ، بل وكان منهم «الفوارس» أو ما يشبههم فى علو المرتبة ، وكانوا إلى ذلك يراعون حدود دينهم مراعاة يخجل من دقتها أناس كأهل الغرب ، لا يخلّون بالمدنة إذا عقدوها بينهم وبين أمة غير أمتهم ، أو بين بعضهم وبعض ؛ وهكذا كانت الحرب — على أنها ربما كانت فى ذاتها أعظم الشرور — تهيئ الفرصة لإظهار روح الإخلاص ، وكرم الخلق والرأفة ، بل وتبادل الود بين القلوب ، مما لا يتوفر فى فترات الهدوء ، حينما تكمن فى الصدور زمناً إحن الرجال الذين لاقوا المهانة ، أو اشتبكوا فى نزاع لم ينحسم فى حينه وبلغ بهم نـكد الطالع أن وقعوا فريسة لتلك الإحن .

أحس المسيحى والعربى بهذه العواطف الرقيقة التى تخفف من وطأة الحروب ، وانطلقا بعد ما سعى كل منهما جهده كى يقضى على أخيه ، وسارا راكبين بخطى وئيدة نحو العين التى ينبت حولها النخيل ، والتى كان يقصدها فارس النمر الرابض حينما باغته فى مسيره ذلك العدو ، الذى جاءه مسارعاً والشرر يتطاير من عينيه ، واسترسل كلاهما زمناً ، كل فى تأملاته ، يتنفس الصعداء بعد نضال كاد أن يقضى على أحدهما أو كليهما ؛ وكأن جواديهما لم يكونا أقل منهما استمتاعاً بذلك الهدوء الذى ساد بينهما ، أما جواد العربى فلم تبد عليه علامات الأعياء كما بدت على جواد الفارس الأوروبى ، رغم أنه أجهد بالحركة إجهاداً أوسع مدى وأشد عنفاً ،

(١) يدل هذا القول وما بعده على أن المؤلف — كما حدث عن نفسه فى مقدمة الرواية — يجهل العالم العربى كل الجهل .

وتصبب العرق من أضلع جواد الفارس الغربى ، بينما كان جواد العربى الكريم قد جف عرقه أثناء مسيره فى تلك الفترة الهادئة ، ولم يبق منه إلا أثر ضئيل كان يبدو على عنانه وعدته ؛ وكانت الأرض التى وطئها الجوادان لينة ، فازداد جواد المسيحى شقاء على شقاء ، إذ أنه كان يئن تحت عبء عدته الثقيلة وعبء راكبه ؛ فاضطر الفارس أن يقفز من فوقه ويقوده فى تلك الأرض المتربة التى يغطيها الغرين ، والتى أحرقتها الشمس فصيرتها أشد ليناً من أدق الرمال ؛ وهكذا استرد الجواد نشاطه على حساب صاحبه ، لأن الفارس ، لكثرة ما عليه من لبس الحديد ، كان يتعثر فى حذائه الصلب فى كل خطوة ، وهو يمشى فوق تلك الأرض الرقيقة التى لا تحتمل المقاومة .

ومذ انعقدت الهدنة بين العربى والمسيحى لم ينبس أحدهما ببنت شفة حتى قال العربى لصاحبه : « نعم ما فعلت ، فان جوادك القوى يستحق منك العناية ، ولكن ماذا أنت فاعل به فى الصحراء وهو يسيخ بأقدامه فى كل خطوة ، كأنه يريد أن يغرسها فى باطن الأرض كجذور النخيل ؟ »

فأجاب الفارس المسيحى ، وهو غير مطمئن إلى نغمة السخرية التى تحدث بها العربى عن جواده المحبوب ، وقال : « حقا ما قلت أيها العربى ، ولقد أصبت بمقدار ما لديك من علم وملاحظة ، ولكن اعلم أن جوادى هذا قد حملنى قبل اليوم فى بلادى فوق بحيرة لا تقل سعة عن تلك التى خلفناها وراءنا ، ومع ذلك ، فلم تبتل منه شعرة واحدة فوق حوافره » .

فنظر إليه العربى مبديا شيئاً من الدهشة على قدر ما يسمح به تأدبه ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة خفيفة لم تكد تهز شاربه الكثيف العريض الذى كان يغطى شفته العليا ؛ ولكنه سرعان ما استرد نظرة الجد التى لم تفارقه ، ثم قال : « حقاً ما قيل ، إذا أصخت إلى الفرنجى لم تسمع إلا هراء » .

فأجاب الصليبى : « ليس هذا من حسن الذوق فى شىء أيها المنافق ، أفترتاب فى كلمة ينطق بها فارس نال مرتبة الشرف ؟ تالله لولا أنك تصدر عن جهل لا عن

سوء طوية ، لـكانت هذه الآونة آخر ما بيننا من مهادنة ، ولما يمض عليها إلا أمد قصير ؛ أفتظن أننى أكذبك إذ أقول لك إننى أحد خمسمائة فارس مدججين بالسلاح ؛ قطعت بجوادى الفراسخ فوق ماء كالبلور صلابة ، ولـكنه أقل من البلور هشاشة عشر مرات ؟ » .

فأجاب المسلم قائلا : « ماذا تقول ؟ إن ذلك البحر الداخلى الذى تشير إليه له خصيصة عجيبة ، وذلك أن الله قد صب عليه جام غضبه ، فهو لا يحتمل جسما يغيض فى موجه ، إنما يقذفه بعيدا ويرمى به على شطآنه ؛ ومع ذلك فان هذا البحر الميت عينه ، بل والمحيطات السبعة التى تحوط الأرض ، لا تحتمل وقع أقدام الخيل على سطحها أكثر مما احتمل البحر الأحمر مسير فرعون وجنوده » .

فأجاب الفارس المسيحى : « هـذا هو الحق فيما تعلم أيها العربى ؛ ولـكن صدقنى ، إننى لا أحدثك حديث خرافة ؛ فى مناخكم هذا تتحول الأرض بفعل الحرارة إلى شىء كالماء غير مستقر ؛ أما فى بلادنا فالبرودة كثيرا ما تحول الماء إلى جسم كالصخر فى صلابته ؛ ولـكن دعنا من هذا ، فان ذكر البحار فى الشتاء ، بهدوئها وصفائها ونقاء زرقتها ، ليزايد من مفازع هذه الصحراء الحارة ، حيث يخيل لى أن الهواء الذى نستنشقه إن هو إلا بخار يتصاعد من أتون ، ماؤه يغلى كالحميم » .

فالتفت العربى حينئذ إلى صاحبه متنبها ، وكأنه يريد أن يستوضحه ما يعنى من قوله هذا ، الذى ما أخال إلا أنه قد نزل من نفسه منزل السر الغامض أو الخداع ؛ ولـكنه اطمأن أخيرا إلى كلام رفيقه وعرف كيف يتلقاه فقال : « إنك من قوم يحبون الضحك ، تتحدثون بالمستحيل وبما لم يقع فى الحسبان ، مازحين مع بعضكم بعضا أو مع غيركم ؛ أنت أحد فرسان فرنسا الذين يتبارون فى الخيال وأعمال الجن لاهين لاعبين ، ولقد أخطأتُ يا صديقى إذ عارضتك فى حديثك ، فإن الزهو بالباطل أقرب إلى طبيعة نفسك من رواية الحق » .

فأجاب الفارس وقال : « إنى من بلاد غير هذه البلاد ، ومن قوم غير هؤلاء

الذين يزهون — كما تقول — بما لا يستطيعون ، أو بما لا يتقنون إذا استطاعوا ، ولكننى ، أيها العربى الجسور ، فيما قلت لك ، كنت أحذو حذوهم فى المزاح ، وأظننى ما كنت فى عينيك إلا رجلا دعيًّا وأنا أحدثك بحديث لا تستطيع أن تدركه ، حتى حينما كنت أنطق عن صدق وسذاجة ، ولذا فلندعها تذهب » .

وفى تلك الآونة بلغ صاحبانا مكان النخيل ، وبدت العين فوارة يتألق ماؤها الغزير تحت ظليهما .

ويذكر القارئ أننا تحدثنا عن برهة سادت فيها الهدنة وسط القتال ؛ وكذلك كان هذا الموضع الذى بلغاه مكانا جميلا وسط صحراء مجدبة ، عزيزا على النفس كالهدنة ، ولم يكن المكان ليستوقف النظر لو أنه كان فى غير ذلك الموضع ، ولكنه كان هنا محلا فريدا فى فضاء لا يبلغ مداه البصر ، يمد المسافر بالظل الظليل والماء النمير ، وهما من نعم الله ، لا يقدرهما المرء حق قدرهما إن توفرا ، ولكنهما هنا قد أحالا العين وما جاورها جنة صغيرة من جنان الخلد ؛ وقبل أن تبدأ أيام فلسطين المظلمة فى التاريخ ، امتدت يد محسنة كريمة إلى تلك العين فأقامت حولها سياجا ، وفوقها سقيفة ، كى لا تبتلعها الأرض ، أو يغصها التراب ، الذى يثور فى سحب متدافعة تنطلق فى مسيرها ، كلما هبت نسمة من ريح ، فتغطى سطح الصحراء ؛ أما السقيفة فكانت إذ ذاك محطمة ؛ وقد تهشم جانب منها ، ولكنها كانت مع ذلك تظلل العين وتحمى مياهها من وهج الشمس ، حتى إن الماء ليبدو هادئا مطمئنا يسر العين والخاطر ؛ لا يمسه شعاع من شمس ، بينما كان كل ما حوله متألقا وهاجا ، وانسل صاحبانا من تحت السقيفة فقابلا أول ما قابلا إناء من الرمر شائه الوجه ، ولكنه يجذب النظر ، لأنه يدل بهيئته تلك على أن المكان كان فى قديم الزمان محطا ، وأن يد الإنسان قد لعبت هناك ، وأن المرء كان — ولو إلى حد — يرعى لنفسه حقها من الراحة والإيواء ؛ وكان المسافر العربى يلهث من الإعياء والعطش ، فلما رأى تلك الأمارات ، تذكر أن هناك غيره من الناس ممن تعرضوا لمثل ما تعرض له من مشاق فأووا حيث أوى ، ولا شك فى أنهم خلصوا بأنفسهم

آمنين إلى حيث الخصب والنماء ؛ وكان يتسرب من الإناء تيار خفيف من الماء ، يكاد يحتجب عن الرائى ، ويغذى تلك الأشجار القليلة التى كانت تحوط العين ، وإذا ما غاص ذلك التيار تحت الثرى واختفى عن البصر ، دلّ على وجوده بساط من سندس أخضر يسرّ الناظرين .

فى هذا المكان اليانع حط المحاربان رحالهما ، ثم أخذ كل منهما — على نهجه الخاص — يخلص جواده من عبء السرج والعنان وطرف الزمام ، ويهيئ له السبيل إلى الشراب من الإناء ، قبل أن يرتوى من العين التى كانت تتفجر تحت القباء ، ثم خلّيا سبيل جواديهما ، وكأنهما على يقين أنهما لن يبعدا عن هذا الماء الصافى وذلك العشب الأخضر لحاجتهما إليهما ، ولما عهدا فيهما من طباع مستأنسة .

ثم جلس العربى والمسيحى فوق العشب ، وأخرج كل منهما زاده الضئيل الذى كان يحمله ليتبلغ به ، ولكنهما قبل أن يشرعا فى تناول هذا الطعام الزهيد ، تبادلا النظر بطلعة ، أثارها فى نفسيهما ذلك الشجار الذى نشب بينهما من منذ حين ، وملأ قلبيهما شكا وريبة ؛ وكان كل منهما يود لو يستطيع أن يسبر غور غريمه المروع ، ويقدر خلقه ولو إلى حد ، وقد اضطر كل منهما أن يقر بأنه لو سقط مغلوبا فى ذلك النضال لكان ذلك بيد كريمة شريفة .

وكان الفارسان على طرفى نقيض فى شخصيهما وملامحهما ، وكلاهما يصلح مثالا دقيقاً لأمته . كان الفرنجى رجلا قويا كالقوط الأقدمين فى هيئته ، شعره أحمر اللون أدكنه ، بدا لما رفع خوذته عن رأسه مجعداً كثيفاً غزيراً ، وقد لفحت وجهه حرارة الشمس فصيرته أشد سمرة من بعض رقبته التى لم تتعرض للفحة الشمس ، ومما نم عنه عيناه الزرقاوان المنفرجتان ولون شعره وشاربه الذى كان يظلل شفته العليا ، ولم تكن له لحية على مثال النورمان ، أنفه إغريقى جميل الصورة ، وثغره واسع الانفراج يكشف عن أسنان ناصعة البياض ، متينة جميلة الترتيب ، له رأس صغير يرتكز فوق رقبته فى أنفة وعظمة ، لا يزيد عن الثلاثين فى عمره ، ولكنك إذا حسبت للعناء والجد حسابهما ، علمت أنه قد ينقص عن ذلك

ثلاث سنوات أو أربع ، طويل القامة ، قوى البنية كأنه من هواة الرياضة البدنية ، يشبه أن يكون رجلا قد تقدمت به السن فلم يعد له سلطان على قوته ، بعد أن كانت تلك القوة ممزوجة بالخفة والنشاط ؛ خلع القفاز الحديدى فإذا يدان طويلتان بيضاوان فى تناسق جميل ، وإذا عظام معصميه قوية كبيرة ، وذراعاه مفتولتا العضلات جميلتا التكوين ، يتميز فى كلامه وحركاته بعنف حربى واستهتار وصراحة فى التعبير ، فى صوته رنة الآمر لا ذلة الخاضع ، وكأنه تعود أن يعبّر عن عواطفه بصوت مرتفع وبأس شديد كلما اقتضت الضرورة أن يفصح عنها .

أما الأمير العربى فكان على نقيض هذا الصليبى الغربى ؛ قامته فوق متوسط الرجال ، ولكنه كان أقصر من الفارس الأوروبى بما لا يقل عن ثلاث بوصات ، إذ كان هذا الأخير يقرب أن يكون عملاقا ؛ أطرافه دقيقة ، ويداه وذراعاه طويلة رقيقة ، تتسق حجما وجسمه ، وتتناسب وطلعته ، ولكنها لا تدل لأول وهلة على القوة والليونة اللتين أظهرهما الأمير قبل ذلك بقليل ؛ ولكنك إن أمعنت فى النظر ، رأيت ما بدا من أطرافه خفيفا لا يكسوه لحم ، وكأنه لم يبق منه إلا عظام وعضل مفتول وعروق ؛ رجل كأن الله قد أعده بهيئته هذه للعناء والإجهاد ، ليس ألبتة بالفارس البدين تتعادل قوته وحجمه مع وزنه وقد أنهكه الإعياء ؛ وكان هذا العربى بطبيعة الحال يشبه فى طلعته إجمالا قبائل الشرق التى هو من أبنائها ، وما كان أبعده عن تلك المبالغات التى كان يرددها المغنون فى ذلك العهد فى وصف فرسان العرب ؛ وعن تلك الصورة الخيالية التى ما زال الفن الشقيق[1] يعرضها على اللوحات على أنها تمثل رأس العربى ، كان دقيق الملامح ، جميل التكوين ، رقيقا ، تعلوه سمرة شديدة من أثر شمس الشرق المحرقة ، له لحية مرسلة سوداء متموجة الشعر ، عنى بتشذيب أطرافها ، وأنف مستو مستقيم ، وعينان حادتان ، سوداوان براقتان ؛ وأسنانه تنافس فى جمالها وبياضها عاج الصحراء ؛ وقصارى الوصف ، كان العربى وهو يتمطى بجسمه فوق العشب ، إذا قيس بمنازله القوى البنية ،

---

(١) يقصد فن التصوير .

كمهنده البراق ذى الشكل الهلالى والحد الضيق الرقيق ، اللامع الدمشقى الباتر ، إذا قورن بالسيف الطويل القوطى الثقيل ، الذى خلعه صاحبه وألقاه فوق الأديم . وكان الأمير فى زهرة العمر ، ولولا ضيق جبهته ، ورقة ملامحه وحدتها — أو لعلها كانت كذلك من حيث تقدير الأوروبيين للجمال — لعد آية فى الجمال .

كان المحارب الشرقى فى معاملته جاداً متعاليا شديد المراعاة للتقاليد ، يدل بسلوكه من بعض النواحى على ما فطر عليه أولئك القوم — الذين عرفوا بحدة المزاج وحرارته — من حرص يستمسكون به كى يقوا أنفسهم مما جبلوا عليه من حدة الطبع ، كما يدل على إحساسه بكرامة كانت تضطر صاحبها إلى أن يرتبط فى مسلكه ببعض القيود .

هذا الشعور السامى بعلو النفس كان يحس به كذلك زميله الأوروبى ، ولكنه كان يختلف عنه فى مسلكه ، فبينما كان هذا الإحساس يملى على الفارس المسيحى الجرأة والاقدام ، بل وعدم الاكتراث ، وكأنه لفرط إحساسه بعلو مكانته لا يأبه برأى غير رأيه ، كان يرسم للعربى نوعا من المجاملة يجعله شديد المراعاة لآداب المعاشرة ؛ نعم لقد كان كل منهما يجامل الآخر ، ولكن مجاملة المسيحى كانت تصدر عن روح التفكه الظريف بما يجب عليه نحو غيره ، بينما كان المسلم فى مجاملته يصدر عن إحساس قوى بما كان غيره يرتقب منه .

وتبلغ الرجلان بطعام خفيف ؛ ولكن طعام العربى كان جد زهيد ، فحفنة من تمر ، ولقمة من خبز الشعير الخشن كانت تكفى لأن تسد رمق جوعه ، إذ أنه نشأ على تقشف الصحراء ، وذلك رغم أن بساطة العيش العربى كثيرا ما غلب عليها ، مذ فتح سوريا ، البذخ الوافر الذى ليس له حد ؛ ثم اختتم وجبته بقطرات قليلة من ماء العين الجميلة التى أوى وصاحبه إليها . أما طعام المسيحى فكان شهيا رغم خشونته ، وكان أهم ما يتألف منه لحم الخنزير المقدد ، الذى يحرمه المسلمون على أنفسهم ؛ ثم أخرج قنينة من الجلد وصب منها شرابا خيرا من الماء الصافى ،

وهكذا أخذ يتناول طعامه بنفس مقبلة ، ويستقى وعليه أمارات الرضا ، ولا كذلك العربى الذى كان يرى أن ليس من اللياقة أن يتظاهر المرء وهو يقضى حاجة من حاجات الجسم الدنيئة ؛ ولا ريب أن كلا منهما كان فى دخيلة نفسه يهزأ من زميله كيف يتبع دينا باطلا ؛ وزاد من هذا الشعور ذلك الفارق الكبير بين مسلكيهما وطعاميهما ؛ ولكن اثنيهما قد أحسا كل بثقل ذراع صاحبه ، فكان من أثر ذلك النضال العنيف الذى نشب بينهما أن يتبادلا التقدير وأخفيا كل اعتبار دونه ، ولكن العربى مع ذلك لم يسعه إلا أن يشير بكلمة إلى ما لم يرقه من خلق المسيحى ومسلكه ، وبعد أن تطلع مدة — دون أن ينبس ببنت شفة — إلى شهية الفارس القوية التى مدت من وجبته طويلا بعد أن فرغ هو من طعامه ، وجه إليه الخطاب وقال :

« أيها النصرانى الجسور ! هل يليق بالمرء يقاتل كالرجال أن يكون حين تناول الطعام كالكلاب أو الذئاب ؟ والله إنى لأظن أنه حتى اليهودى الكافر ليقشعر بدنه إذا رآك وأنت تأكل بشهية كأنك تتناول من ثمر أشجار الجنة » .

فالتفت المسيحى متعجبا من تلك التهمة التى ألقيت عليه دون أن يترقبها ، ثم قال : « أيها العربى الجسور ! اعلم أنى إنما أستمتع بالحرية المسيحية ، وأن لى أن آتى ما لم يستطعه اليهود الذين يرزحون تحت نير ملة موسى البالية ، ولتعلم أيها العربى أننا نخضع لشريعة سامية ؛ حياك الله يا مريم ! إنا لله شاكرون ! » واختتم حديثه بعبارة لاتينية قصيرة ، ثم احتسى جرعة كبيرة من القنينة الجلدية كأنه يتحدى ما يساور زميله من وسواس .

فقال العربى : « أفهذا أيضا فى اعتبارك جزء من حريتك ؟ إنك إذ تطعم كالوحوش الضوارى ، وإذ تحتسى هذا الشراب السام ، الذى تأباه البهائم ، إنما تهبط بنفسك إلى حضيض الحيوان » .

فأجاب المسيحى دون تردد : «اعلم أيها العربى الغافل أنك إنما تلعن ما أسبغ الله علينا من نعم . إن عصير العنب حلال لمن كان حكيما فى تناوله ، فهو ينعش القلب

بعد عناء العمل ، ويرطب فؤاد المرء فى مرضه ، ويخفف عنه وطأة الحزن . من يستمتع بالخمر يحمد ربه على الكأس كما يحمده على قوت يومه ، ومن يُدمن فى الشراب فليس فى إدمانه بأقل منك غفلة فى تحريمك الخمر » .

وأدرك العربى هذه السخرية فتطاير الشرر من عينيه ، وامتدت يده إلى مقبض خنجره ، ولكنه لم يكن إلا خاطرا طارئا ، لم يلبث أن هدأ ثائره لما ذكر قوة منازله حينما بطش به ، واستوثق منه فى قبضته ، ولم يبق له من أمل فى الحياة ، تلك القبضة التى لم يزل أثرها ينبض فى أطرافه وعروقه ، فاكتفى العربى — إذ استعاد ذلك إلى ذاكرته — بأن يواصل النزاع شفاها ، فإن ذلك آمن له فى ذلك الحين .

فقال : « والله أيها النصرانى إن كلماتك هذه لتبعث الغضب ، لولا أنك بجهالتك تستثير الرحمة ؛ أفلا ترى — وكيف ترى وأنت أشد عمًى من أولئك الذين يقفون بأبواب المساجد يسألون الصدقات — أن هذه الحرية التى تفخر بها لم تمتد إلى بيتك وإلى أنفس ما فى سعادة الإنسان ، فإن شريعتكم — إذا اتبعتموها — فرضت على الرجل منكم أن لا ينكح غير زوجة واحدة ، يرتبط بها فى صحتها وفى مرضها ، ولوداً كانت أو عاقرا ، وسواء فاضت على مأكله ومبيته بالدعة والسرور أو بالمنازعة والشحناء ؛ تالله إن هـذا أيها النصرانى إلا الرق عينه ، انظر إلى دين المسلمين ! لقد جاء النبى للمؤمنين فى الأرض بملة أبينا إبراهيم القديمة وملة سليمان أحكم بنى الإنسان فأحل لنا فى الدنيا تعدد النساء الجميلات كيفما شئنا ، ووعدنا فى الآخرة بالحور العين » .

فأجاب المسيحى وقال : « والذى أقدس فى السماء فوق كل شىء ، وبالتى أعبد فى الأرض أكثر من كل شىء ، إن أنت إلا كافر عميت بصيرته وضل هداه — انظر إلى جوهرة هذا الخاتم الذى تلبس فى إصبعك ؛ ألا تظن أن قيمتها تفوق كل تقدير ؟ » .

فأجاب العربى : « أجل ، وليس فى البصرة أو بغداد ما يشبهها ، ولكن ما شأن هذه الجوهرة وما نحن فيه ؟ » .

فأجاب الفرنجى : « شأنها كبير ، وستشهد بذلك أنت نفسك الآن . خذ فأسى هذه وهشم هـذا الحجر الكريم إلى عشرين شظية ، ثم خبرنى إن كنت تظن أن لكل شظية وحدها ما كان للجوهرة بأسرها من قيمة ، أو أن الشظايا كلها مجتمعة لهـا عشر ما كان لها من ثمن ؟ » .

فقال العربى : « هذا سؤال صبيانى . إن جزئيات هذا الحجر لن تعادل عشر معشار الجوهر سليما » .

فأجاب الفارس المسيحى : « كذلك ، أيها العربى ، الحب الذى يحمله الفارس الحق لامرأة واحدة جميلة مخلصة ، هو كهذه اللؤلؤة سليمة ، أما الحب الذى توزعه بين أزواجك اللائى تستعبدهن ، وإمائك اللائى تنظر إليهن كأنصاف أزواج ، فما هو إلا بمثابة تلك الشظايا المتفرقة من هذا الجوهر الحر » .

فقال الأمير : « ورب الكعبة المقدسة إنك لمجنون ، لا تفرق بين الذهب والحديد ، أمعن فى النظر تجد أن هذه الجوهرة الكبرى وسط تلك اللآلئ الزرية هى التى تكسب الخاتم جلاله وتعطيه قيمته ، ولولاها لمـا كان له نصف جماله ؛ هذا الجوهر الأوسط هو الرجل فى عزمه وكماله ، لا يستمد قيمته إلا من نفسه ، وأما هذه الحلقة من الجواهر الدنيا فهى النساء تستمد بريقها من بريقه ، يرسله عليهن كما يشاء ويهوى ؛ انزع الحجر الأوسط من الخاتم يبق له قدره ويهبط ما دونه من اللآلئ فى قيمته ؛ وإنمـا هكذا يجب أن تفهم التشبيه الذى أتيت به . ولقد قال المنصور الشاعر ما معناه : « إنمـا جمال المرأة ورقتها من فضل الرجل ، فلولا ضياء الشمس ما تألق فى البحار ماء » .

فأجاب الصليبى قائلا : « أيها العربى ، إنك إنمـا تتكلم كرجل لم يقع بصره يوما على امرأة جديرة بحب أبناء الحروب ، صدقنى أنك لو شهدت بنات أوروبا — اللائى لهن علينا بعد الله حق الإخلاص والولاء — لمـا بقى فى قلبك ذرة من حب

لهاتيك الشهويات المسكينات اللائى يتألف منهن « حريمك » . إن جمال نسائنا يدبب حرابنا ويحد سيوفنا ؛ كلتهن لنا شريعة ؛ وكما أن المصباح لا ينير إذا انطفأ لهيبه ، فكذلك الفارس إذا برز فى القتال ولم تكن له فتاة يوليها حبه » .

قال الأمير : « لقد نما إلىّ هذا الخبل الذى يعتور فرسان الغرب ، وكنت دائما أعده عرضا من أعراض ذلك الجنون الذى يدفعكم إلى هذه البلاد كى تستولوا على قبر أجوف ، ولكنى — مع ذلك — من فرط ما سمعت من الفرنجة الذين التقيت بهم من الثناء يكيلونه كيلا على نسائهم ، أود لو رأيت بعينى رأسى أولئك الساحرات الفاتنات اللائى يجعلن من هؤلاء المحاربين أدوات لما يردن ، كى تطمئن نفسى ويرضى فؤادى » .

فأجاب الفارس : « أيها العربى الجسور ، والله لولا أنى أقصد الحج إلى القبر المقدس لكان فخرا لى أن أقودك آمنا إلى مخيم رتشارد ملك انجلترا ، الذى يعرف أكثر من كل من عداه كيف يعامل بالحسنى عدوا كريما ؛ وإنك قد ترانى مسكينا لا تكلأنى عين برعاية ، ولكنى مع ذلك قمين بأن أكفل لك ، ولأمثالك ، كل أمن وتقدير وإجلال . هنالك ترى كثيرا من آيات الجمال الفرنسى والإنجليزى مجتمعات فى حلقة صغيرة ، يشع منها نور يفوق فى بريقه ولمعانه المناجم المترعة بمثل تلك اللآلئ التى تملك عشرة آلاف مرة » .

فقال العربى : « وركن الكعبة ، لو أنك بقيت على عهدك لألبّين دعوتك طائعا ، كما وهبتنيها طائعا ، وصدقنى ، أيها النصرانى الجسور ، لقد كان خيرا لك أن تيمم جوادك شطر مخيم قومك ، فإن مسيرك إلى بيت المقدس بغير جواز إن هو إلا تعريض بحياتك لا مبرر له » .

فأخرج الفارس ورقة ثم قال : « ها هو ذا جوازى عليه توقيع من صلاح الدين بيده وخاتمه » .

فعرف العربى خاتم سلطان مصر وسوريا وخط يده ، ذلك الحاكم الذى طبق صيته الآفاق ، فانحنى برأسه نحو الأرض ، ثم لثم الورقة بكل تبجيل ، ومس بها

جبينه ، ثم ردها إلى المسيحى قائلا : « أيها الفرنجى ، لقد اندفعت فى تصرفك وأسأت إلى دمى ودمك ، إذ لم تطلعنى على هذه الورقة حينما التقينا » .

فقال الفارس : « لقد آتيتنى رافعا سنانك ، ولو أن ثلة من جنود الأعراب هاجمتنى لكان من شرف النفس أن أظهر جواز السلطان ، أما وأنت رجل واحد فقد أبت كرامتى ذلك » .

فأجاب العربى بكبرياء وعظمة وقال : « ولكن رجلا واحدا قد استطاع أن يعترض سبيلك » .

فأجاب المسيحى : « صدقت أيها المسلم الجرىء ، ولكن كم من الناس كمثلك؟ إن البزاة لاتطير فى الأسراب ، وإذا أقبلت سربا لن تنقض جماعة على واحد مفرد » .

ولا ريب أن العربى قد سُرّ من هذا الثناء ، بعد أن كان قد انجرح فى عزته حينما كان الأوروبى يفخر بنفسه ويحقّر من شأن صاحبه تلميحا ، ثم قال : « هذا صواب وعدل ، وما كان لى أن أسىء إليك ؛ إننى كنت مجدودا حقا إذ لم أصبك بضربتى وشخصك فى حمى ملك الملوك ، ولو أننى جندلتك لحقّت علىّ النقمة جزاء هذا الجرم ، ولأصابنى حد السيف » .

فقال الفارس : « يسرنى أن أسمع أن الأمر قد انتهى بما ينفعنى ، فلقد بلغنى أن الطريق موبوءة بالكثير من قطّاعها الذين لايترددون فى السلب إذا تهيأت لهم فرصته » .

قال العربى : « لقد صدقتك فيما خبرتك به ، أيها المسيحى الجسور ، ولكنى أقسم لك بالنبى الكريم أنك لو سقطت فى أيدى هؤلاء الأشرار لأخذتُ على نفسى الانتقام لك بخمسة آلاف جواد ، ولقتلتهم جميعا وأرسلت نساءهم أسيرات إلى مكان ناء ، ولن تسمع لتلك القبيلة بعد ذلك اسما يذكر فى حدود خمسمائة فرسخ حول دمشق ، ولنشرتُ الموت فى جذور بلادهم فلن ترى فيها كائنا حيا من بعد » .

فأجاب الفارس قائلا : « أيها الأمير النبيل ، ليت هذه المشقة التى تأخذها

على نفسك كانت فى سبيل الانتقام لشخص آخر أعلى منى مكانة ، إنما أنا أمرى بيد الله ، إن أراد بى خيرا فخير ، وإن أراد بى شرا فشر ، وإننى لمدين لك حقا لهدايتك إياى الطريق إلى مكان أستريح فيه هذا المساء » .

فقال العربى : « ستجد راحتك فى خباء أبى تحت قبائه الأسود » .

فأجاب المسيحى : « إنما ينبغى لى أن أقضى هذا المساء مصليا مستغفرا مع رجل قديس اسمه تيودوريك « بعين جدة » يسكن هذا القفر ويقضى العمر فى عبادة الله » .

فقال العربى : « لا أقل من أن أبلغك هذا المكان آمنا » .

فأجاب المسيحى : « نعم الحارس ، ولكن ألا تدرى أنه قد يكون فى ذلك خطر على ذلك الأب الطيب فى مستقبل سلامته ، فكم من مرة امتدت فيها أيدى قومك القساة إلى أتباع السيد المسيح ، وتلطخت بدمائهم ، ولذا فنحن لا نقصد هذه البلاد إلا مسلحين بالسيوف والحراب كى نفتح الطريق إلى القبر المقدس ، ونحمى القديسين الأخيار والرهبان الذين يقطنون هذه الأرض ، أرض الأمل والمعجزات » .

فأجاب المسلم وقال : « أيها النصرانى ! ألا تعلم أن الروم وأهل الشام كثيرا ما حنثوا فى عهودهم لنا ، ونحن إنما نتبع أبا بكر الصديق خليفة النبى ، وأول خليفة للمسلمين من بعده ، إذ قال لذلك القائد الذائع الصيت حينما بعث به كى يستخلص سوريا من أيدى الكفار [١] : اذهب ورجالك يا يزيد بن سفيان ، وحاربوا كما تحارب الرجال فى ساحة الوغى ، ولكن حذار أن تقتلوا الشيوخ والمرضى والنساء والأطفال ، ولا تخربوا البلاد ، ولا تدمروا أشجار الفاكهة والقمح فهى من نعم الله ، وإذا عاهدتم فلتفوا بالعهود — حتى وإن كانت فى مضرتكم — وإذا صادفتم رجالا قديسين يعملون بأيديهم ويعبدون الله فى الصحراء ، فلا تمسوهم بأذى ولا تهدموا مساكنهم ؛ أما إن ألفيتموهم برؤوس حليقة ، فاعلموا أنهم من أتباع الشيطان واضربوهم بسيوفكم ، واقتلوهم ولا تأخذكم بهم رأفة حتى يؤمنوا

(١) يلاحظ أن « سكت » لا يتحرى الدقة التاريخية — كما يشير فى المقدمة — ولذا فإن هذه العبارة المنسوبة إلى أبى بكر رضى الله عنه قد لا يكون لها أصل عربى .

أو يدفعوا الجزية . هكذا أمرنا الخليفة رفيق النبي ، فأطعنا ، فعدلنا ، ولم نضرب إلا جنود الشيطان ، أما أولئك الرجال الأخيار أتباع عيسى بن مريم ، الذين لا يثيرون أمة على أمة وإنما يعبدون الله مخلصين له الدين ، فقد كنا لهم ظلا وحمى . ولما كان صاحبك الذى تقصد رجلا من هؤلاء ، فإنى لا أحمل له إلا المحبة والخير والتقدير وإن يكن نور النبي لم يبلغه » .

فقال الحاج المحارب : « لقد سمعت أن الراهب الذي أقصد ليس قسا ، ولكنه إن كان أحد أولئك الرجال المقدسين المباركين ، فتالله لأصدن عنه برمحى هذا كل معتد أثيم من الكفرة أبناء المسلمين ... » .

فاعترض العربى كلامه وقال : « أخى ! خير لى ولك أن لا تتحدانى ولا أتحداك ، فإن كلينا يستطيع أن يجد من بنى قومه من يكفيه للضرب بسيفه وسنانه . إن تيودوريك — الذى حدثتنى عنه — فى حمى الترك والعرب ، وله بين الحين والآخر أطوار عجيبة ، ولكنه على الجملة — كتابع من أتباع المسيح — يسلك سلوك الرجل الطيب ، ويستحق الحماية ممن بعث الله ... » .

وهنا قاطعه المسيحى متعجبا وقال : « قسما بمريم لو أنك لفظت فى نَفَس واحد اسم ذلك الحادى المكىّ مع ... »[1] .

وحينئذ تمشت فى حنايا الأمير رعدة من الغضب كتيار الكهرباء ، لم تلبث لحظة حتى انقشعت ، وأجاب فى هدوء يخالجه الوقار والحكمة « لا تذكر بسوء من لا تعرف ، إنما نحن نقدس نبيكم ، ولكننا ننكر العقائد التى ينسجها قساوستكم حول الدين الذى أتاكم به . سأدلك بنفسى إلى الكهف الذى ينزل به الناسك ، واعلم أنه لولا معونتى لشق عليك أن تبلغه ؛ وإذا ما ضربنا فى طريقنا فلنخلّ للشيوخ والرهبان الجدل فى الدين ، ولنتحدث فى أمور تليق بأبطال أحداث . لنتحدث بمواقع القتال وفتنة الحسان ، ولنتحدث بظباة السيف وبريق السلاح » .

---

(١) هكذا يشير الفارس المسيحى إلى النبي صلى الله عليه وسلم مما يدل على شدة تعصب الصليبيين وجهلهم بشؤون العرب فى ذلك الحين .

الفصل الثالث

استراح المحاربان قليلا ، وتناولا طعاما خفيفا انتعشا بعده ، ثم هبا من مكانيهما وأخذ كل منهما يمد يد المساعدة إلى أخيه — وهما يجهزان جواديهما بعدتيهما ويحكمان الجهاز ، بعد أن تخلص الجوادان الأمينان من هذا العبء مدة من الزمن — وكان كلا الرجلين خبيرا بهذا العمل الذى كان فى ذلك العهد واجبا لا مندوحة عنه ولا غناء ؛ وكان الجوادان — وهما رفيقان ملازمان لصاحبيهما فى القتال والترحال — يوليانهما ثقتهما ومحبتهما على قدر ما بين الحيوان والإنسان العاقل من فرق فى إظهار مثل هذا الشعور . أما العربى فقد شب على هذه المودة وذلك الإلف ، ففى خيام القبائل الشرقيـة المحاربة كان حصان الجندى يلى فى أهميته زوجه وأهله ؛ أما الفارس الأوروبى ، فإن الظروف والحاجة قد رفعت جواده إلى مكانة لا تقل عن مكانة زميله فى الحرب ؛ ولذا فلم يشـق على الجوادين كثيرا أن يبتعدا عن الطعام ، ويحرما الحرية ، بل لقد اقتربا من صاحبيهما وأخذا يصهلان جذلا ، بينما كان الرجلان يعـدان عدتيهما لاستئناف الرحيل ومواصلة العمل ، وكلاهما يعدّ نفسه ، أو يعاون زميله فى رفق ، وهو يتطلع إلى عدة رفيقه فى السفر ويلحظ طريقته فى تهيئة معدات الركوب .

وقبل أن يمتطيا جواديهما لمواصلة الرحيل ، بلّـل الفارس المسيحى شفتيه ، وأغرق يديه فى ماء العين ، ثم قال للرجل الوثنى[1] زميله فى السـفر : « وددت لو عرفتُ اسم هذه العين ذات المـاء النمير ، حتى أحفظ لها جميل الذكر ، فوالله ما ارتويت حياتى بمـاء أشد عذوبة من مائها الذى أطفأت به نار العطش الذى أحسست به اليوم » .

---

(١) هكذا يشير « سكت » إلى الرجل العربى ، ولا غرابة فى ذلك فقـد كان يجهل الإسلام والمسلمين .

فأجاب العربى : « اسمها درّة الصحراء » .

فقال المسيحى : « نِعْمَ الاسم . إن بالوادى الذى أتيت منه ألف عين ، ولكننى لن أحمل بعد هذا لأيها مثل هذه الذكرى العزيزة التى أحملها لهذه العين النائية ، التى تمد النفس بكنوزها السائلة ، فتسر القلب وتسد لبانة من لباناته التى ليس له عنها غنى » .

فقال العربى : « حقا ما قلت ، ولعنة الله على ذلك البحر الميت ، الذى لا يستقى منه — ولا من النهر الذى لا يفتأ يصب فيه ولا يملأ جوفه — إنسان أو حيوان حتى يخرج من هذه الصحراء الجافة » .

ركب صاحبانا واستأنفا المسير يقطعان أرضا رملية خلاء ، وقد تبدد وهج الظهيرة ، وأخذ يهب نسيم عليل ، يهوّن عليهما مشقة الصحراء ، ولكنه يحمل على جناحيه ترابا دقيقا لم يكن يأبه له العربى ، بينما كان رفيقه المثقل بالسلاح يضجر منه ، فخلع خوذته وعلّقها بجانب سرجه ، واستبدل بها تقيّة ركوبٍ خفيفة ، تشبه فى شكلها الهاون ، ثم سارا معا برهة من الزمن صامتين لا يتحدثان ، والعربى يقوم بوظيفة المرشد أو القائد فى السفر ، مستعينا بمشاهدة دقيق العلائم ومواضع الصخور النائية التى كانا يسيران رويدا نحو حافتها ، وظلّ كذلك فترة قصيرة ، وكأنه لا يفكر إلا فى هذا العمل ، كربّان السفينة وهو يعبر قناة عسيرة ؛ ولكنه ولما يقطعا نصف فرسخ — استوثق من طريقه ، وأظهر الرغبة فى فتح باب الحديث بصراحة غير معهودة بين بنى قومه .

فقال : « لقد سألتنى اسم عين ساكنة لها هيئة الكائن الحى ولكنها ليست بالكائن الحى ، فهل لى أن أسأل عن اسم الزميل الذى صادفته اليوم ورافقته فى الضراء والسراء ، وما أخال إلا أن هذا الاسم ذائع الصيت حتى هنا فى صحراوات فلسطين » .

فقال المسيحى : « كلا ، إن هذا الاسم لم يحق له الذيوع بعد ، ولكن اعلم أن جنود الصليب يسموننى « كَنَثْ صاحب النمر الرابض » ، ولى فى بلادى

ألقاب أخرى لا تستسيغ مسمعها أذن شرقية ؛ أيها العربى المقدام ! من أى قبائل العرب أنت وما اسمك ؟ »

فأجاب المسلم وقال : « يسرّنى أن اسمك هين على شفتى أن تنطقا به ياسير كنث ؛ أما أنا فلست بعربى ، وإنما أنا أنتمى إلى جماعة لا تقل عن العرب إقداما ولا حبا فى القتال ؛ اعلم يا فارس النمر أننى شيركوه ، أسد الجبل ، وأن ليس بكردستان التى أنتسب إليها أسرة أشرف من أسرة سلجوق » .

فأجاب المسيحى : « لقد نما إلىّ أن سلطانكم العظيم يمت إلى هذه الأسرة بصلة الرحم ، فهل هذا صحيح ؟ »

قال المسلم : « حمدا لرسول الله الذى شرف جبالنا بأن بعث من بطنها رجلا ، الظفرُ معقود بمنطقته . ما أنا إلا كالدودة الحقيرة أمام ملك مصر والشام ، ومع ذلك ، فإن لاسمى فى بلادى بعض المكانة — أيها الرجل الغريب ، خبرنى مع كم من الرجال أتيت إلى هذه الحرب ؟ »

قال السر كنث : « أقسم لك إننى — بكل ماقدم إلىّ أهلى وصحبى من معونة — لم أستطع أن أجمع عشرة من الرجال المدربين على حمل الحراب ، ونحوا من خمسين رجلا آخرين — ومنهم النبالون والخدم — إلا بعد جهد جهيد ؛ ومن هؤلاء من لم يرقه أن ينضم إلى لوائى التعس ، ومنهم من سقط فى القتال ، وكثير أهلكهم المرض — ومن بينهم رجل من حملة السلاح أثق فيه ، وهو الآن عليل طريح الفراش ، ومن أجله أتيت حاجا إلى هنا » .

فقال شيركوه : « أيها المسيحى ، إن فى جعبتى خمسة سهام ، كلها مريشة بأجنحة النسور ، لو بعثتُ منها بواحدة إلى خيامى جاءنى ألف مقاتل على ظهور الخيل ، ولو بعثت بالأخرى هبت طائفة أخرى تعدل الأولى عدّا ، فلو أنى أرسلتها جميعا لأصبح تحت إمرتى خمسة آلاف رجل ، وإذا أرسلت قوسى دب فى جوف الصحراء عشرة آلاف راكب ؛ وأنت على رأس خمسين من أتباعك أتيت تغزو بلاداً ، أنا من أقل أبنائها شأنا ! » .

فرد عليه الفارس الغربى وقال : « وحق الصليب ، أيها العربى ، لتعلمن — قبل أن تفخر بنفسك — أنا نستطيع بقفاز واحد من الحديد أن نقضى على حفنة من هذه الحشرات التى ذكرت » .

فقال العربى : « ولكن هذه اليد الحديدية ينبغى لها أن تمتلك هذه الحشرات فى قبضتها قبل القضاء عليها » وارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة كادت أن تودى بالحلف الذى عقداه بينهما حديثا ، لولا أنه حول مجرى الحديث وأردف قائلا : « وهل للشجاعة عند الأمراء المسيحيين مكانة عالية ، فتتعهد — كما وعدتنى — وأنت لا سلاح لديك ولا رجال ، بحمايتى وسلامتى فى مخيم زملائك ؟ » .

فأجاب المسيحى : « أما وقد سألتنى هذا ، فاعلم أيها العربى ، أن اسم الفارس ودم الرجل الكريم يخولان له أن يرفع نفسه إلى منزلة كبار الملوك فى كل أمر ، عدا ما يتمتعون به من سلطان ونفوذ ؛ ولو جرح رتشارد ملك انجلترا نفسه عزة فارس مسكين كمثلى ، ما كان له — وفقا لقانون الفروسية — أن ينكر عليه حقه فى النزال » .

فقال الأمير : « والله إنى لأحب أن أشهد مثل هذا المنظر العجيب ، حيث يستطيع الرجل الفقير بنطاق من الجلد ، ومهمازين ، أن يرتفع إلى مستوى أقوى الأقوياء » .

فأجاب المسيحى : « أضف إلى ذلك دما حرا ، وقلبا لا يرتاع ، يصدق قولك عن كرامة الفروسية » .

ثم سأله العربى : «وهل تخالطون نساء سادتكم وقادتكم بهذه الجرأة عينها ؟» .

فأجاب فارس النمر : « إن أشد فرسان العالم المسيحى فقرا فى كل عمل نبيل يقوم به ، ولكنه يقف يده وسيفه وذكر أعماله وإخلاص قلبه الذى لا يحيد لأجمل من حلين جبينهن بتاج من أميرات » .

فقال العربى : « ألم تقل لى منذ حين إن الحب هو أعز ما يملك القلب ؟ فما أشك فى أنك قد وهبت قلبك لامرأة كريمة نبيلة » .

فأجاب المسيحى وقد علت وجنتيه حمرة الخجل : « أيها الغريب ، اعلم أننا لا نندفع فى الكلام فنتحدث عن موضع حبنا الذى وهبناه أنفس ما نملك ، ويكفيك أن تعرف أن حبى — كما قلتَ — قد خصصت به امرأة نبيلة كريمة ، بل وغاية فى النبل والكرم ؛ وإن كنت لم تسمع بالحب وتكسير النصال فى سبيله فخاطر بنفسك — على حد قولك — واذهب إلى معسكر الصليبيين ، وهناك تسمع بأذنيك ما يرضيك ، وتجد ليديك — إن أردت — مرانا » .

وهنا هب المقاتل الشرقى عن ركابه وهز رمحه إلى أعلى ، ثم أجاب قائلا : « إننى أخشى أن لا أجد من أبناء الصليب من يبادلنى النزال بالجريد » .

فأجاب الفارس : « إننى لا أعدك بذلك ، رغم أن بالمعسكر بعضا من الأسبان ذوى المهارة الفائقة فى هذا الفن الشرقى ، فن الضرب بالحراب » .

فانفجر العربى قائلا : « هيه يا كلاب ويا أبناء الكلاب ! ما لهؤلاء الأسبان يأتون إلى هنا لمنازلة المؤمنين المخلصين ، وهم فى بلادهم السادة وأصحاب الرأى ؟ إننى لن أنزل معهم فى لهو الفرسان » .

فقال فارس النمر : « حذار أن يسمعك فرسان « ليدن » أو « أستورياس » وأنت تتحدث عنهم كذلك » ؛ ثم ابتسم إذ تذكر ما كان بينه وبين العربى من قتال صبيحة ذلك اليوم ، وأردف قائلا : « لو أنك قبلت أن تستبدل القصب بالفؤوس لألفيتَ من المقاتلين أبناء الغرب من يكفيك لسد هذه اللجاجة فى نفسك » .

فقال العربى وهو يتمائل للضحك : « ولحية أبى ، ياسيدى كنث ، إن هذا الضرب من اللعب لأشد عنفاً من أن يكون للهو المجرد — إننى لن أفر منهم فى ميدان القتال ، ولكن عقلى (وهنا وضع يده على جبينه) لايسمح لى أن أقصدهم للهو حتى حين » .

فرد عليه المقاتل الغربى وقال : « وددت لو أنك رأيت فأس الملك رتشارد ، تلك الفأس التى لو قيست بها فأسى المعلقة بسرجى لم تزد هذه الأخيرة عن وزن الريشة » .

فقال العربى : « إننا سمعنا الشىء الـكثير عن هذا الملك الذى يحكم فى جزيرة؛ خبّرنى هل أنت من رعيته ؟ » .

فأجاب الفارس وقال : « أنا من أتباعه فى هذه الحملة ، ويالهـا من خدمة شريفة ؛ ولـكننى لست من رعايا الملك مولداً ، وإن كنت من أهل الجزيرة التى يسود فيها » .

فقال الجندى الشرقى : « ماذا تعنى ؟ أفيتسوّد عليـكم ملـكان فى جزيرة واحدة فقيرة ؟ » .

فأجاب السر كنث ، وهو اسكتلندى المولد : « هو كذلك كما تقول ، وكثيراً ما يقتتل أهل الشمال مع أهل الجنوب فى تلك الجزيرة ، ولـكن الأمة تستطيع — كما ترى — أن تبعث إلى أقاصى البلاد بكتيبة من الرجال المسلحين تهز هذه اليد الدنسة ، يد سيدكم ، التى تستولى على مدائن صهيون » .

« ولحية صلاح الدين ، أيها النصرانى ، إن هذه إلا غفلة صبيانية منكم ، ليس فيها لمحة من سداد الرأى ، وإننى ليضحكنى من سلطانكم العظيم سذاجته ، وإنى لأعجب كيف عنّ له أن يطلب الظفر فى هذه الصحراوات وتلك الصخور ، وينازع فى امتلاكها قوما ، إن أرادوا جمعوا من الرجال عشرة أمثال رجاله ، ويخلف جزءا من جزيرته الضيقة — التى ولد فيها ملـكا — إلى بلاد الصولة فيها لغيره ؛ ولـكنى أعتقد جزما ، ياسير كنث ، أنك وغيرك من الرجال الطيبين من أهل بلدك قد خضعتم لنفوذ الملك رتشارد قبل أن ترحلوا عن وطنكم وتقوموا بهذه الحملة ، وقد تركتم بلادكم مقسمة بعضها فى وجه بعض » .

فأجابه كنث فى حدة ولهجة سريعة وقال : « كلا وضياء السماء النير ! لو أن ملك انجلترا لم يقم بهذه الحرب الصليبية إلا بعد أن يتملك على اسكتلندا لما عبأت — ولا عبأ كل اسكتلندى مخلص — بالهلال يتألق أبداً على أسوار صهيون » .

واسترسل الفارس فى حديثه إلى هذا الحد ، ثم استجمع ذاكرته وتمتم قائلا :

« أستغفر الله ، أستغفر الله ! ما لى — وأنا جندى من جنود الصليب — وما لذكرى الحرب بين الأمم المسيحية ؟ »[1] .

هذا الشعور الفياض الذى أحس به المسيحى ، ثم كتمه بوحى الواجب ، لم يغب عن الرجل المسلم ، فهو — وإن لم يدرك كل ما دمدم به صاحبه — إلا أنه شاهد ما دل دلالة قاطعة على أن المسيحيين — كالمسلمين — لهم من المشاعر الخاصة ما قد يوخز ضمائرهم ، ولهم فى أوطانهم من المنازعات ما لا سبيل إلى حسمه ؛ ولكن العرب أمة مهذبة إلى أقصى حد يسمح به دينهم الذى يعتنقون ، وهم قادرون خاصة على التحلى بفضيلة المجاملة والتأدب ، وهكذا كان صاحبنا العربى ، فأبى على نفسه أن يتطلع إلى النزاع الذى قام بين السر كنث وبين مشاعره ، إذ كان كنث يجمع فى شخصه شخصين متناقضين : أحدهما الاسكتلندى والآخر الصليبى .

ثم ضرب صاحبانا فى المسير ، وأخذت المناظر حولهما تتغير وتتبدل ، وقد عرّجا إذ ذاك شرقا ، وسارا حتى بلغا سلسلة من التلال جرداء ، شديدة الانحدار ، تمتد فى سهل قاحل ، وهى تباين بارتفاعها سطح البلاد ، ولكنها لا تختلف عنها فى إمحالها . وبدت أمام المسافرَيْن صخور ناتئة حادة ، وبعد فترة وجيزة ، أشرفا على منحدرات سحيقة ومرتفعات يرتاع لعلوها البصر ، وليس من اليسير أن تجتاز ممراتها الضيقة ، فكانت عقبة فى سبيلهما ، تختلف عن غيرها من العقبات التى كانا يغالبانها منذ حين ؛ وبينما هما يسيران ، بدت لهما على جانبى الطريق كهوف مظلمة ، وشقوق بين الصخور منفرجة مروعة . وهى تلك الغيران التى كثيراً مايشار إليها فى الكتاب المقدس ؛ وهنا قال الأمير للفارس الاسكتلندى إن تلك الكهوف كثيراً ما تأوى إليها الوحوش الضارية ، أو يلجأ إليها رجال أشد من الوحوش شراسة ، تدفعهم إلى اليأس حروب لا تنقطع ، وجور يلحق بهم من جنود الصليب والهلال ، فينقلبون لصوصاً ينهبون كل من يلاقون ، ولا يفلت منهم أحد ، رفيعاً كان أو وضيعاً ، مؤمناً أو كافراً ، رجالا أو نساء ، شيباً أو شبابا .

---

(١) يقصد الحرب التى كانت قائمة بين انجلترا واسكتلندا .

وأخذ الفارس الاسكتلندى يستمع ، غير آبه ، لما يُروى له عن أعمال النهب التى يرتكبها الوحش الضارى والإنسان الشرير ، إذ أحس فى نفسه بالشجاعة وقوة البنية يطمئن إليهما ، ولكن لشد ما كان هلعه حينما مر بخاطره أنه كان إذ ذاك يسير فى القفر الموحش الذى أمسك فيه المسيح أربعين يوماً عن الطعام والشراب ، وأن تحت بصره ذلك المكان الذى تسنى فيه للشيطان أن يهاجم المسيح ويسرف فى إغرائه وإغوائه ، فانصرف بذهنه شيئا فشيئاً عن ذلك الحديث الساذج ، حديث الدنيا الذى كان يتحدث به إليه المقاتل العربى ، وهو يسير إلى جانبه ؛ وأحس السر كنث أنه فى تلك المجاهل الجافة الجرداء ، التى تهيم فيها الأرواح الخبيثة بعد أن تخرج من الأبدان التى كانت تحل فيها ، أحوج إلى مرافقة قس عارى القدمين منه إلى ذلك المسلم المرح المنافق ، مهما كان حبيباً إلى النفس بروحه الخفيفة ، وشجاعته النادرة ، التى قد تجعل منه زميلا تستحب زمالته فى أى مكان غير هذا المكان .

استولت على المسيحى هذه المشاعر فارتبك فى نفسه ، وزاده ارتباكا أنه كلما أمعن وصاحبه فى السير ، زاد العربى من مرحه وسروره ؛ وكلما توغلا فى حنايا الجبال المظلمة ، استخف فى حديثه ؛ ولما لم يفز من المسيحى بجواب على سؤال ، أخذ يتغنى ويرفع الصوت فى الغناء ؛ وكان للسر كنث من الإلمام باللغات الشرقية ما يكفى لأن يؤكد له أن العربى كان يتغنى بأناشيد الحب المليئة بكل معنى من معانى الثناء على الجمال ، التى يغرم شعراء الشرق بالإغراق فيها ، والتى كانت — من أجل ذلك — لا تليق ألبتة بالفكر يحلق فى سماء الجد والإخلاص لله ، وهو ذلك الإحساس الذى ينبغى للمرء أن يحس به وهو فى القفر الذى امتحن الشيطان فيه المسيح ؛ ولكن العربى لم يرع للمكان حرمته ، فأخذ يتغنى كذلك بمآثر الخمر ويشبهه بالياقوت كشعراء الفرس ؛ وهكذا استرسل العربى فى نشوة السرور إلى حد لم يعد يطيقه السر كنث — وقد استولى عليه إحساس غير هذا الإحساس ؛ ولولا أنه قطع على نفسه من قبل عهداً أن يُبقى على المودة التى تبادلاها لما تردد فى أن يطلب إلى العربى أن يضرب على وتر آخر ؛ وهكذا أحس الصليبى كأن إلى جانبه شيطانا

خبيثا مستهتراً فى اللهو ، يحاول أن يوقع روحه فى حبائله ، ويحرمه من غفران الله ، بما كان يتمشدق به من ملذات الحياة الدنيا ، يلوث بها طهارة قلبه ، فى وقت تناشده فيه عقيدته المسيحية ، وميثاقه كحاج ، أن يذكر الله مستغفراً جادا ؛ فاشتدت حيرته وتردد ماذا يصنع ، وأخيراً شق سكون نفسه ، وفى لهجة الناقم الحادة اعترض العربى وهو يتغنى بالأنشودة الشهيرة التى يؤثر فيها الشاعر الخال على صدر معشوقته على كنوز بخارى وسمرقند .

فقال الصليبى محتدا : « أيها العربى ! مهما أظلمت عيناك ، ومهما ضللتك مهامه شريعة خرقاء ، أفلا تدرك أن من بين بلاد الله بلادا أكثر تقديسا ، وأن من بين الأماكن أماكن ، الشيطان فيها أشد سلطانا على النفوس الأمارة بالسوء ؟ إننى لن أخبرك بالسبب المروع الذى من أجله اتخذ الشيطان هذا المكان ، وهذه الصخور ، وهذه الكهوف ذات القباب المظلمة ، التى توهم الرائى أنها تؤدى إلى أغوار سحيقة ، مرتعا خاصا له ولجنوده ؛ وحسبك أن رجالا قديسين حكماء ، يعلمون حق العلم خصائص هذا المكان الدنس ، قد حذرونى منه منذ زمن بعيد ؛ فهل لك أيها العربى أن تقلع عن غيك ، وعن هذا الهزل الذى ليس هذا بحينه ، وأن تنصرف بفكرك إلى ما هو أليق بهذا المكان ، وإن تكن خير دعواتك ما هى — واحسرتاه ! — إلا إثم وكفران » .

وأصغى العربى لهذا الحديث بشىء من الدهشة ، ثم رد بروح من الدعابة والفكاهة لم يخفها إلا بمقدار ما تقتضيه المجاملة وقال : « إنك يا سر كنث رجل طيب ، ولكنك لم ترع لرفيقك حق الزمالة ، وإلا ، فأنتم معشر الغرب لا تكترثون بآداب اللياقة . إننى لم أر أنك قد أسأت إلى حينما أخذت تلتهم لحم الخنزير وتشرب الخمر على مرأى منى ، بل لقد سمحت نفسى لك أن تستمتع بطعام قلتَ إنه من حرية المسيحية ، ولم أعدُ أن أشفقت عليك فى نفسى من متعتك الذميمة ، فلماذا إذن تضجر منى وتشكو ، وأنا إنما أسرى عنا — بكل ما وسعت من شعر جذل — هذه الطريق الموحشة ؟ ولقد قال الشاعر ما معناه : « إنما الغناء كقطر الندى يساقط

من السماء على صدر الصحراء فيجعل طريق المسافر بردا وسلاما » .

فأجاب المسيحى : « اسمع يا صاح ! أنا لا أكره اللهو أو الغناء ، بل إنّا لنوليهما من قلوبنا مكانة عليا ، قد يكون أولى بها ما هو خير منهما ؛ ولكن الدعاء لله والأناشيد الدينية أليق بك من أغانى الحب وكؤوس الخمر ، وأنت تخترق هذا الوادى ، وادى ظل الموت ، الملىء بالأبالسة والشياطين ، الذين أصابتهم دعوات القديسين فطردتهم من مساكن الانسان يهيمون فى بلاد عليها وعليهم لعنة الله » .

فأجاب العربى قائلا : « لا تتحدث عن الجن بمثل هذا أيها المسيحى ، واعلم أنك توجه الخطاب إلى رجل هو وأمته يرجعون بأصلهم إلى جنس مخلّد ، تخشونه فى مذهبكم ، وتستنزلون عليه غضب الله » .

فأجاب المسيحى : أعلم أن أمتكم العمياء تنتسب إلى الشيطان الرجيم ، الذى مد إليكم يد المساعدة ، فمكنكم من الاحتفاظ بهذه الأرض المكرمة ، أرض فلسطين ، فوقفتم فى وجه عدد عديد من جنود الله الأبطال . إننى لا أتحدث عنك خاصة أيها العربى ، وإنما عن قومك عامة وعن دينك ، وليس العجيب أنكم تنتمون إلى الشيطان ، وإنما العجيب أنكم تفخرون بذلك » .

فأجاب العربى : « نحن أشجع الشجعان ؛ بمن نفخر فى كرم المحتد إن لم نفخر بأشد المخلوقات إقداما ؟ نحن الجبابرة المتكبرون ؛ إلى من ننتمى إن لم ننتم إلى إبليس ، الذى آثر أن يخرج من الجنة مدحورا على أن يسجد لآدم طائعا ؟ إن إبليس ذميم مكروه ، ولكنه مهيب الجانب ، وكإبليس نحن أبناؤه أهل كردستان » .

وكان العلم السائد فى هذا العصر هو قصص السحر والاتصال بالأرواح ، ولذا فقد استمع السركنث إلى رفيقه حينما اعترف بأصله الشيطانى ، ولم تساور نفسه خلجة من شك ، أو أثر من عجب ، ولكنه مع ذلك قد أحس بفرائصه ترتعد ، حينما ألفى نفسه فى هذا المكان المروع برفقة رجل أعلن صراحة عن أصله الذى ذكرنا ؛ وكان السركنث لا يعرف الخوف بطبعه ، فرسم علامة الصليب على

نفسه ، وطلب إلى العربى فى جرأة أن يحدثه شيئا عن أصله الذى يفتخر به ، وسرعان ما لبى العربى مطلبه فقال :

« اعلم أيها الغريب الشجاع أن (الضحاك) ، أحد أبناء جمشيد ، لما اعتلى عرش فارس ، عقد مجمعاً من الشياطين تحت قباب (اصطخر) الخفية ، تلك القباب التى نحتتها الأرواح الأولى فى عين الصخر ، قبل أن يخلق الله آدم نفسه ، وهنا كان للضحاك حيّتان ضاريتــان ، أخذ يطعمهما ويقدم لهما القربان كل يوم من دم الإنسان ؛ حتى صارا — كما يحدثنا الشعراء — جزءاً من نفسه ، وأراد أن يُبقى عليهما ، فأخذ يجمع لهما الضحايا البشرية كل يوم ، حتى نفد صبر رعيته ؛ فرفعوا فى وجهه راية العصيان ، وكان من بينهم أمثال الحداد المقدام ، و(فريدون) الظافر ، اللذين استطاعا آخر الأمر أن يخلعا هذا الظالم المستبد عن عرشه ، ويحبساه طوال حياته فى الكهوف المظلمة فى جبال (راموند) ، ولـكن هذا الرجل المتعطش للدماء كان قد بعث وهو فى أوج قوته — قبل أن تخلص البلاد من حيفه — بثلة من أتباعه اللصوص ، كى يأتوه بالفرائس يقدمها ضحايا كما اعتاد كل يوم ، فجاءوا إلى أبهاء قصر (اصطخر) بسبع أخوات ، تحسبهن من فرط جمالهن من حور الجنان . هاتيك الفتيات السبع هن بنات رجل حكيم ، لا يملك من الثروة غير حكمته وجمال بناته ولـكنه — على حكمته — لم يستطع أن يتوقع الـكرب الذى حل به ، والبنات لم يملكن أن يدفعن الشر ، ولم تعدُ كبراهن العشرين ، ولم تكد تبلغ صغراهن الثالثة عشرة ، وكن جميعاً على صورة واحدة ، لا تستطيع أن تفرق بين الواحدة والأخرى إلاّ باختلاف القدّ ، إذ كن يتوالين فى طولهن متتابعات ، مثلهن فى ذلك مثل المصعد الذى يؤدى إلى أبواب الجنة ؛ وما كان أجملهن حين وقفن تحت القبة المظلمة ، وقد خلعن ثيابهن ، ولم يتسترن إلا بقمص من الحرير الأبيض ، يهززن بجمالهن قلوب البشر ؛ إذ ذاك جلجل الرعد ، وزلزلت الأرض ، وتشقق حائط البهو ، ومن بين تلك الشقوق تسلل رجل فى زى صائد ، بيده قوس ونشاب ، وفى إثره ستة من إخوته ، وكانوا جميعاً رجالا طوالا ، سود الوجوه ، محياهم جميل الطلعة ، إلا

أن فى أعينهم بريقا كبريق الموت ، لا كذلك الضياء الذى يتألق تحت جفون الأحياء ؛ ثم أمسك زعيمهم بيد كبرى الأخوات السبع ، وقال فى صوت ناعم خافت فيه رنة الأسى : « زينب ! أنا (كُـثْرب) ملك العالم السفلى ، ورئيس الجن الأعلى ؛ أنا وإخوتى هؤلاء — وقد خلقنا الله من النار الأولى — قد أبينا ، حينما أمرنا العزيز القادر ، أن نسجد لـكائن خلقه من طين وسماه الإنسان . وما أخالك قد سمعت عنا إلاّ أنا قساة لا نلين ، نوقع الشر بالنفوس ، وما هذا إلا باطل ، إنما نحن بطبيعتنا كرام رحيمون ، لا ننتقم إلا إذا لحقتنا إهانة ، ولا نقسـو إلا إذا مسّنا أذى ، من وثق فينا أخلصنا له ، وقد دعانا أبوك ، « مِـثْرَاب » الحـكيم ، فلبينا الدعاء ، وأبوك بحكمته لا يعيد أصل الخير فحسب ، وإنما يعيد منبت الشر كذلك ؛ إنك وأخواتك على حافة الموت ، ولـكنكن إن أعطيتنا كل واحدة منكن شعرة من فرعها الجميل ، دليلا على الولاء ، حملنا كن فراسخ من هنا إلى مكان آمن تتحدين منه الضحاك ووزراءه » ولقد قال الشاعر إن الخوف من الموت العاجل كالخوف من عصا موسى نبى الله ، التى ابتلعت كل عصاة انقلبت أمام فرعون الملك إلى حية تسعى ؛ وهكذا كان بنات الحـكيم الفارسى ، فلم يرعن لخطاب كثرب ، كما ارتاع غيرهن ، فأعطينه ما فرض عليهن ، وفى أسرع من لمح البصر انتقل الأخوات إلى قصر مسحور فوق جبل « تَجْرَتْ » بكردستان ، ولم تقع عليهن من بعدُ عينُ إنسان ؛ ثم انقضى زمن طويل ، وذات يوم ظهر إلى جوار هذا القصر — قصر العفاريت — سبعة شباب ، لهم صيت فى الحرب والطراد ، أشد حلوكة وأعلى ارتفاعا وأشد بأسا وأقوى عزيمة من كل من نزل بأودية كردستان من إنسان ، فاتخذوا البنات السبع زوجات لهم ، وأصبحوا آباء لقبائل الـكرد السبع ، التى طبق ذكر شجاعتها الآفاق . »

استمع الفارس المسيحى متعجبا إلى هذه القصة الوحشية ، التى مازال لها أثر بأرض كردستان ، ثم أطرق هنيهة وقال « أصبت فيما قلت أيها الفارس ؛ قد يخشى المرء منبتكم وينبذه ، ولـكنه لا يستطيع أن يحقر من شأنه ، ولن أعجب ، بعد

الذى سمعت ، من تشبثكم بدين باطل ، فلا ريب أن ذلك ما هو إلا ناحية من ميولكم الشيطانية ، التى ورثتموها عن آبائكم ، الذين وصفتهم كأنهم صيادون من الجحيم ، ميولكم التى تحبب إليكم الباطل دون الحق ، ولن أعجب بعدُ منك تنتشى وتطرب وتنفس عن مكنون نفسك برواية الشعر ، مترنما به فى آونة أنت تدنو فيها من أمكنة ترتادها الأرواح الخبيثة التى توعرُ مسالكها ، تلك الأرواح التى تبعث فيك مرحا وجذلا يحس بهما المرء وهو يدنو من موطن أسلافه . »

هذه الحرية التى عبر بها المسيحى عن رأيه سُرَّ منها العربى ، ولم تجرح كرامته ، فقال « حقا ما قلت ولحية أبى ، فإننا ، على خلاف غيرنا من المسلمين ، لا نريد أن نقضى بضربة لازب على تلك الأرواح الأولى القوية العالية التى نعتقد انا منها نشأنا ، وذلك رغم أن النبى صلى الله عليه وسلم قد أتانا بدين خير من دين آبائنا الذى تعلموه فى أبهاء « تجرت » المفعمة بالأشباح ؛ نحن نعتقد ونؤمن أن هؤلاء الجن لم يتردّوا فى شر لا محيص عنه ، وإنما هم ما برحوا فى طريق المحنة والاختبار ، وقد يُجزون فى الآخرة خيراً ، وقد يجزون شرا ؛ ولكن دع هذا « لرجال الدين » والأئمة ، وحسبنا أن تقديس هذه الأرواح لم يحرّمه ما تعلمنا من القرآن كل التحريم ، وأن كثيراً منا ما فتئ يتغنى بمثل هذا الشعر الذى يذكّر بدين آبائنا الأولين . »

ثم أخذ ينشد — فى لغة قديمة جدا فى لفظها ومعناها — أبياتا من الشعر ، يعتقد بعض الناس أنها ترجع فى أصلها إلى عَبَدةِ « أهرمان أصل الشر » .

— أهرمان —

أى أهرمان الأسود ،
يا من يرى فيك العراق منبع الشر والسوء !
إذا ما سجدنا لك عند معبدك ،
شهدنا الدنيا بعيون كليلة ،
وعلمنا أن ليس تحت قبة السماء
دولة تنافس دولتك !

إذا كانت بقوة الرحمن الرحيم ،
تتفجر العيون فى أرض خلاء ،
يرتوى منها رحّالة متعبون ،
فعنك تصدر الأمواج ترطم الصخور ،
ومنك تهب رياح صرصر عاتية ،
فتتكفن فى جوف الماء جنود البحار .

وإذا أنبت الرحمن من الأرض بلسما ،
تشتفى منه النفوس الحائرة ،
فيا ما أقل من تشفيه البلاسم
من ألم لا يبرح ومن عذاب مقيم ،
ومن نار الحمّى ومن فتك الطاعون :
وتلك هى سهامك فى جعبتك !

فى قلوب البشر لك سلطان فوق كل سلطان ،
وإذا ما ابتهلنا بالصلاة
إلى عرش غير عرشك ،
ودعونا فأسرفنا فى الدعاء ،
فإن خفىّ المعنى فى الصلاة
لك وحدك يا أهرمان .

خبرنى إن يكن لك حسّ أو شكل أو شعور ،
وهل صوتك الرعد وجلبابك العواصف ،
كما يحدثنا فى الشرق المجوس ؟

وهل لك قلب ينبض بالبغضـــاء والشحناء ،
وأجنحة ترفرف بهـا فى طريقك ، طريق الموت ،
وأسنان تنفث منهـا فى فريستك السم الزعاف ؟

وهل أنت من بدء الخليقة منقلب الطباع ،
قوة لا تـكل ولا تنى ،
تحوّل شرا كل خير ؟
عنصر الأذى فى دمائك ،
إذا أصابنا خير تصارعه ،
وأنت أبداً تصرعه .
ومهما يكن فلا طائل تحت النضال ؛
لك سلطان على كل ما ظهر ،
ونفوذ على كل ما بطن ؛
كل عاطفة قوية فى قلب البشر ،
من حب أو بغض أو طموح أو خوف أو جذل ،
تدفع بهـا نحو الإثم والرذيلة .

كلما بدت بارقة من ضيـاء
تنير ما يتحدّر من مآقى الدموع ،
إذا أنت قريب المنـال ،
وسط هذه الغبطة فى بيداء الحياة ،
ترهف كل سكين على مائدة الطعام
وتجعل منها آلة للحرب والفناء .

مذ نفخ الله فينا الحيـاة ،
ومدّ لنا على وجه الأرض الأجل ،
وأنت تقضى فى الرجال ؛
وإذا صار للموت حين ،
منك كان الألم ؛
فهل انقضى فى الأرض سلطانك ياروح الظلام ؛
عجباً ! من ذا الذى يتصدى للجواب ؟ (١)

ولربما كانت هذه الأنشودة تعبيراً طبيعيا صادراً عن قلب فيلسوف لا يملأ النور كل أرجاء صدره ، فيلسوف لا يرى فى ألوهية أهرمان الكاذبة إلا سيادة الشر الخلقى والأذى الجثمانى ، ولكنها فى أذنى السر كنث كان لها أثر آخر ، فقد كان لها فى مسمعه — إذ كان يتغنى بها رجل يفخر بانتسابه إلى الجن — رنين كأنه رنين الدعاء إلى الشيطان عينه ، وقد استمع كنث إلى هذا الكفران فى قلب الصحراء عينها ، التى وقف فيها الشيطان يطلب إلى الناس الولاء له ، فصب الله عليه نقمته ، فأخذ (كنث) يوازن بين نفسه ونفسه إن كان خيراً له أن يفصل فى الحال عن رفقة العربى الكافر ، كى يشعره بضجره ، أو يتحداه للنزال دون توان ، ويتركه فى القفر طعاما للوحوش — إن كان حتما عليه ذلك وفاء لميثاقه كمحارب صليبى — وإذ هو كذلك ، إذا بشبح لم يكن فى الحسبان يجذب منه التفاته .

وكانت الشمس إذ ذاك آيلة للغروب ، ولكن فارسنا استطاع رغم ذلك أن

(١) ترجم هذه الأنشودة إلى الإنجليزية قس عالم ذو منزلة رفيعة ، وقد طلب إلى تفادياً لسوء الفهم ، أن أذكر القارئ بأن هذه القطعة من وضع رجل ينكر وجودا لله ، ولا يعرف لانحطاط الخلق وشرور الجسد من سبب حق ، وإنما هو ينظر إلى سلطانها على نظام الكون ، كما ينظر من لا يعمر قلبه نور المسيحية إلى هذه الحقيقة المرة ؛ وأنا من ناحيتى أزيد على ذلك أنى أعلم أن المترجم قد تصرف فى الترجمة وزاد فيها زيادة لا يوافقه عليها أولئك الذين يعرفون القطعة فى أصلها العجيب الفريد ، ويخيل لى أن المترجم قد يئس من أن ينقل إلى نظم إنجليزى شعراً شرقيا يحلق فى الخيال ، وربما استعاض بمعانيه الخاصة معانى كانت فى الأصل وأدرك استحالة الكشف عن معناها ؛ وهكذا يفعل الكثيرمن عباقرة العلم — المؤلف .

يرى أنه لم يعد وصاحبه وحدهما فى الغاب ، وإنما كان يرقبهما عن كثب جسم بالغ الطول ، جد نحيل ، يقفز على الصخور وفوق الأشجار ، ويذكر الفارس — بخفته ومظهره الخشن الغليظ — بآلهة الحقول وأرباب الغاب ، الذين شاهد لهم صوراً فى معابد روما القديمة ؛ وكان هذا الرجل الاسكتلندى ساذج القلب ، لم يشك لحظة فى أن آلهة القدامى المارقين على الدين كانت أبالسة فى حقيقتها ، وهو الآن كذلك يعتقد دون تردد أن المقطوعة اللعينة ، التى تغنى بها العربى ، قد أخرجت روحا من أرواح الجحيم .

فقال لنفسه فى صراحة : « وماذا يعنينى ! ليهلك الشيطان وعبدة الشيطان »

ولكنه — بطبيعة الحال — لم ير ضرورة لأن ينذر عدوين ويتحداها باللهجة عينها التى يخاطب بها عدوا واحداً ؛ وامتدت يده إلى عصاه ، وكاد العربى أن يلقى جزاء شعره الفارسى ، وهو غافل ، بتهشيم رأسه فى الحين تهشيما لا مبرر له ؛ ولكن الفارس الاسكتلندى تحاشى إثما لو اقترفه لكان ثلمة فى شرفه الحربى ، وذلك أن الشبح ، الذى ظل الفارس مدة وعيناه لا تحيدان عنه ، كان يعترض طريقهما بادئ الأمر ، متخفياً خلف الصخور والأشجار ، مستغلا طبيعة الأرض بحذق شديد ، ومتغلبا على نشازها بخفة عجيبة ؛ ولكنه — حينما سكت العربى عن الغناء — تبدى عن رجل طويل القامة ، يرتدى جلد عنز ، ثم قفز إلى وسط الطريق ، وأمسك بزمام من أزمة العربى بكلتا يديه ، وجابه الجواد النبيل ، ورده إلى الوراء ، فرأى الجواد أنه غير قادر على أن يصمد لمهاجمه — وقد أتاه على حين غرة وضغط على طرف عنانه المسنون الطويل ، وسلسلته المتينة التى كانت على الطراز الشرقى — فتقهقر لساعته ، ثم سقط إلى الخلف فوق صاحبه ، ولكن صاحبه أسرع وقفز جانباً كى ينجو من خطر الوقوع .

حينئذ رفع المهاجم قبضته عن زمام الجواد ومكنها من حلق راكبه ، وهوى بنفسه فوق العربى وهو يدفع عن نفسه ، واستطاع أن يبقيه تحته طريح الأرض ، وطوقه بذراعيه الطويلتين ، فبات العربى فى قبضته ، وصاح غاضباً وهو يتكلف

الضحك : « أى (هاما كو) يالعين ، اطلقنى ، ليس هذا من حقك — اعزب عنى وإلا سللت خنجرى » .

فأجاب الرجل المرتدى جلد العنز : « أى خنجر أيها الوغد الخائن ، اقبض عليه إن استطعت » وبأسرع من لمح البصر استل خنجر العربى من يده ، وهزه فوق رأسه .

فصاح شيركوه مذعوراً : « النجدة ! النجدة ! أيها النصرانى ، وإلا قتلنى ها ما كو » .

فأجاب ساكن الصحراء : « أقتلك ! حقا إنك لتستحق الموت ؛ كيف تتغنى بهذه الأناشيد اللعينة ، وتترنم بمآثر إله الشر ؟ » .

وكان الفارس المسيحى حتى ذلك الحين يتطلع فى دهشة وذهول ، ولشد ما كان عجبه ، لأن هذه الملحمة فى تطورها ونهايتها قد أتت على خلاف ما كان يتوقع من قبل ؛ ولكنه لم يلبث طويلا حتى أحس بأن الكرامة تقضى عليه بأن ينضم إلى جانب زميله المهزوم ، فالتفت إلى الرجل المرتدى جلد العنز ، وقد ظفر ، ووجه إليه الخطاب قائلا : « كن من شئت ، كن من أبناء الخير أو من أبناء السوء ؛ ولكن اعلم أننى قد أخذت على نفسى فى هذا الظرف أن أخلص فى صحبتى لهذا العربى الذى أرديته تحتك ، ولذا فإنى أتوسل إليك أن تخلى عنه ، وإلا قاتلتك دفاعا عنه » .

فأجاب هاما كو قائلا : « مرحباً بالقتال ! مرحبا بالقتال يعترك فيه صليبى ويشتجر مع واحد من أبناء دينه الحنيف فى سبيل وغد لم يعتنق دين المسيح ! هل أتيت إلى هذا القفر تحارب للهلال ضد الصليب ؟ أكرم بك جنديا من جنود الله تنصت إلى أولئك الذين يتغنون بمحامد الشيطان ! » .

وانتصب قائما وهو يفوه بهذا الحديث ، فسمح للعربى كذلك أن يهب من مرقده ، ورد إليه خنجره . ثم واصل الحديث موجها خطابه الآن إلى شيركوه

وقال : « لقد رأيت كيف أدى بك ادعاؤك إلى شفا الخطر ، ورأيت كيف — إن أراد الله بك سوءاً — يكون اندحارك بأضعف الوسائل ، على حذقك ومهارتك وخفتك التى تفخر بها ، فحذار يا (ضريم) واعلم أنه لولا لمحة من بريق تألق بها نجمك يوم مولدك بشيراً لك بخير ونعمة قدرها لك الله فى علاه ، لما افترقنا إلا بعد أن مزقت حلقك هذا ، الذى كان يلفظ آيات الكفر منذ حين » .

فأجاب العربى ، ولم تبد عليه أمارات البغض لهذا اللفظ الشديد وذاك التهجم العنيف الذى صُوّب إليه ، وقال « أى هاما كو أيها الرجل الطيب ، حذار أن تزهو ثانية بفضائلك إلى هذا الحد ، واعلم أننى كمسلم مؤمن بالله أجل المرء إذا أعاضه الله بروح التنبؤ عن نعمة العقل ، ولكنى لا أحب أن تمتد إلى زمام جوادى أو إلى شخصى يد غير يدى . خبرنى إذن ماذا تريد ، وثق أنك فى مأمن من غضبى ، واعلم أنك إن هددتنى بالعنف دققتُ رأسك المشعث وفصلته عن كتفيك النحيلتين » ، ثم اعتلى صهوة جواده واستطرد قائلا : « أما أنت ياصديق كنث ، فاعلم أننى أحب فى رفيق الصحراء الإخلاص فى العمل أكثر مما أحب التظرف فى الكلام ، وحسبى ما أسمعتنى من طيب الحديث ، وإنما كان خيراً لى أن تسارع إلى نجدتى فى عراكى مع هاما كو ، وقد أوشك أن يقضى على حياتى وهو فى نشوة الجنون »

قال الفارس : « حقا لقد خارت عزيمتى ، بل قل لقد أبطأت فى إسعافك بالنجدة ، ولكن غرابة مهاجمك ومفاجأته بالقتال — وكأن أنشودتك الذميمة بتوحشها قد أنبتت بيننا شيطانا — أربكت عقلى ، فانقضت دقيقتان أو ثلاث قبل أن أسل سلاحى » .

فأجاب العربى : « ما أنت يا صاح إلا رفيق متبلد الإحساس ، شديد الحرص . لو أن ها ما كو تغالى فى جنونه ذرة واحدة ، ولبثت ممتطيا جوادك ، شاهرا سلاحك دون أن تحرك إصبعا لنجدتى ، لخر زميلك إلى جوارك صريعا ، ولحقك العار ما دمت حيا » .

فأجاب المسيحى : « وحق مهندى أيها العربى لأصارحك القول ، لقد ظننت ذلك الجسم الغريب شيطانا من بنى جنسك ، ولم أدر أى سر عائلى بينكما تتبادلان فيه الحديث ، وأنتما تتمرغان معا فوق الرمال » .

فقال العربى : « هذه السخرية منك يا أخى كنث ردٌ غير مقبول ؛ ولتعلم أن لو كان مهاجمى هو الشيطان عينه ، لكان حتما عليك — مع ذلك — أن تنازله القتال فى سبيل رفيقك ، واعلم كذلك أنه إن كان بها ما كومس من جن أو شيطان ، فهو أقرب إلى منبتك منه إلى منبتى ، فما هاما كو هذا فى الحق إلا الناسك الذى أتيت إليه حاجا » .

فأجاب السر كنث ، وقد نظر إلى الجسم الماثل أمامه ممشوق القد ، وإن يكن منهوك القوى ، وقال : « هذا ! ! هذا ! إنما أنت تهزأ أيها العربى ، وما هذا بتيودوريك الوقور ! »

فرد عليه شيركوه وقال : « سله إن كنت لا تصدقنى » ، ولم تكد تخرج الكلمات من فيه حتى شهد الناسك على نفسه وقال :

« أنا تيودوريك ، رجل عين جدة ، أنا المشاء فى الصحراء ، أنا صاحب الصليب ، وسوط الكفار والمنافقين وأتباع الشيطان . عنى ! عنى ! ليهلك الكفرة جميعا » ، ثم استل — وهو يتكلم — من تحت جلبابه الشعث شيئا يشبه أن يكون مطرقة أو هراوة ذات مفاصل موثوقة بالحديد ، وهزها فوق رأسه بمهارة فائقة .

وقال العربى : « ها أنت ذا تشهد قديسك » ثم ضحك لأول مرة من السر كنث ، وقد نظر (كنث) بدهشة ما بعدها دهشة إلى حركات تيودريك الوحشية ، وأنصت إليه يتمتم تمتمة عجيبة ، بعد ما لوح بعصاه هنا وهناك ، وكأنه لا يعبأ أعلى رأس العربى وقعت أم على رأس المسيحى ، وأخيرا ضرب بها صخرا إلى جانبه ، فتهشم الصخر فتاتا ، وظهرت من الرجل قوته ومتانة سلاحه .

فقال السر كنث : « هذا رجل مجنون » .

ورد عليه المسلم ، وتكلم وفقا للعقيدة الشرقية المعروفة ، التى ترى أن المجنون رجل تحت تأثير الوحى المباشر وقال : « وليس هـذا بأسوإ القديسين ، اعلم أيها المسيحى أنه إذا انطفأ من إحدى العينين نور اتقد فى الأخرى الضياء ، وإذا بترت إحدى اليدين قويت اليد الأخرى ، وكذلك إذا اضطرب العقل أو فسد تفكيره فى أمور البشر ، اتجهت البصيرة نحو السماء وهى أشد نفاذا وأتم كمالا » .

وهنا غاص صوت العربى فى صوت الراهب إذ أخذ هذا يهلل بصوت عال ويترنم بنغم خشن ويقول : « أنا تيودوريك ، رجل عين جـدة ، أنا جذوة الصـحراء ، أنا سوط المنافقين ، الأسد والنمر — رفيقاى — يدنوان من غارتى يحتميان ، ولن تخشى مخالبهما بعداليومعنز ؛ أنا المشعل والمصباح ، رحماك اللهم ! » .

ولمـا فرغ من غنائه هرول قليلا ، ثم قفز إلى الأمام ثلاث قفزات ، لو أنه أداها فى حفل رياضى لحاز عليها كثير الثناء ، ولـكنها لم تَـلِقْ به كراهب ، حتى إن الفارس الاسكتلندى تحير وارتبك » .

وكأن العربى قد كان لحركاته هذه أدق فهما فقال . « ألا ترى أنه يريدنا على أن نتبعه إلى غاره فنحتمى هناك ليلتنا ؛ أنت النمر ، ويشهد بذلك هـذا الرسم فوق درعك ؛ وأنا الأسد ، ويدل على هذا اسمى ؛ وبالعنز يشير إلى ردائه — وهو من جلدها — ويعنى نفسه ؛ لنجعله أبدا تحت أبصارنا فهو سريع العدو كالهجين » .

وكان ذلك عليهما شاقا ، إذ أن قائدهما الوقور كان حقا يقف الفينة بعد الفينة ، ويلوح بيده يحثهما على السير ، ولـكنه كان جد خبير بالأودية الملتوية وطرق الصحراء ، وقد وهبه الله خفة غير مألوفة ، ربمـا ساعده على الإبقاء عليها دائبة النشاط عقل غير متزن ؛ ولـكنه كان يسير بهما فى خلوات وطرقات ، أحس فيها العربى — على خفة سلاحه ودربة جواده — بالخطر الشديد ، فما بالك بالأوروبى ، وهو مدرع بالحديد ، وجواده مثقل بالأحمال ؛ لقد ألفى نفسه والخطر يحدق به فود لو استعاض بهذه المخاطر معركة حامية الوطيس ؛ ولشد ما كان سروره حينما رأى — بعد هذا العدو الوحشى — ذلك الرجل المقدس ، الذى هداهما الطريق ، وقد

وقف لدى كهف ، وبيده مشعل يتألف من عصا خشبية منغمسة فى القار ، يشع منها ضياء يتذبذب فى شدة ، وتفوح منه رائحة الكبريت فى قوة .

لم يرتد الفارس من هذا البخار الخانق ، وإنما رمى بنفسه من فوق جواده وولج الكهف الذى كان ظاهره لا يدل على توفر الراحة فيه ؛ وكان الغار مقسما قسمين : خارجيا به مذبح من الحجر وصليب من القصب ، وكان الناسك يتخذ من هذا المكان كنيسة له ؛ وإلى جانب هذا الكهف الخارجى وثق الفارس المسيحى جواده ، وأعده للمبيت ، محتذيا فى ذلك حذو العربى الذى أفهمه أن هذا من تقاليد ذلك المكان ، ولكن المسيحى لم يخل من وسواس الشك ، دب فيه مما كان يحوطه من مظاهر كان لها فى نفسه احترام دينى ؛ وفى غضون ذلك كان الناسك يشتغل بتنسيق الغرفة الداخلية كى يستقبل فيها ضيفيه ، وسرعان ما لحقا به هناك ؛ وكان فى داخل الكهف الخارجى فرجة صغيرة تغلق بباب من الخشب الخشن ، وتؤدى إلى غرفة فسيحة كان يتخذها الناسك للنوم ؛ وكان سطح الأرض بالكهف خشنا رغم جهد ساكنه فى تسويته ، مفروشا برمل أبيض اعتاد أن ينثر الناسك الماء فوقه كل يوم ، يأتى به من عين صغيرة تنفجر فى الصخر فى إحدى زوايا المكان ، وتمد الانسان فى ذلك الجو الخانق بماء عذب المذاق ، خريره لذيذ المسمع ؛ وفى جانب من جوانب الغار وضعت بعض الحشايا المصنوعة من الأعلام الملتفة ؛ وجدر الكهف — كأديمه — خشنة اللمس ، رغم جهد بادٍ فى تسويتها ، وقد علقت عليها الأعشاب والزهور ، وأشعل الناسك مشعلين من الشمع نشرا جوا طيبا فى المكان ، الذى بات بشذاه وبرودته حبيبا إلى النفس .

وكانت فى إحدى زوايا الغرفة أدوات من آلات العمل ، وفى زاوية أخرى فجوة ينتصب فيها تمثال للعذراء خشن غليظ ؛ وبالغرفة كذلك مائدة ومقعدان ، تدل ظاهرها على أنها من صنع الناسك ، فهى تختلف فى هيئتها عن الأثاث الشرقى . أما المائدة فكان ينتثر عليها القصب والبقل ، وعليها لحم مجفف ، أحكم تيودوريك وضعه بحيث يسيل لعاب زائريه ؛ ولم يستطع السر كنث ألبتة أن يوفق بين مظاهر

الجود هذه — على أن الناسك كان يقوم بها فى صمت ، ولا يعبر عنها إلا بالإشارة — وبين مسلكه المتوحش العنيف من قبل ؛ وقد أضحى الراهب بعد ذلك متزن الحركات ؛ ولئن كان هزيل الملامح من أثر العيش الشظيف ، لاتبدو عليه امارات النبل والجلال ، فما ذلك إلا لإحساسه بضرورة التواضع الذى يمليه عليه الدين ؛ وكان ينتقل فى كهفه ، وكأنه رجل ولد ليحكم بين الناس ، ولكنه تخلى عن دولته كى يخلص لعبادة الله ؛ ولكنه كان رغم ذلك رجلا كبير الحجم ، له خصل من الشعر مرسلة طويلة ، ولحية لم يمد إليها يده بالتشذيب ، وعينان وحشيتان غائرتان يتطاير منهما الشرر — وهذه من صفات الجندية لا من صفات الرهبنة .

حتى إن العربى نفسه لم يسعه إلا أن ينظر إلى هـذا الناسك ، وهو مشتغل بعمله — بعين التبجيل ، فأسر إلى السر كنث فى صوت خافت ، وقال : «ألا ترى أن هاما كوالآن هادئ البال ، إنه لن يتحدث إلينا حتى نفرغ من الطعام ، وهذا عهد أخذه على نفسه » .

وبعدئذ أشار تيودوريك فى صمت إلى الرجل الاسكتلندى كى يستوى على مقعد من المقاعد المنخفضة ، بينما جلس شيركوه — كما يجلس بنو قومه — على حشية من الحصير ، وعنـدئذ رفع الراهب بكلتا يديه كأنه يبارك الطعام الذى قدمه إلى ضيفيه ، وشرعا يأكلان فى صمت عميق كصمت المضيف ، وكان هذا الجد المخيم فوق المكان أمرا طبيعيا للرجل العربى ، فلبث صامتا ، وحذا المسيحى حذوه ، ولكنه أخذ يفكر فى هذا الموقف الشاذ الذى انتهى إليه ، وفى التباين الشاسع بين تيودوريك ، لما التقيا به أول الأمر ، وهو كالوحش يلوح بالإشارة من شدة الغضب ، عالى الصرخات ، عنيف الحركات ، وبينه الآن ، وهو يقوم بواجب الجود والضيافة فى ثبات وحزم ، وقورا كريم الوفادة .

وفرغا من تناول الطعام ، ولم يتبلغ الناسك بلقمة ، وأخذ يزيل الفتات من المائدة ، ثم وضع أمام العربى إبريقا من شراب سائغ ، وخص الاسكتلندى بزجاجة من النبيذ .

وشق صمته بهذا الخطاب : « اشربا ، ابنىّ ، فان لنــا أن نستمتع بنعم الله ما دمنا له ذا كرين » .

ولمــا أتم حديثه أوى إلى الـكهف الخارجى كى يؤدى صــلاته لله ، وخلف ضيفيه معا فى الغرفة الداخلية ؛ وحينئذ أخذ السر كنث يحاول بمختلف الأسئلة أن يستخلص من الأمير شيركوه كل ما يعرف عن مضيفه ، ولم يكن فى استجوابه هذا مدفوعا بحب التطلع فحسب ، إذ كان عسيرا على السر كنث أن يلائم بين الراهب فى تهور خلقه حينما بدا لهما بادىء الأمر ، وبينه وهو فى تواضعه وسكونه من بعد ، ومحال عليه أن يوفق بين ذلك وبين ما كان يعلم من قبل مما لهذا الراهب من المـكانة العالية فى قلوب الـكثير من رجال الدين المستنيرين فى العالم المسيحى ، فلقد كان تيودوريك راهب عين جدة — كما عرفه السر كنث — يراسل البابوات ومجامع الدين ، ويصف لهم فى رسائله ، فى بلاغة وحماســة ، ما كان يصيب به الـكافرون المسيحيين اللاتين فى الأرض المقدسة من ألوان من الشقاء لا تكاد تقل شدة عما كان يوقعه بطرس الناسك فى مجمع « كليرمنت » حينما كان يبشر بالحرب الصليبية الأولى ؛ فلما رأى الفارس المسيحى من تيودوريك — وهو ذلك الرجل الوقور ، وذلك الشخص المبجل — من حركات الجنون ما لا يليق إلا « بفقير » مخبول ، تردد قبل أن تصح عزيمته على أن يبلغه تلك الأمور الهامة التى حمّلها إياه جماعة من قواد الحرب الصليبية .

وكان من أولى الأغراض التى أتى من أجلها السر كنث حاجا ، سالكا طريقا غير مطروقة ، أن يبلغ الناسك ما حمل من رسائل ، ولـكن ما شاهده فى ذلك المساء دفعه إلى الصمت والتبصر قبل أن يبوح بما عهد إليه ؛ ولم يستخلص من الأمير كثيراً من الحقائق ، ومجمل ما قال العربى إن الناسك — كما روى له — كان فى يوم من الأيام جنديا شجاعا جسوراً ، حكيما فى مشورته ، ومجدوداً فى ساحات القتال ؛ وأنه (أى العربى) آمن بذلك لمــا شاهد من القوة البارعة والحركة الخفيفة يبديهما الناسك فى كثير من الأحيان ، وقال : « إنه لم يظهر فى بيت

المقدس فى شخص حاج ، وإنما فى شخص رجل وقف بقية العمر للإقامة بالأرض المقدسة ، وبعد زمن وجيز استقر به المقام وسط تلك المجاهل المهجورة التى ألفياه بها ، وأن اللاتين يبجلونه لشدة إخلاصه لربه ، كما يحترمه الترك والعرب لما يبدو عليه من أعراض الجنون التى ينسبونها إلى الوحى ، وهم الذين أطلقوا عليه اسم (هاما كو) وهى كلمة تركية تدل على هذه الصفات ، وقد تحير شيركوه نفسه كيف يقدر مضيفه ، فقد كان — كما قال — رجلا حكيما ، يستطيع حيناً أن يلقى دروساً فى الفضيلة والحكمة ساعات متواصلة دون أن يزل ولو قليلا ، وحيناً آخر تراه متوحشا عنيفاً ؛ ولكنه لم يشاهده قط من قبل شديد الميل لفعل الشر كما بدا لهما فى ذلك اليوم ؛ وأشد ما كان يثير غضبه إهانة تلحق بدينه ، ومما يروى عنه أن جماعة من العرب الرحل اعتدوا عليه فى الصلاة ، وشوهوا له ظاهر مذبحه ، فهاجمهم وقضى عليهم بسوطه القصير الذى كان يحمله عوضاً عن كل سلاح آخر . وقد أثار هذا الحادث ضجيجاً قويا ، وباتت القبائل الجوالة تخشى من الناسك وقع مطرقته الحديدية ، كما تنظر إليه (كهاما كو) ، فأصبحوا يحترمون مسكنه ومعبده ؛ وقد اتسع مدى صيته حتى إن صلاح الدين أصدر أمراً خاصا بحمايته والتخلى عنه ، وقد أتى بنفسه أكثر من مرة ، مع غيره من كبار المسلمين ، زائرين للغار ، مدفوعين بحب التطلع من ناحية ، ومرتقبين من ناحية أخرى ، من رجل عليم كهاما كو المسيحى أن ينفذ ببصيرته فى غياهب الغيب ؛ ثم استطرد العربى قائلا : « وكان له مرصد عظيم الارتفاع ، يرقب منه نجوم السماء وكواكبها ، وهى التى بحركاتها وتأثيرها ، تسيّر كل ما يقع للانسان من أحداث ، وتعيننا على التنبؤ ، وذلك من عقائد المسيحيين والمسلمين على السواء » .

هذى خلاصة ما كان يعلم الأمير شيركوه عن الناسك ، سمعها السر كنث فداخلته الريبة فى طبيعة الجنون الذى تلبس به الراهب : هل هو من فرط حمى الحماسة تنتابه الحين بعد الآخر ، أو هو وهم يتكلفه كى يفيد من حصانته ، وعلى أى الحالين ، يظهر أن المسلمين قد بالغوا فى احترامه مبالغة شديدة رغم عداوته

الصريحة لما يعتقدون ، وظن السر كنث كذلك أن بين العربى والناسك تعارفا وقربى أكثر مما كان العربى بكلماته يريده على أن يعتقد ، ولم يفته أن الناسك كان يدعو العربى باسم يختلف عما ادعى هذا لنفسه ؛ هذه الظروف جميعاً أوحت إلى السر كنث بالحرص ، بل وبالشك ، فعزم على أن يرقب مضيفه عن كثب وأن لا يتعجل بابلاغه الرسالة الهامة التى وكلت إليه .

فقال : « حذار أيها العربى ! إننى يخيل لى أن مضيفنا يسبح بخياله فى الأسماء كما يسبح فى غيرها من أمور ، أليس اسمك شيركوه ، وقد ناداك الآن باسم آخر ؟ » .

فأجاب الكردى : « كان اسمى فى خباء أبى « الضريم » وما زال الكثير ينادينى بهذا الاسم ؛ أما فى ساحة الوغى وبين الجنود ، فأنا أعرف (بأسد الجبل) ، وهو اسم أكسبنيه حسامى الباتر ، ولكن صه الآن ياصاح ، فإنى أرى هاماكو مقبلا يدعونا إلى الراحة ، وأنا أعرف عادته ، وهى أن لا يرقبه أحد وهو ساهر على ذكر الله » .

وآنئذ دخل الناسك ومثل أمامهما ، ويداه على صدره ، ثم قال بصوت وقور « الحمد لله الذى جعل الليل لباساً ، وجعل النهار معاشاً ؛ وجعل لنا فى هدأة النوم راحة للجسم المنهوك ، وطمأنينة للنفس المضطربة » .

فرد عليه المحاربان معاً وقالا : « اللهم آمين » ثم نهضا من المائدة وتأهبا لأن يأويا إلى فراشهما ، وقد أشار إليه مضيفهما بيده ، ثم ترك الغرفة ثانية بعد أن حياهما معاً .

وحينئذ جرد فارس النمر نفسه من سلاحه الثقيل ، وقد أخذ زميله العربى يعاونه برفق فى خلع درعه وحل أربطته ، حتى لم يعد يستتر إلا برداء ضيق من جلد الغزال ، كان الفرسان ورجال الحرب يلبسونه تحت السلاح ، وإذا كان العربى قد أعجب بقوة نده — وهو مسلح بالحديد — فهو الآن أشد إعجابا بدقة التناسق

البادية فى جسمه المعروق المفتول العضل ؛ وكأن الفارس بدوره قد أراد أن يرد الجميل بالجميل ، فمد يد المعونة إلى العربى يعينه على خلع ما تدثر به من لباس حتى يستطيع أن ينام وهو طليق الجسم ، ولشد ما كانت دهشته إذ رأى أطرافا رقيقة وجسما نحيلا ، لا يتفق وما أبدى صاحبه من بأس فى النزال .

وقبل أن يأوى الفارسان إلى الفراش توجها إلى الله بالصلاة ؛ أما المسلم فيمم شطر « القبلة » وهى المركز الذى يتوجه إليه أتباع محمد فى الصلاة ، وتمم بالدعاء — بينما انسلخ المسيحى من المكان — وقد تدنس بجوار صاحبه الملحد[1] ونصب حساما ضخما ، له يد على هيئة الصليب ، جعل منه رمزاً للخلاص ، وسجد أمامه وأخذ يدعو الله بقلب خاشع ، زاده خشوعا ذكرى الفيافى التى شق عبابها ، والمخاطر التى نجا منها أثناء النهار ؛ وسرعان ما غلب على صاحبينا النعاس ، وقد رقد كل منهما على سرير من الحطب ، منهوكا من تعب الرحيل وشدة الإعياء .

---

(١) هذا ما كان يراه السر كنث فى زميله العربى .

الفصل الرابع

لم يدر السر كنث الاسكتلندى كم لبث غارقاً فى سبات عميق ، حينما أحس بضغط على صدره ، فثاب إلى يقظته ، وقد ظن ذلك الضغط أول الأمر أضغاث أحلام يصارع فيها خصما قويا ، ثم تنبهت حواسه أخيرا ، وكاد أن يسأل : « من هنا ؟ » حينما فتح عينيه فشهد شبح الناسك ، وحشى المظهر ، مفترس النظرات — كما وصفنا — ماثلا بجانبه ، وقد ضغط بيمناه على صدره ، وأمسك بيسراه مصباحا صغيرا من الفضة .

رفع الفارس عينيه مذهولا وهو مستلق على ظهره ، فقال الناسك : « صه ! إننى أريد أن أحدثك حديثا لا يسمعه هذا المسلم » .

وتكلم بالفرنسية ولم يلجأ إلى اللغة الفرنجية ، وهى مزيج من لهجات الشرق والغرب كانت حتى ذلك الحين وسيلة التفاهم بينهما .

ثم استأنف الحديث وقال : « انهض وارتد عباءتك ولا تنبس ببنت شفة وخفف الوطأ واتبعنى » .

فنهض السر كنث وامتشق حسامه .

ثم همس الناسك فى أذنه وقال : « دع هذا ، إنما نحن ذاهبون إلى حيث سلاح الروح يغنيك عن الشيء الكثير ، وما هذه الأسلحة المادية إلا قصب وقشور هشة » .

فطرح الفارس حسامه إلى جوار سريره حيث كان من قبل ، وتأهب لمرافقة مضيفه غريب الأطوار ، ولم يتسلح بغير خنجره الذى لم يفارقه طوال مسيره فى هذه البلاد المحفوفة بالأخطار .

وحينئذ تقدم الناسك إلى الأمام على مهل ، والفارس يتبعه ، وما زالت تساوره الظنون ، ويخشى أن يكون الشبح المظلم ، الذى يتسلل أمامه كى يهديه

الطريق ، ما هو إلا من خلق الأحلام المزعجة ، ثم مرّا بالغرفة الخارجية ، وكأنهما ظل يتحرك ، فلم يزعجا الأمير المسلم — وقد ظل مستلقيا غارقا فى سباته — وبلغا الصليب والمذبح فى الغرفة الخارجية ، وكان أمامهما مصباح ما فتئ يتحرق ، وإلى جواره كتاب من كتب الدعوات الدينية ، وعلى الأرض سوط أو ألهوب للتوبة مفتول من الحبال والأسلاك الدقيقة ، خيوطه ملطخة بدم لم يجف ، دليلا قاطعا على صرامة الناسك على نفسه فى توبته ؛ وهنا خر تيودوريك راكعا ، وأشار إلى الفارس أن يتخذ لنفسه مكانا إلى جواره فوق الزناد المدبب ، وكأنه إنما أُلقى هناك كى يبلغ العسر أشده حينما يتأهب الراهب للتوجه إلى الله بالدعاء ، ثم قرأ كثيرا من دعوات الكنيسة الكاثوليكية ، وأخذ يترنم فى صوت خافت ، تمازجه نغمات الجد ، بثلاثة من مزامير التوبة ، وقد اختلط ترنيمه بالتأوه والدموع ، وتهدج صوته بالبكاء المرير ، وكان فى ذلك شاهد على شدة تأثره بالشعر الدينى الذى كان يرتله ، وحينئذ دب فى قلب الفارس الاسكتلندى إخلاص عميق من أثر هذه الحركات فى تنسك الراهب ، وأخذت ظنونه فى مضيفه إذ ذاك تتحول وتتبدل ، حتى أوشك أن يعتقد فيه القداسة من قسوته فى التوبة ، وإخلاصه فى الصلاة ؛ ولما هبا من صلاتهما وقف أمامه إجلالا له ، كأنه طالب أمام أستاذ وقور ؛ أما الناسك فقد لزم الصمت واسترسل للفكر بضع لحظات ، ثم قال ، وقد أشار إلى ركن بعيد من أركان الكهف : « فتش فى تلك الفجوة يا بنىّ تجد حجابا . هاته هنا » .

فانصاع الفارس وألفى الحجاب المطلوب فى فرجة ضيقة قدت فى الحائط ، واستترت بباب من أغصان الصفصاف المجدولة ، ولما أتى به إلى الضياء ألفاه ممزقا وملطخا فى بعض أنحائه بمادة سوداء ، ثم تفرسه الناسك بعاطفة قوية مكبوتة ، واضطر أن ينفس عن مشاعره بأنة من الأعماق قبل أن يتحدث إلى الفارس الاسكتلندى .

وأخيرا قال : « عما قريب تشهد أغنى ما ملكت الأرض من كنوز ؛ يا ويلتى !

إن عينى غير جديرتين بالنظر إليه ! يا حسرتى ! إنما أنا مرشد حقير وضيع ، ليس لى إلا أن أهدى المسافر المنهوك إلى موئل الدعة والراحة ، وأن أظل أبدا طريد الديار ؛ عبثا أفر إلى حنايا الصخور ، أو إلى قلب الصحراء المجدبة ؛ لقد عثر بى خصمى وطاردنى إلى حصنى رغم تنكرى له ! »

وسكت هنيهة ثم التفت إلى الفارس الاسكتلندى وقال فى صوت أشد ثباتا فى نغمه : « هل أتيتنى بتحية من رتشارد ملك انجلترا » .

فأجاب الفارس : « إنما أتيت من مجمع الأمراء المسيحيين ، وأما ملك انجلترا فلم أتشرف بأن أئتمر لجلالته ، فهو عن ذلك راغب » .

فأجابه الناسك وقال : « هات دليلك » .

فتردد السر كنث ، واندفعت توا إلى رأسه الشكوك التى ساورته من قبل ، وتذكر أمارات الجنون التى بدت على الراهب آنفا ، ولكن كيف له أن يرتاب فى رجل له هذه القداسة فى مسلكه ؟ وأخيرا قال : « جوازى هذه الكلمة : الملوك يتوسلون إلى المتسولة » .

ثم سكت ورد الناسك قائلا : « لقد أصبت ، وإنى لأعرفك حق المعرفة ، ولكنى قائم على أمر هام ؛ والحارس فى حراسته يتحدى الصديق كما يتحدى العدو » .

ثم سار قدما والمصباح فى يده ، وتقدم قصد الغرفة التى خلفاها ، والعربى ما يزال راقدا فى سريره ، غارقا فى نومه ، فوقف الناسك إلى جواره ورمقه بنظرة ثم قال : « إنه ينام فى الظلام ويجب أن لا يستيقظ » .

وكان الأمير فى رقدته يوحى إلى الرائى أنه حقا فى سبات عميق ، فقد استلقى متجها نحو الحائط بنصف وجهه ، وإحدى ذراعيه ممتدة عبر جسمه ، وقد حجب أكثر وجهه بكمه الواسع الطويل ، ولكن جبينه العالى ما زال باديا ، وسكنت عروقه التى كانت دائبة التدفق وهو فى يقظته ، وأضحى وجهه كالمرمر الأسود ، وأهداب جفونه الطويلة الناعمة كالحرير تنطبق على أعين نافذة كعيون الصقر ،

ويده مبسوطة مسترخية ، وأنفاسه عميقة هادئة تتوالى فى انتظام ؛ وكل ذلك دليل على سبات عميق ، وما كان أعجب تلك الجماعة التى تتألف من هـذا النائم وذينك الشبحين الطويلين ، أحدهما النـاسك مرتديا جلد العنز المشعث وبيده المصباح ، والآخر الفارس فى سترة ضيقة من الجلد ، وعلى وجه الناسك أمارة قوية من اكتئاب التقشف ، وأما الفارس فقد انطبعت طلعة المشوق على ملامحه المسترجلة انطباعا قويا .

وقال الناسك بنغم خافت كالذى كان من قبل : « إنه فى نوم عميق » ثم ردد هذه الـكلمات ، ولـكنه لم يقصد بها هذه المرة إلى معناها اللفظى ، وإنما كان يرمى إلى معنى مجازى ، قال : « إنه ينام فى الظلام ، ولـكن عما قريب يطالعه الفجر — أيها (الضريم) ! ما أشبه أحـلام يقظتك فى عبثها وتوحشها بالرؤى التى ترقص مترنحة فى خيالك وأنت نائم ، ولـكن عما قريب تدق الطبول وتتبدد الأحلام » .

وهكذا أتم الناسك حديثه وأشار إلى الفارس أن يتبعه ، ثم سار نحو المذبح ومر وراءه وضغط على زنبرك ، فانفرج — دون ضجيج — عن باب صغـير من الحديد شق فى قلب الـكهف ، ويكاد لا يلمحه البصر بغير الإمعان الدقيق ، وقبل أن يجسر الراهب على فتح الباب على مصراعيه صب على مفاصله من المصباح قليلا من الزيت ، ولـما انفتح الباب الحديدى أخيراً بأكمله ، انكشف للرائى سلم صغير نحت فى الصخر .

وهنا قال الناسك فى صوت حزين : « خذ هذا القناع من يدى واحجب به عينى فليس لى أن أشهد الـكنز الذى سوف تقع عليه عيناك عما قريب ، وإلا كان إثما منى وعدوانا » .

ولم يجبه الفارس بكلمة وإنـما أسرع إليه وكمم رأسه بالحجاب ، ثم شرع الناسك يصعد السلم ، وكأنه رجل تعود الطريق بحيث لا يحتاج إلى ضياء ، ولـكنه كان يمسك بالمصباح للاسكتلندى الذى تابع خطاه على الدرج متسلقا ذلك المصعد الضيق ، وأخيراً بلغا بهوا صغيراً ليس له هيئة منظمة ، ينتهى الدرج إلى أحد

أركانه ، ويرى فى ركن آخر درج آخر يقابله ويستأنف صعوده ، وفى زاوية ثالثة باب قوطى يتجمل جمالا ساذجا بما تتميز به عادة العمد والصخور المنحوتة ويحتمى بباب صغير اشتبكت فيه قضبان الحديد ودقت فيه المسامير ، وقد قصد الناسك إلى هذا المكان الأخير ، وكلما اقترب منه تعثر فى خطاه .

ثم قال لرفيقه : « اخلع نعليك فإن الأرض التى تطؤها أرض مقدسة ، واطرد من دخيلة قلبك كل فكر أو شهوة دنسة ، فإنه كفر ما بعده كفر أن تضم إلى صدرك مثل هذه الرغبات فى هذا المكان » .

فصدع الفارس بما أمر ، وخلع نعليه ، ووقف الناسك حينذاك وكأنه قد أرسل الروح فى صلاة صامتة ، ثم تحرك ثانية وأمر الفارس أن يقرع الباب الصغير ثلاثا ، ففعل الرجل ، وخيل للسر كنث أن الباب قد انفتح من تلقائه ، إذ لم تقع عينه على أحد ، وهب على حواسه تيار من ضياء نقى يخطف البصر ، وشذى عبق قوى يأخذ بمجامع الحس ، فرجع القهقرى خطوتين أو ثلاثا ، ولم تمض دقيقة حتى أحس بالتغير المفاجئ من ظلام إلى ضياء يكاد من شدته يبهر البصر ويهد القوى .

ثم دخل الغرفة التى كان يخرج منها هذا الضياء البراق ، ورأى أن النور كان يشع من مجموعة من المصابيح الفضية ، تشتعل بزيت نقى ، وتنشر أنفس العطور ، معلقة بسلاسل من الفضة بسقف كنيسة صغيرة قوطية شقت — كأكثر أرجاء دار الناسك الفريدة — فى الصخر المصمت الصلب ؛ وبينما كانت الصخور فى كل مكان آخر وقع عليه بصر السر كنث تدل على أن يد الإنسان لم تمتد إليها إلا بتسوية خشنة ساذجة ، كانت هذه الكنيسة تشهد بأن الإنسان قد استخدم فيها أقدر المختصين بفن البناء بأزاميلهم وكل مبتكر من فنهم ، فلقد كانت السقوف ذات الأضلع المتصالبة ترتكز على ستة أعمدة فى كل جانب ، نقشت بمهارة نادرة ، والقباب المقعرة تتقاطع فى جمال متسق ، وكل شئ يدل على انسجام تام فى الفن وملاءمة لروح العصر ، ويقابل صف الأعمدة على كلا الجانبين فجوات ست بديعة

الصنع ، فى كل منها تمثال لواحد من الرسل الاثنى عشر .

وأقيم مذبح الكنيسة فى طرفها الأعلى ناحية الشرق ، وإلى ورائه ستار نفيس من الحرير الفارسى مزركش بالذهب الكثير ، ويحجب مكانا خفيا لا شك فى أنه يحتوى على تمثال أو أثر له قدسية غير مألوفة ، وقد أقيم هذا المعبد الفريد تمجيداً له ؛ وتوهم الفارس ذلك ، فتقدم إلى الضريح وركع أمامه ، وردد دعاءه بحرارة من القلب ؛ وإذ هو كذلك ، إذا بالستار يرتفع بغتة ، أو لعله جذب إلى أحد الجانبين ، فاضطرب الفارس فى انتباهه ، ولم ير كيف ارتفع الستار ، أو من ذا الذى أزاحه ، ولكنه رأى فى الكِن الذى انكشف خزانة من الفضة والأبنوس لها باب مزدوج ، وكل شىء صنع على غرار كنيسة قوطية .

تطلع الفارس إلى الضريح بشوق قلق ، وإذا بالباب المزدوج ينفرج ويكشف عن كتلة من الخشب نقشت عليها هذه الكلمات « الصليب الحق » . وفى تلك الآونة كانت بطانة من النساء ترتل نشيد (المجد لله) ؛ وفى اللحظة التى انقطع فيها الغناء ، أُغلق الضريح وأُرخى السجاف ثانيــة ، وكان الفارس — وقد ركع لدى المذبح — يستطيع أن يواصل دعاءه دون اضطراب تمجيداً للأثر المقدس الذى تجلى لبصره منذ حين ، وقد فعل ذلك تحت تأثير عظيم ، يحس به كل من رأى بعينى رأسه شاهداً قويا على صدق دينه ، واختتم صلاته ، ثم هب وقد تشجع على أن يبحث حواليه عن الراهب الذى أتى به إلى هذا المكان المقدس المسحور ، فوقعت عليه عينه وما فتئ رأسه مكمما بالقناع الذى كان قد لفه بنفسه حوله ، واستلق كالكلب الذليل لدى باب الكنيسة ، ولكنه لم يجسر على وطئها ؛ وقد كان فى ذلك الوضع الذى اتخذه دلالة قوية على مقدار قداسته ، وعلى توبته وندمه ، فقد استلق كرجل آده عبء فادح من إحساس باطنى عميق ، فخر طريح الأرض مغلوبا على أمره ، وخيل للاسكتلندى أن الرجل بنيته القوية وروحه المشتعل ، لن ينكب على وجهه إلا إذا غلبه إحساس عميق بالتوبة والندم والخضوع .

فاقترب منه وكأنه يريد أن يتحدث إليه ، ولكن الناسك أدرك مرماه ،

فتمتم فى صوت مختنق من خلف الوثاق الذى كان يكمم رأسه ، فرنت نبراته وكأنها صوت ينبعث من جثة هامدة فى كفن وقال : « انتظر ، فالمشهد لما ينته ، ولتسعد بمرآه » ثم نهض من فوق الأرض ، وتقهقر من لدى المدخل حيث كان منكبا على وجهه ، وأغلق باب الكنيسة ، الذى كان يحكمه من الداخل مزلاج حلزونى كان له صرير رن صداه فى أرجاء المكان ، وهذا الباب لا يختلف فى ظاهره عن الصخر ذاته الذى شق فيه الكهف ، حتى إن كنت لم يكد يتبين أن هناك منفذا ، وأصبح الآن وحيداً فى الكنيسة المضاءة التى كان بداخلها الأثر الذى أدى له واجب الطاعة منذ حين ، ولا سلاح له غير خنجره ، ولا رفيق غير فكر دينى يخالجه ، وشجاعة لا تعرف الخوف تتملكه .

ولم يدر السر كنث ماذا عسى أن يقع بعد ذلك من حدث ، وإنما اعتزم أن يتابع مسير الحوادث ، فضرب فى أرجاء هذه الكنيسة المهجورة ، حتى أوشكت الديكة أن تصيح عند منبثق الصباح ؛ وفى ذلك الزمن الموات ، حينما يعانق الليل النهار ، رن فى أذن السر كنث صوت لم يتبين مأتاه ، صوت يشبه رنين جرس صغير من الفضة ، يدق حين يهب مضيفه من مرقده كى يقيم الصلاة أو يقدم القربان — على حد تعبيره — ، ولقد جعلت ظروف الزمان والمكان ذلك الصوت جد جليل ، فانكمش الفارس — رغم جرأته — إلى أقصى أركان المعبد فى الطرف المقابل للمذبح كى يرقب بغير اضطراب ما قد ينجم عن ذلك النذير .

ولم يلبث طويلا حتى أزيح الستار الحريرى ثانية ، ومثل الأثر لعينيه من جديد ، فخر على ركبتيه إجلالا واستمع إلى أصوات نسوية ترتل نشيدا أو ترسل دعاء الكنيسة الكاثوليكية مبكرة ، وقد تآلفت فى الأداء كما تآلفت فى الصلاة الأولى ، وسرعان ما أدرك الفارس أن الأصوات لم تعد تنبعث من مكان ثابت ، وإنما كانت تدنو من الكنيسة وتعلو رويداً رويداً ، وإذا بباب فى الجانب الآخر من البهو ينفتح ثم يوصد فلا يظهر له أثر ، كذلك الباب الذى دخل منه ، فتجد بذلك أنغام المرتلات فسحة ترن فيها ، ثم ترددها قباب السقف ذات الضلوع .

وحينئذ صوب الفارس بصره نحو الباب ، وأنفاسه تكاد تتقطع من شدة الهلع ، ولكنه ظل راكعا على هيئة المصلى ، وهى الهيئة التى كان يتطلبها هذا المكان وذلك المشهد ، ثم أخذ يترقب ماذا عسى أن ينتهى إليه ذلك الإعداد ، وإذا بموكب يتراءى له ، وقد أوشك أن يلج من الباب ، يتقدمه ولدان أربعة ، عليهم سيما الجمال ، عُرْى الأذرع والرقاب والسوق ، فبدا منهم ذلك اللون البرنزى — لون أهل الشرق — تقابله قمص قصيرة ناصعة البياض ، كانوا يرتدونها وهم مقبلون على المعبد مثنىً مثنىً ، وقد حمل الاثنان المتقدمان ميخرتين لوّحا بهما يمنة ويسرة ، فانتشر فى الكنيسة عبق على العبق الذى كان من قبل يفعمها ، ثم أقبل الاثنان الآخران ينثران الزهور .

وعلى أثر هؤلاء أقبلت النساء اللائى كن يرتلن متتابعات على خير نظام وأحسن ترتيب ، وكنّ ستا ، يرتدين على أكتافهن أردية سودا ، ويتحجبن فوق ملابسهن البيض بسُتر قاتمة ، فدللن بأزيائهن على أنهن راهبات محترفات ، يتبعن دير « جبل كرمل » ويشبهن الكثيرات غيرهن ، اللائى يفصحن بأقنعتهن البيض على أنهن حديثات الترهب ، أو زائرات للدير عارضات ، لا يربطهن به عهد أو ميثاق ؛ وقد أمسك السابقات منهن فى أيديهن بالمسابح الكبيرة ، ولحق بهن الصغريات ، رشيقات القد ، ومع كل واحدة منهن إكليل من الزهر الأبيض والأحمر ؛ ثم سرْن جميعا فى حفل يطوّفن بالمعبد ، ولم يبد عليهن أنهن قد أعرن كنث أدنى التفات ، رغم أنهن مررن إلى جواره حتى كادت ملابسهن أن تمسه ، وإذ هنّ يتغنين ، لم يشك الفارس فى أنه إنما كان فى دير من الأديرة التى كان الفتيات المسيحيات النبيلات فى الزمن الماضى يَقِفْن أنفسهن صراحة لخدمة الكنيسة فيها ، وقد اضطر أكثرهن لأن ينقطعن مذ أعاد المسلمون فتح فلسطين ، ولكن كثيرات منهن اشترين الإغضاء عنهن بالهدايا ، أو لحقتهن رأفة الظافرين أو احتقارهم لشأنهن ، فبقين دون أذى ، وواصلن فى الخفاء مراعاة الطقوس التى كانت لزاما عليهن بما أخذن على أنفسهن من عهود ، وكان كنث يعلم ذلك ، ولكن

رهبة المكان والزمان ، والدهشة التى استولت عليه من مباغتة أولئكن الراهبات ، بظهورهن ومسيرهن إلى جواره وكأنهن أطياف الخيال — كل ذلك كان له على خياله تأثير تعسر عليه معه أن يعتقد أن ذلك الموكب الجميل الذى وقعت عليه عينه كان يتألف من مخلوقات من هذه الدنيا ، فما كان أشبههن برتل من كائنات من غير هذا الوجود أتت بالولاء لله المعبود من كل الوجود .

هذا أول ما خطر للفارس لما أن مر به موكب النسوة ، وقد كدن أن يتقدمن بمقدار ما يبقيهن متحركات فحسب ، حتى بدون وكأنهن ينزلقن ولا يمشين ، وقد أظهرهن للعيان الضياء المقدس القاتم الذى كان ينبعث من المصابيح خلال سحب البخور التى كانت تنشر فى الغرفة الظلام .

ولكنهن لما درن بالمعبد ثانية ، ومررن بالمكان الذى كان يجثو فيه ، نزعت إحدى الفتيات اللائى كن يرتدين القمص البيضاء — وهى تسير الهوينى إلى جواره — زهرة ورد من الإكليل الذى كان بيدها ، وسقطت الزهرة من بين أصابعها على قدم السر كنث ، ولعلها سقطت منها على غير عمد ، فذعر الفارس كأن سهما قد أصابه فجأة ، وذلك لأن الإنسان إذا أرهف حسه وكان عقله فى ارتقاب ، كان أتفه الأحداث — إذا وقع على غير انتظار — وقوداً لنار الفكر التى يؤججها الخيال ، ولكن الفارس أخمد عاطفته إذ أدرك أن أمراً كهذا لا يؤبه له ما أيسره أن يحدث ، وأنه لولا أن المرتلات كن يسرن فى حركة متكررة مملولة لما كان له أثر يذكر .

ورغم ذلك فقد تابع السر كنث بفكره وبصره واحدة دون سواها من بين أولئك الراهبات الصغيرات ، وهن يحطن بموكبهن المعبد ثالثة ، وتلك هى التى أسقطت زهرة الورد من يدها ، ولكنها كانت فى خطوها ووجهها وقوامها على شبه تام بغيرها من المغنيات حتى تعسر على السر كنث أن يلحظ أقل إشارة من مميزاتها الخاصة ، ومع ذلك فقد أخذ قلبه يرفرف ، كطير حبيس فى قفص يريد أن ينطلق ، وكأنه يؤكد له بإيحاء ميوله أن الفتاة التى تسير عن يمين الصف

الثانى بين الراهبات أقرب إلى قلبه من كل من عداها من الحاضرات ، بل ومن كل بنات الجنس اللطيف قاطبة ، وتراعى قواعد الفروسية ، بل وتحتم على الفارس ، أن يوثق الروابط بين عاطفة الحب الشعرية ، وشعور الإخلاص لله ، الذى لا يقل خيالا وشعراً عن عاطفة الحب نفسها ، وهما إحساسان يقوى أحدهما الآخر ولا يتعارضان ، ولذا فقد كان السر كنث ، ببارقة من الأمل يمازجها إحساس دينى وعاطفة حارة تهزه من قلبه إلى أطراف أنامله ، يرتقب لمحة ثانية من تلك التى توهم بكل نفسه أنها جادت عليه بلمحة الرضا مرة من قبل ؛ وأتم موكب الفتيات دورة ثالثة حول المعبد فى زمن وجيز ، ولـكنه كان للسر كنث دهرا مخلدا ؛ وأخيراً دنا منه ذلك الشبح الذى كان يرقبه بعين لا تنى ، ولم يكن ثمة فارق بين هذا الجسم المتلفع بالثيـاب وبين غيره — وقد كن جميعاً يسرن مرتلات فى صوت واحد مؤتلف النغم — حتى مرت بالصليبى الجاثى على ركبتيه مرة ثالثة واستلت من ثنايا ثوبها الحريرى طرفا من يد دقيقة متناسقة ، تدل ببراعة جمالها دلالة قوية على كمال التناسق فى جسم صاحبتها ؛ وبهذه اليد التى انسرقت ، كما ينسرق شعاع القمر من سحب كأنها العهن المنفوش فى ليلة صائفة ، رمت ثانية زهرة ورد على قدمى فارس النمر .

وليس من شك فى أن الإيمـاء لم يكن هذه المرة عارضا ، أو جاء مصادفة واتفاقا ؛ وما كان أشبه تلك اليد النسوية الجميلة ، التى لم يبد غير نصفها ، بيد مد إليها بالتقبيل شفتيه يوما ، وهو يقسم بقلبه يمين الإخلاص والولاء لصاحبة اليد المعشوقة ؛ وهل يحتاج السر كنث إلى دليل آخر ؟ وذلك هو الخاتم الياقوتى منقطع النظير يتألق على إصبع ناصع البياض كالجليد ، إصبع لو أشارت به صاحبته أدنى إشارة لـكان لهذه الإشارة فى عين السر كنث قدر يفوق ما للياقوتة التى لا تقدر بثمن ؛ هذا وقد استطاع الفارس ، رغم أن الفتاة كانت مقنعة ، أن يرى إما مصادفة ، أو منًّا منها ، ذؤابة من فرعها الفاحم ، كل شعرة من شعراتها أنفس لديه مائة مرة من سلسلة من الذهب الخالص . إذن لقد كانت فتاته التى هوى !

ولكن أنّى لها أن تطرق هذا المكان ، هذه الصحراء المقفرة النائية ، بين أولئك العذارى اللائى اتخذن المجاهل والكهوف لهن موئلا كى يستطعن أن يؤدين فى الخفاء طقوسا مسيحية لا يجرؤن على أدائها علانية وجهرا ؟ أحقا وصدقا مايرى ؟ إنه لا يستطيع التصديق ، إنه لا ريب فى حلم من الأحلام وغاشية خداعة من غواشى الخيال ؛ وبينما كانت هذه الخواطر تساور السركنث ، إذا بالمسلك الذى زلف منه الفتيات حين دخلن المعبد يتلقاهن ثانية عائدات ؛ وأخذ الغلمان الصغار والراهبات المكتئبات ينسلون من الباب المفتوح ، ويختفون واحدا بعد الآخر ، وأخيرا توارت كذلك تلك التى ألمعت إليه مرتين ، وهى إذ تتوارى التفتت التفاتة خفيفة بادية صوب المكان الذى لبث فيه السركنث راسخا كالصنم ، وقد رأى قناعها وهو يرفرف لآخر مرة — إذن لقد غابت عن عينيه ، وحينئذ أحاط بروحه ظلام دامس لا يقل حلوكة عن ذلك الظلام الذى غشى آنئذ ظاهر حواسه ، إذ لم تكد تعبر أخرى المرتلات عتبة الباب حتى أوصد الباب بصوت مرتفع ، وفى هذه اللحظة عينها سكت المغنيات عن الترتيل وأطفئت فى الحين أضواء المعبد ، ولبث السركنث وحيدا فى ذلك الظلام الشامل ، ولكن العزلة والظلام وغموض الموقف المبهم الذى آل إليه ، كل ذلك لم يكن للسركنث شيئا مذكورا ، فلم يشغل به الفكر ولم يعبأ به ، ولم يكن ليأبه إلا لشىء واحد فى هذا الوجود ، وذلك هو المشهد الذى مرق منذ حين وانسل من جواره ، وما منحته الفتاة من علامات الرضا ، فأخذ يتحسس فى الظلام فوق الأديم ، لعله يعثر على الزهور التى سقطت من يدها ، ثم يضم إحداها أو جميعها إلى شفتيه مرة وإلى صدره أخرى ، ثم يلصق شفتيه بكل صخر بارد تحدثه نفسه أنها وطئته بقدميها ، ثم يقوم بكل عمل شاذ يوحى به الحب المبرح ويبرره لكل من أسلم نفسه للعشق ؛ وكان فى هذا كله دليل على حرارة الحب ، دليل معروف منذ الأزل ؛ ولكن من العجيب فى عهود الفروسية أن الفارس ، وهو فى فرط السرور ، لا يتطرق إلى خياله أن يتعقب أو يتأثر غادة تعلق بها قلبه هذا التعلق الشعرى ، حتى أصبح ينظر إليها

وكأنها إلهة تعطفت فبدت هنيهة لعابد من عبادها المخلصين ، ثم آبت إلى ظلام معبدها المقدس ، أو كأنها كوكب سيار ، بالغ الأثر ، أرسل شعاع الرضا فى لحظة من لحظات الطالع السعيد ، ثم تدثر ثانية فى قناع من الضباب ؛ وكانت إشارات هـذه الغادة التى تعلق بها قلبه كأنها تصدر عن كائن علوى يتحرك ولا رقيب عليه ولا عتيد ، إذا تبدى أفعم قلبه بالسرور ، وإذا تغيب غلبه الاكتئاب والخور ، فإن رأفت به بعثت فيه الحياة ، وإن قست عليه تملكه اليأس والقنوط — كل شىء وفق ما تريد ، ليس إلى الإلحاف أو المعارضة إليها من سبيل ، وليس عليه إلا أن يتوجه إليها مخلصا ، يخدمها بقلبه وبسيف الفروسية ، وليس له فى الحياة إلا مرمى واحد ، هو أن يأتمر لها بما تأمر ، ويذيع فى العالمين صيتها بكل ما يستطيع أن يقوم به من عمل جليل .

تلك كانت قواعد الفروسية ، وأصول الحب — وهو أسمى مبادئها — ولكن ظروفا خاصة أخرى أحاطت بالسر كنث ، فأكسبت تعلقه بهذه الفتاة خيالا وشعرا ، ذلك أنه لم يستمع حتى لرنين صوتها ، رغم أنه كثيرا ما تأمل جمالها بقلب طروب ؛ وكانت تعيش بين جماعة ، تخول له مرتبته فى سلك الفروسية أن يدنو منها ولا يخالطها ؛ وكان حتما على هذا الجندى الاسكتلندى المسكين — رغم علو كعبه فى المهارة الحربية وخطط الفروسية — أن يعبد إلهته وهو منها على بعد يكاد يبلغ فى مداه تلك الهوة التى تفصل بين الفارسى والشمس التى يعبد — ولكن متى بلغ بالمرأة الخيلاء حدا تهمل معه مثل هذا الإخلاص الحار يصدر عن قلب عاشق مهما يكن وضيع المقام ؟ فلقد كانت ترمقه وهو يتبارى فى الطعان ، وتستمع إلى محامده فيما يروى كل يوم عن معارك القتال ؛ وبينما كان كل « كونت » أو « دوق » أو « لورد » يكافح كى يحظى بنظرة منها ، كانت تميل بكل قلبها نحو فارس النمر المسكين ، الذى لم يكد يكن له غير حسام يمتشقه ويؤيد به مكانته ؛ وربما كانت فى حبها أول الأمر راغمة ، بل ومدفوعة بشعور غير محسوس ؛ وكانت إذا نظرت أو أصغت ، رأت وسمعت ما يكفى لأن يدفع بها فى ميلها هذا الذى تطرق إلى قلبها

أول الأمر على حين غرة ؛ وإذا رددت يوما أكثر السيدات احتشاما فى بلاط انجلترا العسكرى ذكر فارس من الفرسان ، وامتدحن فيه جماله ، استثنين كنث الاسكتلندى ؛ وكثيرا ما كان الأمراء والأشراف يبذلون جزيل العطايا على المنشدين كى يتغنوا بفضائلهم ، فيتمثلك الشعراءَ روح العدل واستقلال الحكم ، ويضربون الأوتار إشادة بذكر رجل لا يملك خيلا ولا حللا يخلعها عليهم جزاء لهم على مدحهم إياه .

باتت اللحظات التى كانت « أديث » بنت الأشراف تستمع فيها إلى الثناء يكال لحبيبها كيلا أحب إلى نفسها بما كان قبل ، إذ كانت هذه اللحظات تسرى عن قلبها القلق الذى كان من مسمعه ، وتمدها بموضوع جدير بالتأمل العميق ، فلقد كان السر كنث — باجماع الرواة — رجلا أحق بالإجلال من كل من علاه مرتبة أو كان أوفر منه حظا ، فأضحت وكل انتباهها معقود بالسر كنث ، لا تفكر إلا فيه ، وإن تملكها الحرص ؛ وكلما أمعنت فى التأمل ازدادت وثوقا من ولائه لها ، ويقينا أن لها فيه الفارس الذى كتب له أن يقاسمها الحياة ، سراءها وضراءها (ومستقبل الأيام مظلم وخطير) ، وأن يعقد هواه بهواها ، ذلك الهوى الذى عزا إليه شعراء العصر سلطانا شاملا ، والذى يكاد بتقاليده وفضائله يرتفع إلى حد الإخلاص لله .

ودعنى بعد هذا لا أستر على القراء حقيقة الأمر ، فليعلموا أن « أديث » كانت فتاة قريبة الصلة بعرش انجلترا ، يحتم عليها كرم الأصل وعزة النفس أن تكتفى بالولاء والإخلاص يظهرهما لها دوما ، فى صمت ، فارسها الذى اختارته لنفسها ، ولكنها أدركت كنه ميولها — وهى ذات الميول النبيلة الشريفة — وعلمت أن من اللحظات ماتتحرك فيها مشاعر المرأة فى نفسها ، المرأة التى تُحِب وتُحَب ، فتثور عواطفها فى وجه قيود العظمة وتقاليدها ، التى كانت تتحوطها من كل جانب ، وتنحى على حبيبها باللائمة لحيائه الذى يوسوس له أن لا يحطم تلك القيود ؛ وإذا جاز لنا أن نعبر بلفظ حديث قلنا إن «اتيكيت» مولدها ومكانتها رسم حولها دائرة سحرية ، للسر كنث أن يخفض الرأس أو يرفع البصر ما دام

بعيداً عنها ، فإن تخطاها فليس له إلا أن يمر ، كما يمر الروح إذا استدعاه الساحر العظيم وحظر عليه أن يتخطى الحدود التي رسمها بعصاه ، فبدا لها — وهي كارهة — أن تُقْدم هي ، وتمد ولو طرف قدمها الدقيق ، وتخرجه عن الحد المرسوم إن أرادت أن تصيب عشيقها الحيي الخجول بلمحة خفيفة من فضلها ، وتهيئ له الفرصة كي يقبل رباط حذائها ؛ ولقد كان لها في بنت ملك المجر أسوة ، إذ تعطفت على شريف من صغار الأشراف وحثته على الإقدام ، و« أديث » وإن يكن يجرى فيها دم الملوك ، إلا أنها ليست من بنات الملوك ، وليس كذلك حبيب قلبها من أبناء السوقة ، فلم يقم القدر في سبيلهما حاجزاً قويا يعترض تبادل الحب بينهما ، ولكن إحساساً بالأنفة المتواضعة التي كثيراً ما تكبل الحب بسلاسل من حديد ، إحساساً نهاها — رغم علو مكانتها — عن أن تخطو هي الخطوات التي يقضى الاحتشام أن تكون دائما من اختصاص الجنس الآخر ، وفوق هذا فإن السر كنث فارس رقيق نبيل ، فائق التهذيب ، أو قل إن خيالها قد أوحى إليها بذلك وبث فيها شعوراً دقيقاً بما له وما لها ، فمن واجبها — مهما تملكت قلبها العاطفة — أن تتقبل منه صلواته ، وهي كتمثال الآلهة التي يسلم المرء بأنها لا تحس ولا تجيب لعبادها ما يقدمون من ولاء ، أو كالوثن ، تخشى إن هي بكرت بالنزول عن قاعدتها أن ينحط شأنها في عيني عبدها المتفاني .

ولكن العابد المخلص إذا توسل إلى وثن حق ، انكشفت له من الوثن أمارات الرضا في ملامح صورته المرمرية ، التي لا تلين ولا تتحرك ؛ فلا عجب إذن إذا لاحت إشارة في خفاياها معنى القبول من عين أديث البراقة اللامعة ، أديث بارعة الجمال ، التي كان لها في سحر سيماها جمال يفوق جمال الاتساق والوسامة في ملامحها ، والبريق والضياء في بشرتها ؛ ولذا بدرت منها — رغم غيرتها وحذرها — دلالات خفيفة ؛ ولولا ذلك لما تسنى للسر كنث أن يعرف منها على الفور والحين ، وبغير ارتياب ، يدها الجميلة التي لم يكد يبدو منها إصبعان من تحت القناع ، ولما قر في نفسه اليقين بأن الزهرتين اللتين سقطتا متواليتين في

مكان واحد إنما كانتا إلماعاً من حبيبة قلبه . ولن نحاول هنا أن نقص كل ما أدّى إلى هذا التفاهم التبادل بين أديث وحبيبهـا من ملاحظات متوالية ، وإشارات خفية ، ونظر وتلويح ، ومؤاخاة غريزية فى الحب ، فانما نحن فى ذيل العمر ، ولو تحدثنا عن رموز الحب الخفية ، تحدانا فى القدرة على ذلك شباب له عيون سريعة اللمح فى هذه الشؤون ؛ وحسبنا أن نقول إن هذا الحب قام بين شخصين لم يتبادلا كلمة واحدة ، وكانت أديث من ناحيتها تحبس الكلام لإحساسها القوى بالصعاب والأخطار التى لم يكن بد من أن تعترضها فى توثيق عرى الروابط بين قلبيهما ؛ والفارس من ناحيته تساوره ألوف الشكوك والمخاوف ، ويخشى أن يكون مبالغاً فى تقديره للإشارات الخفيفة التى أومأت بها فتاته ، والتى كانت تتخللها — بحكم الضرورة — فترات طويلة يغلب عليها الفتور ، وتبدو فى غضونهـا أديث قليلة الاكتراث ، وكأنها لا تلحظ وجوده ، إما لأنها كانت تخشى أن تثير بمسلكها تنبه الأخريات ، وتجر بذلك على عشيقها الأخطار ، أو لأنهـا كانت لا تحب أن تسقط فى اعتباره لشدة لهفتها على أن تملك منه قلبه .

ربما كانت هذه القصة طويلة مملولة ، ولكنها ضرورية للرواية ، وتعيننا على إيضاح ما كان بين المحبين — إن كان هـذا أمراً يستحق العناية — حينما بدت أديث على غير انتظار فى المعبد ، وكان لها على مشاعر الفارس هذا الأثر البليغ .

الفصل الخامس

إذا ما ضربنا فى الوادى الخيام ،
فعبثاً يسحرنا من الغيد الحسان القوام .
وإن بدا لنا « اشتاروث » أو « ترماجون » ،
قلنا لطيفيهما اعزبا عن هذا المكان .
وارتون

لبث السكون العميق والظلام الدامس ساعة و بعض ساعة يخيمان على المعبد الذى خلفنا فيه فارس النمر جاثياً على ركبتيه ، تارة يتوجه إلى الله بالحمد ، وطوراً يذكر فتاته بالشكر ، اعترافاً بالنعمة التى أسبغت عليه ؛ أما سلامته ، أما نصيبه — وقد كان أبداً قليل الاكتراث بهما — فلم يعد لهما الآن فى اعتباره وزن ذرة من تراب ، فهو فى جوار السيدة أديث ، وقد جادت عليه ببعض شارات العطف ، وهو الآن فى مكان مبارك بما فيه من آثار لها أجل تقديس ، وهو كجندى مسيحى ، ومحب مخلص ، لا يخشى شيئاً ، ولا يفكر فى شىء ، إلا فى واجبه نحو السماء وفى حق فتاته عليه .

وفى الفترة التى انقضت بعد ذلك ، رنت فى أرجاء المعبد ذى القبو رنيناً قوياً جلجلة صفير كصفير صائد البزاة ، وهو ينادى الصقور ، ولم يكن هذا الصوت مما يليق بجلال المكان ، وقد ذكّر السر كنث بوجوب تيقظه ، فهب من سجدته ، ومد يده إلى خنجره ، ثم سمع صرير لولب أو بكرة ، وسطع إلى أعلى نور كأنه ينبعث من فجوة فى الأرض ، وظهر للعين كأن باباً أرضيا قد ارتفع إلى أعلى أو انخفض إلى أسفل ، وفى أسرع من لمح البصر ، امتدت من الفجوة ذراع هزيلة ، بعضها عار وبعضها مدثر فى كم من الحرير الأحمر الموشى بالذهب ، ممسكة بمصباح رفعته إلى أقصى ما تستطيع أن تمتد إلى أعلى ، ثم أخذ الشبح صاحب تلك الذراع يصعد خطوة خطوة ، حتى بلغ مستوى أرض المعبد ؛ وكان لهذا المخلوق الذى

بدا الآن جسم ووجه كأنهما لقزم مروع الهيئة ، ذى رأس كبير ، عليه غطاء مزين بثلاث ريشات من ريش الطاوس زينة رائعة جميلة ، يرتدى ثوباً من الحرير النفيس الأحمر الموشى بالذهب ، مما جعل كآبة منظره أشد وضوحاً ، وتجذب العين منه أساور من ذهب تطوّق معصميه وعضديه ، ويتشح بوشاح من الحرير الأبيض يعلق به خنجراً ذا مقبض ذهبي ؛ ويحمل هذا الرجل ذو الهيئة العجيبة بيسراه شيئاً يشبه أن يكون مكنسة ، ولم يكد يطل من الفجوة التى ارتفع منها حتى وقف ساكناً ، وكأنه أراد أن يظهر جليا فحرك المصباح الذى كان بيده حركة خفيفة أمام وجهه وصورته ، حتى يسطع الضوء على ملامحه الممجية الحوشية أولا ، ثم على أطرافه المعروقة المشوهة ثانياً ؛ وكان لهذا القزم جسم غير متسق الأجزاء ، ولكن خلْقه لم يبلغ به الانحراف حدا يشك معه الرائى أنه فاقد القوة والنشاط ؛ وبينما كان السر كنث يتأمل هذا المنظر الذميم ، طرأت على ذاكرته تلك العقيدة السائدة التى كانت تؤمن بالجن أو عفاريت الأرض ، التى كانت تقطن الكهوف ، وكان الشبح الماثل أمامه يطابق الصورة التى كانت فى ذهنه عن هيئة هذه العفاريت ، فحدق فيه بتقزز لا يخالطه الخوف ، وإنما يمازجه نوع من الرعب قد يبثه مثل هذا المخلوق الخارق للطبيعة فى أشد القلوب ثباتاً وحزماً .

وصفر القزم ثانية ، ثم استدعى زميلا من زملائه من باطن الأرض ، فصعد هذا الشبح الثانى — كما صعد الشبح الأول — ولكنها كانت يد امرأة تلك التى امتدت هذه المرة رافعة مصباحاً من البهو السفلى الذى صدرت عنه هذه المناظر ، وكان شبحاً نسويا ذلك الذى برز متئداً من جوف الأرض ، شديد الشبه بالشبح الأول فى هيئته وتناسق أعضائه ، وكان لباسها كذلك من الحرير الأحمر الموشى بالذهب ، مهلهلا مهدّباً على صورة عجيبة ، كأن صاحبته قد ازّينت كى تعرض نفسها فى حفل من الممثلين والمشعوذين ؛ وكما فعل الشبح الأول من قبل ، حركت المصباح بأناقة ودقة أمام وجهها وجسمها ، الذى يبارى جسم الرجل دمامة وقبحاً ، ولكن ، رغم هذا المظهر الذميم ، كان فى ملامحهما كليهما مسحة تدل على تنبه نادر وذكاء

غير مألوف ؛ هذه المسحة تراها فى بريق عيون غائرة تحت أهداب غزيرة حالكة السواد ، يتألق فيها ضياء لامع كذلك الذى يشع من عيون الضفادع ، وكأنه بعض العوض عن قبح بليغ باد فى البزة والهيئة .

لبث السر كنث مشدوها مذهولا ، بينما كان هـذان الشبحان القميئان يطوّفان بالمعبد متلاصقين كخادمين أجيرين قد كلفا نظافة المكان ؛ ولم يعد كل منهما غير يد واحدة للعمل ، فلبثت الأرض ولما تنتفع من هذا الجهد الضئيل الذى ثابرا عليه فى حركات غـير مألوفة ، وطريقة عجيبة ، تليق بالمظهر الشاذ الغريب الذى تبديا فيه ؛ ولما دَنَوَا من الفارس ، وهما يؤديان هذا العمل ، أوقفا مكنستيهما عن الحركة ، وتجاورا قبالة السر كنث ، ثم رفعا المشعلين اللذين كانا بيديهما ثانية فى أناة وتؤدة ، فتهيأت له الفرصة أن يتأمل ملامحهما جليا ، ولـكن هـذه الملامح لم تزدد جمالا فى نظره بعد أن باتت على مقربة منه ، وأتيحت له الفرصة كذلك أن يلحظ السرعة القصوى والحدة التى كانت عيونهما المتألقة السود تعكس بهما ضوء المصباحين ، وبعد ذلك صوّبا شـعاع المصباحين على الفارس ، وبعد أن أنعما فيه النظر ، التفت كل منهما إلى الآخر ، وانفجرا يقهقهان بصوت يكاد يبلغ عنان السماء ، فرنت الضحكات فى أذنى السر كنث ، وكان صداها كريها ، ففزع لسمعها وسارع بالسؤال ، مستحلفا بالله ، من ذا عسى أن يكون ذانك الشخصان اللذان دنّسا ذلك المكان المقدس بمثل هذا التهريج وتلك الصيحات المزعجة .

فأجاب القزم الذكر فى صوت يلتئم وهيئة جسيمة ، وهو بصوت غراب الليل أشبه منه بأى صوت آخر يطرق الأذن فى النهار ، وقال : «أنا القزم نكتابانوس» .

وأجابت الأنثى فى نغم أخشن وأشد توحشا من صوت رفيقها وقالت : « وأنا جنفرا امرأته وموضع حبه » .

وسأل الفارس ثانية ، ولم يكد يعتقد أنهما من أبناء البشر وقال : « وما الذى أتى بكما إلى هذا المكان » ؟

فأجاب القزم الذكر متكلفا الجد والوقار وقال : « أنا الإمام الثانى عشر ،

أنا محمد المهدى زعيم المؤمنين ورائدهم ، لى ولأتباعى ألف من الخيـل المطهمة على أهبة لدى المدينة المقدسة ، وألف عند « مدينة الخلاص » ، أنا ذلك الرجل الذى سوف يشهد على بنى الإنسان ، وهذه حوراء من حورى »[١] .

فقاطعته امرأته وأجابت فى صوت أخشن من صوته وقالت : « أنت كذاب أشر ، لست من حورك ، ولست أنت رجلا منافقا من سقط المتاع كما ذكرت . هلا أخبرك من أنت يا حمار « إسخار » ؟ أنت الملك « أرثر » ملك بريطانيا الذى سرقته بنـات الجن من فيافى « أفالون » وفررن به ، وأنا السـيدة جنفرا ، التى طبق صيت جمالها الآفاق » .

فقال الرجل : « أجل يا سيدى الفاضل ، حقا إننا من الأمراء ، أحاطت بنا الهموم ورمت بنـا هنا تحت جناح الملك « جاى » ملك بيت المقدس ، وقد لبثنا كذلك حتى أخرجه من مكمنه جماعة من الـكفار الدنسين ، اللهم أنزل عليهم من السماء الصواعق وأهلـكهم جميعا » .

فانبعث صوت من الجانب الذى دخل منه الفارس من قبل ، وقال : « صه ! صه ! أيها الغافلون ، اعزبوا عن هذا المـكان فقد دالت دولتكم » .

ولم يكد القزمان يستمعان إلى هذا الأمر ، حتى همس كل منهما للآخر فى وسوسة متقطعة ، واطفآ مصباحيهما بغير توان ، وخلفا الفارس فى ظلام دامس ثم قفلا راجعين ، ولمـا انقطع وقع أقدامهما خيم على المعبد صمت شامل هو أشد ما يكون التئاما وحلوكة ظلام .

ولما انجلى هذان المخلوقان الشقيان ، أحس الفارس ببعض الترويح عن النفس ، وهما بمظهرها ومسلـكهما ولسانهما لم يتركا له مجالا للشك فى أنهما يمتان بصلة إلى تلك الطائفة الوضيعة من الـكائنات ، التى سيقت بتشويه الخلْق وضعف الخلُق إلى هذه المـكانة الأليمة ، وأصبحت من ذيول الأسر الرفيعة ، التى يجعل أبناؤها من ظاهرها وضعتها بواعث للمرح والسرور ؛ ولو كان الفارس الاسكتلندى فى عصر

(١) هذا كلام لا أساس له من الصحة التاريخية ، وإنما هو من ابتداع الخيال .

غير عصره لكان من المحتمل أن يسر غاية السرور من جنون هذه الصور الانسانية الوضيعة ، ولكنه لم يكن يعلوه — فى أية ناحية من النواحى — على زمانه ، فى الفكر أو فى الطبائع ، ولذا فإن هذين المخلوقين الشقيين بمظهريهما وإشاراتهما ولغتهما قد قطعا عليه سلسلة من المشاعر العميقة الجليلة ، كانت قائمة فى نفسه ؛ ولشد ما كان ابتهاجه عند ما اختفيا عن مرآه .

وبعد ما انجليا ببضع دقائق ، انفتح الباب ، الذى ولج منه من قبل فى تؤدة وتوان ، ولبث منفرجاً ، وقد ظهر من خلفه نور خافت يشع من مصباح لدى عتبته ، وتجلى فى هذا الضياء المتقطع ، الذى يتراوح بين الظلمة والنور ، شبح أسود مسترخ لدى المدخل بعيداً عن حدود المعبد ، ولما دنا الفارس منه ، عرف أنه الناسك ما برح مستلقياً على الهيئة المتواضعة عينها التى اتخذها من أول الأمر ، والتى لا ريب أنه لبث عليها ما بقى ضيفه فى المعبد .

ولما سمع الناسكُ الفارس وهو يدنو منه قال : « لقد انتهى كل شىء ، وآن لأشقى من أذنب فوق الأرض أن يؤوب من هذا المكان مع رجل يحق له أن يعتقد الآن أنه أنبل وأسعد بنى الإنسان جميعاً . أمسك المصباح واهدنى الطريق فى هذا المهبط ، فليس لى أن أكشف عن بصرى حتى أبتعد عن هذا المكان المقدس » .

فصدع الفارس الاسكتلندى بالأمر فى صمت وسكون ، وقد أخرسه إحساس بالنشوة والتسامى مما رأى ، فخمد فى نفسه حتى روح التطلع إلى ما يتحوطه ، ثم أخذ يشق طريقه بدقة بالغة خلال المسالك الخفية العديدة ، وعلى الدرج الذى تسلقاه من قبل ، حتى ألفى نفسه وصاحبه فى الغرفة الخارجة من كهف الناسك .

و « يؤوب المجرم الآثم إلى جبّه ، ويستأخر العقوبة من يوم نحس إلى يوم آخر ، حتى ينفذ فيه قضاء ربه ، ويجزيه الله العادل بما قدمت يداه » .

بهذه الكلمات تفوه الناسك ، ثم طرح عن عينيه الحجاب الذى تقنع به ، ونظر إليه وفى نفسه آهة حارة مكبوحة ، ولم يكد يرد الحجاب إلى السرداب الذى كان قد طلب إلى الاسكتلندى أن يأتى له به منه ، حتى سارع ووجه إلى زميله

الخطاب فى حزم وقال : « اذهب عنى ، اذهب عنى ، إلى الراحة والسكون ؛ إن فى وسعك أن تنام ، ومن حقك أن تنام ، أما أنا فليس ذلك فى وسعى أو من حقى » .

فانسل الفارس إلى الغرفة الداخلية احتراماً لهذه الكلمات التى نطق بها الناسك فى اضطراب شديد ، ولكنه أدار ببصره إلى الوراء وهو يخرج من الغار الخارجى ، فألفى الناسك يجرد عن كتفيه العباءة المهلهلة فى عجلة المخبول ؛ وقبل أن يغلق الباب الضعيف الذى يفصل ما بين حجرتى الكهف ، سمع ألهوبا يفرقع وتائباً يئن من كفّارة أليمة فرضها على نفسه فرضاً ، وفكر الفارس فى نفسه ماذا عسى يا ترى أن تكون هذه الخطيئة الدنسة ، وما هذا الندم الشديد على ذنب لا تمحوه ولا تخفف عنه هذه الكفارة القاسية ، فشعر برعدة باردة تدب فى أطرافه ثم سبح لله خاشعاً متورعاً ، وارتمى على سريره الخشن — بعد أن رمق بعينيه الرجل المسلم الذى لم يزل فى سباته — وسرعان ما غط فى نعاسه كالطفل ، منهوكا من أثر المشاهد المختلفة التى تراءت له فى يومه هذا وليله ، ولما استيقظ فى الصباح اجتمع بالناسك يشاوره فى مهام الأمور ، وأسفر الحديث عن عزمه على أن يبقى بالكهف يومين آخرين ، كان خلالهما شديد المحافظة على إقامة الصلاة ، كما يليق بالحاج ، ولكنه لم يعُد إلى المعبد الذى شاهد به تلك العجائب .

الفصل السادس

أما هذا المشهد فعدل ، وفى البوق فانفخ ،
فقد حق علينا أن نستفز الليث من مربضه .
من رواية تمثيلية قديمة .

وهنا ننتقل بالقارئ من مكان إلى آخر كما أشرنا فى عنوان هـذا الفصل ، ننتقل به من جبال الأردن المقفرة إلى خيام رتشارد ملك انجلترا ، التى كانت مضروبة إذ ذاك بين جون ميناء عكا وعسقلان ، والتى كانت تضم تحت لوائها جيشا ، أخذ قلب الأسـد على نفسه من قبل أن يسير به ظافرا إلى بيت المقدس ، وكان من المحتمل أن ينجح فيما شرع ، لولا أن وقفت فى سبيله الغيرة المتبادلة بين الأمراء المسيحيين الذين اشتركوا فى هذا المشروع عينه ، ولولا أن عرقل مسعاه ما كان يحس به هؤلاء الأمراء من ألم النفس من تعالى الملك الانجليزى عليهم تعاليا لا يكبح له جماح ، ومن تحقير رتشارد — فى غير مواربة — من شأن إخوانه الملوك ، الذين كانوا يعادلونه مرتبة ، ولـكنهم لا يبلغون شأوه فى الشجاعة والإقدام والمواهب الحربية . وأمثال هذه المشاحنات وما إليها — وبخاصة ما كان منها بين رتشارد وفيليب ملك فرنسا — خلقت من الخصومات والعقبات ما كان حجر عثرة لـكل خطوة عملية يتقدم بها رتشارد ، الذى عرف بالبطولة وعدم التريث معا ، بينما كانت صفوف المسيحيين تتخلخل يوما بعد يوم ، ويهجرها المجاهدون زرافات ووحدانا ، وفى طليعة كل فرقة قائد من قواد الاقطاع ، هو زعيمها ، وقد انسحبوا بعد نضال أطفأ فيهم كل بارقة من الأمل فى النجاح .

وبات أثر المناخ — كما كان دائمـا — مهلـكا للمقاتلين الآتين من الشمال ، وزاد من وطأة الجو أن الصليبيين أطلقوا لشهواتهم العنان وانحلت أخلاقهم ، وإن يكن هذا ينافى كل المنافاة المبادئ والأغراض التى شهروا من أجلها السلاح ،

فباتوا فرائس سائغة لحارة القيظ المحرقة ، وقطرات الندى الباردة ، وما لها من أثر وبيل ؛ وأضف إلى هـذه البواعث التى كانت تفت فى الأعضاد ، وتؤدى إلى الخسران والدمار ، سيفَ العدو الباتر ، وذلك أن صلاح الدين ، الذى ليس فى سجل تاريخ الشرق اسم يعلو على اسمه ، كان قد عرف — ويالها من معرفة قاضية — أن أتباعه — بسلاحهم الخفيف — أضعف من أن يلاقوا الفرنجة المدججين بالحديد ، وجها لوجه فى ملحمة أو معركة ، كما عرفَ كذلك كيف يخشى شخص خصمه رتشارد الجسور ويحسب له حسابه ؛ ولـكن إن كانت الفرنجة قد انقضّت على جيوشـه أكثر من مرة ذبحـا وتقتيلا ، فلقد انتصر لـكثرة عديده فى تلك المناوشات الخفيفة التى كان الـكثير منها حتما لا محيص عنه .

ولـما نقص جيش العدو المهاجم ، زاد السلطان من مدى خططه فى هذه الحرب الخفيفة ، وجعلها أشـد جرأة ، فأحاطت بمعسكر الصليبين — وكادت تحاصره — جموع من الفرسان أقبلت كأسراب الزنابير ، يسيرٌ سحقها إذا وقعت فى قبضة اليد ، ولـكن لها أجنحة تمكنها من الإفلات من أشد القوى بأسا ، كما أن لها أشواكا تنفث منها السوء والأذى ؛ ولم تنقطع الحروب بين طلائع المسيحيين ورعاة حروب الخيل هلكت فيها أرواح كثيرة قيمة دون طائل أو جدوى ؛ وكثيرا ما حيل بين الرسل ومواصلة المسير ، وتقطعت سبل المواصلات ، وكان على الصليبيين أن يشتروا أود الحياة ببذل الحياة ، وإن أرادوا ماء من عين كعين بيت لحم ، التى كان يتشوق إليها داود الملك أحد حكامها الأقدمين ، أراقوا لذلك الدماء .

وكان يعادل هذه الشرور — إلى حد كبير — عزم كالحديد ونشاط لا يستقر من جانب الملك رتشارد ، الذى كان دائمـا على صهوة جواده بصحبة جماعة من خيار فرسانه ، على أهبة لأن يكر إلى أى مكان تحل به الأخطار ، وغالبا ما يعود للمسيحيين بمعونة لم تقع لهم فى الحسبان ، بل ويهزم المنافقين ، وهم من النصر قاب قوسين أو أدنى ، ولـكن حتى قلب الأسد ، ذو الجسم الحديدى ، لم يستطع أن يحتمل بغير أذى تقلبات المناخ الوبيلة ، فضلا عن إجهاد جثمانى وعقلى متواصل ،

فلقد أصابته إحدى تلك الحميات المنتشرة فى آسيا ، والتى تفتك بالجسم شيئا فشيئا ؛ ورغم قوة شديدة وشجاعة أشد منها ، بات أول الأمر ضعيفا لا يستطيع أن يعتلى ظهر الجواد ، ثم انقطع عن حضور مجالس الشورى فى شؤون الحرب ، التى كان يعقدها الصليبيون بين الحين والحين ، ولم يكن من اليسير أن تعرف إن كان ما استقر عليه المجلس — وهو أن يعقدوا مع السلطان صلاح الدين هدنة مداها ثلاثون يوما — قد جعل هذا الفتور ، الذى اعتور ملك الانجليز ، أشد فتكا أو أخف وقعا ؛ فلئن كانت هذه الهدنة تثيره لأنها تعترض سير الخطة الواسعة المدى التى رسمها لنفسه ، وتؤجلها إلى حين ، فهو من ناحية أخرى يجد فيها بعض العزاء ، لأنه عرف أنه إن لبث عاطلا لا يتحرك فى سرير المرض ، فلن يظفر غيره بإكليل النصر .

وأما ما لم يرض عنه قلب الأسد فهو هذا التبلد الشامل ، الذى ضرب بجرانه فى معسكر الصليبيين ، حينما أقبل على دور خطير من أدوار المرض ؛ وقد علم من البيان الذى استخلصه من أتباعه — وهم كارهون — أنه كلما اشتد به المرض ، هبطت آمال الجيش المحارب ، وأنهم لم يشتغلوا أيام الهدنة بتقوية صفوفهم ، أو بإحياء ما خمد من روح البسالة والإقدام ، أو بتغذية روح الظفر فى النفوس ، أو بالتأهب للزحف على المدينة المقدسة زحفا حازما لا ونية فيه — والمدينة المقدسة هى مقصد حملتهم ؛ لم يشتغلوا بهذا أو بذاك ، وإنما اشتغلوا بتأمين المعسكر ، الذى باتت تشغله جماعة هزيلة من الأتباع ، بحفر الخنادق وإقامة الحسائك وغيرها من وسائل التحصين ، كأنهم يتأهبون — إذا ما عاد القتال — لرد عدد قوى معتد ، ولا يعدون العدة لأن يقفوا موقف الغزاة المغيرين الفاخرين .

هاج الملك الانجليزى وماج من هذا البيان ، وكان كالأسد الحبيس فى القفص ينظر إلى الفريسة من وراء قضبان من الحديد ؛ ولما كان بطبيعته مندفعا متهوراً ، فقد انعكس هياج طبعه على نفسه ، وكان أتباعه يخشونه ، وحتى أطباؤه الذين كانوا يباشرونه ، كانوا يخافون أن يتخذوا لأنفسهم ذلك النفوذ الذى لا بد منه لكل

طبيب على مريضه إن أراد به خيراً ؛ ولم يستطع أن يقف بين الأفعوان وثائرته إلا رجل واحـد من الأشراف المخلصين ، وربما كان ذلك لمواءمة بين ميوله وميول رتشارد ، مما قربه إلى الذات الملكية ووصل بين قلبيهما ، فكان له — فى سكون وثبات — سلطان على الملك المريض الغـاضب ، لم يجرؤ عليه غيره ؛ هذا النفوذ لم يباشره غير توماس دى ملتن ، لأنه كان يقدر حياة الملك وشرفه أكثر مما كان يقدر ما قد يفقد من جراء ذلك من رضاه ، وما قد يجر على نفسـه من أخطار ، وهو يمرّض عليلا كهذا ، شديد المراس ، جسيم الأخطار إذا غضب .

كان السر توماس لورد جلزلاند ، فى كمبرلاند ، فى عصر لم تكن فيه الأنساب والألقاب شديدة الالتصاق بأربابها كما هى اليوم ، وكان النورمان يسمونه لورد دى ڤو ، ويلقبه بالانجليزية السكسون — الذين كانوا يتعلقون بلغتهم الوطنية ويفخرون ببعض الدم السكسونى الذى يجرى فى عروق هذا المحارب الذائع الصيت — توماس ، وأحيانا يرفعون الكلفة ويسمونه « توم » رجل « الجلز » أو « الأودية الضيقة » التى اشتقت منها أملاكه الواسعة اسمها المعروف .

وقد تدرب هذا الزعيم فى أكثر الحروب ، مانشب منها بين انجلترا واسكتلندا أو بين الأحزاب الداخلية العديدة ، التى كانت إذ ذاك تمزق البلاد تمزيقاً ؛ وفى هذه الحروب جميعاً برز وتفوق ، سواء فى مسلكه الحربى أو نفوذه الشخصى ، وكان من ناحية أخرى جنديا خشنا فظا ، لا يأبه بهندامه ، كتوما مكتئباً فى معاشرته ، وينكر — فى ظاهر حديثه على الأقل — كل علم بالسياسة أو بدسائس البلاط ؛ وكانت هناك من الرجال جماعة تزعم أنها تستطيع أن تنفـذ إلى دخائل الطباع ، وتؤكد أن لورد دى ڤو لم يكن فى مكره وطموحه أقل منه فى خشونة طبعه وجسارته ، وتظن أنه — وهو يتشبه بخلق الملك فى البسالة وعدم المبالاة — إنمـا يرمى إلى الفوز برضا الملك ، وإلى إشباع آماله ، وتحقيق مطامعه الواسعة ؛ ولـكن أحداً لم يجرؤ على معارضته فى أغراضه أية كانت ، أو ينافسـه فى ذلك العمل الخطر ، وهو مباشرة سرير المريض كل يوم ، وعلة المريض معدية كما ذاع

بينهم ، والمريض هو قلب الأسد ، يئن من جزع غاضب يتملك الجندىّ إذا حيل بينه وبين القتال ، والملكَ إذا تجرد من كل سلطان ؛ وعامةُ الجند فى جيش الانجليز على الأقل كانوا يعتقدون إجمالا أن دى ڤو يباشر الملك مباشرة الند للند ، وليس بينهما إلا مودة حربية خالصة ، نزيهة غير مغرضة ، تنعقد بين اثنين يتقسمان المخاطر كل يوم .

وذات يوم فى سوريا ، وقد مالت الشمس نحو الغروب ، استلقى رتشارد على فراش المرض ، والفراش إلى نفسه بغيض ، والمرض على جسمه شاق ثقيل ، وعيناه الزرقاوان اللامعتان — اللتان لم ينقطع لهما من قبل ضياء لامع ولا بهجة متلألئة — فيهما حيوية زادت منها الحمى وقواها الجزع ، وقد أطلتا من خلال تجاعيد شعره الأصفر الطويل وخصله المسترسلة ، بنظرات زاهية متقطعة كخيوط النور ترسلها الشمس ساعة الغروب فتشق السحب التى تزجيها العواصف المطيرة ، والتى يوشى حواشيها بالذهب — رغم ذلك — ضياء الشمس اللامع ؛ ويبدو على ملامحه المسترجلة سير المرض العضال ، وقد أهمل لحيته ولم يشذبها ، فنمت وطغت على شفتيه وذقنه ، وأخذ يترنح ذات اليمين وذات اليسار ، تارة يجر على نفسه الغطاء ، وطوراً يطرحه جزعا وهلعاً ؛ ويدل سريره الذى يتأرجح ، وحركاته التى تنم عن القلق ، على ميل إلى النشاط والاندفاع بغير اكتراث ، ميل ليس له مجال طبيعى إلا حيث الجهد العنيف .

وإلى جوار سريره وقف توماس دى ڤو ، وهو فى محياه وهيئته ومسلكه أشد ما يكون تباينا للملك المريض . هو كالعملاق فى قوامه ، ويكاد شعره يشبه فى كثافته شعر شمشون بطل الإسرائيليين بعد ما جزه الفلسطينيون ، لأن دى ڤو قد قص شعره حتى يستطيع أن يضمه تحت خوذته ، وله عينان كبيرتان واسعتان لونهما كلون البندق ؛ يشع منهما ضياء كضياء الخريف فى الصباح ، يضطرب الفينة بعد الفينة ، لحظة أو بعض لحظة ، كلما جذبت التفاته إلى رتشارد شارات عنيفة من القلق والهياج ، وملامحه قوية غليظة كشخصه ، فيها جمال وجاذبية ، إلا أنها قد

تشوهت من أثر الجراح ، ويغطى شفته العليا — على الطراز النورماندى — شارب كثيف ، اختلط من غزارته وطوله بشعر رأسه ، وهو — كمثله — دا كن يضرب إلى الحمرة ، تخططه قليل من الشعرات البيض ، ويلوح على بناء جسمه أنه من ذلك الطراز الذى يقاوم المشقة والمناخ بصدر رحيب ، فلقد كان نحيل الخصر ، عريض الصدر ، طويل الذراع ، عميق الأنفاس ، قوى الأطراف ، ولم يخلع سترته الجلدية ، التى يظهر على كتفها صليب مرسوم ، لأكثر من ثلاث ليال ؛ ولم يستمتع بالراحة إلا فى فترات متقطعة ، هى كل ما يظفر به اختلاساً رجل يقوم على حراسة ملك طريح الفراش ، وقل أن بدل هذا البارون من وقفته ، اللهم إلا حينما كان يناول رتشارد دواء أو شرابا منعشاً . ولم يجرؤ أحد غيره ، ممن ليست لهم هذه المكانة من أتباع الملك الجزوع ، على أن يحمل الملك على تناول الدواء ، وكانت له طريقة شفيقة ، لها أثرها رغم نبوها ، يؤدى بها واجبه ، وهى تباين عاداته وأخلاقه العسكرية الصريحة أشد المباينة .

كان هذان الرجلان فى سرادق يلائم روح العصر ، كما يلائم طبيعة رتشارد الشخصية ، عليه من سيما الحرب والقتال أكثر من أمارات البذخ والملك ؛ فكنت ترى أسلحة للدفاع والهجوم ، كثير منها غريب الشكل من الطراز الحديث ، منتثرة فى أرجاء المخيم ، أو معلقة بالعمد التى يقوم عليها ؛ وجلود الحيوانات التى قتلت فى الطراد ملقاة على الأرض ، أو منشورة على جدر السرادق ، وفوق كدس من هذه الغنائم الحرشية كلاب ثلاثة كبيرة الحجم ، ناصعة البياض كالثلج ، على وجوهها آثار من خدوش بالمخالب والأنياب ، تشهد على مساهمتها فى جمع الصيد الذى رقدت على بقاياه ، وقد امتدت بجسومها فاغرة أفواهها ، ومصوبة عيونها ، الحين بعد الآخر ، نحو رتشارد ، مبينة عن تعجبها وأسفها على هذا الخمود الذى لم تعهده ، والذى لا بد لها أن تشارك فيه ، وكانت هذه الكلاب من رفاق الجندى الصائد ؛ وعلى مائدة صغيرة إلى جوار السرير درع من الحديد المرن ، ثلاثى الشكل ، عليه رسم ليوث ثلاثة ناهضة ، كان يتخذها هذا الملك الفارس شارة له ،

وأمام الدرع قرص من الذهب شديد الشبه بتيجان الأمراء ، إلا أن مقدمته كانت أعلى من مؤخرته ، وهو ومخمل بنفسجي ، وتاج مثلث مزركش ، تكون جميعاً شارة الملكية فى انجلترا ، وإلى جوار القرص فأس غليظة أعدت للذود عن رمز الملكية ، تكل الذراع من حملها ، إلا إن كانت ذراع قلب الأسد .

وفى جزء خارجى من الرواق ضباط ثلاثة من حاشية الملك ، يرتقبون فى اكتئاب ، يبدو عليهم الجزع على صحة مولاهم . ولم يكونوا على سلامتهم أقل جزعا لو أن مليكهم قضى نحبه ؛ وانتشرت هذه المخاوف الكئيبة خارج السرادق بين الحراس الذين كانوا يضربون فى الأرض بطرف مغضوض ، وهم يتفكرون صامتين ، أو يستندون إلى رماحهم ويقفون فى أماكنهم لا يتحركون ، كأنهم تماثيل مسلحة ، لا جنود من الأحياء .

وبعد هذا الصمت الطويل المضطرب ، الذى انقضى فى هياج كهياج الحمى ، حاولنا وصفه للقارىء ، قال الملك : « إذن لم تأت لى من الخارج ياسر توماس بنبأ خير من هذا ؛ لقد بات فرساننا جميعاً نساء ، وأصبحت نساؤنا مترهبات ، وليس فى المخيم شرارة من إقدام أو شهامة تنشر فى أرجائه الضوء ، والمخيم يضم خيار فرسان أوروبا ، أليس كذلك ! » .

فأجابه دى ڤو بصبر تملكه قبل ذلك عشرين مرة وهو يكرر للملك شرح الموقف وقال : « إن الهدنة ياسيدى تحتم علينا نحن الرجال أن لا نحرك ساكنا وأما عن النسوة فلست ، مولاى — كما تعلم جلالتك — ممن ينغمسون فيهن ، وقلما أبدل الحديد والجلد بالذهب والمخمل ؛ ومع ذلك فقد نما إلى أن خيار الفاتنات من نسائنا قد التحقن بمعية جلالة الملكة والأميرة ، وهما فى طريقهما حاجتين إلى دير (عين جدة) كى يرسلا الدعوات ويطلبا إلى الله أن ينقذ جلالتك من هذه المحنة » .

ولم يرق لرتشارد هذا الجواب ، فتملكه القلق ورد قائلا : « أفهكذا تخاطر بأنفسهن ربات الخدور والعذارى من بنات الملوك ، ويردن أرضا تدنسها أوغاد ، إخلاصها لبنى الإنسان ضعيف كإيمانها بالله ؟ » .

فأجاب دى ڤو : « كلا ياسيدى ، لقد وعدهن صلاح الدين بالأمن والطمأنينة » .

فرد عليه رتشارد قائلا : « حقا ، حقا ! ولقد أسأت إلى هذا السلطان ، وأنا مدين له بمحو هـذه الإساءة . يا ليتنى أستطيع أن أقدم له هـذا الجميل وأنا طريح بين جيشين ، جيش المسيحيين وجيش المسلمين ، وكلاهما ينظر إلى » .

وبينما كان رتشارد يتكلم ، دفع ذراعه اليمنى خارج الفراش ، وكانت عارية إلى الكتف ، ثم هب من مرقده متألما ، وهز يده مقبوضة كأنها ممسكة سيفا أو فأسا تلوح به فوق عمامة السلطان المرصعة بالجوهر ، فخف له دى ڤو ، وبصفته ممرضاً حمل سيده المليك بعنف يمازجه اللطف ، ما كان الملك ليحتمله من غيره ، على أن يعود إلى فراشه ، ثم ستر له ذراعه المفتولة ورقبته وكتفيه بعناية كعناية الأم تحنو على وليدها الجزوع .

فقال الملك وهو يضحك ضحكا مرا ويلين للقوة التى لم يستطع لها ردا : « إنما أنت يادى ڤو ممرض غشوم ، ولكنك محب للملك ، وإنى لأظن أن تقية المرض تليق بمحياك الخافض كما تليق بى تقيـة الطفل ، وإنا لنصلح أن نـكون رضيعاً ومرضعته يروّع بهما البنات » .

فأجاب دى ڤو : « كنا فى زماننا نروع الرجال ياسيدى ، وإنى لآمل أن نعيش حتى نروعهم مرة ثانية . ما نوبة حمى حتى لا نستطيع أن نحتملها بصبر جميل كى نخلص منها فى سهولة ويسر ! » .

فتعجب رتشارد وأجاب مندفعا : « نوبة حمى ! قد ترى — وأنت غير مخطئ فيما ترى — أنها ليست إلا نوبة حمى حلت بى ، ولكن أتظنها كذلك مع الأمراء المسيحيين قاطبة ، مع فيليب ملك فرنسا ، ومع ذلك النمساوى البليد ، ومع رجل منتسرّا ، ومع الاسبتارية ، ورجال المعبد ؟ ما ذا عسى أن تكون مع هؤلاء جميعا ؟ استمع إلى أخبرك ، إنمـا هى فالج بارد وفتور مميت — إنما هى مرض يمنعهم عن الكلام والحركة — هى قرحة تأكل كل ما فى قلوبهم من نبل وفروسية وفضيلة ،

وتجعل منهم خونة لكل عهد نبيل يُقسم الفوارس على حفظه ، وتجعلهم لا يأبهون لذكراهم ولا يذكرون الله» .

فقال دى ڤو : « وحق السماء لتهونن على نفسك يا مولاى ، وحذار أن يسمعك أحد خارج هذا السرادق حيث تجرى على الألسنة أمثال هذه الأحاديث بين عامة الجند ، وتولد الشقاق والنزاع فى صفوف المسيحيين ، واعلم أن مرضك يحول دون مواصلتهم ما شرعوا فيه ، وإذا أمكن أن يتحرك المنجنيق بغير لولب أو رافع ، تحرك جيش المسيحيين بغير الملك رتشارد » .

فقال رتشارد : « أنت تداهنني يا دى ڤو » ، ولكنه مع ذلك أحس بأثر الثناء وقوته ، فمال برأسه إلى الوسادة وهو يحاول جهده أن يستقر ، محاولة لم يبدها من قبل ، ولكن توماس دى ڤو لم يكن من ندماء الملوك ، وقد اندفعت إلى شفتيه عبارة الثناء التى فاه بها من تلقاء ذاتها ، ولم يعرف كيف يواصل هذا الحديث المعسول ، حتى يروى هذه الرغبة الدفينة التى أثارها ، ويشبعها ؛ فلزم الصمت حتى سأله الملك محتدا بعد أن استرسل فى تأملاته الكئيبة وقال : « يا إلهى ! هذا حديث شهى سائغ لرجل مريض ، ولكن كيف أن عصبة من الملوك ، وجمعا من الأشراف ، وحشدا من فرسان أوروبا بأسرها ، تخور قواهم من أجل رجل واحد قد وهن ، حتى وإن يكن هذا الرجل هو ملك انجلترا ؟ ولِمَ يوقف مرض رتشارد أو موت رتشارد مسير ثلاثين ألف رجل ، كلهم كمثله بسالة وإقداما ؟ أفئن خر زعيم الأيابيل صريعاً تشتت القطيع لمصرعه ؟ إذا أصاب البازى كبير الكراكى تقدم غيره الرهط يتصدره ؛ لماذا إذن لا تجتمع القوى وتنتخب من بينها رجلا تعهد إليه بقيادة الصفوف ؟ » .

فأجاب دى ڤو قائلا : « وأيم الحق لقد نما إلى أن القادة الملوك قد عقدوا المجامع يتشاورون فى مثل هذا الغرض ، ولعل هذا يرضى جلالتكم » .

فصاح رتشارد متعجبا ، وقد تحركت الغيرة فى نفسه وتوجه بنزق عقله وجهة أخرى وقال : « ها ! إذن لقد نسينى أحلافى قبل أن أتناول العشاء الربانى الأخير ؟

أفيحسبوننى قد قضيت ؟ ولـكن ، كلا ! كلا ! لقد صدقوا ؛ ومن هذا الذى وقع عليه اختيارهم ليكون لجيش المسيحيين قائدا وزعيما ؟ » .

فأجاب دى ڤو : « الرفعة والعزة تشيران إلى ملك فرنسا » .

فأجاب ملك الانجليز : « اى نعم ، فيليب ملك فرنسا وناڤارا ، ونيس منت چوا ، صاحب الجلالة المسيحية العظمى ! يا لها من كلمات تمتلئ بها الأشداق ! ولـكن هنـاك خطرا واحدا أخشاه ، وذلك أن يتخذ شعاره « إلى الخلف » لا « إلى الأمام » ويعود بنـا إلى باريس بدلا من أن يتقدم بنا إلى بيت المقدس ، فلقد علمته حكمته السياسية حتى الآن أن الجور على أمراء الاقطاع ، وسلب حلفائه أجدى له من مقاتلة الأتراك فى سبيل القبر المقدس » .

فقال دى ڤو : « وقد يختارون أرشيدوق النمسا » .

« ماذا تقول ! ألأنه ضخم الجسم ، كبير الحجم ، مثلك يا توماس ؟ نعم إنه قرينك فى الخرق والغباء ، ولـكنه ليس كمثلك سهلا لا يبالى بالمخاطر ، مستهترا لا يأبه للضر والأذى ، صدقنى أن النمسا ليس لها فى هـذه الـكتلة اللحمية من دبيب الحياة إلا بمقدار ما فى الزنبور الصاخب من جرأة ، أو العصفور الصغير من إقدام ، تباله تبا ! أفيكون قائد الفرسان إلى عمل مجيد ! أعطه ابريقا من نبيذ الرين يحتسيه هو ورجاله الأدنياء من قتلة الدببة ورماة الرماح » .

واستأنف البارون الـكلام غير آسف على أن يشغل انتباه سيده بأمور أخرى غير مرضه ، حتى وإن يكن ذلك على حساب أشخاص الأمراء وأرباب النفوذ ، فقال : « وهناك أيضا كبير فرسان المعبد ، مقدام صادق باسل فى مواقع القتال ، حكيم فى مجالس الشورى ، ليس له مُـلْك خاص يصرف جهده عن استرداد الأرض المقدسة — ماذا ترى جلالتكم فى هذا الرجل قائدا عاما لجيوش المسيحيين ؟ » .

فأجاب الملك وقال : « ها ! نعم الاختيار ! إنا لا نستثنى الأخ «جيلزأمورى» نعم إنه يعلم قواعد الحرب ، ويعرف كيف يقاتل فى الطليعة إذا نشبت المعركة ؛ ولـكن هل من العدل يا سر توماس أن نستخلص الأرض المقدسة من يد الرجل

المسلم صلاح الدين — وهو يفيض كرما وفضلا — ونسلمها « جيلز أمورى » ، وهو أشد من صلاح الدين شركا بالله ، وثنى يعبد الشيطان ، عرّاف ، يرتكب أشد الجرائم سوادا وأكثرها شذوذا تحت القباب ، وفى الأماكن الخفية الذميمة ؟ » .

فرد توماس دى ڤو وقال : « إن كبير الاسبتارية أتباع القديس يوحنا ببيت المقدس له صيت لم يلوثه السحر ولا الضلال » .

فأجاب رتشارد على عجل وقال : « ولكنه ضنين خسيس ، أليس كذلك ؟ ألم يساورنا فيه الشك — بل اليقين — بأنه قد باع المسلمين ، تلك المزايا التى ما كان لهم أن يظفروا بها بالقوة الصراح ؟ صه ، صه ، يارجل ! تالله إنه لخير لنا أن نسلم الجيش للملاحى البندقية وباعة لومباردى المتجولين من أن نوكل به كبير أتباع القديس يوحنا » .

فقال البارون دى ڤو : « إذن فلأتقدم باقتراح آخر ، ماذا تقول فى المركيز منتسرّا الشهم الحكيم ، ذلك الرجل الرشيق المبرز فى القتال ؟ » .

فأجاب رتشرد قائلا : « الرجل الحكيم ؟ بل قل الماكر — رشيق فى خدور النساء إن شئت ، أى والله ! كنراد منتسرا ، من ذا الذى لا يعرف الأخيل جميل الهندام ؟ أجل ، إنه سياسى متلون ، يبدل من أغراضه كما يبدل من حواشى صداره بحيث لا تستطيع أن تعرف من ظاهر حلته لونها فى الباطن ؛ وتقول إنه رجل محارب ، أجل ، إن له لقدّا ممشوقا على ظهر الجواد ، وإنه لجرىء تحت الخيام وداخل الحصون ، حيث تكون السيوف مثلومة الظباة والشفرات ، وتكون الرماح مركبة أطرافها من ألواح الخشب لا من أسنان الحديد ؛ ألم تكن معى يوم قلت لهذا المركيز الطروب ، هانحن ثلاثة من خيار المسيحيين ، وهناك فى ذلك السهل ترى عصابة من الأعراب تبلغ الستين عدا ، يضربون فى الأرض ، هلا هممت لتحمل عليهم — ولن يلتقى الفارس الحق منا بأكثر من عشرين من اللئام الكفرة الجاحدين ؟ » .

فقال دى ڤو : « أذكر أن المركيز أجاب بأن جوارحه من لحم البشر لا من صلب الحديد ؛ وأنه يضم بين جنبيه قلب إنسان لا قلب حيوان ، حتى وإن يكن ليثاً ذلك الحيوان ؛ ولـكنى الآن أرى الأمر واضحاً جليا ، سننتهى حيث ابتدأنا ، ولا أمل لنا فى إقامة الصلاة عند قبر المسيح حتى يرد الله للملك رتشارد الصحة والسلامة » .

وبعد هذ القول الخطير ، انفجر رتشارد ضاحكا من الأعماق ضحكا لم يقهقه بمثله من منذ زمن طويل ، ثم قال : « عجباً لهـذا الذى يُعرف بالضمير ، فعن سبيله استطعتَ — وأنت رجل من أشراف الشمال ، قليل الفطنة والحصافة — أن تحمل مليكك على أن يقر برعونته ! حقا إنهم لو لم يروا أنفسهم — كمثلى — أكفاء لأن يحملوا عصا القيادة ، ما اكترثتُ قليلا ولا كثيراً لأن أجرد هـذا الرتل من التماثيل البشرية الحقيرة ، التى عرضتَ علىّ ، واحداً بعد الآخر ، مما ازينت به من زخرف الحرير — ماذا يعنينى من هذه الحلل المزركشة يختالون فيها ؟ إنها لا تعنينى إلا إذا ذكر أربابها كنظراء لى فى هذا العمل الجليل الذى وقفت له حياتى ؛ اى دى ڤو ! إنى أقر بضعفى وجموح مطامعى ، ولا ريب أن معسكر المسيحين يضم كثيرا من الفرسان ممن يفضلون رتشارد ملك انجلترا ، وإنه لمن الحـكمة والعدل أن نسند إلى خيرهم قيادة الجيش ، ولـكن . . . » .

وهنا واصل الملك المحارب حديثه ، وقد هب من مرقده ، وخلع عن رأسه غطاءه ، وتطاير الشرر من عينيه — وكان هذا أبدا شأنهما فى عشيّات المواقع — وقال : « ولـكن لو أن هذا الفارس أراد أن ينصب علم الصليب فوق معبد بيت المقدس حيث أكون أنا عاجزاً عن أن آخذ بنصيبى فى هذا العمل النبيل ، إذن ليكابدن نزالى فى ضراب قاتل ، حينما يبيت فى طوق أن أطعن برمحى ، لحطّه من ذكرى ، واستباقه إلى هدفى ومرماى — دع هذا واستمع ! إنى لأسمع أبواقا على بعد ، ماذا عساها ياترى أن تـكون ؟ » .

فأجاب الرجل الانجليزى البدين وقال : «إنى لأخالها يامولاى أبواق الملك فيليب»

فقال الملك وهو يحاول النهوض : « إنما أنت أصم ياتوماس ، ألا تسمع هذا الصليل وذاك الرنين ؟ وحق السماء لقد حل الترك فى المعسكر ، وإنى لأسمع هتافهم » .

ثم حاول أن ينهض من فراشه مرة ثانية ، فاضطر دى ڤو أن يلجأ إلى قوته الغشومة ، وأن يستعين كذلك برهط من الحجاب ، فاستدعاهم من الفسطاط الداخلى كى يكبحوه .

فقال الملك وهو حانق — وقد تعلقت أنفاسه وأنهكه العراك ، فاضطر أن يخضع لقوة فوق قوته ، وأن يستقر على فراشه فى سكون : « أنت خائن غدار يادى ڤو ، ياليت لى من الطاقة ما يكفى لأن أهشم رأسك بسيفى » .

فقال دى ڤو : « ياليت لك هــذه الطاقة يامولاى ، بل وياليتك تصرفها كما ذكرت وتعرّضنى لأخطارها ؛ لو مات توماس ملتن ، وعاد قلب الأسد كما كان ، إذن لرجحت كفة العالم المسيحى » .

فقال رتشارد وقد مد يده ولثمها البارون إكراما وتبجيلا : « إنما أنت خادم مخلص أمين ، فهل تعفو عن سيدك وقد انتابه الجزع ؟ إن هى إلا هذه الحمى المحرقة التى تزجرك ، أما سيدك رتشارد ملك انجلترا فرؤوف بك رحيم ؛ ولكنى أرجوك أن تذهب وتأتينى بالخبر اليقين : من هؤلاء الأعراب الذين حلوا بالخيم ، فإنى لا أظن هذه الأصوات من أصوات المسيحيين » .

وخرج دى ڤو من السرادق بهذه الرسالة التى كُلِّفها ، ووكل إلى الحجاب والأصفياء والأتباع أن يضاعفوا رعاية المليك إبان غيبته — وقد اعتزم أن لا يطيل أمدها — وتوعّد أن يحمّلهم تبعات الإهمال ، فزاد ذلك — بل زاد من تهيبهم وقلقهم على أداء واجبهم ، إذ كانوا يخشون من المليك حنقه وغضبه أولا ، ومن لورد جلزلاند[1] صرامته وصلابته ثانيا .

(١) هو السر توماس ملتن الجلزلاندى .

الفصل السابع

لم يمض على التخوم[1] فترة من الزمن .
التحم فيها الاسكتلنديون مع الانجليز ،
إلا وكان من عجيب الأمور
ألا يجرى الدم القانى فى الطريق
متدفقا كما تتدفق مياه الأمطار .
موقعة أوتر بورن

انضم إلى صفوف المسيحيين عدد عديد من المقاتلين الاسكتلنديين ، وكان من الطبيعى أن ينضووا تحت لواء ملك الانجليز ، فلقد كان أكثرهم — كما كان الجنود من مواطنيه — من أصل سكسونى أو نورماندى ، وينطقون بلسانهم ، وبعضهم يمتلك عقارا فى انجلترا كما يملك فى اسكتلندا ، وتربط بعضهم ببعض أواصر الدم وعرى التزاوج ؛ كما أن عصرنا هذا يسبق العصر الذى امتدت فيه مطامح ادوارد الأول العظيمة ، واتسعت حتى نفثت بين الأمتين سما زعافا ، وجعلت الحرب بينهما مهلكة ضروسا ، فكان الانجليز يحاربون لإخضاع اسكتلندا ، والاسكتلنديون — بعزمهم الصارم — وعنادهم الذى تميزت به أمتهم فى كل العصور ، يحاربون للدفاع عن استقلالهم ، بأعنف الوسائل وتحت أسوإ الظروف ، مستهدفين لأشد المخاطر . أما الآن فكانت الحروب بين الأمتين — رغم حدتها وتكرار وقوعها — تقوم على مبادئ العداوة العادلة ، وتتسع رقعتها لظلال دمثة ، تجد فيها الرأفة والاحترام الواجب نحو خصوم صرحاء كرماء ، سبيلهما لأن يلطفا ويخففا من مفازع القتال ؛ ولذا ففى أوقات السلم ، وبخاصة حينما تكون الأمتان — كما هما الآن — مشتبكتين فى حرب نشبت فى سبيل داع واحد مشترك ، حرب جعلتها عقائدهم الدينيـة عزيزة على النفوس ، كان المخاطرون البواسل من

(١) المقصود هنا بالتخوم ما بين انجلترا واسكتلندا .

الدولتين يقاتلون جنبا إلى جنب ، وليس للمنافسة الوطنية من أثر ، إلا أن تعمل على حثهما على أن تبز كل منهما الأخرى فى جهادها فى وجه العدو المشترك .

وكان رتشارد يتصف بالصراحة والخلق الحربى ، لايفرق بين رعيته الخاصة ، وبين رعية وليم ملك اسكتلندا ، إلا بمقدار ما يظهرون من شجاعة وإقدام فى ساحة الوغى ؛ يسعى جهده لأن يوفق بين الأمتين ؛ ولكن لما وقع الملك فريسة للمرض ، وساءت ظروف الصليبيين ، عاد إلى الظهور ذلك التنافر بين الفرقتين اللتين لم يؤلف بين صفوفهما إلا الحرب الصليبية — كما تنفجر الجراح العتيقة من جديد فى جسم الانسان من تأثير مرض أو هزال .

والاسكتلنديون والانجليز كلاهما غيور حاد الطبع ؛ فى نفسه أهبة لأن يسىء الظن بالآخر ، والاسكتلنديون أشد من الانجليز إحساسا بهذا ، لأنهم أكثر الأمتين ضعفا وعوزا — فأخذ أبناء الأمتين يشغلون بالشقاق الداخلى تلك الفترةَ التى حَرّمت عليهم الهدنة فيها القتال مع العرب . والاسكتلنديون — كزعماء الرومان الأقدمين — لا يرضون لغيرهم أن يعلو عليهم ، كما أن جيرانهم ، أهل الجنوب ، لا يطيقون المساواة ، فتبادلوا التهم والسباب ، وحط كل فريق من شأن الآخر ، سواء فى ذلك عامة الجند وقادتهم وزعماؤهم ، الذين كانوا خير صحاب وقت الظفر ، كأن وحدتهم لم تكن حينئذ ألزم لهم من أى زمن مضى ، لا لنجاح مسعاهم المشترك فحسب ، وإنما لسلامتهم جميعا كذلك . وبدأ مثل هذا التنافر يظهر كذلك بين الفرنسيين والانجليز ، والإيطاليين والألمان ، بل وبين الدنماركيين والسويديين ، ولكنا سنعنى فى روايتنا هنا قبل كل شىء بما كان من شقاق وانفصام بين أمتين تغذيهما جزيرة واحدة ، وهما لذلك أشد تحرشا إحداهما بالأخرى .

وكان دى ڤو من بين أشراف الانجليز جميعا ، الذين ساروا وراء مليكهم إلى فلسطين ، أشدهم تحاملا على الأسكتلنديين . كانوا جيرانه الأقربين ، وقد اشتبك معهم طوال حياته ، فى حروب خاصة أوعامة ، وأوقع بهم كثيرا من المصائب ،

وتحمل على أيديهم غير قليل من الأرزاء ، وكان حبه وإخلاصه لمليكه قويا شديدا كحب الكلب الانجليزى قديما لصاحبه ، وكان شرسا لا يقربه أحد غير سيده ، حتى أولئك الذين لم يكن له شعور خاص نحوهم من حب أو بغض ، وكان فظا خطرا على كل من لم يكن معه هواه ؛ وما رأى دى ڤو مليكه قط يظهر أية شارة من شارات الرضا والرأفة لذلك الجنس اللئيم الغادر المتوحش[1] الذى نشأ على الضفة الأخرى للنهر الذى يفصل بين بلاده وبلادهم ، أو على الجانب الآخر لأى خط وهمى يشق الفيافى والقفار ويفصل بينه وبينهم ، إلا وتملكته الغيرة والسخط ؛ بل إنه كان يشك فى نجاح الحملة الصليبية ، التى كان أولئك القوم يحملون فيها السلاح ، وكان ينظر إليهم فى دخيلة نفسه وكأنهم لا يفضلون كثيرا الأعراب الذين أتى لنزالهم ، بل وفوق ذلك كان دى ڤو يرى نفسه رجلا انجليزيا صريحا هادئ الطبع ، لم يتعود أن يخفى أية شارة — مهما خفّت — من شارات الحب أو البغض ، ولذا فقد كان ينظر إلى التظرف والتلطف فى الحديث — الذى تعلمه الاسكتلنديون من تشبههم بالفرنسيين حلفائهم الدائمين ، أو الذى ربما كان ينبعث عن إعجاب بالنفس وتكتم فى الخلق — كأنه دليل على خطط ماكرة يدبرونها ضد جيرانهم الذين كان دى ڤو يعتقد — والثقة الانجليزية الحق تملأ نفسه — أن الاسكتلنديين لن يتفوقوا عليهم بمحض الرجولة الخالصة .

ومع أن دى ڤو كان يتأثر بهذه العواطف نحو جيرانه أهل الشمال — بل وكان يبالغ فيها ويبقى عليها غير منقوصة ، حتى كانت تشمل أولئك الذين ينضوون منهم تحت لواء الصليب — فقد كان احترامه للمليك ، وإحساسه بالواجب الذى يفرضه عليه عهد أخذه على نفسه للصليبيين ، يحرّمان عليه أن يظهر هذه العواطف بأية وسيلة ما ، إلا أنه أصرّ على أن يتحاشى مخالطة الاسكتلنديين زملائه فى القتال ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وكان يتكتم ويكتئب إذا اضطرته الظروف أن يلاقيهم حيناً ما ، وكان ينظر إليهم شزراً إذا التقى بهم فى المسير

(١) يقصد الاسكتلنديين .

أو المخيم ؛ ولم يكن أشراف الاسكتلنديين وفرسانهم ليتقبلوا هذا الازدراء بالتغاضي أو إهمال الجواب ، فكان أن أصبحوا ينظرون إليه كأنه عدو دائب لدود لأمة لم يحمل لها في الواقع أكثر من البغض وشيء من التحقير؛ بل إن كل من أمعن ودقق، عرف أنه وإن لم يعاملهم ببر المسيحية ، الذي يقضي على المرء أن يقاسي كثيراً ويغلّب الرأفة والشفقة إذا تحكّم — إلا أنه لم يفته بأية حال أن يكرمهم — ولو قليلا وإلى مدى محدود — إكراماً يخفف من عوز المحتاجين ، ويفرج من هم المكروبين ؛ وكان لتوماس الجلزلاندي من الثروة ما يمده بالمؤونة والدواء ، فكان شيء من هذا المدد يتسرب سرا إلى منازل الاسكتلنديين ، وهذا الإحسان الجافي كان يقوم على عقيدة أن العدو يلي الصديق في الأهمية ، ولا يتوسطهما رجال هم بين بين ، فإنما هؤلاء لا هم إلى أولئك ولا هم إلى هؤلاء ، وليسوا أهلا حتى للمحة من الفكر أو الاعتبار . وهذا البيان ضروري للقارئ كي يفهم جد الفهم ما سنفصله فيما يلي .

لم يبعد توماس دي ڤو كثيراً عن مدخل السرادق الملكي حتى أدرك ما أدركته في لمح البصر أذن ملك انجلترا الحادة ذات الخبرة والمعرفة بفن العزف والغناء ، وذلك أن الألحان الموسيقية التي طرقت أذنيه ، كانت تنبعث من مزامير العرب وقصباتهم وطبولهم ، وفي نهاية طريق طويلة ضربت الخيام على جانبيها ، متصلة بفسطاط رتشارد ، وقعت عيناه على حشد من الجنود الكسالى ، تجمعوا حول المكان الذي كانت أنغام الموسيقى تنبعث منه ، وهو يتوسط المعسكر ؛ ولشد ما كانت دهشته حينما رأى بين الخوذات المتعددة الأشكال — التي كانت على رؤوس الصليبيين من الأمم المختلفة — عمامات بيضا وحراباً طوالا ، مما كان يدل على وجود الأعراب المسلحين ؛ كما رأى كثيراً من رؤوس الجمال والإبل الضخمة المشوهة ، وقد مكّنتها أعناقها الطويلة القبيحة من الإشراف على الجمع المحتشد .

عجب البارون لهذا المشهد واشتد سخطه ، إذ رأى منظراً فريداً لم يكن يتوقعه ؛

ذلك لأن العادة جرت بأن تُلقى أعلام الهدنة جميعاً ، وغير ذلك من رسائل العدو ، في مكان معين خارج الحدود . وتلفت شغوفاً ذات اليمين وذات اليسار ، عله يرى أحداً يستفسر منه عن علة هذه الظاهرة الجديدة الخطيرة .

وكان أول من وقعت عليه عيناه من الناس رجل يتقدم نحوه ، ظنه لأول وهلة من خطوه الرزين المتعجرف أسبانيا أو اسكتلنديا ، ثم تمتم لنفسه وقال : « إنه اسكتلندى ؛ إنه فارس النمر ، لقد شاهدته مرة يقاتل فى سبيل رجل من بنى وطنه فيحسن القتال ولا يبالى » .

وقد كره أن يبتدر القادم حتى بسؤال عارض ، وأوشك أن يمر بالسر كنث وعلى سيماه الاكتئاب والتكبر ، وكأن لسان حاله يقول : « إنى أعرفك ، ولكنى لن أبادلك الخطاب » . ولكن فارس الشمال أفسد عليه خطته إذ أقبل عليه يقصده ، وبدأه بالمجاملة وقال : « سيدى دى ڤو الجلزلاندى ، فى ذمتى رسالة علىّ أن أبلغك إياها » .

فرد عليه البارون الانجليزى وقال : « ها ! رسالة تبلغنيها ؟ قل ما شئت وأوجز إنما أنا فى خدمة الملك » .

فأجاب السر كنث « إنما رسالتى أمسُّ بالملك رتشارد مما تقوم أنت عليه ، لقد أتيته بالصحة والعافية ، إن صح أملى » .

وهنا رمق لورد جلزلاند الرجل الاسكتلندى بعين الريبة والإنكار وقال : « لستَ بالطبيب المداوى على ما أعتقد يا سيدى الاسكتلندى — إنه لأقرب إلى ظنى أن تأتى لملك انجلترا بالمال والثراء » .

ولم يرض السر كنث عن الأسلوب الذى أجابه به البارون ، فرد عليه فى هدوء وقال : « إنما الصحة لرتشارد فخار وثروة للعالم المسيحى طرا — ولكنى على عجل ، وأتوسل إليك أن تأذن لى برؤية الملك » .

فقال البارون : « كلا يا سيدى الكريم ، لن تراه حتى تُفْضى إلى برسالتك

بأكثر من ذلك جلاء . ليست غرف الأمراء المرضى مفتحة الأبواب لكل طارق كأنها نزل من منازل الشمال » .

فأجاب السر كنث وقال : « إن الصليب الذى أحمله يا سيدى — كما تحمله أنت — والأمر الجلل الذى أتيت لتبليغه ، يحتمان على الآن أن أتغاضى عن أسلوبك هذا ، الذى ما كنت لولا ذلك لأصبر عليه ؛ واعلم فى صريح العبارة بعد هذا أنى أتيت معى بطبيب من بلاد المغرب أخذ على نفسه أن يبرئ لنا الملك رتشارد » .

فقال دى ڤو : « طبيب من بلاد المغرب ! ومن ذا الذى يكفل لنا أنه لم يأت بالسم الناقع عوضا عن الدواء الناجع ؟ » .

« حياته ياسيدى — إنه يقدم رأسه كفالة لما يقول » .

فقال دى ڤو « كم من رجل خبيث ، ثابت العزم ، عرفتُ ، لم يُقم لحياته وزنا ، بل يسيرُ إلى المقصلة مرحا كأن الجلاد رفيق له فى حلبة الرقص » .

فأجاب الرجل الاسكتلندى وقال : « حقيقة الأمر ياسيدى أن صلاح الدين — الذى لا ينكر عليه أحد أنه عدو كريم شجاع — قد بعث بهذا الطبيب إلى هنا ، ومعه حاشية شريفة وحرس نبيل ، ممن يليق بالمكانة العليا التى يرفع السلطان إليها « الحكيم » ، ومعه كذلك فاكهة وطعام وشراب لغرفة الملك الخاصة ، كما أنه يحمل رسالة جديرة بأن تصدر من عدو نبيل إلى عدو نبيل ، يرجو له فيها أن يسلم من الحمى معافى ، حتى يتهيأ لزيارة السلطان الذى سوف يأتيه وبيده أحدب مسلول ، وخلفه مائة ألف فارس ؛ فهل تأذن — وأنت من أعضاء المجلس الملكى السرى — بأن تُطْرَح عن هذى البعير أحمالها ، وأن تُعد العدة للقاء الطبيب النطاسى ؟ » .

فأجاب دى ڤو وكأنه يحدث نفسه : « ياللعجب ! ومن ذا الذى يكفل لنا شرف صلاح الدين فى أمر ، لو ساء فيه مقصده ، لخلص فى الحال من أشد خصومه وأقواهم ؟ » .

فأجاب السر كنث : « سأكون أنا نفسى له ضمينا بشرفى وحياتى ومالى » .

فتمتم دى ڤو ثانية وقال : « عجباً ، رجل من أهل الشمال يكفل رجلا من أهل الجنوب — اسكتلندى يضمن تركيا ! هل لى ياسيدى الفارس أن أسألك كيف أضحى يهمك هذا الأمر ؟ » .

فأجاب السر كنث : « كنت متغيبا فى الحج ، وكانت لدىّ حينذاك رسالة أبلغها ناسك (عين جدة المقدس) » .

« هلا تستأمننى على هذه الرسالة يا سر كنث ، وعلى ما أجاب به الناسك عليها ؟» .

فأجاب الاسكتلندى قائلا : « كلا ياسيدى » .

ورد عليه الرجل الانجليزى فى أنفة وكبرياء وقال : « إنى من أعضاء المجمع السرى فى انجلترا » .

فقال السر كنث : « ليس علىّ لهذه البلاد حق الولاء ؛ وإن كنت قد تبعت جانب ملك انجلترا فى هذه الحرب طائعا ، إلا أنى مرسل من قبل المجمع العام للملوك والأمراء وكبار القواد فى جيش الصليب المبارك ، ولهؤلاء وحدهم أقوم برسالتى » .

فأجاب البارون دى ڤو نخورا شامخا بأنفه وقال : « ها ! ماذا تقول ؟ اعلم يا من قد تكون رسول الملوك والأمراء ، أن ليس لطبيب أن يقرب فراش رتشارد ملك انجلترا دون قبول رجل جلزلاند ، ولن يجسر على اعتراض مشيئتى إلا من أتى برسالة السوء » .

ثم هم بالانصراف فى كبر وخيلاء ، ولكن الرجل الاسكتلندى دنا منه ، واعترض سبيله ، ووجه إليه الخطاب فى صوت خافت ، ولكنه لم يخل من نبرة تنم عن بعض الاعتزاز بالنفس ، وسأله إن كان يقدره كرجل كريم وفارس نبيل .

فأجاب توماس دى ڤو فى شىء من التهكم والسخرية وقال : « الاسكتلنديون جميعاً أشراف نبلاء بفضل مولدهم ونشأتهم » ؛ ولكنه أحس بالحيف فى كلامه ، ورأى الدم يعلو فى وجنتى كنث ، فاستطرد قائلا : « من الجرم أن يرتاب المرء فى أنك

فارس نبيل ، وإنه لا إثم على الأقل من رجل رآك وأنت تؤدى واجبك حق الأداء في جرأة وأقدام » .

وصادفت هذه الصراحة فى هذا الاعتراف الأخير من نفس الفارس الاسكتلندى قبولا فقال : « إذن فانى أقسم لك ياتوماس الجلزلاندى — وأنا رجل حسيب نسيب ، وأنا فارس ارتديت نطاقى وأتيت إلى هنا طلبا للشهرة والصيت فى هذه الحياة الفانية ، والعفو عن ذنوبى فى الحياة الآخرة — أنى ، بحق هذا الصليب المبارك الذى أحمل ، حين أوصى بخدمة هذا الطبيب المسلم ، لا أرمى إلا إلى سلامة رتشارد قلب الأسد » .

فصعق الرجل الانجليزى من هيبة هذه الضراعة ، وأجاب باخلاص أشد مما أظهره حتى آنئذ وقال : « خبرنى يا فارس النمر لو أنى سلّمت بأنك عن نفسك مقتنع بهـذا الأمر ، فهل تظن أنى أصيب فى بلاد ، فنُّ التسمم فيها ذائع بين الناس ذيوع فن الطهى ، إن أنا أتيت بهـذا الطبيب المجهول ، يجرب عقاقيره فى رجل ، صحته لها قيمتها فى العالم المسيحى » .

فأجاب الاسكتلندى قائلا : « سيدى — لا يسعنى إلا أن أجيب بأن حامل ترسى وهو الوحيـد من أتباعى الذى أفلت من الحروب والأوبئة وبقى لى يسهر على — قد أصيب منذ عهـد قريب بهذه الحمى ذاتها ، التى حلت بالملك رتشارد الصنديد فشلّت أهم الأعضاء فى هذا المشروع المقـدس ، وقاسى منها كثيراً وتعرض لأخطارها ، فأمده الحـكيم بالدواء من منذ أقل من ساعتين ، وهو الآن يغط فى نوم هادئ ؛ أما أن هذا الحـكيم يستطيع أن يشفى هذه العلة القاتلة فإنى لا أشك فى ذلك ، وأما أنه يرغب فى الأداء فهذا ما يكفله — على ما أظن — أنه رسول من السلطان صاحب النفوذ ، وهو رجل طيب القلب مخلص أمين ، إن صح أن تطلق هذه الصفات على كافر أعمى البصيرة ؛ ويكفينا ضمين أنه إن نجح فى علاجه فله ثواب مؤكد ، وإن فشل عامدا فعليه الجزاء » .

وكان الرجل الانجليزى يصغى مطرق النظرات ، كأنه يشك فيما يسمع ؛

ولكنه لم يكن عن الاقتناع راغبا ، وأخيرا رفع بصره وقال : « هل لى أن أرى خادمك المريض يا سيدى الكريم ؟ » .

فتردد الفارس الاسكتلندى وعلا الدم فى وجنتيه وأجاب أخيراً وقال : « بكل ارتياح يا لورد جلزلاند ، ولكنك يجب أن تذكر ، حين ترى حقارة مسكنى ، أن نبلاء اسكتلندا وفرسانها لا يسرفون فى الطعام ، ولا يتقلبون على الحرير ، ولا يأبهون لجلال المقام ، إنما هذى من خواص جيرانهم أهل الجنوب » ، ثم استطرد وقال : « إنى أقطن فى بيت حقير يا لورد جلزلاند » ، وشدد التأكيد على كلمة « حقير » فى عبارته وهو يسير نحو مقر إقامته المؤقت فى شىء من التأبى والتمنع .

ومهما تكن أهواء دى ڤو ضد الأمة التى كان منها هذا الرفيق الجديد — ونشهد أنا لا ننكر أن بعض هذه الأهواء يرجع إلى ما سار عن هذه الأمة فى المثل من الفقر والعوز — فلقد كان فيه لديه من نبل المقصد ما لم يحبب إليه إذلال رجل باسل جرىء ، أكرهته الظروف على أن يبوح بفاقة كان يود إخفاءها .

فقال : « عار على مقاتل الصليب أن يفكر فى زخرف الدنيا أو فى رغد العيش وهو يشق الطريق للاستيلاء على الأرض المقدسة ؛ إنا مهما تكبدنا من مشقة فنحن خير من جماعة الشهداء والقديسين الذين وطئوا هذه الأرض من قبلنا ، وهم الآن يمسكون بمصابيح من ذهب وبنخيل دائم الاخضرار » .

ولم ينطق قط توماس الجلزلاندى حياته بحديث فيه من الكناية والاستعارة مثل ما فى هذا الكلام ، وربما كان ذلك لأن هذا الحديث لم يعبر عن كل ما كان يجيش فى نفسه من إحساس وعاطفة ، لأنه كان على شىء من حب اللهو ورخاء العيش ؛ وقد بلغا حينئذ مكان المخيم الذى اتخذه فارس النمر له مسكنا .

وكان ظاهر المكان هنا يدل على أن قواعد التقشف ، التى كان الجلزلاندى يرى أن الصليبيين جميعاً يجب أن يلزموها ، قد روعيت جميعا : مساحة من الأرض قد تتسع لأن تقام فيها ثلاثون خيمة ، تُرك بعضها خلاء وفقا لقواعد

الصليبيين فى ضرب الخيام — وذلك لأن الفارس كان قد طلب أرضاً تتسع فى ظاهر الأمر لحاشيته الأولى — وأقيم فى بعضها الآخر قليل من الأكواخ الحقيرة المصنوعة من غصون الأشجار ، والتى تظللها أوراق النخيل ، وكان يبدو على هذه المساكن أنها قد هُجرت كل الهجران ، فخرب الكثير منها وتدمر ، وكان الكوخ الأوسط — وهو يمثل سرادق القائد — يتميز بعلم صغير له ذيل كذيل السنونو ، رفع على رأس رمح وتهدلت ثناياه الطويلة على الأرض فى سكون ، كأنه يتألم من حرارة شمس آسيا المحرقة ؛ ولم يقف إلى جوار هذا الكوخ — وهو رمز نفوذ الاقطاع وشرف الفروسية — حاجب أو خادم أو حتى حارس واحد ؛ فاذا كان اسم المكان لايدفع عنه العدوان ، فهو مكان لايستحق الحراسة .

أرسل السر كنث حواليه نظرة كئيبة ، ولكنه كبح إحساسه ودخل الكوخ ، وأشار إلى البارون جلزلاند أن يتبعه ، ثم تلفت حواليه ثانية ، وأرسل نظرة فيها تمعن ، تنم عن إشفاق مشوب بشىء من الازدراء ، والإشفاق — كالحب — يسير دوما مع الازدراء كما يقولون ؛ ثم نكس رأسه الشامخ ، ودخل كوخا منخفضا كاد جسمه الضخم أن يملأ كل فراغه .

وكان أهم ما يشغل داخل الكوخ سريران ، أحدهما خال ، وقد انتثرت عليه مجموعة من أوراق الأشجار وانتشر فوقه جلد ظبى ؛ وتدل الأسلحة الملقاة إلى جانبه ، والصليب الفضى المرفوع إلى رأسه فى عناية ووقار ، على أن هذا السرير هو فراش الفارس نفسه ؛ أما السرير الآخر فكان يضم العليل الذى تحدث عنه السر كنث ، وهو رجل قوى البنية ، غليظ الملامح ، تدل نظراته على أنه قد تجاوز سن الكهولة ؛ وكان سريره أكثر هنداما وأشد نعومة من سرير سيده ، وقد بدا للعيان أن السر كنث قد وقف ثيابه الفاخرة وعباءته الفضفاضة ، التى كان الفرسان يرتدونها فى أوقات السلم ، وغيرها من الأشياء الدقيقة التى تتعلق باللباس والتزين ، على توفير الراحة لخادمه العليل ؛ وفى مكان خارج الكوخ ، يقع تحت بصر البارون ، كان يجثو على ركبتيه غلام خشن الكساء ، يلبس حذاء طويلا

من جلد الغزال ، وقلنسوة زرقاء ، وصدارا له مشبك من الحديد انطفأ بريقه ، إلى جوار صحفة بالية مملوءة بالفحم ، وكان يطهى فى طبق من الصلب خبزا من الشعير كان إذ ذاك — ولا يزال — طعاما مستحبا لأهل اسكتلندا ، وكان جانب من ظبى يتعلق بدعامة من دعامات الكوخ الكبيرة ، ولم يكن من العسير على الرائى أن يعرف من أين كان هذا الظبى ، فلقد كان هناك كلب كبير من كلاب الصيد أكبر حجما وأنبل مظهرا من غيره ، حتى من تلك التى تقوم على حراسة الملك رتشارد وهو فى فراش المرض ، وكان الكلب يرقد وهو يرقب بعينيه الفطير وهو يخبز ، وحينما دخل الفارس وصاحبه الكوخ ، أرسل الكلب الأريب نباحا مختنقا ينبعث من صدره العميق كأنه رعد يقصف على أمد بعيد ، ولكنه لمح صاحبه ، فهز ذيله ونكس رأسه اعترافا بوجوده ، وسكت عن تحيته ذات العجيج والضجيج كأن غريزته النبيلة قد علمته حشمة الصمت فى غرفة المريض .

وعلى حشية من الجلد إلى جانب السرير كان يجلس الطبيب المغربى الذى تحدث عنه السر كنث ، وقد وضع ساقا فوق الأخرى كما يفعل أهل الشرق عادة ، ولم يبد منه فى النور الضئيل غير قليل ، إلا أن النصف الأدنى من وجهه كانت تحجبه لحية طويلة سوداء ، أرسلها على صدره ، وكان يرتدى تقية تترية من صوف الغنم ، صنعت فى « استراخان » لونها قاتم ، وقفطانه الفضفاض — أو ثوبه التركى — كان كذلك ذا صبغة معتمة ؛ وفى هذا الظلام ، الذى كان يغشى ملامحه ، لم يبد من أسارير وجهه غير عينين نافذتين ، يتألق فيهما بريق غير معهود ، فوقف اللورد الانجليزى صامتا فى تهيب ووقار ، لأن هذا الرجل الماثل أمام دى فو — رغم خشونة هيئته — كان عليه سيما الكرب والعوز يقاسيهما برباطة جأش دون شكوى أو أنين ، ومثل هذا المشهد ، فى أى وقت كان ، يدعو توماس دى فو إلى احترام لا تثيره فى نفسه المظاهر الفاخرة التى تحيط بغرف الملوك ، مع استثناء غرفة الملك رتشارد وحدها .

ولم يُسمع لفترة من الزمن صوت غير أنفاس مطردة وئيدة يرددها العليل ، الذى كان ظاهره يدل على أنه فى سبات عميق .

وقال السر كنث : « لم يأخذ الكرى بمعقد جفنيه لست ليال مضت ، كما يؤكد لى الشاب الذى يباشره » .

فقال توماس دى ڤو وقد أمسك بيد الفارس الاسكتلندى وضغط عليها ضغطا فيه من الإخلاص ما لم يبدُ فى كلامه : « أيها الاسكتلندى النبيل ، ينبغى لك أن تعنى بخادمك هذا ، فهو لا يأخذ من الطعام ما يكفيه ؛ ولا من العناية ما يغنيه » .

ورفع صوته بطبيعة الحال إلى نبرته المألوفة الحاسمة فى العبارة الأخيرة من كلامه ، وحينئذ اضطرب العليل فى سباته .

فقال : وكأنه يدمدم فى حلم : « سيدى ، اى سر كنث النبيل ، هلا نشرب أنا وأنت من ماء الكليد[1] البارد الشافى بعد مياه العيون الآسنة فى فلسطين ؟ » .

فأسر السر كنث إلى دى ڤو وقال : « إنه يحلم بموطنه ، وإنه لسعيد فى نعاسه » ولم يكد يلفظ بهذه الكلمات حتى هب الطبيب من مكانه بجوار سرير المريض ، ووضع يد العليل — التى كان يرقب نبضها بعناية وحذر — على الفراش ، فى هدوء وسكينة ، ثم أقبل على الفارسين وأمسك كلا منهما من ذراعه ، وأشار إليهما أن يلزما الصمت ، وسار بهما إلى خارج الكوخ .

ثم قال : « باسم عيسى ابن مريم ، الذى نكرم كما تكرمون ، ولكننا لا نحوطه بالخرافة العمياء ، لا تفسدا أثر الدواء الناجع الذى تناول منه المريض . فى يقظته الآن إما حتفه أو فقدان عقله ؛ اذهبا وعودا حينما ينادى المؤذن من فوق المنارة بصلاة المغرب فى المسجد ؛ وإذا بقى المريض دون قلق حتى آنئذ ، فانى أعدكم أن هذا الجندى الفرنجى سوف يقوى —دون إجهاد لصحته — على أن يتبادل معكما حديثا قصيراً فى أى أمر تسألانه فيه ، وبخاصة إن كان السائل سيده » .

فتراجع الفارسان طوعاً للأمر الجازم الذى أمرهما به الطبيب ، وكان يبدو

---

(١) الكليد نهر فى اسكتلندا .

عليه أنه يفهم جد الفهم أهمية الحكمة الشرقية السائرة ، وهى أن غرفة المريض مملكة الطبيب .

وتوقف الفارسان عن المسير ، ولبثا واقفين معاً لدى باب الكوخ ، وعلى سيما السر كنث أنه كان يتوقع من زائره أن يودعه ، ويبدو على دى فو كأن فى نفسه شيئاً يحول بينه وبين أن يفعل ذلك ؛ ولكن الكلب انطلق من الخيمة وراءهما ورمى بوجهه الطويل الخشن فى يد صاحبه ، كأنه يتوسل إليه خاشعا أن يخلع عليه بعض عطفه ، ولم يكد الكلب يحظى من صاحبه بالرعاية التى أراد ، فى كلمة طيبة ، وتربيت خفيف ، حتى ود أن يظهر عرفانه للجميل وسروره بمجاوبة سيده له ، فهرع مسرعا ، وهرول فى مسيرة ، ومد ذيله ولوح به يمينا ويساراً ، وأداره هنا وهناك ، وهزه إلى أعلى وإلى أسفل ، وهو يجوس خلال الأكواخ المتهدمة والرحبة التى وصفنا ، ولكنه لم يتخط حدود المنطقة التى عرف بفطنته أن عَلَم صاحبه يحميها ، وبعد بضع وثبات من هذا القبيل ، دنا الكلب من صاحبه وتخلى لحينه عن مجونه ، وعاد إلى الجد الذى ألف ، وإلى حركاته الوئيدة ومسلكه المتوانى ، وبدا عليه الخجل لأنه تنحى إلى هذا الحد البعيد عن الرزانة وحكم النفس ، أيا كان الباعث على ذلك .

فنظر الفارسان جذلين ؛ أما السر كنث فقد حق له أن يفخر بكلبه النبيل ، وأما البارون الانجليزى — وهو من أهل الشمال — فقد كان بطبيعة الحال ممن يعجبون بالصيد ، فيستطيع أن يقدر مالمثل هذا الكلب من جدارة .

فقال : « إنه كلب سليم قدير ، وإنى لأظن ياسيدى أن لو كان لهذا الكلب من القوة ماله من سرعة العدو ، إذن فلن يكون له لدى الملك رتشارد صنو أو نظير ، ولكنى أرجوك — وأنا أكلمك بالشرف والكرامة — أن تخبرنى هلاّ سمعت بالبيان الذى يحتم على كل من هم دون مرتبة « الأيرل » أن لا يقتنوا كلاب الصيد فى دائرة الملك رتشارد بغير إذن منه ، وما أظن ياسير كنث أنك استصدرت من المليك هذا الإذن ، وإنى أكلمك الآن كتابع من أتباع الملك » .

فقال السر كنث محتدا : « وإنى أجيبك كفارس اسكتلندى حر ؛ إنى أسير اليوم تحت لواء انجلترا ، ولكنى لا أذكر أنى خضعت يوما لقوانين الغاب التى تسود فى هذه الدولة ، بل وإنى لا أحمل لها من الاحترام مايدفعنى إلى ذلك ؛ إذا نفخ فى البوق لحمل السلاح خفّت قدماى إلى ركابى كما يخف غيرى ، وإذا رن رنينه للحمل على العدو ماتخلف رمحى وراء غيره أو استكن ؛ ولكنى إذا فرغت من واجبى وكانت ساعة التراخى ، فليس من حق الملك رتشارد أن يحول بينى وبين نزهتى وراحتى » .

فقال دى فو : « ومع ذلك فإنه من الحق أن لا تطيع سنة المليك ، ولذا فهل تسمح لى — بصفتى صاحب النفوذ فى هذا الأمر — أن أبعث إليك بما يحمى صاحبى هنا ؟ » .

فأجاب الاسكتلندى فى برود : « شكرا لك ، ولكنه يعرف الحى الذى يخصنى ، وفى حدود هذا الحى أستطيع أن أدفع عنه بنفسى ، ومع ذلك . . . » وهنا بدل أسلوب كلامه واستطرد قائلا : « ومع ذلك فما هذا إلا رد بارد منى لعطف نبيل القصد ؛ إنى أشكرك يا سيدى بكل قلبى ، إن رؤساء الاصطبل الملكى قد يرون فى «رزوال» (اسم الكلب) بعض المضرة فيلحقون به الأذى ، ولكنى قد لا أتوانى فى رد هذا الأذى ، وقد ينجم الشر عن ذلك ، لقد رأيت الكثير من شؤون دارى يا سيدى » ، وهنا تبسم واستأنف الحديث وقال : « فلا أرى بى حاجة إلى أن أستحى من أن أقول بأن « رزوال » هو أهم ما يمدنا بالمؤونة ، وإنى لشديد الأمل فى أن رتشارد الأسد لن يكون كالليث الذى نسمع به فى الأغانى الخرافية ، الذى خرج للصيد وعاد بالغنيمة كلها لنفسه ؛ إنى لا أظن أنه يضن على رجل كريم فقير ، من اتباعه المخلصين ، بساعة يلهو فيها ، وجناح طائر يتبلغ به ، وبخاصة إذا كانت الأطعمة الأخرى عسيرة المنال » .

فقال البارون : « وحق ما أعبد إنك انما تنصف الملك ، ولكن فى ثنايا لفظك — رغم رقته وعذوبته — ما يثير ثائرة كل أمير نورماندى » .

فقال الاسكتلندى : « لقد سمعنا أخيرا من أفواه المنشدين والحجاج أن جماعة من طريدى الدهماء فى بلادكم قد ألفوا عصابات كبيرة فى مقاطعتى يورك ونتنجهام وعلى رأسهم نبال شديد البأس يدعى « روبن هود » ، ووكيله « جون الصغير » ، وإنى لأظن أنه خير لرتشارد أن يتراخى فى تطبيق قانون الغاب فى انجلترا من أن يفرضه فى الأرض المقدسة » .

فأجاب دى فو وقد هز كتفيه كأنه يود أن يتحاشى التخبط فى جدل خطر كريه وقال : « حقا إنه لعمل عنيف يا سر كنث ، وإنها لدنيا جنون يا سيدى — والآن يجب أن أودعك ، إذ لا بد لى أن أسارع بالعودة إلى سرادق الملك ، وسأعودك فى مسكنك إن رضيت ساعة الغروب ، وأتحدث إلى هذا الطبيب المشرك ؛ وإنى لأحب بطيب الخاطر أن أبعث إليك بما يسرى عنك ولو قليلا ، إذا كنت لا ترى فى ذلك إيذاء لنفسك » .

فقال السر كنث : « أشكرك يا سيدى ، لا حاجة بى إلى ذلك ، لقد أتى « رزوال » إلى خزانة مأكلى بما يكفينى أربعة عشر يوما ، فإن شمس فلسطين ، التى تجلب الأمراض ، تساعد على حفظ لحم الغزال مقددا جافا » .

ثم افترق المحاربان وهما أشد صداقة مما التقيا أول الأمر ، وقبل أن ينفصلا ، وقف توماس دى فو يتعرف بشىء من الإسهاب الظروفَ التى تلابس بعثة هذا الطبيب الشرقى ، وتسلم من الفارس الاسكتلندى وثائق الاعتماد التى أتى بها من صلاح الدين للملك رتشارد .

الفصل الثامن

الطبيب الحكيم يحذق شفاء الجروح
أجدى على الإنسان من جيوش وجيوش .
من الالياذة ترجمة « پوپ »

استمع الملك المريض إلى ما نبأه به بارون جلزلاند الصادق الأمين ، ثم قال : « هذه قصة عجيبة يا سر توماس ، هل أنت على يقين من أن هذا الرجل الاسكتلندى صادق أمين ؟ » .

فرد عليه الرجل الغيور ساكن الحدود وقال : « لا أستطيع أن أجيبك على ذلك يا سيدى ، إنى أسكن بلدا شديد القرب من الاسكتلنديين ، ولكنى لم أتبين فيهم كثيرا من الصدق ، وقد وجدتهم أبدا يتذبذبون بين الحق والباطل ؛ ولكن هذا الرجل يتخلق بالصدق ، وسواء كان شيطانا أم اسكتلنديا ، فإن من واجبى أن أعترف له بهذا إرضاء لضميرى » .

ثم سأله الملك وقال : « وماذا ترى فى هيئته كفارس يا دى فو ؟ » .

« إن جلالتكم أعرف منى بهيئات الرجال وسلوكهم ، وإنى على ثقة من أنكم قد لحظتم كيف كان مسلك رجل النمر هذا ، فلقد تحدث الناس عنه طويلا » .

قال الملك : « حق ما قلت يا توماس ؛ إنا شهدناه بأنفسنا ، ولقد كان مرمانا أبدا من تصدر المعارك أن نرى كيف يقوم موالينا وأتباعنا بواجباتهم ، ولم نتقدم قط الصفوف مدفوعين بشهوة الزهو والغرور ، كما قد يتطرق إلى أذهان بعضكم ؛ إننا نعلم أن ثناء الانسان زهو باطل ، وإن هو إلا كبخار الماء ، ولذا فلقد شككنا السلاح لأغراض أخرى ، لا طمعا فى اجتلاب المدح والثناء » .

فصعق دى ڤو حينما سمع الملك وهو يلقى هذا البيان الذى لا يتفق وطبيعته ، وظن لأول وهلة أنه لم يعمد إلى هذا الحديث المهين عن الشهرة العسكرية — وقد كانت له بمثابة الأنفاس يستنشقها — إلا لاقتراب الموت منه على الأقل ، ولكنه

تذكر أنه التقى فى السرادق الخارجى بالقس الذى تعود الملك أن يعترف له ، ففطن إلى أن إذلال النفس هذا ، الذى تملك الملك إذ ذاك ، هو من أثر الوعظ الذى ألقاه ذلك الرجل المقدس ، فلم يحر جوابا ، وإنما أخذ يكابد الملك وقد استأنف الحديث .

وقال رتشارد مستطردا : « أى نعم ، لقد شهدتُ حقا بأى أسلوب كان هذا الفارس يقوم بواجبه ، والله لولا ملازمته لى لما كان لعصا قيادتى شأن يذكر ؛ لقد أصابه قبل اليوم شىء من جودنا ، ولكنى لحظت فيه الاعتداد بالنفس والصلف والإقدام » :

وهنا لحظ بارون جلزلاند أن الملك قد تغيرت ملامحه فقال : « مولاى ، إنى لأخشى أن أكون قد اعتديت على جلالتكم باغضائى قليلا عن تجاوزه وعدوانه » .

فأجاب الملك وقد قطب جبينه وتكلم بلهجة الدهشة والغضب وقال : « كيف هذا يا دى ملتن ؟ هل أنت تتجاوز عن قحته ؟ إن هذا لن يكون » .

« هل لمولاى أن يأذن لى أن أذكره أن من حق وظيفتى أن أسمح لمن كان من دم كريم أن يقتنى كلبا أو كلبين فى المعسكر ، وذلك إبقاء على الفن النبيل ، فن الصيد والقنص ؛ بل إنه لمن الجرم أن نشوه أو نؤذى مخلوقا وديعا ككلب هذا الرجل الكريم » .

فقال الملك : « إذن إن له لكلباً مليح المنظر » .

فأجاب البارون ، وهو رجل شديد الحب للقنص فى الخلوات ، وقال : « إنه لمخلوق سماوى وافر الكمال ، وهو من أنبل الفصائل الشمالية ، عريض الصدر ، قوى العجز ، أسود اللون ، مرقش من قُبُل وعلى الأقدام بخطوط داكنة ، عليه سمات شهباء تضرب إلى البياض ، فيه قوة يصرع بها الفحل ، وسرعة يطارد بها الوعل » .

فضحك الملك من هذه الحماسة وقال : « وقصارى القول إنك قد أذنت له باقتناء الكلب وانتهى الأمر . ولكنى أحذرك ألاّ تتهاون فى إصدار إذنك كل هذا التهاون بين هؤلاء الفرسان ، الذين ليس لهم أمير أو قائد يركنون

إليه ؛ إنهم قوم شديدو المراس ، وقد لايخلّفون فى فلسطين بأسرها صيداً يقتنص — ولكن دعنا من هذا ، وخبرنى عن علم هذا الرجل المشرك ، إنك تقول إن الاسكتلندى قد لاقاه فى الصحراء ، أليس كذلك ؟ » .

« كلا ياسيدى ، قصة الاسكتلندى كما يلى : كان فى طريقه رسولا إلى ناسك عين جدة الذى يتحدث الناس عنه كثيراً — » .

وهنا هب رتشارد من مرقده وقال : « يالفداحة الخطب ! من الذى بعث به ، وفى أى أمر من الأمور ؟ من ذا الذى يجرؤ على إرسال رجل أيا كان إلى هناك ، وملكتى فى دير عين جدة ، وقد حجت إليه تدعو لى بالشفاء ؟ » .

فأجاب البارون دى ڤو وقال : « هو رسول من قبل مجمع الصليبيين ياسيدى ، وقد أبى أن يخبرنى بالغرض من بعثته ، ويخيل لى أن أحداً فى المعسكر لا يعلم أن الملكة زوجكم قد رحلت إلى الحج ، وحتى الأمراء أنفسهم قد لا يعلمون ذلك ، إذ أن الملكة قد تنحت عن الجماعة مذ حرمت عليها جلالتكم أن تدنو منكم حفظا لها من العدوى » .

فقال رتشارد : « إن هذا لأمر يتطلب النظر . إذن لقد التقى هذا الرجل الاسكتلندى ، هذا الرسول ، بطبيب متجول لدى كهف عين جدة ، أليس كذلك ؟ خبرنى ؟ » .

فأجاب دى ڤو وقال : « كلا ياسيدى ، إنما التقى هذا الرسول ، حسب ظنى ، قريبا من ذلك المكان بأمير عربى ، وكان بينهما عراك ، قصدا به امتحان ما هما عليه من جرأة وشجاعة ، ولما ألفاه جديراً برفقة الشجعان ، انطلقا معاً إلى غار عين جدة ، كما ينطلق فارسان شاردان » .

وهنا سكت دى ڤو ، لأنه لم يكن ذلك الرجل الذى يستطيع أن يروى قصة طويلة فى عبارة وجيزة .

فسأله الملك وقد نفد صبره : « وهل التقيا بالطبيب هناك ؟ » .

فأجاب دى فو : « كلا ياسيدى ، ولكن العربى حينما علم بمرض جلالتكم

العضال ، وعد بأن يبعث صلاح الدين بطبيبه الخاص إليك ، مؤكدا لك أشد التأكيد براعته وحذقه . فجاء الطبيب إلى الغار بعد أن لبث الفارس الاسكتلندى يترقبه يوما وبعض يوم ؛ جاء تحوطه الرعاية كأنه أمير تدق له الطبول ويتبعه الحشم راكبين وراجلين ، ومعه خطابات الاعتماد من صلاح الدين » .

« وهل فحصها جياكومو لورداني ؟ » .

« لقد عرضتها على الترجمان قبل أن آتى بها إلى هنا ، وإليك مااشتملت عليه » .

فتناول رتشارد قرطاسا دونت عليه هذه الكلمات : « سلام الله ورسوله محمد . تحية من صلاح الدين ملك الملوك ، سلطان مصر وسوريا ، نور الدنيا وملاذها ، إلى رتشارد العظيم ملك انجلترا . أما بعد ، لقد نما إلينا ، يا أخانا فى الملك ، أن المرض قد مد إليكم يدا ثقيلة لا تحتمل ، وأن ليس لديكم من الأطباء غير النصارى واليهود ، الذين يعملون بغير بركة الله ونبينا الكريم ولذا فإنا مرسلون إليكم بطبيبنا الخاص يقوم برعايتك ، ويسهر على راحتك ، وهو (أَدُنْبَكْ) الحكيم الذى إن رآه عزرائيل نشر جناحيه ورحل عن غرفة المريض ، والذى يعلم مزايا الأعشاب والأحجار ، ومسير الشمس والقمر والنجوم ، وفى وسعه أن ينقذ الإنسان من كل ما لم يكتب على الجبين ؛ وإنا لهذا فاعلون ، متوسلين إليك من أعماق القلوب ، أن تكرمه وتفيد من حذقه ، وإنا لم نفعل ذلك خدمة لقدرك وشجاعتك فحسب — وهما فخر دول الفرنجة قاطبة — وإنما فعلناه كى نقضى على الخصومة القائمة بيننا الآن ، إما باتفاق شريف وإما علناً بحد السيف فى ساحة القتال ، وذلك لأنا نرى أنه لا يليق بمكانتك وشجاعتك أن تموت ميتة العبد قد أنهكه سيده بالعمل ، ولا يلائم اسمنا بين الناس أن ينتزع المرض من أسنة رماحنا خصما جريئا مثلك إن رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . » .

فصاح رتشارد : « كفى ، كفى . والله إنه ليضاعف من مرضى أن هذا السلطان الشجاع ، صاحب المقام الرفيع ، يعتقد فى دين الإسلام ؛ أجل سوف أرى طبيبه ، وسوف أسلم نفسى لهذا الحكيم ، وسوف أرد لهذا السلطان النبيل

جوده ونواله ، وسوف ألتقى بصلاح الدين فى ميدان القتال وفقاً لرأيه السديد ؛ ولن نترك له مجالا كى يسم رتشارد ملك انجلترا بالجحود ونكران الجميل ، وسوف أدق عنقه وألقيه طريح الأرض بفأسى ، وسوف أرده إلى حرم المسيحية بضربات لا أظنه عانى لها من قبل مثيلا ، ولسوف ينبذ ضلاله أمام سيف الكريم ، ذى اليد الصليبية ، ولسوف أعمّده بالمسيحية فى ساحة الوغى من خوذتى ، حتى وإن امتزجت مياه الطهور بدمى ودمه ؛ هيا يادى فو ، ولا تؤخر عنى هذه النهاية الراضية البهيجة ، هات الحكيم هنا » .

فقال البارون وقد رأى أثر الحمى فى هذه الثقة بالنفس المتدفقة : « اعلم مولاى أن السلطان من المسلمين وأنت خصمه اللدود — » .

« ولهذا حق عليه أن يخدمنى فى هذا الشأن ، كى لا تحسم هذه الحمى الطفيفة نزاعا بين ملكين مثلى ومثله ؛ اعلم أنه يحبنى كما أحبه — وكما يتحاب الخصوم النبلاء فى كل حين — وشرفى إنه لمن الجرم أن أرتاب فى حسن طويته ! » .

فقال لورد جلزلاند : « ومع ذلك فإنى أرى من الحكمة يامولاى أن تتريث حتى ترى أثر هذا الدواء فى الخادم الاسكتلندى ، إن هذا أمر تتعلق به حياتى ، فإنى لو اندفعت فى هذه السبيل ، وتحطمت سفينة العالم المسيحى على يدى ، لحقّ علىّ أن أموت كما يموت الوغد الدنىء » .

فرد عليه ريتشارد وهو يؤنبه : « لم أعرفك قبل اليوم متردداً خشية الموت » .

فأجاب البارون ذو القلب الحديدى : « وما كنت لأتردد الآن يامولاى لولا أن حياتك مع حياتى على كف عفريت » .

فقال رتشارد : « إذن فلتذهب عنى ما دمت رجلا تداخله الريبة ، وارقب سير هذا الدواء ؛ والله إنى لأود لو شفانى أو أودى بحياتى ، فلقد كللت من رقدتى هنا كالثور يقضى عليه الطاعون فى وقت تدق فيه خارج السرادق الطبول ، وتدوس فيه الأرض الخيول ، ويرن فيه رنين الأبواق » .

حينئذ سارع البارون بالرحيل واعتزم أن يبلغ رسالته رجلا من رجال

الكنيسة ، إذ قد أحس ببعض الوخز فى ضميره لأنه أدرك أن سيده سوف يكون تحت رعاية رجل من المنافقين .

وكان رئيس أساقفة (صور) هو أول من بث إليه شكوكه ، إذ كان يعرف عنه اهتمامه بمولاه رتشارد ، الذى كان يحب هذا الأسقف الحكيم ويجله ، فاستمع الأسقف إلى هذه الشكوك التى حدثه بها دى فو ، متنبها ذلك التنبه الدقيق الذى يتميز به رجال الدين من الرومان الكاثوليك ، ونظر إلى هذه الريب الدينية التى كانت تساور دى فو بالاستخفاف الذى يلائم نيافته أن يقابل به أمراً كهذا من أمور الدنيا .

فقال : « إنما الأطباء — كالدواء الذى يستخدمونه — عظيمو النفع ، ولكنهم من أرذل بنى الانسان مولداً ونشأة ، كما أن الدواء كثيراً ما يستخرج من أحط المواد » ثم قال : « ولكم معشر الرجال أن تستعينوا عند الحاجة بالكفار والمشركين ، بل إنى ليخيل لى أن من أسباب استبقائهم على وجه الأرض أنهم قد يعملون على راحة المسيحيين المخلصين ، ولذا فنحن نستعبد الأسرى من الكفار شرعا » .

واستطرد قائلا : « هذا إلى أنه ليس من شك فى أن المسيحيين فى جاهليتهم كانوا يستغلون الكفار الذين لم يعتنقوا المسيحية ، ولك مثل فى سفينة الإسكندرية التى أبحر فيها إلى ايطاليا بولس الرسول — بارك الله فيه — فلقد كان ملاحو السفينة كفارا ، ولا مشاحة فى ذلك ، وهل تدرى ماذا قال هذا القديس المكرم حينما أحس بالحاجة إلى خدمتهم ؟ قال لاسبيل إلى خلاصكم إلا إن كان معكم هؤلاء الرجال على ظهر السفين ، وفضلا عن ذلك فإن اليهود كالمسلمين ، كلاهما مارق من المسيحية ، وليس بالمعسكر إلا قليل من الأطباء من غير اليهود ، ونحن نستخدم هؤلاء دون ريبة أو عار ، ولذا فإنى أستبيح الإفادة من المسلمين فى هذا الشأن ، وقد بينت لك جواز ذلك [١] » .

---

(١) هذه العبارة باللاتينية فى الأصل .

هذه الأدلة أزالت عن توماس دى فو كل شك قائم فى ضميره ، وقد كان للمقتبسات اللاتينية خاصة أثر شديد على نفسه لأنه لم يفقه منها كلمة واحدة .

ثم استطرد الأسقف الحديث ، وهو أقل طلاقة من ذى قبل ، وعرض له أن الرجل العربى قد يتقدم إلى العمل بنية سيئة ، ولكنه لم يستطع أن يحسم فى الأمر على عجل ، وقدم له البارون خطابات الاعتماد فقرأها وقرأها وقارن بين الأصل والترجمة .

ثم قال : « والله إنها لمكيدة قد دبرت على هوى الملك رتشارد ، وإنى لا يسعنى إلا أن أرتاب فى هذا العربى الماكر ؛ إنهم قوم برعوا فى فن السموم ، ويستطيعون أن يخففوها حتى تلبث الأسابيع وهى تسرى فى الجسم ، فيتسنى لمحضّر السم إبان ذلك أن يلوذ بالفرار ؛ إنهم يستطيعون أن يدسوا فى الأقمشة والجلود ، بل وفى الورق والرق خفى السموم — غفرانك يا مريم ! — كيف لى وأنا بهذا عليم أن أمسك بخطابات الاعتماد هذه وأدنيها من عينى — خذها منى يا سر توماس ، خلصنى منها سريعا » .

ثم سلمها للبارون ، وهى منه على بعد ذراع ، وعليه لهفة العاجل ، واستطرد قائلا : « ولكن هيا بنا يا سيدى دى فو إلى خيمة الخادم المريض ، حيث نستطيع أن نعرف إن كان هذا الحكيم خبيرا حقا بفنون العلاج التى يدعيها لنفسه ، قبل أن نفكر فى سلامة الملك إذا نحن أذنا له أن يباشره بفنه — ولكن قف ! ودعنى أولا آتى بصندوق عطورى ، فإن هذه الحميات تنتشر انتشار العدوى ، وإنى أشير عليك يا سيدى بأن تتناول حصى البان منقوعا فى الخل فإنى كذلك أعلم شيئا عن فنون العلاج » .

فأجاب توماس الجلزلاندى وقال : « أشكرك يا نيافة الأسقف ؛ إنى أظن أن لو كان لهذه الحمى أن تنال منى لأصابتنى منذ زمن طويل وأنا ملازم جوار فراش سيدى » .

فخجل أسقف صور من هـذا الجواب لأنه كان يتحاشى الملك المريض ، ثم أمر البارون أن يتابع المسير .

ولمـا مرا بالكوخ الحقير ، الذى كان يقطن به كنث صاحب النمر وتابعه ، قال الأسقف لدى فو : « والآن اعلم يا سيدى يقينا أن هؤلاء الفرسان الاسكتلنديين أقل بأتباعهم عناية منا بكلابنا ، فهذا فارس يقولون إنه جرىء فى القتال ، ويرونه جديرا بأن يتحمل جسيم التبعات فى زمن الهدنة ، وهذا تابع من أتباعه يسكن فى كوخ أحط من أسوإ بيوت الكلاب فى انجلترا ، فماذا أنت قائل فى جيرانك هؤلاء ؟ » .

فقال دى فو : « إنى أرى أن السيد يقوم بمـا يكفى نحو خادمه إذا أسكنه فى بيت لا يقل عن بيته » ثم دخل الكوخ وتبعه الأسقف ، وعليه إمارات التأبى والإحجام بادية ، فهو ، وإن لم تنقصه الشجاعة من بعض نواحيها ، إلا أنها كانت شجاعة ممزوجة باعتبار قوى شديد لسلامته وأمنه ، ولكنه تذكر أن من واجبه أن يحكم بنفسه على حذق الطبيب العربى ، فدخل الكوخ متعاليا بذاته شامخا بأنفه ، متكلفا ذلك ، ظنا منه أن فى هذا ما يدعو إلى احترام القادم الغريب .

وكان الأسقف حقا رجلا يجذب النظر ، عليه سيما الهيبة والنفوذ ؛ كان فى شبابه فارط الجمال ، وحتى فى شيخوخته لم تقل رغبته فى التظاهر بالجمال ، فكان زيه الكنسى من أنفس طراز ، حواشيه مزركشة بالفراء الثمين ، ويتلفع بعباءة جميلة التطريز ، وعلى أصابعه خواتم تليق برجل يتأمر على مقاطعة من المقاطعات الكبيرة ، ويلبس على رأسه قلنسوة كانت إذ ذاك محاولة الرباط ، ومطروحة إلى الخلف من حمارة القيظ ، وللقلنسوة أزرار من الذهب الخالص يوثقها بها حول رقبته وتحت ذقنه وقتما يشاء ؛ ولحيته الطويلة التى فضضها العمر تتدلى على صدره ؛ وكان له سادنان شابان يرعيانه ، أحدهما يحمل فوق رأسه مظلة من أوراق النخيل الهندى ينشر بها ظلا مصطنعا ، كانت تألفه بلاد الشرق حينذاك ، والآخر بيده مروحة من ريش الطاووس يهز بها كى يروح عن سيده الكريم .

وحينما دخل الأسقف كوخ الفارس الاسكتلندى كان صاحب الدار متغيباً ، والطبيب العربى — الذى جاء لرؤيته — يجلس الجلسة عينها التى خلفه عليها دى ڤو منذ ساعات عديدة ، متصالب الساقين فوق حصير من أوراق الأشجار المقصوصة ، إلى جوار العليل الذى كان فى سبات عميق ، والذى كان يجس نبضه حيناً بعد حين ؛ ولبث الأسقف منتصباً قبالته فى سكون مدة دقيقتين أو ثلاث كأنه يرتقب منه تحية شريفة يحييه بها ، أو كأنه كان على الأقل ينتظر من هذا العربى أن يذهل لنبل مظهره ، ولكن أدنبك الحكيم لم يعره التفاته ، اللهم إلا لمحة عجلى ، وأخيراً لما حياه الأسقف باللغة الفرنجية السائدة فى تلك البلاد ، لم يجبه بأكثر من التحية الشرقية المألوفة ، وقال : « عليكم السلام » .

فقال الأسقف وقد صعق من هذا الاستقبال الفاتر : « أأنت طبيب أيها الكافر ؟ أريد أن أتحدث إليك فى هذا الفن » .

فأجاب الحكيم وقال : « لو كنت تعلم فذلكة من الطب لعرفت أن الأطباء لا يتشاورون ولا يتجادلون فى غرف مرضاهم » . ثم قال وقد سمع للكلب من الكوخ الداخلى دمدمة خافتة « اصغ ! حتى الكلب يعلمك التعقل ، فهل علمت ؟ إن غريزته تهديه أن يكتم نباحه حتى لا يسمعه الرجل المريض » . ثم قال وقد هب من مكانه وتقدم نحو الطريق : « هيا بنا خارج الخيمة إن كان لديك شىء تريد أن تحدثنى عنه » .

ورغم سذاجة الطبيب العربى فى ملبسه ، وضؤولة جسمه إذا قيس بالأسقف الطويل القامة والبارون الانجليزى الضخم ، فلقد كان فى مسلكه وطلعته شىء يجذب الأنظار ، شىء حال بين أسقف صور وبين أن يحتج على هذه الإهانة التى لحقته من الاستخفاف بمقدمه ؛ ولما بعدا عن الكوخ ، صوب نظره بضع دقائق فى صمت نحو « أدنبك » ، وذلك قبل أن يستقر بينه وبين نفسه على خير أسلوب يجدد به ما انقطع بينهما من حديث ؛ وكان العربى يلبس فوق رأسه عمامة كبيرة لا تظهر

من تحتها خصل الشعر ؛ وكانت العمامة تخفى كذلك أحد حاجبيه ، وكان غزيراً طويلا ناعماً خالياً من التجاعيد ، كما كانت وجنتاه الباديتان تحت ظل لحيته الطويلة ، هذا وقد ذكرنا من قبل نفاذ عينيه السوداوين .

وكان الأسقف مأخوذاً بالفتوة البادية على صاحبه ، ولكنه تمكن أخيراً من شق السكون المخيم — ولم يبد على العربى أنه كان يتعجل تعكير صفوه — وسأل الأسقفُ العربى عن عمره ؛ فأجاب : « إنما تقاس أعمار عامة الرجال بتغضن البشرة ، أما العلماء فتقاس أعمارهم بما يحصلون من علم . وإنى لا أجرؤ على الظن بأنى أزيد على مائة حول بعد الهجرة(١) » .

وفهم بارون جلزلاند هذه العبارة على ظاهر معناها ، وظن أن العربى قد عاش قرناً من الزمان ، فنظر إلى الأسقف نظرة الشك والريبة ، ورغم أن الأسقف كان خيراً منه فهماً لما رمى إليه الحكيم ، إلا أنه رد عليه نظرته بهز رأسه هزة الدهشة والتعجب ؛ ثم استرد هيئة الجد وأعاد السؤال على أدنبك بصيغة الجزم والأمر ، وطلب إليه أن يقدم الدليل على كفاءته فى طبه .

فرد عليه الرجل الحكيم — وقد وضع يده على عمامته دليلا على الاحترام والتقدير — وقال : « إن لديك كلمة صلاح الدين العظيم ، وهى كلمة لم يحنث فيها قط لعدو أو صديق ، فهل تريد شيئاً أكثر من ذلك أيها النصرانى ؟ » .

فقال البارون : « أريد منك دليلا على مهارتك أشهده بعينى ، ولن تقرب سرير الملك رتشارد بغير ذلك » .

فقال العربى : « جزاء الطبيب شفاء المريض ؛ انظر إلى هذا الجندى الذى جففتْ دماءَه الحمى — وقد أصابت مخيمكم فبيضت أديمه بعظام الموتى — تلك الحمى التى وقف فن أطبائكم المسيحيين إزاءها كما تقف الصدرة الحريرية فى وجه الرمح الصلب ؛ انظر إلى أصابعه وذراعيه وقد هزلت وباتت كمخالب الكركى وعظام سوقه ؛ والله لقد حلق الموت هذا الصباح فوق رأسه ، ولكن لو أن عزرائيل بجانب سريره ، وأنا

(١) يقصد بذلك أن له من الاطلاع والعلم ما يُحصَّل فى مائة عام .

بجانبه الآخر ، ما فارقت الروح منه الجسد ؛ لا تزعجنى بسؤال بعد هذا ، وإنما تريث حتى تحل ساعة الفصل واشهد الخاتمة العجيبة وأنت صامت ذاهل » .

ثم لجأ الطبيب إلى الإسطرلاب ، وهو مصدر الوحى للعلم فى الشرق ، ولبث يرقب بجد وإمعان ، حتى إذا ما حان وقت صلاة العشاء ، خر على ركبتيه ويمم وجهه شطر مكة ، وصلى لله الصلاة التى يختتم بها المسلمون اليوم بعد العمل ، فتبادل الأسقف والبارون الانجليزى النظر ، وعليهما إمارات الازدراء والحنق ، ولكن أحداً منهما لم ير أن من اللياقة فى شىء أن يعترض الحكيم فى صلواته مهما تكن فى اعتبارهما خالية من كل تقديس .

ونهض العربى من الأرض التى خر عليها ساجدا ، وولج الكوخ حيث كان العليل ممتداً على فراشه ، ثم أخرج من صندوق صغير من الفضة اسفنجة مشربة بقطرات العطر ، ووضعها على أنف النائم ، فعطس وتيقظ ، ثم تلفت حواليه هائجا مذعوراً ، وكان مرآه مروعا ، وقد هب على سريره شبه عار ، عظامه وغضاريفه ينم عنها ظاهر الجلد ، كأنها لم تكتس يوماً بلحم ، ووجهه طويل ، تشققه الغضون أخاديد ، وكانت عيناه أول الأمر حائرتين ، ولكنهما أخذا يهدآن شيئا فشيئا ، ويظهر أنه قد أحس بوجود زائريه ذوى المكانة الرفيعة ، لأنه حاول — فى دهش — أن ينزع الغطاء عن رأسه احتراما لهما ، وسأل عن سيده بصوت فيه ذلة وخضوع ، فقال له لورد جلزلاند : « هل تعرفنا أيها التابع ؟ » .

فأجابه التابع بصوت خافت : « لا أعرفكما حق المعرفة ، إن سباتى كان طويلا ومليئا بالأحلام ، ولكنى أعرف أنك من كبار اللوردات الانجليز ، كما يدل على ذلك صليبك الأحمر ؛ وصاحبك أسقف مقدس يتوق إلى بركاته آثم مسكين مثلى » .

فقال الأسقف : « لك منى البركات ، وغفر الله لك » ثم رسم علامة الصليب ولكنه لم يدن من فراش المريض .

فقال العربى : « ها أنت ذا تشهد بعينيك أن الحمى قد غُلبت على أمرها

وقهرت ، وها هو ذا الرجل يتكلم فى طمأنينة وروية ، وخفقات قلبه هادئة كخفقات قلبك ، وتستطيع أن تخبر نبضها بنفسك » .

فأبى الأسقف أن يقوم بهذه التجربة ، ولكن توماس الجلزلاندى — وقد كان أشد إصرارا على هذا الاختبار — جس نبض المريض ، واقتنع بأن الحمى قد أدبرت وتولت .

ثم نظر الفارس إلى الأسقف وقال : « إن هذا لشىء عجاب ؛ لقد تم شفاء الرجل ولا ريب فى ذلك ؛ لا بد لى أن أصطحب هذا الطبيب توا إلى خيمة الملك رتشارد — ماذا ترى يا نيافة الأسقف ؟ » .

فقال العربى : « البثا قليلا ودعانى أتم علاجا قبل أن أشرع فى الآخر ؛ سوف أصحبكما بعد أن أناول مريضى الكأس الثانية من هذا الإكسير المبارك » .

وبعد أن فرغ من حديثه ، استخرج كأسا فضية وملأها بالماء من جرة كانت إلى جانب السرير ، ثم أخرج كيسا صغيرا من الحرير المطرز مجدولا بالفضة ، ولم يعلم الحاضرون ما بداخله ، ثم غمره فى الكأس ولبث يرقبه فى سكون مدة خمس دقائق ، وخيل للنظارة أن الماء قد فار وجاش من هذا العمل ، ثم هدأ بعد لحظة .

وقال الطبيب للرجل المريض : « اشرب ونم ثم اصح بريئا من المرض » .

فقال أسقف صور : « أفبهذه الجرعة الهينة تأخذ على نفسك علاج الملك ؟ » .

فرد عليه الرجل الحكيم وقال : « لقد شهدتَ أنى عالجت بها رجلا بائسا ، فهل ملوك الفرنجة من طينة غير الطينة التى خلق منها أدنى رعاياهم ؟ » .

فقال بارون جلزلاند « لنَسُقْه توا إلى الملك ؛ لقد دل على أنه يعرف سر السبيل إلى استرداد صحته ، ولو أنه أبى مباشرة العلاج لأرديته حيث لا يجدى فعل الدواء » .

وبينما هم يتأهبون لمغادرة الكوخ ، صاح الرجل المريض وقد رفع صوته بقدر ما سمح له ضعفه وقال : « أبانا المقدس ، ويا أيها الفارس النبيل ، وأنت أيها الطبيب

الرؤوف ، إن أردتمونى على أن أنام وأشفى نخبرونى برا منكم وإحسانا ؛ ماذا دهى سيدى العزيز ؟ »

فأجاب القس : « لقد رحل يا صديقى إلى بلاد نائيــة يحمل رسالة نبيلة قد تستبقيه بضعة أيام » .

وقال بارون جلزلاند : « كلا ، ولمــاذا تخدع هذا الرجل المسكين ؛ لقد عاد سيدك إلى المعسكر وعما قريب تراه » .

فرفع المريض إلى السماء يديه الهزيلتين حمدا لله ، ولم يعد يقدر على مقاومة فعل الإكسير المنوِّم ، واستولى عليه نعاس خفيف وديع » .

وقال الأسقف : « إنما أنت يا سر توماس طبيب خير منى ، وللباطل المرضىّ أليق بحجرة المريض من الحق الكريه » .

فأجاب دى ڤو متعجلا : « ماذا تعنى يا سيدى الموقر ، أفتظن أنى أقول كذبا كى أنقذ عشرة من أمثال هذا الرجل ؟ » .

فقال الأسقف وإمارات الذعر بادية عليه : « إنك تقول إن سيد هذا التابع — أعنى فارس النمر الرابض — قد عاد ، أليس كذلك ؟ » .

قال دى ڤو : « وحقا لقد عاد ، وتحدثت إليه من منذ بضع ساعات مضت ، وقد عاد برفقة هذا الطبيب النطاسى » .

فقال الأسقف وهو بادى الاضطراب : « يا للعذراء البتول ! ولمــاذا لم تنبئنى بإيابه ؟ » .

فأجاب دى ڤو غير مبال وقال : « ألم أقل لك إن هذا الفارس ، فارس النمر ، قد عاد بصحبة الطبيب ؟ أظننى خبرتك بذلك ، ولــكن ماشأن إيابه وحذق الطبيب أو شفاء المليك ؟ » .

فرد عليه الأسقف وقد أمسك إحدى يديه بالأخرى ، وضرب بقدمه الأرض ، وبدت عليه دلائل الجزع ، وقال ، وكأنه مكره على ما يقول « شــأن كبير يا سر

توماس ، ولكن هلا خبرتنى أنّى ذهب هذا الفارس ؟ رحماك اللهم ! لقد نقع الآن فى إثم ما بعده إثم ! » .

فأجاب دى ڤو وقد أدهشه انفعال الأسقف وقال : ربما خبرنا ذلك التابع الواقف بعيدا فى الخلاء أنّى ذهب سيده » .

ودعى الصبى للحضور ، وأخذ يحدثهم بلغة لا يكادون يفقهون لها معنى ، واستطاع بعد لأى أن يفهمهم أن ضابطا جاء لسيده واستدعاه إلى السرادق الملكى قبل قدومهما إلى خيمة مولاه بزمن وجيز ، وحينئذ ازداد بالأسقف القلق حتى بلغ أقصاه ، واستطاع دى ڤو أن يتبينه ، رغم أنه لم يكن بالرجل الدقيق الملاحظة ، ولا بالمرتاب الظنين ، وكلما تزايد قلق الأسقف اشتدت رغبته فى كبته وكتمانه عن العيان ؛ ثم استأذن دى ڤو فى الانصراف على عجل ، فنظر إليه دى ڤو حائرا مذهولا ، وهز كتفيه إلى أعلى فى صمت وعجب ، ثم شرع يرشد الطبيب العربى إلى خيمة الملك رتشارد .

الفصل التاسع

هذا أمير الأطباء ،
إن شهدته حمى أو طاعون ،
أو نقرس أو زكام ،
تولى الداء عن جسم العليل .
لكاتب غير معروف

سار البارون جلزلاند بخطوات وئيدة نحو السرادق الملكى ، وعليه سيما القلق والجزع ، وكان البارون قليل الثقة بنفسه وبكفاياته إلا فى ساحة القتال ، يحس من نفسه افتقار الذكاء المتوقد ، ويكفيه أن يقف من الظروف موقف التعجب والدهشة حيث يسعى غيره من الرجال من ذوى الخيال الحى إلى التفهم والتنقيب ، أو إلى التأمل والتفكير على الأقل ؛ ولكنه كان أمراً شاذاً — حتى فى نظره — أن يحول الأسقف انتباهه من التفكير فى العلاج العجيب الذى شهداه وفى احتمال شفاء رتشارد واسترداده صحته بذلك الدواء ، إلى نبأ تافه عن توجه فارس اسكتلندى بائس من مكان إلى مكان ، فارس لم يعلم عنه توماس الجلزلاندى أنه من دم كريم ، ولم يكن فى نظره أكثر من رجل قليل الأهمية حقير ؛ ورغم أن البارون قد تعود أن ينظر إلى ما قد يمر به من أحداث نظرة سالبة ، إلا أنه أخذ الآن يكدح الذهن كدحاً لم يألفه متخرصاً بحقيقة الأمر .

وأخيراً عرض له بغتة أن الأمر ربما كان مؤامرة تدبر لرتشارد وتختمر فى معسكر الحلفاء ، وليس من البعيد أن يكون الأسقف عضواً من أعضائها لما عرف عنه بعضهم من أنه رجل سياسى لا يتورع فيما يريد ، وكان يرى أن ليس بين الجميع رجل كامل الخلق كسيده ، فلقد كان رتشارد زهرة الفرسان طراً ، ورأس القواد المسيحيين جميعاً ، مطيعاً فى كل أمر لأحكام الكنيسة المقدسة ، ولم ير « دى فو » بعد هذا الكمال كمالا ؛ ومع ذلك فهو يعرف أن سيده كان دائماً يجلب على نفسه

— بغير حق — لوما وكرها ، بقدر ما يجلب شرفا وحبا ، لما يبدى من جليل الصفات ؛ ويعلم أن فى المعسكر ذاته ، وبين أولئك الأمراء الذين أقسموا يمين الولاء للحرب الصليبية ، الكثير ممن يود لو يضحى بكل أمل فى الظفر على العرب فى سبيل إرضاء نفسه بالقضاء على رتشارد ملك انجلترا ، أو بإذلاله على الأقل .

وقال البارون محدثا نفسه : « ليس من المحال أن يكون هذا الحكيم ، وهذا الشفاء — أو شبه الشفاء — الذى أدخله فى جسم الخادم الاسكتلندى ، ما هما إلا خدعة ، ينضم إليها فارس النمر ، ويساهم فيها أسقف صور ، رغم وظيفته الدينية » .

ولكن لم يكن من اليسير حقا أن يوفق البارون بين هذا الظن وبين ما أبداه الأسقف من هلع وذعر حينما علم — على غير انتظار — أن الفارس الاسكتلندى قد عاد بغتة إلى معسكر الصليبيين ؛ ولكن دى ڤو لم يكن يتأثر بغير أهوائه عامة ، وكانت أهواؤه توحى إليه يقينا لا يداخله الشك بأن قسا إيطاليا ماكرا محتالا ، ورجلا اسكتلنديا خبيث الطوية ، وطبيبا مسلما ، إنما يؤلفون مجموعة لا يصدر عن أفرادها غير الشر ، ولا يرجى أن ينبع منها الخير ، فاعتزم أن يصارح بشكوكه مليكه ، وكان يقدر إصابته فى الحكم قدرا عاليا لا يقل عن عقيدته فى شجاعته وإقدامه .

ولكن الأحداث التى وقعت إبان ذلك جرت مجرى يناقض الظنون التى لعبت برأس توماس دى ڤو ، فلم يكد يترك السرادق الملكى حتى بدأ رتشارد — وهو بين جزع أنشبته الحمى وجزع هو من طبيعة نفسه — يشكو غياب البارون ، ويبث شديد رغبته فى عودته ؛ وقد عانى من قبل كثيرا ، فحاول الآن أن يخلص من هذا الهياج الذى زاد من علة جسمه زيادة كبيرة ، وأضنى أتباعه بكثرة ما طلب إليهم من ألوان اللهو ، وعبثا ما استعان القس بدعواته ، والكاهن بقصص الخيال ، بل ومغنيه المحبوب بقيثارته ؛ وأخيرا ، قبيل انحدار الشمس بنحو ساعتين — وكان ذلك قبل الوقت الذى كان يرتقب فيه نبأ يسره عن سير العلاج الذى يباشره المغربى (أو العربى) بزمن طويل — أرسل كما سمعنا رسولا يأمر فارس

النمر بالحضور ؛ واعتزم أن يهدئ من جزعه بحصوله من السر كنث على بيان مفصل عن سبب تغيبه عن المعسكر ، وعن ظروف التقائه بهذا الطبيب الذائع الصيت .

أُستدعى الفارس الاسكتلندى ومثل لدى حضرة المليك ، وكأنه ليس بالغريب على أشباه هذه المقابلات ؛ لكن ملك انجلترا لم يكد يعرف منه حتى مرآه ، وذلك رغم أنه (الفارس) كان شديد الاحتفاظ بمرتبته ، وكان متفانيا فى إخلاصه للسيدة التى تملكت منه سويداء القلب ، فلم يغب فى ظرف واحد من الظروف التى كانت أريحية انجلترا وسخاؤها تفتح فيها بلاط مليكها لكل من بلغ مرتبة خاصة فى سلك الفروسية ؛ ونظر الملك وأمعن فى النظر إلى السر كنث وهو يقترب من فراشه ، وقد ثنى الفارس ركبتيه لحظة من الزمن ، ثم نهض ووقف أمام الملك موقفاً يليق بضابط فى حضرة مليكه ، موقف الإجلال ولكن بغير ذلة أو خنوع .

قال الملك : « اسمك كنث فارس النمر — أنّى لك مرتبة الفروسية ؟» .

فأجاب الاسكتلندى : « لقد نلتها من حسام وليم الأسد ملك اسكتلندا » .

فرد عليه الملك وقال : « والله إنه لسلاح ما أجدره بمنح الشرف ، وتالله إنه لم يوضع على كتف ليست له أهلا [1] فلقد شهدناك وأنت فى موقف الفروسية والشجاعة لما حمى وطيس القتال واشتدت الحاجة ؛ ولكنك قبل أن تعرف أنا بكفاءتك علماء ، بلغت بك القحة فى بعض الأمور حداً لا يخوّل لك أن تطلب لخدماتك جزاء خيراً من العفو عن عدوانك ، فاذا تقول فى هذا ؟ » .

فحاول كنث أن يجيب عن ذلك ، ولكن عجز عن أن يفصح عن نفسه ، وقد تآصر على بلبلته إحساسه بحب عالى المطامح ، ونظرة ثاقبة كنظرة البازى رمقه بها قلب الأسد ، وكأنه يريد أن ينفذ إلى دخيلة نفسه .

ثم قال الملك : « ومع ذلك ، ورغم أن الجند عليهم طاعة الأمر ، وعلى الأتباع

(١) كان الملك فى العصور الوسطى يمس بسيفه كتف الرجل علامة على منحه شرف الفروسية .

احترام أولى الأمر ، فإنا نستطيع أن نعفو عن فارس مقدام جرما أخطر من اقتنائه لكلب عز ، مع ما فى ذلك من مخالفة لما فرضناه على الناس فرضا صريحا لا يحتمل التأويل .

وظل رتشارد يحدق فى وجه الاسكتلندى ، ويبادله النظر ، وسُرّ فى دخيلة نفسه واطمأن للأسلوب الذى ساق فيه اتهامه .

فقال الاسكتلندى : « إن جلالتك يا مولاى ، إن شئت ، ينبغى أن تتهاون معنا نحن فقراء اسكتلندا من النبلاء فى هذا الشأن ، فنحن عن الوطن بعيدون ، مواردنا قليلة ، ولا نستطيع أن نقيم أودنا كما يستطيع أشرافكم الأغنياء الذين لهم ثروة اللمبارد ؛ وإن ضرابنا ليكونن على الأعراب أشد وقعا لو أنا تناولنا من لحم الغزال المجفف الحين بعد الآخر مع ما نأكل من العشب ومن خبز الشعير ».

فقال رتشارد : « لست بحاجة إلى رضاى مادام توماس دى فو — كغيره ممن يتحوطنى من الرجال — يعمل ما يروق فى عينيه ، وقد أذن لك بالصيد والقنص » .

فأجاب الاسكتلندى وقال : « إنما أذن لى بالصيد فقط يا مولاى ، ولكن إن أردت جلالتكم أن تمن على بمنة القنص ، وكذلك إن بدا لكم أن تأذنوا لى باستخدام البزاة ، فانى آخذ على نفسى أن أمد سرادقكم الملكى بخير طيور الماء »

فقال الملك : « لو كان لك باز ما كنت تنتظر منا الإذن ، وأنا أعرف جيدا أنه يقال عنا خارج بلادنا إننا أبناء أنجو نستنكر الاعتداء على ما شرعنا للغاب من سنن ، كما نستنكر الخيانة لتاج الملك ، ولكنا نعفو عن هذه الإساءة — كما نعفو عن تلك — للرجال الشجعان ذوى المكانة ؛ ولكن دعنا من هذا ، إنما أريد أن أعرف منك أيها الفارس لماذا ومن ذا الذى أذن لك أن تقوم برحلتك الحديثة العهد إلى قفار البحر الأحمر وإلى عين جدة ؟ » .

فقال الفارس : « بأمر من مجمع أمراء الحروب الصليبية المقدسة » .

« وكيف يجسر امرؤ على إصدار مثل هذا الأمر وأنا — ولست قطعا بأقلهم شأنا فى هذا المجمع — غير عالم به ؟ » .

فقال الاسكتلندى : « لم يكن من شأنى يا جلالة الملك أن أسأل عن مثل هذه الدقائق ، إنما أنا جندى من جنود الصليب ، ولا ريب أنى أخدم الآن تحت لواء جلالتكم ، وأنا فخور لأنكم قد أذنتم لى بذلك ، ولكنى لست مع ذلك إلا رجلا يحمل الرمز المقدس فى سبيل حقوق المسيحية واسترداد القبر المقدس ، وأنا لذلك مكره على أن أطيع طاعة عمياء أوامر الأمراء والزعماء الذين يدبرون هذا المشروع المبارك ، وإنى والعالم المسيحى بأجمعه نندب انحرافهم عن جلالتكم ، وإبعادهم إياكم لفترة وجيزة — على ما أرى — عن مجامعهم التى لجلالتكم فيها صوت قوى مسموع ؛ ولكنى كجندى يجب أن أطيع أولئك الذين يؤول إليهم حق الحكم شرعا ، وإلا كنت مثالاً سيئا فى معسكر المسيحيين » .

فقال الملك رتشارد : « حق ما تقول ، ولا لوم عليك فى ذلك ولا تثريب ، وإنما العتب على أولئك الذين أرجو أن أواجههم عَينَ عَينَ حينما يكتب لى الله أن أنهض من هذا الفراش اللعين ، فراش المرض والفتور ؛ ولكن هلاّ خبرتنى فحوى رسالتك ؟ » .

فأجاب السر كنث وقال : « أظن يا جلالة المليك أن هذا السؤال جدير به أولئك الذين أنا رسول منهم ، فهم أقدر على إبداء العلة فى رسالتى ، أما أنا فلا أستطيع إلا أن أتحدث عن ظاهر معناها ومغزاها وحسب » .

فقال الملك النزق : « لا تراوغنى أيها السيد الاسكتلندى ، إن فى هذا لخطراً على سلامتك » .

فأجاب الفارس رابط الجأش وقال : « سلامتى يا مولاى أنا لا أكترث لها ، فما هى إلا من توافه الأمور إزاء عين أقسمتها لهذا المشروع ، وإنى لا أنظر إلا إلى نعيم الخلد فى الدار الباقية ، ولا تعنينى سعادة الجسد فى هذه الدنيا الفانية . »

فقال الملك رتشارد : « وحق القدّاس إنك لرجل شجاع ! استمع إلى ياسيدى الفارس ، إنى أحب أهل اسكتلندا ، فإنهم قوم أشداء ، إلا أنهم يتصفون بالعناد وصلابة الرأى ، وإنهم لقوم مخلصون فى قلوبهم ، إلا أن ظروف دولتهم تضطرهم

أحيانا إلى اصطناع الخداع والرياء ، وإنى أستحق منهم المحبة والتقدير ، فلقد قمت لهم طوعا بما لم يكونوا يستطيعون ابتزازه كرها بحد السيف منى أو من أسلافى ، فأعدت بناء قلعتى (ركبره) و (برك) اللتين تدينان لانجلترا بالولاء ، وأعدت لكم التخوم القديمة ، وخلصتكم أخيراً من واجب الولاء لتاج انجلترا ، وهو واجب رأيت أنه قد فرض عليكم ظلما وجوراً ، وسعيت فى أن أجعل منكم أصدقاء أشرافا مستقلين ؛ ولم يرم ملوك انجلترا السابقون إلى أكثر من أن يرغموكم على الطاعة كارهين ، ويبقوكم أتباعا لهم ناقمين » .

فقال السر كنث وقد أحنى رأسه إجلالا : « أجل ، لقد فعلتَ هذا كله ياسيدى المليك ، ولقد فعلته وعقدت عليه معاهدة ملكية مع ملك بلادنا فى (كنتربرى) ولذا فهأنذا طوع أمرك ، وهاهم من هم خير منى من الاسكتلنديين يأتمرون لك ، ويشنون الغارة على المسلمين تحت لوائك ، ها نحن رهن إرادتك ، ولولا ماذكرت لكنا الآن نعيث فسادا فى حدود بلادك بانجلترا ، ولئن كنا الآن قليل عديدنا فما ذلك إلا لأنا وهبنا فى سبيلك حياتنا وأزهقناها راضين طائعين » .

فقال الملك : « صدقت فيما تقول ، ولكن بحق ما أديتُ لبلادكم من جليل الخدمات ، أود أن أذكرك أن من حقى — كعضو رئيسى فى عصبة المسيحيين — أن أعرف ما يتفاوض فيه خلانى ، فهل لك بعد هذا أن تنصفنى وتخبرنى بما هو من حقى أن أعرفه ، وإنى لعلى ثقة من أنك سوف تصدقنى فى هذا أكثر من كل من عداك » .

فأجاب الاسكتلندى وقال : « مولاى ، أما وقد ناشدتنى هكذا ، فسأصدقك القول ، وإنى أعتقد أن مراميك من حملتنا هذه نبيلة خالصة لوجه الله ، وإن هذا لأكثر مما أظن فى الآخرين من أعضاء العصبة المقدسة ؛ وإذن فليسرك يا مولاى أن تعرف أن مهمتى كانت أن أقترح بوساطة ناسك عين جدة — وهو رجل يحبه ويذود عنه صلاح الدين نفسه — .. » .

وهنا سارع رتشارد معترضاً وقال : « مدّ أجل الهدنة ولا ريب » .

فأجاب الفارس الاسكتلندى وقال : « كلا ياسيدى وحق القديس اندراوس ، بل عقد صلح دائم ، وسحب جيوشنا من فلسطين » .

فرد عليه رتشارد دهشاً وقال : « يا لله ! لقد ساء ظنى بهم حقا ، ولكنى لم أكن لأحلم أنهم سيذلون أنفسهم إلى مثل هذا الخزى والهوان ، خبرنى يا سر كنث بأية طوية حملت هذه الرسالة ؟ » .

فقال كنث : « بطوية خالصة طيبة يامولاى ، لأنا بعد ما افتقدنا زعيمنا النبيل ، الذى كنت آمل فى الظفر تحت قيادته وحده ، لم أر أن أحداً يستطيع أن يخلفه ، أو أن نرجو منه أن يقودنا إلى النصر ، فرأيت أنه خير لنا فى مثل هذه الظروف أن نتجنب الهزيمة » .

فقال رتشارد وقد كتم غيظا أليماً يكاد قلبه يتميز منه : « وما هى الشروط التى أردتم أن تعقدوا عليها هذا الصلح المرجو ؟ » .

فأجاب فارس النمر الرابض وقال : « هذه لم يعهد إلىّ بها يامولاى ، إنما سلمتها للناسك مختومة مغلقة » .

فقال رتشارد : « وماذا ترى فى هذا الناسك الوقور ، وهل هو غافل أو مجنون أو خائن أو قديس ؟ » .

فأجابه الرجل الاسكتلندى الماكر وقال : « يخيل لى أنه يدّعى الغفلة ياسيدى كى يكتسب من المسلمين رضاهم واحترامهم ، وهم قوم ينظرون إلى الرجل المعتوه وكأنه يوحى إليه من السماء ، ولقد بدا لى على الأقل أن جنون هذا الراهب لا يظهر إلا لماما ، وهو ليس — كالجنون المألوف — جزءاً من طبيعة عقل صاحبه » .

فقال الملك وقد ارتمى إلى الوراء على سريره ، وكان قد نهض منه إلى نصفه : « أمكر بك فى هذا الجواب ، والآن هلا حدثتنى طرفا عن توبته ؟ » .

فاستطرد كنث الحديث وقال : « أما توبته فقد بدا لى أنه مخلص فيها ، وهى ثمرة لندمه على ذنب مروع يحسب — فيما يرى — أنه يقضى عليه بأن ينتبذ من الناس مكانا قصياً » .

فقال الملك رتشارد : « وما سياسته ؟ » .

فأجاب الفارس الاسكتلندى وقال : « أظن يا سيدى أنه قد يئس من استخلاص فلسطين ، كما يئس من خلاص نفسه ، اللهم إلا بمعجزة من السماء ، أو هو يرى ذلك على الأقل مذ انقطعت ذراع رتشارد ملك انجلترا عن أن تجاهد فى سبيله » .

« وإذن فسياسة هـذا الناسك هى سياسة الجبن والخور ، وهو كأولئك الأمراء الأشقياء الذين نسوا فروسيتهم ودينهم ولم تصح منهم العزيمة ، ولم يثبتوا إلا على أمر واحد ، وذلك أن يكروا راجعين ؛ أولئك خير لهم أن يتقهقروا على جثة حليف لهم ينازع الروح من أن يتقدموا ويلتحموا بالأعراب المسلّحين ! » .

فقال الفارس الاسكتلندى : « هل لى يا سيدى المليك أن أذكر لك أن هذا الحديث إنما يزيد من حرارة مرضك ، وما مرضك إلا عدوٌّ يخشى العالم المسيحى منه شرا أكثر مما يخشى من جيوش الكفار المجهزين بالسلاح » .

وحينئذ علا الدم فى وجه الملك رتشارد ، واستشرى فى حركاته ، وأمسك إحدى يديه بالأخرى ، ومد ذراعيه ، وتطاير الشرر من عينيه ، وظهر عليه فى الحين أنه يعانى ألما جثمانيا شديداً وثورة نفسية عنيفة فى آن واحد ، ولكن حماسته دفعته إلى أن يواصل حديثه كأنه لم يأبه لهذا أو لتلك .

وقال : « تستطيع يا سيدى الفارس أن تداهن ، ولكنك لن تفلت منى ، ولا بد لى أن أعرف منك أكثر مما ذكرت ، هل رأيت زوجى الملكة وأنت لدى عين جدة ؟ » .

فأجاب السر كنث ، وقد تملكه ارتباك شديد إذ تذكر الموكب الذى مرّ به فى منتصف الليل فى المعبد الصخرى وقال ، « لا أعلم أنى رأيتها يامولاى » .

فقال الملك بصوت حازم : « إنى أسائلك ألم تكن فى معبد راهبات « كرمل » لدى عين جدة ، وهل لم تر هناك « برنجاريا » ملكة انجلترا ووصيفات بلاطها اللائى قصدن إلى هناك حاجّات ؟ »

فرد عليه السر كنث وقال : « سيدى ، سأصدقك القول كأنى أعترف لك ! فى معبد تحت الأرض ، هدانى إليه الناسك ، شاهدت رتلا من النساء يغنين ويظهرن ولاءهن لأثر مقدس كريم ، ولكنى لم أر وجوههن ، ولم أسمع أصواتهن ، إلا وهن يرتلن الأناشيد ، ولذا فإنى لا أستطيع أن أقول هل كانت ملكة انجلترا فى هذا السرب أو لم تكن » .

« وهل لم تتعرف واحدة من هؤلاء السيدات ؟ » .

فسكت السر كنث ولم يحر جوابا .

فقال رتشارد وقد نهض على مرفقيه : « إنى أسائلك كفارس وكرجل كريم — وسوف أعرف من جوابك كيف تقدر هاتين الخلتين — هل عرفت أية سيدة من بين هذه الزمرة من العابدات أو لم تعرف ؟ » .

فقال كنث وقد خالجه كثير من التردد : « مولاى ، إنى أستطيع أن أرمى بالظن » .

فرد عليه الملك وقد قطب جبينه وعبس وقال : « وأنا كذلك أستطيع أن أرمى بالظن ، ولكن كفاك هذا ، قد تكون نمرا يا سر كنث ، ولكن حذار أن تتحرش بكف الأسد . استمع إلى ، إنك إن شُغفت بالقمر حبا فلقد أتيت أمرا إدّا ، وإنك إن قفزت من أسوار برج شاهق أملا فى الدنوّ من هالته فلقد هلكت رعونة ونزقا » .

وفى تلك الآونة علا فى الغرفة الخارجية بعض الضجيج ، فسارع الملك وارتد إلى أسلوبه المعهود وقال : « كفى ، كفى ، واعزب عنى ؛ سارع إلى دى ڤو وابعث به إلى مع الطبيب العربى . حياتى لدين السلطان ! تالله لو أنكر السلطان عقيدته لمدته بمهندى يطرد به هذا الزبد من الفرنسيين والنمساويين من مُلْكه ، وما أظن إلا أن فلسطين ستنعم تحت حكمه كما كانت تنعم حينما كان يتأمر عليها ملوك مباركون بتفويض من الله » .

وحينئذ تراجع فارس النمر ، ولم تمض دقائق معدودات حتى أعلن الحاجب قدوم وفد من المجمع أتى ليمثل لدى جلالة ملك الانجليز .

فأجاب الملك قائلا : « يسرنى أنهم يعترفون بأنى ما زلت على قيد الحياة ، ولكن من هم أولاء السفراء الموقرون ؟ » .

« هما الرئيس الأعلى لرجال المعبد ومركيز منتسرا » .

فقال رتشارد : « إن أخانا ملك فرنسا لا يحب فراش المرضى ، ولو كان فيليب هو العليل لوقفت إلى جوار سريره أمدا طويلا ، أى (جوسلين) مهد سريرى خيرا من هذا ، فلقد انقلب كبحر عاصف ، وهات لى تلك المرآة الصلبة ، ومشط شعر رأسى ولحيتى فإنهما حقا ليبدوان كمعرفة الأسد ، لا كغدائر الرجل المسيحى ، ناولنى ماء » .

فقال الحاجب وهو يرتعد : « إن الأطباء يقولون يا مولاى إن الماء البارد قد يكون فيه الهلاك » .

فأجاب الملك : « إذهب بالأطباء إلى الشيطان الرجيم ! إذا كانوا لا يعرفون لى شفاء ، أفتظن أنى أسمح لهم بإيلامى وتعذيبى ؟ هات الماء وحسبك هذا ! » وبعد ما اغتسل بالماء قال : « أدخل على الرسولين الكريمين ، وما أخال إلا أنهما سوف يريان الآن أن المرض لم يَحْدُ برتشارد إلى أن يتهاون فى مظهره » .

وكان رئيس رجال المعبد الشهير رجلا طويلا نحيلا ، برته الحروب ، نظراته وئيدة إلا أنها نافذة ، وله حاجبان طبعت عليهما ألوف الدسائس المظلمة لمحة من خفائها ودجنتها ، وهو على رأس تلك الجماعة الفريدة التى ترى فى نفسها متكاتفة كل شىء ، ولا ترى فى نفسها أفرادا شيئا ، تلك الجماعة التى تسعى لإعلاء كلمتها حتى وإن استهدف للخطر فى سبيل ذلك الدينُ ذاته ، وقد تآلفوا متآخين من أول الأمر للذود عنه ، وهم قوم يتهمون بالزندقة والسحر رغم ما لهم من صفة القساوسة المسيحيين ، ويظن بعض الناس أنهم متآمرون مع السلطان سرا رغم اليمين التى أقسموها للإخلاص فى الدفاع عن المعبد المقدس أو استرداده ؛ هذه

الجماعة كلها ، وشخص زعيمها — أو قل سيدها الأعلى — كانت لغزا ، إذا ذكر ارتعدت منه الفرائص ؛ وكان الرئيس مرتديا ثيابا بيضاء تكسبه وقارا ، ويحمل فى يده عصا الحكم السحرية ، التى كثيرا ما أثارت بشكلها العجيب التأويلات والظنون ، مما كان يؤدى إلى الشك بأن هؤلاء الإخوة من الفرسان المسيحيين المعروفين ، إنما يأتلفون تحت أحط رموز الوثنية .

أما كنراد منتسرا فكان ظاهره أسر للنفس من صاحبه الجندى القس ذى اللون القاتم الذى يحوطه الإبهام والغموض ؛ كان منتسرا رجلا مليح الوجه ، فى شرخ الشباب أو جاوزه قليلا إلى الكهولة ، جريئا فى القتال ، حكيما فى المشورة ، مرحا جذلا فى أوقات اللهو والسرور ؛ إلا أنه كثيرا ما كان يتهم بالتلون وبالأطماع الذاتية الضيقة ، وبرغبته فى مد إمارته دون اعتبار لخير المملكة اللاتينية فى فلسطين ، وبسعيه وراء صالحه الذاتى بإجراء المفاوضة الخاصة مع صلاح الدين معتديا بذلك على حقوق الحلفاء المسيحيين .

تقدم هذان الرجلان ذوا المقام الرفيع إلى رتشارد بالتحية المألوفة ، فردها الملك بلطف وبشاشة ، ثم شرع مركيز منتسرا يشرح ما حدا بهما إلى تلك الزيارة ، وقال إنهما مرسلان من قبل الملوك والأمراء الذين يتألف منهم مجمع الصليبيين ، وقد ازداد قلقهم ، « كى يستفسروا عن صحة حليفهم الكريم ملك انجلترا الجسور » .

فأجاب الملك الانجليزى قائلا : « إنا نعرف ما لصحتنا من أهمية لدى أمراء المجمع ، وإنا نعلم حق العلم كم ذا يكابدون من كتمان كل ما بهم من طلعة بشأنها مدة أربعة عشر يوما ، خشية منهم — دون ريب — أن تشتد بنا العلة لإظهارهم الجزع لما أصابنا » .

وهكذا أوقف الملك تيار البيان الذى كان يتدفق على لسان المركيز ، وتحير المركيز نفسه واضطرب لهذا الجواب ، فوصل صاحبه — وهو أشد منه صراحة — ما انقطع من حبل الحديث ، وفى هيئة جافة ، وصيغة موجزة توائم الحضرة التى يوجه

إليها الخطاب ، قال للملك إنهما جاءا من قبل المجمع يتوسلان إليه باسم العالم المسيحى : « أن لا يعرض صحته لطبيب مسلم يعبث بها ، طبيب قيل إن السلطان قد بعث به إليه ، وأن يتريث حتى يتدبر المجلس الريب التى يرون الآن أنها تلابس بعثة مثل هذا الرجل ، فإما أزالوها أو أيدوها » .

فأجاب رتشارد : « أى رئيس فرسان المعبد الشجعان المقدسين ، وأنت يا مركيز منتسرا ياذا النبل الرفيع ، لو تفضلتما وعرجتما على السرادق المجاور ، لرأيتما أى وزن نقيم لهذا العتب الرقيق من زملائنا فى هـذه الحرب الدينية من ملوك وأمراء » .

فانسحب على أثر ذلك المركيز ورئيس الفرسان ، ولم يتغيبا طويلا فى السرادق الخارجى حتى وصل الطبيب الشرقى يصحبه بارون جلزلاند وكنث الاسكتلندى ، وقد تأخر البارون فى مقدمه إلى الخيمة قليلا عن الرجلين الآخرين ، وربما تريث كى يصدر إلى الحراس خارج السرادق أمراً ما .

ولما دخل الطبيب العربى ، انحنى على الطريقة الشرقية امتثالا وإجلالا للمركيز ورئيس الفرسان ، وكانا باديى الوقار مظهراً ومخبراً ، فرد رئيس الفرسان التحية بصيغة فيها برودة الأنفة والازدراء ، أما المركيز فقـد ردها بلطفه المعهود الذى ألف التقدم به إلى الرجال على اختلاف مراتبهم وأوطانهم ، ثم كان سكون ، لأن الفارس الاسكتلندى كان يرتقب دى ڤو ، ولم يجرؤ على أن يدخل من تلقاء نفسه خيمة ملك انجلترا ؛ وفى غضون تلك الفترة ، سأل رئيس الفرسان الرجل المسلم مقطبا عابساً وقال له : « أيها الرجل ، هل لديك من الشجاعة ما يمكنك من ممارسة فنك فى شخص ملك مبارك من جيوش المسيحيين ؟ » .

فأجابه الحكيم وقال : « إن شمس الله تضىء على النصرانى كما تضىء على المسلم المؤمن ، وليس لعبـد الله أن يفرق بين هذا وذاك إذا دعى الداعى لأن يمـارس فن الشفاء » .

فقال رئيس الفرسان : « يأيها الحكيم المنافق — وسواء كان هـذا اسمك

أو أى غيره مما يدعونك به ، فأنت عبد من عبيد الظلام لم تعتنق دين المسيح — هلا عرفت أن الخيول الوحشية سوف تمزقك إربا إربا لو مات الملك رتشارد بين يديك ؟ » .

فرد عليه الحكيم وقال : « ما أقسى هذا من حكم ، إنى لا يسعنى إلا أن أستخدم وسائل البشر ، أما العاقبة فسطورة فى كتاب النور » .

فقال مركيز منتسرا : « كلا يارئيس الفرسان الوقور المقدام . إعلم أن هذا الرجل العالم لا يعرف شيئا عن نظامنا المسيحى الذى يقوم على خشية الله ومن أجل سلامة من حلت فيهم بركته — ولتعرف إذن أيها الطبيب الخطير ، يامن لا نشك فى حذقه ومهارته ، أن خير سبيل تسلك هى أن تقصد إلى مجمع حلفنا المقدس المجيد ، وتمثل لديه ، وهناك تدلى بكل ما يتعلق بالوسائل التى سوف تتخذها فى علاج هذا العليل صاحب المقـام الرفيـع ، وتشرح رأيك لمن ينتقون لك من أطباء وحكماء عالمين ، وبذا تفلت من كل خطر قد تثيره على نفسك بنفسك لو أنك اندفعت وأخذت على نفسك وحدها تبعة مثل هذا الأمر الخطير » .

فأجاب الحكيم قائلا : « سيدى ، إنى أفهم ما ترميان إليـه حق الفهم ، ولـكن للعلم أساطينه كما أن لفنونكم الحربية أبطالها — بل لقد كان له — كما كان للدين — شهداؤه . إنى أئتمر بأمر مليكى السلطان صلاح الدين ، وقد أمرنى بشفاء هذا الملك النصرانى ، وسوف أصدع بأمره ، بارك الله فيه ، ولئن فشلت فيما أردت فها هو جسمى أقدمه لسلاحكم ، وإنـكم لتمتشقون سيوفا عطشى لدماء المؤمنين ؛ ولـكنى لن أجادل رجلا لم تطهره فضائل الأدوية التى جمعت شيئا من علمها بفضل الله ، وأتوسل إليكم أن لا تضعوا التوانى حائلا بينى وبين أداء واجبى » .

فقال البارون دى ڤو ، وقد سارع ودخل الفسطاط : « من ذا الذى يذكر التوانى ، كفانا ما نلنا منه . إليـكما تحيتى يا لورد منتسرا ويا رئيس فرسان المعبد الجسور ، لا بد لى أن أدخل توا مع هذا الطبيب العالم إلى فراش مولاى » .

فقال المركيز بالفرنسية النورماندية أو لغة : « وى Ouie » كما كانت تسمى

إذ ذاك : « سيدى ، هلا عرفت أنا إنما أتينا كى نذكر — نيابة عن الملوك والأمراء الصليبيين — بالخطر الذى ينجم عن السماح لطبيب شرقى مسلم بأن يعبث بصحة عزيزة كصحة مولاى الملك رتشارد ؟ » .

فأجاب الرجل الانجليزى بفظاظة وغلظة وقال : « ليس فى وسعى أن أستخدم ألفاظا كثيرة ، ولا يسرنى أن أستمع إليها ، وفضلا عن ذلك فإنى إلى تصديق ما رأت عيناى أقرب منى إلى ما سمعت بأذنى ، وإنى لعلى ثقة من أن هذا الرجل قدير على شفاء الملك رتشارد من علته ، وإنى أومن وأوقن أنه سوف يسعى جهده فى هذه السبيل . الوقت ثمين ، ولو أن محمداً ذاته وقف بباب الفسطاط وفى نفسه مثل هذا الغرض السامى الذى بنفس (أدنبك) الحكيم لرأيت من الجرم أن نمهله دقيقة واحدة — وإذن فلنتوكلا على الله ياسيدىّ » .

فأجاب كنراد منتسرا وقال : « ولكن الملك نفسه قد قال إنه ينبغى لنا أن نمثل وقتما يعالجه هذا الطبيب» .

وحينئذ أسرّ البارون إلى الحاجب بشىء ما ، ولربما كان يريد أن يعرف إن كان المركيز صادقا فيما يقول ، ثم أجاب : « سيدىّ ، لو صبرتما رحبنا بمثولكما معنا ؛ ولكنكما إن عارضتما بالفعل أو بالتهديد هذا الطبيب فى أداء واجبه فلتعلما أنى لن أرعى لعلو مكانتكما حرمة ، وسوف أفرض عليكما الابتعاد عن فسطاط رتشارد ، ولتعلما كذلك أنى قوى الإيمان بما لدواء هذا الرجل من فضائل ، حتى لو أن رتشارد ذاته أعرض عن تناوله ، فبحق سيدة (لانركست) ما أظن إلا أنى سوف أجد فى قلبى ما يدفعنى إلى أن أكرهه على أن يتعاطى أسباب شفائه ، أراد أو لم يرد — هيا بنا ياحكيم » .

ولفظ كلمته الأخيرة باللغة الفرنجية ، وصدع الطبيب بما أمر فى الحين ، وحينئذ نظر رئيس فرسان المعبد متجهما عابساً ، إلى هذا الجندى المسن ، الذى لايعرف من آداب اللياقة شيئاً ، ولكنه ما إن تبادل النظر مع المركيز حتى انفرج جبينه المقطب على قدر ما وسع ، وتبع كلاهما دى فو والعربى إلى الفسطاط الداخلى

حيث كان رتشارد مستلقياً على سريره يترقبهم ، وقد ارتسم عليه ذلك الجزع الذى يرقب به المريض خطوات الطبيب ؛ أما السر كنث الذى لم يكن مثوله مراداً أو ممنوعا ، فقد شعر بأن من حقه فى تلك الظروف التى وقف فيها أن يتبع هؤلاء الرجال ذوى المكانة الرفيعة ، ولكنه أحس بحطته نفوذا ومرتبة فانتأى بعيداً إبان ما جرى إذ ذاك .

وما إن دخلوا غرفة رتشارد حتى صاح الملك متعجبا : « هيا ، هيا ، أكرم بهؤلاء الزملاء الذين أتوا كى يشهدوا رتشارد وهو يقفز فى الظلام — أى حلفائى النبلاء ، إنى أحييكم كممثلين لجمعنا المنعقد ، وعما قريب إما ترون رتشارد بينكم بسالف هيئته ، أو تحملون إلى القبر جثمانه ورفاته — أى دى ڤو ، لك من أميرك الشكر حياً أو ميتاً — ولكن هناك شخصا آخر — لقد أضاعت هذه الحمى منى البصر — ماذا ؟ يا أيها الاسكتلندى الجسور : من ذا الذى يرقى إلى السماء بغير درج ؟ مرحبا بك ؛ هيا يا سيدى الحكيم ، إلى العمل ، إلى العمل » .

وكان الطبيب قد استعلم من قبل عن مختلف الأعراض التى تبدو على الملك فى مرضه ، فشرع الآن يجس نبضه ، ولبث كذلك طويلا ، شديد التنبه والتيقظ ، بينما وقف الجميع حواليه صامتين يترقبون بأنفاس مقطوعة ، وبعد ذلك ملأ الحكيم كأسا بماء معدنى ، وغمس فيه الكيس الأحمر الصغير الذى أخرجه من صدره كما فعل من قبل ، ولما بدا له أنه تشبع بالدواء تشبعا كافيا همّ أن يناوله الملك ، لولا أن اعترضه هذا وقال : « البث قليلا — لقد جسستَ نبضى ، فدعنى أضع إصبعى فوق إصبعك ، فإنى كذلك — كما يليق بالفارس النبيل — أعرف شيئا عن فنك » .

فأسلم العربى يده بغير تردد ، واختفت — بل وانطمرت — أصابعه الطويلة الرقيقة السوداء برهة من الزمن فى قبضة يد الملك رتشارد الكبيرة .

ثم قال الملك : « إن دمه ينبض فى هدوء كدم الطفل ، أما أولئك الذين يُسمّون الأمراء فلا تتدفق دماؤهم هكذا ؛ أى دى ڤو ! لتصرف هذا الحكيم مكرّما

آمنا سواء متُّ أم حييت — واذكرنا بالخير يا صديق عند صلاح الدين النبيل ؛ لو متُّ فسأموت ولا يخامرنى شك فى نيته ، ولو حييت فلأشكرنه كما يحب القاتل أن يُشكر » .

ثم نهض من فراشه وتناول الكأس فى يده ، والتفت إلى المركيز وإلى رئيس فرسان المعبد وقال : « أصغيا إلى ما أقول ، ولتدعا إخوانى الملوك يذكروننى وهم يحتسون نبيذ قبرص ويقولون : "هذا من أجل الشرف الخالد ، الذى سوف يناله أول صليبى يضرب برمحه أو بسيفه أبواب بيت المقدس ، ومن أجل العار والشنار الأبدى الذى سوف يلحق بكل من ولّى ظهره السلاح بعد أن امتدت إليه يده !" » .

ثم احتسى الكأس حتى ثمالتها وردها إلى العربى وغاص ثانية — كأنه مُجهد منهوك — فوق الحشايا التى أعدت لراحته ؛ ثم ألمع الطبيب بعد ذلك بإشارات صامتة ، إلا أنها قوية التعبير ، بأن يغادروا الفسطاط جميعا ، ما خلاه هو ودى فو ، الذى لن ينسحب لإشارة أو أمر ، فخلت الغرفة بعد ذلك كما أشار الطبيب .

الفصل العاشر

والآن سوف أفتح كتابا خفيا ،
وأقرأ لكم فصلا عميقا خطيرا ،
تدركونه بنافذ البصيرة فتبرمون منه ولا ترضون .
هنرى الرابع — الجزء الأول

وقف مركيز منتسرا ورئيس فرسان المعبد معا أمام السرادق الملكى الذى وقع فيه هذا الحادث الفريد ، ورأيا حراسا أشداء بنشّابهم وقسيهم مشهورة ، وهم على هيئة دائرة حول السرادق ، يُبعدون كل ما قد يزعج الملك النائم ؛ وكان هؤلاء الجنود يتطلعون بنظرات خافضة صامتة كئيبة كأنهم يجرون سلاحهم فى جنازة ، وكانوا إذا خطوا خطوا فى حرص شديد ، حتى لا تكاد تسمع رنين الدرق أو صليل السيوف ، رغم العدد العديد من الرجال المسلحين الذين كانوا يسيرون حول الفسطاط ولما مر الرجلان ذوا المكانة الرفيعة بصفوفهم نكسوا السلاح إكبارا وإجلالاً ، ولكنهم لزموا الصمت العميق .

وقال رئيس فرسان المعبد لكنراد بعد ما مرا بحرس رتشارد : « لقد غيّر كلاب الجزيرة[1] هؤلاء من روحهم الطروب . أى ضجيج أجش وأى قصف كان من قبلُ أمام هذا السرادق ! كنت لا ترى إلا المتاريس تدق ، والكور تقذف ، والمصارعة وزئير الأغانى وطقطقة كؤوس النبيذ ، واجتراع الأباريق ، بين هؤلاء الرعاع الضخام الجسوم ، كأنهم على سهر فى الريف تتوسطهم السارية بدلا من العلم الملكى » .

فأجاب كنراد وقال : « هذه الكلاب الجسيمة من أمة مخلصة أمينة ، وقد أحرز الملك سيدهم محبتهم باستعداده للمصارعة والنزال والمجون بين المتقدمين منهم كلما تملكه الهوى » .

---

(١) يشير بذلك إلى الإنجليز .

فقال رئيس الفرسان : « ما هذا الملك إلا مجموعة من الأهواء ، ألم تلحظ العهد الذى حمّلنا إياه عوضاً عن الصلاة والدعاء وهو يتناول الكأس المباركة هناك ؟ » .

فقال المركيز : « والله لو كان صلاح الدين كأى تركى آخر ممن يلبسون العمائم ويولون وجوههم شطر مكة إذا ما نادى المؤذن بالصلاة ، لأحس رتشارد ببركة الكأس ، بل ولا ستساغ مذاقها كذلك ، ولكن صلاح الدين يتظاهر بالإيمان والشرف والكرم — كأنه يجوز لوغد مثله لم يعتنق دين المسيح أن يتحلى بأخلاق الفارس المسيحى الفاضلة ! هل نما إليك ما يقال من أنه تقدم إلى رتشارد يطلب الانخراط فى سلك الفروسية ؟ » .

فأجاب كبير الفرسان متعجبا وقال : « وحق القديس « برنارد » لقد آن لنا إذن أن نخلع النُّطُق والمهاميز يا كنراد ونمحو شعار الدروع وننبذ الخوذات ، لو كان أرفع الشرف المسيحى يُمنح تركيًّا لم يعتنق دين المسيح ولا يساوى عشرة دراهم » .

فرد عليه المركيز وقال : « إنما أنت تحط من شأن السلطان ، ومع ذلك ، ورغم أنه رجل له قيمة ، فلقد رأيت خيراً منه من المشركين يباع بأربعين درهما فى المواخير » .

وكان الرجلان إذ ذاك قد دنوا من جواديهما — وكانا واقفين بعيدا عن السرادق الملكى يمرحان بين جماعة الخدام والحجاب الشجعان الذين كانوا يباشرونهما — وحينئذ عرض كنراد على صاحبه ، بعد برهة ساد فيها السكون ، أن يستمتعا بنسيم المساء البارد الذى بدأ فى الهبوب ، وأن يصرفا جواديهما وخدامهما ويسيرا راجلين إلى بيتيهما فى الحى الذى يسكنانه ، متخللين صفوفا ممتدة من خيام المسيحيين ، فقبل رئيس الفرسان ، ثم طفقا يسيران معا وكأنهما تراضيا على أن يتجنبا الأماكن المأهولة فى هذه المدينة من الخيام ، ويتابعا الرحبة الفسيحة التى كانت تقع بين الخيام وقوى الدفاع الخارجية ، حيث يستطيعان أن يتحدثا مختلين ، لا ترعاهما عيون غير عيون الحراس وهما يمران بهم .

وتبادلا الحديث برهة من الزمن على النقط الحربية والاستعداد للدفاع ، ولـكن هذا اللون من الحديث ، الذى لم يرق لهما كليهما ، سرعان ما خمد وأعقبته فترة طويلة ساد فيها السكون ، ثم انتهى الأمر بأن وقف مركيز منتسرا بغتة وكأنه انتهى إلى رأى طارئ ، ثم حدق ببصره بضع لحظات فى عينى رئيس الفرسان السوداوين النافذتين ، ووجه إليه الخطاب أخيراً وقال : « هل لى أن أطلب إليك يا سر « جلز اموری » ، يأيها الرجل المبجل ، طلبة عساها تتفق وكرامتك ، وتفوز منك بالرضا والقبول ؟ وذلك أن تخلع عنك هـذا القناع الأسود الذى تتقنع به وأن تتحدث إلى صديق لك بوجه عار » .

فابتسم رئيس فرسان المعبد نصف ابتسامة .

ثم قال : « من الحجب ما خف لونه ، ومن الستر ما اسودت صفحته ، وأولهما — كثانيهما — يخفى الملامح الطبيعية كل الخفاء » .

فقال المركيز ، وقد مد يده إلى لحيته ، ثم رفعها وكأنه يضم قناعاً : « ليـكن ذلك ، هذا حجابى أرفعه ، والآن ماذا ترى فى أمر هذه الحرب الصليبية فيما يمس صالح رجال معبدك ؟ » .

فأجابه رئيس الفرسان قائلا : « إنما أنت بسؤالك هذا تمزق الحجاب الذى يستر فـكرى ، ولا ترفعه عما بنفسك ، ومع ذلك ، فإنى أجيبك بقصة مجازية حدثنى بها شيخ من شيوخ الصحراء ؛ قال الشـيـخ : دعا مرة رجل فلاح ربه أن ينزل له من السماء ماء ، ولما نزل الماء فى غير وقت حاجته شكا الفلاح وتململ ، فأراد الله أن يجزيه جزعه ، فأرسـل على حقله الفرات ، فهلك الرجل وما يملك ، ومع ذلك فقد استجاب الله له الدعاء » .

فقال المركيز كنراد : « ما أصدق ما تقول ، وددت لو ابتلع المحيط تسعة عشر جزءاً من سلاح أمراء الغرب هؤلاء ! فإن ما يبقى بعد ذلك يؤدى لنبلاء فلسطين المسيحيين ، وللبقية التعسة من مملـكة بيت المقدس اللاتينية ، أغراضهم خيراً من ذى قبل ؛ لو أنا تُركنا لأنفسنا لصمدنا للعواصف ، ولو أن مددا معتدلا جاءنا من

المال والرجال لأكرهنا صلاح الدين على أن يحترم فروسيتنا ، ويقدم لنا صلحاً وحماية بشروط هينة ، ولكننا من الخطر الداهم الذى يكتنف هذه الحرب الصليبية القوية التى تهدد صلاح الدين — لو أنها وقعت — لا ننتظر من العرب أن يرضوا لأى منا أن يستولى على مُلك أو إمارة فى سوريا ، بله أن يسمحوا ببقاء جماعات الإخوان المسيحيين الحربيين الذين نالوا على أيديهم شراً كثيرا » .

فقال رئيس الفرسان : « أى نعم ، ولكن هؤلاء الصليبيين المغامرين قد ينجحون ويرفعون الصليب ثانية على حصون صهيون » .

فأجاب المركيز وقال : « وما ذا يجدى هذا على رجال المعبد أو على كنراد منتسرا ؟ »

فأجاب رئيس الفرسان قائلا : « قد يجدى عليك ، وقد يصبح كنراد منتسرا كنراد ملك بيت المقدس » .

فرد عليه المركيز وقال : « هذا كلام فيه شىء من الرنين ، ولكنه رنين أجوف ، فإن « جودفرى أمير بوّن » قد يختار التاج الشائك رمزاً له . أى رئيس الفرسان ، إنى أعترف لك أنى الآن أميل بعض الميل إلى هيئة الحكومة الشرقية : الدولة ما هى إلا ملك ورعية ؛ هذا هو البناء الفطرى الساذج — الراعى والقطيع ، وما هذه السلسلة من الاقطاعيات المستقلة بين الطرفين إلا نظام مصطنع غير طبيعى ، وإنه لخير لى أن أمسك بعصا المركزية بقبضة ثابتة وأهزها كما أهوى من أن أستولى على صولجان الملك ، ولا أكون فى حقيقة الأمر إلا مقيداً وخاضعاً لإرادة كل أمير من أمراء الإقطاع المختالين الذين يمتلكون أرضاً تحت قانون بيت المقدس [1] ؛ ينبغى يا كبير الفرسان أن يطأ الملك الأرض حراً لا تعوقه حفرة هنا وسياج هناك — هذا امتياز اقطاعى وذاك بارون يتدرع بالزرد وقد استل سيفه

(١) قانون بيت المقدس هو خلاصة قانون الأقطاع ، وضعه « جودفرى البولونى » لحكومة مملكة فلسطين اللاتينية حينما تم استخلاصها ثانية من أيدى العرب ، ويقول المؤرخ « جبن » إنه « وضع بمشورة البطريق والأمراء ورجال الدين والعلمانيين وهو أثر قيم من آثار التشريع الإقطاعى يقوم على أسس الحرية التى كانت من ضروريات هذا النظام » .

فى يمينه يتق به ، وموجز القول أنى أعلم أن مطالب « جاى دى لزجنـان » فى العرش سوف توضع فوق مطلبى له ، لو أن رتشارد عوفى وكان له أن يقول كلمته فى الانتخاب » .

فقال كبير الفرسان : « كفى ، كفى . حقا لقد أقنعتنى بإخلاصك ، وقد يرى غيرك ما ترى ، ولـكن قليلاً سوى كنراد منتسرا من يجرؤ على أن يجهر صراحة بأنه لا يرغب فى إعادة مملـكة بيت المقدس ، وإنما هو يؤثر أن يبقى سيداً على جزء من أجزائها ، مثله فى ذلك مثل سكان الجزر البرابرة الذين لا يعملون على خلاص سفين كريم من لجج الأمواج إلا إن كان لهم فى حطام السفين مغنم » .

فقال كنراد وقد نظر نظرة حادة فيها شك وريبة : « ينبغى أن لا تبوح بهذا السر ، واعلم وكن على ثقة أن لسانى لن يسىء إلى ضميرى ، ولن تمتنع يدى عن الدفاع عنهما معاً . اتهمنى بالخيانة إن شئت ، فإنى مستعد لأن أدفع عن نفسى ، وأن أقف فى رحبة النزال فى وجه خير رجل من رجال المعبد ممن يحملون الرماح » .

فقال رئيس الفرسان : « هذه نهضة مباغتة منك أيها الرجل الجسور ، وإنى لأقسم لك بالمعبد المقدس — الذى أخذت وزملائى على أنفسنا أن ندفع عنه — أنى سوف أحفظ سرك كزميل صادق » .

فقال مركيز منتسرا — وهو رجل كثيراً ما غلب حبه للسخرية سياسته وحكمته — « بأى معبد تقسم لى ؟ أفبـذاك القائم على تل صهيون الذى ابتناه الملك سليمان ، أم بذلك البناء المجازى الذى يقال إن المجـامع التى تعقد فى قاعات دروسكم ترمز به إلى توسيع نطاق جماعتكم ؟ » .

فتجهم له رئيس رجال المعبد ، ونظر إليه بعين قاتلة ، ولـكنه أجاب فى هدوء وقال : « أيا كان المعبد الذى أقسم لك به ، فكن على يقين يا لورد مركيز أن يمينى مقدسة ، ولـكن أنى لى أن أعرف كيف أربطك بيمين تعادل يمينى إلزاماً وثقة ؟ » .

فأجاب المركيز ضاحكا وقال : « أقسم لك حقا بتاج (الإيرل) ، الذى أرجو أن أحيله قبل انتهاء هذه الحروب إلى شىء خير منـه ؛ وإنى لأحس على جبينى

بالبرودة من هذا التاج الخفيف ، وتالله إن خوذة (الدوق) التى يتقى بها لخير من التاج وقاية من نسيم الليل البارد الذى يهب علينا الآن ، وخير من هذا وذاك تاج المُلك فهو مبطن بالمخمل والفراء الثمين الوثير ، وموجز القول أنا نرتبط معا بصالح مشترك ولا تظن يا سيدى الرئيس أن هؤلاء الأمراء المتحالفين — لو أنهم استردوا بيت المقدس ونصبوا عليهم هناك ملكا باختيارهم — سوف يرضون ببقاء جماعتك أكثر مما يرضون ببقاء إمارتى الفقيرة ، أو يرضون بأن تحتفظ بالاستقلال الذى تتمتع به الآن ، كلا ، وحق العذراء ، إن فرسان القديس يوحنا المختالين فى مثل هذه الحال سوف ينشرون الدواء ويضمدون بالغ الكلوم فى المستشفيات ، وأنت يا أشد فرسان المعبد مقدرة ، وأكثرهم جلالا ، سوف تعود إلى حالك ، ولا تبيت أكثر من جندى ساذج ، تنامون ثلاثة فوق حصير واحد ، ويمتطى كل اثنين منكم جوادا واحدا ، كما لا يزال طابعكم الحالى يدل على أن هذه العادات الساذجة كانت دأبكم الزمان الخالى » .

فقال رئيس رجال المعبد بأنفة وكبرياء : « إن جماعتنا لها من المكانة والفضل والرخاء ما يمنع مثل هذا الانحطاط الذى تهدد به » .

فرد عليه كنراد منتسرا وقال : « وإن فى ما ذكرت لأسباب شقائكم ، وأنت كمثلى يا رئيس رجال المعبد ، يا أيها الرجل الموقر ، تعرف أن لو نجح الأمراء المتحالفين فى فلسطين ، فإن ذلك سوف يكون مبدأ لسياسة ترمى إلى الحد من استقلال جماعتك ، هذا الاستقلال الذى لولا حماية أبينا البابا المقدس له ، وضرورة استخدام شجاعتك فى فتح فلسطين ، لافتقدته منذ زمن طويل ؛ أعطهم نجاحا تاما ينبذوك كما تُنبذ شظايا الرمح المحطم بعيدا عن رحبة النزال » .

فقال رئيس رجال المعبد وقد ابتسم ابتسامة كئيبة : « قد يكون صدقا ما تقول ، ولكن أى أمل لنا لو أن الحلفاء سحبوا قواهم ، وخلفوا فلسطين فى قبضة صلاح الدين ؟ » .

فأجاب كنراد : « أملنا عظيم ومؤكد ، سوف يسمح السلطان للأقاليم

الكبيرة بأن تُبقى على فرقة من خيار الرّماحين الفرنجة تكون رهن مشيئته ، وإن مائة من أمثال هؤلاء الأعوان تلتحق بخيالته الخفيفة فى مصر وسوريا لتظفرن فى القتال على أشد الأعداء فزعا ورعبا ؛ وهذا الاعتماد على جيوش السلطان سوف لا يدوم إلا فترة وجيزة — ربما كانت طيلة حياة هذا السلطان الطموح — وذلك لأن الدول فى الشرق تهب كما يهب الفطر(١) ، وهب أنه قد مات ، وهبنا تعضدنا من أوروبا نفوس مقحامة متقدة تأتينا دائبة متتابعة ، فأى شىء لا نطمح فى الظفر به دون أن يسيطر علينا هؤلاء الملوك الذين لهم من الرفعة اليوم ما يرمى بنا فى الظلام ؟ — أما إن لبثوا هنا ونجحوا فى هذه الحملة ، فإنهم سوف يودعوننا أبدا ، عن رغبة منهم ، إلى الذلة والتواكل » .

فقال رئيس الفرسان : « هذا كلام طيب يا سيدى المركيز ، وإن لكلماتك لصدى فى نفسى ، ولكننا مع ذلك ينبغى أن نكون على حذر ؛ إن فيليب ملك فرنسا حكيم كما هو جسور شجاع » .

«حقا وهو لذلك سوف يكون أشد تساهلا فى تحوله عن حملة ارتبط بها مندفعا فى لحظة اشتعلت فيها نار الحماس أو استفزه فيها نبلاؤه ، إنه يغار من الملك رتشارد عدوه الطبيعى ، ويتوق إلى العودة إلى متابعة خطط أطماعه ، وهى إلى باريس أقرب منها إلى فلسطين . أى دعوى عادلة سوف يتوكأ عليها كى ينسحب من ملحمة يعلم أنه إنما يبدد فيها قوى مملكته » .

فقال رئيس الفرسان : « وماذ ترى فى دوق النمسا ؟ » .

فرد عليه كنراد وقال : « أما فيما يخص الدوق ، فإن غروره بذاته ، وحمقه ، سوف يؤديان به إلى النتائج عينها التى وصل إليها فيليب بسياسته وحكمته ؛ إنه يرى أنه عومل بالجحود ، وذلك لأن أفواه الرجال — حتى مغنية من الجرمان — تمتلىء بمحامد الملك رتشارد ، الذى يخشاه ويمقته ، والذى يُسر لأذاه ، مثله فى ذلك مثل أولئك الأوغاد الأنذال الذين لم يصبهم شىء من التهذيب ، والذين

(١) نبات سريع النمو سريع الزوال .

إذا نهش المجلى من سربهم ذئب ، فمسه ضر ، كانوا إلى مهاجمة زميلهم من الخلف أسرع منهم إلى الخف إلى معونته . ولكن لماذا أحدثك بهذا ، اللهم إلا إن كان ذلك لأدلل لك على أنى مخلص فى رغبتى فى أن ينفض هـذا المجتمع ، وأن تتحرر البلاد من هؤلاء الملوك العظام وجيوشهم ؟ وأنت جد عليم ؛ وقد شاهدت بنفسك كيف أن الأمراء قاطبة من ذوى النفوذ والسلطان ، لا تستثنى منهم غير واحد ، يودون لو يبرمون عهدا مع السلطان » .

فقال رئيس الفرسان : « إنى أقر بذلك ، ومن لم يشهد ذلك إبان تداولهم أخيراً فهو أعمى البصر ، ولكن هلا رفعت عنك الحجاب قيد أنملة إلى أعلى وحدثتنى عن الباعث الحق الذى حدا بالمجمع أن يبعث بذلك الرجل من أبناء الشمال ، انجليزيا أو أسكتلندياً ، أو أيا كان ذلك الفارس ، فارس النمر ، يحمل مقترحهم لعقد المعاهدة ؟ »

فأجابه الرجل الإيطالى وقال : « إن وراء ذلك لحكمة ، فإن صفة الرجل كواحد من أبناء بريطانيا ، قمينة بأن تسد ما يطلب صلاح الدين ، فهو يعرف أن الرجل ينتمى إلى فريق رتشارد ؛ وصفته كأسكتلندى ، وغير ذلك من الضغائن الشخصية التى أعلم ، تجعل اتصال رسولنا بعد عودته — برتشارد — وهو على فراش المرض ، أمراً بعيد الاحتمال ، فإن رتشارد لا يحب مرآه » .

فقال رئيس الفرسان : « تالله إنها لسياسة دقيقة الحبك ، صدقنى إن نسيج العنكبوت الإيطالى هذا الذى نسجتم لن يقيد شمشون [1] الجزيرة هذا الذى لم يقص شعره بعد . ليس لهذه المؤامرة أن تنجح إلا إذا حبكتموها من جديد بالحبال ، وبأشد من الحبال متانة وصلابة ؛ ألا ترى أن الرسول الذى عنيتم جد العناية بانتخابه قد أتى لنا بطبيب بين يديه شفاءُ الملك الانجليزى قلب الأسد وعنق الثور ، وردُّه إلى تنفيذ مشروعه الصليبى ؛ وإذا ما بات على الانطلاق قديراً فأى الأمراء يجسر على كبح جماحه ؟ إنهم سوف يتبعونه خجلا وحياء ، وإن يكن أحب إليهم أن يسيروا تحت لواء الشيطان » .

---

(١) إشارة إلى قصة شمشون الجبار فى التوراة .

فقال كنراد منتسرا : « لا تجزع ، فقبل أن يتم هذا الطبيب شفاء رتشارد — إن كان يعمد إلى أى شىء غير المعجزة — فإنه من الممكن أن نحفر هوة عميقة بين الرجل الفرنسى — أو النمساوى على الأقل — من ناحية ، وبين حلفائه من الانجليز من ناحية أخرى ، حتى يتعسر رتق الخرق على الراقع ، وقد يهب من فراشه رتشارد بعدئذ كى يتأمر على جنده الخاص من مواطنيه ، ولكن لن يسيطر وحده على قوى الصليبيين جميعا » .

فرد عليه رئيس الفرسان وقال : « إنما أنت يا كنراد منتسرا نبّال صحت عزيمته ، ولكن قوسك مرتخية لا تبلغ بالنشاب إلى الهدف » .

وتوقف عن الكلام فجأة ، وأرسل نظرة فيها شك وريبة كى يستوثق أن أحداً لم يكن يتسمع له ، ثم أمسك بيد كنراد وقبض عليها بشدة وحدّق فى وجه صاحبها الإيطالى ، وكرر هذه العبارة فى أناة وتؤدة : « أفتقول إن رتشارد قد يهب من فراشه ؟ كنراد ! ينبغى أن لا يهب رتشارد مطلقا ! »

ففزع من ذلك مركيز منتسرا وقال : « ماذا ! هل أنت تتحدث عن رتشارد ملك انجلترا قلب الأسد بطل العالم المسيحى ؟ »

وعلت الصفرة وجنتيه وارتعدت فرائصه وهو يتكلم ، فنظر إليه رئيس الفرسان وقد تقلصت ملامحه ونمت عن ابتسامة فيها تحقير وازدراء .

« هلا تعرف أيها السيد كنراد لأى شىء أنت تشبه هذه الآونة ؟ لست كمركيز منتسرا السياسى الجسور — ولست كمن هو قمين بتوجيه مجمع الأمراء والفصل فى قضاء الدول — إنما أنت كتلميذ زل عند رقية فى كتاب سحر لأستاذه ، فابتعث الشيطان من حيث لايدرى ، ثم وقف مذعوراً أمام الشبح الذى مَثُل أمام عينيه » .

فقال كنراد وقد ثاب إلى رشده : « إنى أسلم لك أنا إن لم تكشف عن طريق أكيدة نخلص بها ، فلقد أشرت أنت إلى تلك التى تؤدى رأساً إلى ما نرمى — ولكن ، لك الله يا مريم ! لسوف تصب أوروبا كلها علينا اللعنات ، ونصبح مسبّة فى جميع الأفواه ، من البابا على عرشه إلى أدنى متسول لدى باب الكنيسة ،

يحمد ربه — على شعثه وبرصه وتمرغه فى الدرك الأسفل من الشقاء الإنسانى — على أنه ليس بجيلز اموري أو كنراد منتسرا » .

فرد عليه رئيس الفرسان برباطة الجأش التى تميز بها خلال هذا الحوار الهام وقال : « لو كان هـذا ما ترى إذن فلنمض وكأن لم يكن بيننا شىء ، وكأن حديثنا حديث نيام ، وما لبثنا أن صحونا حتى تبددت من أمامنا الأحلام » .

فأجاب كنراد قائلا : « إن هذه الأحلام لن تنقشع » .

فرد عليه رئيس الفرسان وقال : « أجل إن رؤيا أكاليل الأمراء ، وتيجان الملوك تحتل فى المخيلة مكانا لا يتزعزع » .

فأجاب كنراد وقال : « إذن فدعنى أحاول بادىء ذى بدء أن أفصم عرى الوئام بين النمسا وانجلترا » .

ثم افترقا ، ولبث كنراد ساكنا لا يتحرك حيث كان ينظر إلى عباءة رئيس الفرسان البيضاء ترفرف ، وهو يخطر فى مشيته فى تؤدة وأناة ، ويبتعد قليلا قليلا حتى ابتلعه ظلام الليل الشرقى الذى سرعان ما يرخى سدوله وينوء بكلكله ؛ وكان مركيز منتسرا مختالا طموحا ، جريئا أريبا ، ولكنه — مع ذلك — لم يكن قاسى القلب بطبعه ، كان شبقا أبيقوريا ، ولكنه كان — كغيره ممن يتخلقون بخلقه — يعاف الإيلام ، ولا يحب أن يشهد عملا فيه قسوة أو صرامة ، حتى وإن يكن فى نفسه من البواعث ما يبرره ، وكان لديه كذلك إحساس عام بتقدير ذكره بين الناس ، ذلك الإحساس الذى كثيرا ما يسد النقص فى المبادىء السامية التى يقوم عليها طيب الأحدوثة .

قال وما فتئت عيناه ترقبان الموضع الذى شاهد به عباءة رئيس الفرسان وهى تهتز الهزة الخفيفة الأخيرة : « حقا لقد أثرتُ فى الشيطان روح الانتقام ! من ذا الذى كان يظن أن هذا الرئيس الحازم الزاهد — الذى يتلاشى كل أمل له فى آمال طائفته — يكون أشد منى رغبة فى إشعال الفتنة ، وأنا إنما أعمل لنفعى

خاصة ؟ حقا لقد كان إيقاف هــذه الحرب الصليبية الهمجية هو باعثى الوحيد ، ولــكننى لم أجرؤ على أن أفــكر فى هذه الطريق العاجلة التى تجاسر هــذا القس القوى العزيمة على اقتراحها — وهى مع ذلك آكد الطرق ، وربما كانت آمنها» .

وهكذا كان المركيز يناجى نفسه ، وبهذه الخواطر كان يتمتم ، حينما استوقفه صوت غير بعيد ينادى ، وكأنه صوت رائد فى نبراته رنة التأكيد ، ويقول : « اذكروا القبر المقدس ! » .

وردد هذا النذير حارس بعد الآخر ، إذ كان من واجب الخفراء أن يصيحوا بهذا النداء الفينة بعد الفينة وهم فى رقابتهم المتعاقبة ، حتى لا يغيب أبدا عن ذكر الصليبيين الغرض من حمل السلاح ، ولــكن رغم أن كنراد كان يألف هذه العادة ، ورغم أنه سمع هذا الصوت النذير فى كل مناســبة سبقت وكأنه أمر مألوف ؛ إلا أن صوت المنادى قد اتصل إذ ذاك اتصالا وثيقا بسلسلة أفــكاره ، حتى خيل له أنه صــوت من السماء يحذره من الإثم الذى يتردد فى صدره ، فتلفت حواليه جزعا كأنه — وإن اختلفت ظروفه — ذلك الأب القديم يرتقب كبشا يأتيه من الغاب ، فداء عن القربان الذى اقترح له رفيقه أن يقدمه لا إلى الــكائن الأعلى ، وإنما إلى وثن أطماعهما ، وإذ هو يتلفت اختطفت بصره ثنايا العلم الإنجليزى ترفرف متثاقلة مع نسيم الليل العليل ، وكان العلم مرفوعا فوق ربوة مصطنعة تــكاد تتوسط المعسكر ، ربوة ربما كان قد اختارها فى الزمن القديم زعيم من زعماء بنى إسرائيل ، أو بطل من الأبطال ، لتكون شاهداً على جدثه ، وإن صح هذا ، فلقد غاص اسم الرجل فى لجج النسيان وأطلق الصليبيون على المــكان اسماً نصرانيا هو جبل «سنت جورج» ، وذلك لأن العلم الإنجليزى كان يخفق فوق هذه القمة الشامخة ، ويعلو على كل ما عداه ، كأنه رمز الســلطان يسمو على العدد العديد من البيارق البارزة النبيلة ، بل والبيارق الملــكية التى كانت ترفرف فوق المواضع الدنيا .

ورجل له من سرعة الخاطر ما لــكنراد قمين بأن يرى الرأى فى وميض برهة

أو لمحة ، وكأن نظرة واحدة إلى العلم قد بددت كل ما قام فى نفسه من ريبة أو شك ، فسار إلى سرادقه بخطى حازمة حثيثة ، كأنه رجل قد اختط لنفسه خطة صح منه العزم على إنفاذها ، ثم صرف رتلا من الرجال ، لهم مايشبه الأبهة الملكية ، كانوا يقومون على خدمته . وما أن استلقى على فراشه حتى تمتم بعزمه الجديد ، وذلك أن يحاول وسائل اللين قبل أن يعمد إلى خطة اليأس .

وقال : « غدا أجلس فى مجمع أرشدوق النمسا ، وسوف نرى ما عسى أن نفعل لبلوغ مأربنا قبل أن نلجأ إلى الرأى الأغبر ، رأى رئيس المعبد » .

الفصل الحادى عشر

في بلادنا الشمالية أمر أكيد ؛
قد يتميز الفرد مولداً أو شجاعة أو ثروة أو ذكاء ،
ولكن الحسد الذى يتبع هذى الفضائل ،
كما يتبع كلب الصيد طريق الغزال ،
يهدمها جميعاً واحدة بعد الأخرى .

السر داڤيد لندزى

كان ليوبولد دوق النمسا الأعظم أول من تملك تلك البلاد الكريمة التى تنتمى إليها مرتبة الإمارة السامية ؛ ارتفع فى الإمبراطورية الألمانية إلى مرتبة الدوق لصلة رحم قريبة بينه وبين الامبراطور هنرى الحازم الشديد ، وتملك تحت حكومة الامبراطور خير الأقاليم التى يرويها الدانوب ، وقد تلوث اسمه فى التاريخ بسبب فعلة شنعاء ، كان فيها ختال منه ، نشأت عن هذه الحروب فى الأرض المقدسة ، وذلك هو العار الذى ارتكبه حينما زج برتشارد فى السجن وهو عائد خلال أملاكه متخفياً لا تتبعه حاشية ، ومع ذلك فإن هذا العمل لم يصدر عن سجية ليوبولد وطبيعته ، فلقد كان أميراً إلى الضعف والعبث أقرب منه إلى الطموح والجور ، وهو فى قواه العقلية أشبه بصفاته الشخصية ؛ كان طويل القامة ، قوى البنية ، تظهر على بشرته الحمرة والبياض على أشد تباين ، وله شعر أشقر جميل تتدلى منه خصلات طويلة متهدلة ، ولكن بمشيته نبواً كأن ليس بجسمه من النشاط والحياة ما يكفى لأن يدفع بمثل هذا الحجم الكبير ، وكذلك كان يرتدى ثياباً فاخرة وكأنها لا تنسجم عليه ، وكان يبدو عليه أنه لم يألف كثيراً أن يحتفظ بكرامته كأمير نبيل ؛ ولما كان فى كثير من الأحيان فى حيرة من أمره كيف يفرض سلطانه ونفوذه حينما يدعو إلى ذلك داع ، فكثيراً ما كان يظن أنه مضطر إلى الفعال العنيفة والألفاظ الشديدة فى غير مناسبة ، كى يسترد مكانة ، ما كان أيسر له وأوفر كرامة من أن يُبقى عليها لو كان لديه قليل من الحصافة فى أول الجدل .

ولم تكن هذه النقائص ليراها غيره فحسب ، وإنما لم يسع الأرشدوق نفسه أحياناً إلا أن يحس إحساساً أليماً بأنه لم يكن البتة جديراً بأن يفرض نفوذه. ويحتفظ بالمرتبة العالية التى أحرزها ، وكان يحس إلى جانب ذلك بريبة قوية — كثيراً ما كان مصيباً فيها — فى أن الآخرين كانوا من أجل هذا لا يولونه إلا قليلا من الاحترام والتقدير .

ولما التحق ليوبولد بالحرب الصليبية أول الأمر ، تتبعه حاشية عليها أبهة الإمارة ، كان يتوق كثيراً لأن يظفر بصداقة رتشارد وإخلاصه ، وقد تقدم إليه يخطب الود ، ويرتقب من ملك إنجلترا أن يتقبل — لدهائه — هذا التودد ويجيبه ، ولكن بين الأرشيدوق — وإن تكن لا تنقصه الشجاعة والإقدام — وبين قلب الأسد بوناً شاسعاً فى تلك الحرارة القلبية التى تعانق الأخطار كأنها عروس حسناء ، فلم يسع الملك إلا أن ينظر إليه بشىء من التحقير والازدراء . وكان رتشارد كذلك أميراً نورمانديا ، والنورمان قوم ضبط النفس من طبعهم ، فكان يحتقر الجرمان الذين يميلون إلى السماط الممدود بشهى الطعام ، وبخاصة ذلك الإدمان الفارط فى احتساء النبيذ ؛ ومن أجل هذا عامة ، ولأسباب شخصية أخرى ، سرعان ما نظر ملك انجلترا إلى الأمير النمساوى بقلب ملؤه الاستخفاف والتحقير ، ولم يكلف نفسه مشقة إخفاء هذا الشعور أو الحد منه ، ولذا فسرعان ما بدا عليه ، ورده ليوبولد — الذي كانت تداخله الريبة — بالبغض الشديد . هذا التنافر بينهما زاد من حدته فيليب ملك فرنسا بالدسائس الخفية الماكرة ، وفيليب أحد الملوك ذوى الفطنة فى ذلك الزمان ، وكان يخشى من رتشارد ثورته وصلفه ، وينظر إليه كمنافسه الطبيعى ، ويحس كأنه — وهو تابع من أتباع فرنسا من حيث أملاكه فى القارة الأوربية — يسىء إليه بذلك الإملاء الذى يمليه ويتظاهر به إزاء سيده ، فكان فيليب لذلك يحاول أن يشد من أزر حزبه ، ويضعف من شأن حزب رتشارد ، بتوحيد الأمراء الصليبيين ذوى المراتب الدنيا ، للوقوف فى وجه ما كان يسميه السلطة الغاصبة لملك إنجلترا . تلك كانت السياسة ، وهذه كانت الخواطر التى يرحب بها

أرشدوق النمسا ، حينما اعتزم كنراد منتسراً أن يستخدم غيرته من انجلترا كوسيلة لحل مجمع الصليبيين أو الفت منه على الأقل .

وقد اختار أوج النهار وقتاً لزيارته ، ودعواه أنه يريد أن يقدم للأرشدوق بعضاً من خير نبيذ قبرص وقع أخيراً بين يديه ، ويحب أن يتحدث فى شأن ما له من مزايا ، ويوازن بينه وبين نبيذ المجر والرين ؛ وقد أجيب بالطبع لهذا الإلماع إلى مرماه ، بدعوة كريمة لأن يشترك فى مأدبة يؤدبها الأرشدوق ، وقد بُذل كل مسعى لأن تكون هذه المأدبة لائقة بأبهة أمير ملكى ، ولكن الرجل الإيطالى رغم ذلك ، رأى بذوقه المهذب أن فى الأطعمة المعروضة وفرة غير متسقة ، أثقلت بها المائدة ، أكثر مما رأى فيها تأنقاً وبهاء » .

والجرمان ، قوم ما عتموا يحتفظون بالصراحة والصفات الحربية التى ورثوها عن آبائهم الذين أخضعوا الإمبراطورية الرومانية ، إلا أنهم مع ذلك قد أبقوا على أثر طفيف من آثار وحشيتهم ، فلم ترتفع بينهم عادات الفروسية ومبادئها إلى ذلك الحد الرقيق الذى بلغته بين الفرسان الإنجليز والفرنسيين ، ولم يرعوا قواعد الجماعة المرسومة دقيق الرعاية ، تلك القواعد التى كانت بين تينك الأمتين تنم عن مبلغ الحضارة والتمدين . ولما جلس كنراد إلى مائدة الآرشدوق ، صعق لساعته ، وذعر لنقيق الأصوات التيوتونية التى كانت تقرع سمعيه من جانب ، رغم الوقار الذى ينبغى أن يلابس موائد الأمراء ؛ ولم تكن أزياؤهم بأقل غرابة ، وقد احتفظ الكثير من أشراف النمسا بلحى طويلة ، وكانت غالبيتهم الساحقة ترتدى معاطف قصيرة متنوعة الألوان ، وقد رُسمت وازينت ، وتهدلت منها هدب على طراز غير مألوف فى غرب أوروبا .

وكم كان فى السرادق من الأتباع كهولة وشباباً ، على الخدمة قائمون ، وهم يساهمون فى الحديث أحياناً ، ويتسلمون من سادتهم ما تبقى من طعام أو شراب يلتهمونه وهم وقوف خلف ظهور الحافلين ؛ وكان عدا هؤلاء عدد عديد من المهرجين والأقزام والمغنين ، وهم أعلى ضجيجاً وأكثر تدخلا مما يُسمح لهم به فى حفل خير

من هذا نظاماً ؛ ولما أن كان مباحاً لهم أن يأخذوا بنصيبهم ، بقدر ما يشتهون ، في النبيذ الذي كان يتدفق هنا وهناك أنهاراً جارية ، فقد أفرطوا في اللجب الذي أجيز لهم أن يلجوا فيه .

وفي غضون ذلك ، ووسط هذا الضجيج والعجيج ، وذلك المضطرب الذي هو بحان ألماني في سوق قائمة أليق منه بفسطاط أمير ملكي ، كان الأرشدوق يخدم خدمة رقيقة في ظاهرها ومواضعاتها ، مما كان يدل على مبلغ اهتمامه بحفظ المستوى والصفة اللتين تخولهما له مرتبته العالية حفظاً صارماً دقيقاً ؛ وكان الموالي يخدمونه وهم ركع ، ولا يتقدم لخدمته من الغلمان إلا من كان من دم نبيل ، وكان يطعم في طبق من الفضة ، ويحتسي نبيذ توكي ونبيذ الرين في قدح من ذهب ، وعباءة الأرشدوق التي يرتديها تتزين أسنى زينة بالفراء الثمين ، وتويجه قد يعادل في قيمته تيجان الملوك ، وقدماه تدثران في حذاء من المخمل (طوله حتى أطرافه قد يبلغ القدمين) ، ويستوي على مقعد من الفضة الخالصة ؛ وتعرف طرفاً من خلق الرجل إذا عرفت أنه كان يود أن يلتفت إلى مركيز منتسرا الذي أجلسه إلى يمينه متلطفاً باشاً ، ولكنه كان إلى نديمه أو « محدثه » أشد إصغاء ، وقد وقف النديم خلف كتف الدوق اليمنى .

وكان هذا النديم فاخر الثياب ، يرتدي عباءة وصدرة من المخمل الأسود ، والصدرة مزركشة بقطع نقدية مختلفة من فضة وذهب ، حيكت بها ذكرى للأمراء الأسخياء الذين وهبوها إياه ، ويحمل عصا قصيرة تتعلق بها كذلك باقات من النقد في حلق يجلجله كي يجذب إليه الأنظار حينما يهم بأن يقول شيئاً يكون في ظنه جديراً بالالتفات ، ولهذا الرجل من النفوذ بين حاشية الأرشدوق شيء بين ما للمنشد والمستشار ؛ هو مرة مداهن ، ومرة شاعر أو خطيب ، وكل من أراد أن يتقرب إلى الدوق كان يسعى لكسب رضا هذا النديم .

وكان إلى كتف الدوق اليسرى «مهرّجه» واسمه « جوناس شوانكر » خشية أن يكل الحاضرون من تمادي « المحدث » في حكمته ؛ و « المهرج » يُحدِثُ

بتقيته وأجراسه وألاعيبه ضوضاء كضوضاء المحدث التى يحدثها بجلجلة عصاه .

وكان هذان الرجلان يرسلان عبث الكلام تارة جادين وطورا هازلين ، وسيدهما ، إما ضاحك منهما أو محبذ لهما ، إلا أنه كان كذلك يرقب ، ممعنا ، ملامح ضيفه الكريم ، كى يرى أى أثر يرتسم على فارس مهذب مثله من عرض تلك الفصاحة والنكات النمساوية ، وليس من اليسير أن تعرف أيهما كان للحفل أكثر تلهية وسلوى ، رجل الحكمة أو رجل الهراء ، أو أيهما كان له لدى سيدهما الأمير القدر الأوفر ، ولكن ملحهما كليهما كانت تقابل بالإعجاب الشديد ، وأحيانا يتنافسان فى التحدث ويهزان بعصاتيهما ، وكل منهما يناظر صاحبه ويباريه مباراة مزعجة ، ولكنهما كانا على الجملة على وئام ، وقد ألفا أن يعين كل منهما الآخر فى ألاعيبه ، حتى إن المحدث كثيرا ما تنزل إلى مستوى المهرج يتابعه فى نكاته بالشرح والتعليق فيجعلها أشد وضوحا لإدراك السامعين ، حتى باتت حكمته ما هى إلا شرح لهراء المهرج ، وكثيرا ما رد المهرج فكاهة موجزة يعقب بها على ختام خطاب طويل ممل يلقيه « المحدث » .

ومهما تكن عواطف كنراد فى حقيقتها ، فلقد كان شديد الحرص على أن لا تنم ملامحه عن غير الرضا بما سمع ، وكان يبتسم ويتظاهر بالثناء الحار — كما كان يفعل الدوق نفسه — على فكاهة المحدث المحتشمة ونكات المهرج الوضيعة ، وكان فى الواقع يترقب بانتباه أن يبدأ أحدهما بموضوع ما يناسب الغرض الذى كان يحتل فى ذهنه المكانة الأولى .

ولم يمض زمن طويل حتى رمى المهرج بملك انجلترا على بساط الحديث ، وقد اعتاد أن يتخذ من (دِكُن) صاحب المكنسة — وقد استعار هذا الاسم الذميم لرتشارد بلانتاجنت[1] — موضوعا للهزل مقبولا لا ينفد ؛ أما المحدث فقد صمت حقا ولم يتكلم إلا حينما شرع كنراد يتحدث عن النبات الذى تصنع منه

(١) اسم يطلق على كل ملوك انجلترا من هنرى الثانى إلى رتشارد الثالث — والكلمة معناها نبات تصنع منه المكانس .

الكانس ، فقال (أى المحدث) : « هذا العشب هو رمز الذلة والخضوع ، وخير للذين يلبسونه أن يذكروا ذلك » .

وكان هذا الإيحاء إلى شارة بلانتاجنت البراقة جليا واضحا ، فقال جوناس شوانكر المهرج : « إن أولئك الذين تواضعوا قد رفعهم الانتقام إلى مراتب المجد » .

فأجاب مركيز منتسرا : « الشرف لمن يستحق الشرف ، لقد اشتركنا جميعا فى هذه الحملة وهذى المواقع ، وإنى أرى أن الأمراء الآخرين ينبغى أن يساهموا قليلا فى الصيت الذى يحتكره رتشارد ملك انجلترا بين جماعة المنشدين والمغنين الجرمان ؛ أليس من بين هذه الجماعة المرحة هنا من يعرف أنشودة واحدة فى مدح أرشدوق النمسا الملكى مضيفنا الكريم ؟ »

فاستبق ثلاثة من المنشدين وخطوا إلى الأمام يرفعون الصوت بالغناء ويضربون على القيثار ، وقد وجد « المحدث » مشقة فى إسكات اثنين منهم ، وكان المحدث يتصرف كأنه سيد القصف ، وأخيرا ظفر الشاعر الذى أوثر على صاحبيه باستماع الحاضرين ، وأخذ يغنى بالألمانية أبياتا من الشعر ، ترجمتها :

أى زعيم مقحام يتقدم الجيوش ،
حيث تتجمع فيالق الصليب الأحمر ؟
إنما هو خير فارس على خير الخيول ،
وأعلى الرؤوس ذو الريشة الحسناء .

وهنا جلجل المحدث بعصاه ، واعترض الشاعر ، وألمع للحافلين إلى ما قد يفوتهم إدراكه من هذا الوصف ، وذلك أن القائد الذى أشير إليه إنما هو مضيفهم الملكى ، ثم طافت بين الحاضرين كأس مترعة ، وصاح الجميع : « ليحى الدوق ليوبولد » ثم تلا الشاعر أبياتا أخرى :

لا تسألوا النمسا لماذا
يرفرف فوق أعلام الأمراء لها علم ،
وإلا فاسألوا النسر ذا الجناح المتين ،
لماذا يحلق صوب السماء ويسبق كل الطيور .

وقال المحدث وهو شارح الأقوال الغامضة : « النسر شارة سيدنا النبيل الأرشدوق — عفوا ! إنما ينبغى أن أقول صاحب الجلالة الملكية الأرشدوق — والنسر يحلق فيعلو ويصبح إلى الشمس أدنى من كل طائر مريش » .

فقال كنراد غير مكترث : « ولكن الليث قد قفز فوق النسر » .

فاحمر الأرشدوق ، وحدق ببصره فى المتكلم ، وقد أجابه المحدث بعد ما تروى دقيقة وقال : « ليأذن لى سيدى المركيز أن أقول إن الأسد لا يستطيع أن يحلق فوق النسر ، إذ ليس لأسد جناح » .

فأجاب المهرج : « إلا أسد القديس مرقص » .

وقال الدوق : « هذا عَلَمُ البندقية ، ولكن لا ريب أن هذا القبيل المختلط ، نصف من الأشراف ونصف من التجار ، لا يجرؤ على الموازنة بين مرتبته ومرتبتنا » .

فأجاب مركيز منتسرا وقال : « كلا وما عن ليث البندقية تحدثت ، وإنما عن ليوث انجلترا الثلاثة التى تتطلع ذات اليمين — وقد قيل إنها قديما كانت نمورا ، ولكنها صارت اليوم أسدا من كل وجه ، وينبغى أن تسبق الوحش والطير والأسماك وإلا فالويل لمن يقترب منها » .

فقال النمساوى وقد أصبح شديد الحمرة من فعل النبيذ : « هل أنت فى هذا جاد يا سيدى ؟ وهل تظن أن رتشارد ملك انجلترا يزعم لنفسه فضلا على الملوك الأحرار الذين تحالفوا معه طوعا فى هذه الحروب الصليبية ؟ » .

فأجاب كنراد وقال : « والله إنى لا أعرف إلا ما تنم عنه الظروف ، فهناك يخفق علمه فريدا وسط مخيمنا ، كأنه ملك على جيوشنا المسيحية كلها ، وكأنه كبير قوادها » .

فقال الأرشدوق : « وهل أنت تحتمل هذا صابرا ، وتتحدث عنه بمثل هذه البرودة ؟ » .

فأجاب كنراد : « سيدى ! ليس لمركيز منتسرا المسكين أن يحتج على أذى

يخنع له خضّعا أمراء أشداء كفيليب فرنسا وليوبولد النمسا ؛ ما تخضعان له من هوان لن يكون لى شنارا » .

وحينئذ أطبق ليوبولد قبضة يده وضرب بها على المـائدة بشدة وعنف . وقال : « لقد قلت لفيليب ذلك ، وكم من مرة قلت له إن من واجبنا أن نحمى صغار الأمراء من اغتصاب هذا الجزرى — ولـكنه كان دائمـا يجيبنى بوجوب رعاية تلك العلاقة السخيفه بينهما ، علاقة السيد والمسود ، ويقول أن ليس من الحـكمة من جانبه أن يعلن انفصام هذه الرابطة فى هـذا الوقت وذلك الحين » .

فقال كنراد : « يعلم الناس قاطبة أن فيليب رجل حكيم ، وسوف ينظرون إلى خضوعه كأنه من حسن السياسة ؛ أما ذلتك يا سيدى فأنت وحدك مسئول عنها ، ولـكنى لا أشك فى أن لديك أسبابا قوية تدعوك إلى الإسـلام إلى نفوذ الانجليز » .

فأجاب ليوبولد موتور الـكرامة وقال : « أنا أُسْلم لهم ! أنا أرشدوق النمسا ذلك العضو الحيوى الهام فى جسم الإمبراطورية الرومانية المقدسـة — أنا أذل نفسى لهذا الملك الذى يتأمر على نصف جزيرة — هـذا الحفيد لرجل نورماندى نَغْـل ! — كلا ورب السموات العلا ! لسوف يرى المعسكر ، ولسوف يرى العالم المسيحى طرا ، أنى أعرف كيف أعيد لنفسى حقها ، ولسوف يرى إن كنت أتنزل عن قيد شعرة لهذا الوغد الانجليزى — هيا يا سادتى ، يارفاق الحبور ، هيا اتبعونى ! سوف نضع نسر النمسا حيث يحلق عاليا كما حلقت فى التاريخ أية شارة لملك أو لقيصر ، ولن نتوانى فى ذلك برهة أو لحظة » .

ولمـا أتم حديثه نهض من مقعـده ، ووسط الهتاف المعجاج الذى هلل به ضيوفه وأتباعه توجه نحو باب السرادق ، وأمسك بعلمه الخاص الذى كان منتصبا لديه .

فقال كنراد متلمسا للتدخل سببا : « كلا ياسيدى ! إنك لو أثرت بالمعسكر

شغبا فى هذه الساعة للطخت بذلك سداد رأيك ، ولربمـا كان خيراً لك أن تبقى خاضعا لاغتصاب انجلترا فترة من أن . . . . » .

فصاح الدوق بأعلى صوته وقال : « كلا ، لن أخضع بعد اليوم ساعة ، كلا بل ولا دقيقة واحدة » ثم سار والعلم فى يده ، وفى إثره ضيوفه وأتباعه مهللين ، وسارع إلى الرابية الوسطى التى كان يخفق عليها علم انجلترا ، ووضع يده على رمح اللواء يريد أن يقتلعه من الأرض .

فقال جوناس شوانكر ، وقد مد ذراعيه حول الدوق : « سيدى ! سيدى العزيز ، إحذر فإن للأُسْد أنيابا . . . » .

فقال الدوق : « وللنسور مخالبا » ، ولم يترك عصا اللواء من قبضته ، ولـكنه تردد فى اقتلاعها من الأرض .

وكان للمحدث فترات يصدر فيها عن روية وبصيرة — وهذا بعض واجبه — فقرع عصاه بصوت مرتفع حتى أدار ليوبولد رأسه نحو مستشاره ، وكأنه قد اعتاد ذلك ، فقال المحدث : « النسر ملك بين الطيور فى الهواء ؛ وكذلك الليث بين الوحوش فى الغاب ؛ كل له دائرة يصول فيها تنفصل عن الأخرى تماما ، كما تنفصل إنجلترا عن ألمانيا — فلا تلحق بالأسد الملـكى هوانا أيهـا النسر النبيل ، وخلّ لوائيكما يخفقان جنبا إلى جنب آمنين مطمئنين » .

فباعد ليوبولد يده عن رمح اللواء ، وتلفت يبحث عن كنراد منتسرا ، ولـكنه لم يره ، لأن المركيز لم يلبث أن رأى الشر قائما على قدم وساق حتى انسحب من الحشد ، وقد عبّر للـكثير من المحايدين عن أسفه لأن يختار الأرشدون تلك الساعة بعد المأدبة ليثأر من أية إساءة يرى أن من حقه أن يشكو منها . ولما لم ير الدوق ضيفه الذى كان يرغب فى التحدث إليه خاصة ، رفع عقيرته وقال : « إنه لا يرغب فى أن يولد بين صفوف جيش الصليب فتنة . إنه يريد أن يؤيد حقه فى أن يقف وملك إنجلترا على قدم المساواة ، ولـكنه لا يتطلع — وقد كان فى وسعه ذلك — إلى رفع علمه — الذى تسـلمه من العواهل أسلافه — فوق علم ملك

ما هو إلا حفيد من أحفاد أمراء أنجو . ثم أمر الدوق بدن من النبيذ يؤتى به إليه ، ويدك فوق الأرض ليحتسى منه الواقفون الذين تجرعوا المدام تكراراً حول راية النمسا بين قرع الطبول ونغم الموسيقى .

ولم ينته هذا الحفل المهوش بغير ضجيج أزعج المعسكر بأسره .

وأزفت الساعة الحرجة ، الساعة التى رأى الطبيب وفقاً لقواعد فنه أن عليله الملكى يجوز أن يوقظ فيها بطمأنينة وسلام ، واستخدم اسفنجة لهذا الغرض ، ولم يتفرس مريضه طويلا ، وأكد لبارون جلزلاند أن الحمى قد تخلت عن مليكه بتاتاً ، وأن من حسن الطالع أن للملك من قوة البناء ما لا يحتم تناوله جرعة أخرى من الدواء الناجع ، كما يجب فى غالب الظروف ؛ والظاهر أن رتشارد نفسه كان يرى الرأى ذاته ، فقد استوى على السرير ، ومسح بعينيه ، وسأل دى فو عن مبلغ النقد الذى كان بالخزائن الملكية حينذاك .

ولكن البارون لم يستطع أن يجيبه إلى ذلك على وجه دقيق .

فقال رتشارد : « ليكن المال قليلا أو كثيراً ، فليس هذا بأمر ذى بال ؛ امنح كل ما هنالك لهذا الطبيب النطاسى الذى ردّنى — على ما أعتقد — لخدمة الحرب الصليبية ، ولو كان المبلغ ينقص عن ألف بيزنط [1] فأعطه من الجواهر ما يرفع القيمة إلى هذا المقدار » .

فأجاب الطبيب العربى قائلا « إنى لا أبيع الحكمة التى وهبنيها الله ، واعلم أيها الأمير العظيم أن الدواء الإلهى الذى تناولت منه يفقد أثره بين يدىّ الضعيفتين لو أنى بعت فضائله بالذهب والماس » .

فقال دى ڤو محدثاً نفسه « إن الطبيب يرفض المنحة ، والله إن هذا لأعجب من أنه فى المائة من عمره » .

وقال رتشارد « أىْ توماس دى ڤو ، إنك لا تعرف من البسالة إلا ما بظباة السيف ، ولا تعرف جوداً أو فضلا إلا ما يسرى فى الفروسية — ألا فلتعلم أن

(١) البيزنط عملة ذهبية كانت متداولة فى الدولة البيزنطية وقيمتها نحو خمسة وأربعين قرشا

هذا المغربى يستطيع — باعتماده على نفسه — أن يكون مثلا لأولئك الذين يظنون أنفسهم زهرة الفروسية » .

فقال المغربى وقد طوى ذراعيه على صدره ووقف موقفاً موقراً محترماً : « كفانى ثوابا أن ملكا عظيما كالملك رك[1] ينطق بهذا الكلام عن خادمه — ولكننى أتوسل إليك الآن ثانية أن تستوى على فراشك ، لأنى وإن كنت لا أظنك بحاجة إلى أن تعاود اجتراع هذا الشراب الإلهى ، إلا أنك إن بذلت جهدا مبتسرا قبل أن تسترد قواك كاملة ، فقد يعود عليك ذلك بالضر والأذى » .

فقال الملك : « تجب على طاعتك أيها الحكيم ، ولكن صدقنى أن صدرى قد تحرر من تلك النار المتأججة التى لبثت أياما طوالا تلتهم ما بين جنبى ، وإنى لا أكترث الآن إن أنا بادرت إلى تعريضه لرمح رجل من بواسل الرجال — ولكن صه ، صه ! ما وراء ذلك الصياح وتلك الموسيقى النائية التى تعزف فى المعسكر ؟ اذهب ، توماس دى ڤو ، وا كشف عن الأمر » .

فتغيب دى ڤو دقيقة ثم عاد وهو يقول : « إنه الارشدوق ليوبولد يسير وإخوانه فى الشراب فى موكب خلال المعسكر » .

فصاح الملك رتشارد قائلا : « يا له من وغد قد ثمل ! ألا يستطيع أن يخفى هذا الثمل الوحشى وراء ستار سرادقه ، وهل لا بد له أن يبدى خزيه هذا للعالم المسيحى طرا ؟ » — ثم أردف موجها الخطاب إلى كنراد منتسرا — وقد ولج الفسطاط آنئذ — وقال له : « ماذا ترى فى هذا ، سيدى المركيز ؟ » .

فأجاب المركيز قائلا : « كم يسرنى أيها الأمير النبيل أن أرى جلالتك معافى وقد برئت إلى هذا الحد ؛ إن الحديث فى هذا الشأن شاق على رجل ناله شىء من قراء دوق النمسا » .

فقال الملك : « ماذا ! هل كنت تتناول الغداء مع هذه القربة التيوتونية المترعة بالنبيذ[2] ؟ أنّى له هذا المرح الذى انتهى به إلى كل هذا الضجيج ؟ حقا يا سر

(١) هكذا كانت تسمى الأمم الشرقيه رتشارد .
(٢) يقصد دوق النمسا .

كنراد لقد كنت أظنك حتى الآن رجلا محبا للهو والطرب ، حتى إنى لأعجب كيف هجرت مكان القصف » .

وكان دى فو إذذاك قد وقف وراء الملك وقريبا منه ، يسعى جهده — باللمحات والشارات — أن يشير إلى المركيز بأن لا يبوح لرتشارد بشيء مما كان يدور خارج السرادق ، ولكن كنراد لم يفهم هذا التحذير ، أو قل إنه لم يأبه له .

فقال : « إن ما يعمل الأرشدوق شيء قليل الجدوى لغيره ، وأقل جدوى لنفسه ، فهو لا يعرف ما هو صانع ، وما هذا حقا إلا لعب لا أحب أن أساهم فيه ما دام الدوق يخلع لواء انجلترا من فوق جبل سنت جورج وسط ذاك المخيم ، وينشر رايته مكانه » .

فصاح الملك بصوت يكاد يوقظ من فى القبور وقال : « ماذا تقول ؟ » .

فقال المركيز : « كلا ! لا يُغضبن جلالتك أن رجلا أحمق يعمل ما عليه عليه حمقه . . » .

فقال رتشارد وقد هب من مرقده وانثنى على ثيابه بعجلة عجيبة : « لا تخاطبنى يا سيدى المركيز ! أىْ دى ملتن ، إنى آمرك أن لا تنبس إلىّ ببنت شفة — من يلفظ كلمة واحدة فليس لرتشارد بلانتا جنت بصاحب أو صديق — ناشدتك الله أن تلزم الصمت أيها الحكيم ! »

وفى تلك الأثناء كان الملك يرتدى ثيابه متعجلا ، ولم يكد يلفظ الكلمة الأخيرة حتى انتزع حسامه من إحدى قوائم الفسطاط ، وانطلق من السرادق وليس معه سلاح آخر ، ولم يدع أحدا يتبعه . فرفع كنراد يديه كأنه ذاهل ، وبدت عليه الرغبة فى التحدث إلى دى فو ، ولكن السر توماس خلّفه واندفع بشراسة ، ثم نادى أحد رعاة الخيول الملكية ، وقال له متلهفا متعجلا : « انطلق إلى بيت اللورد « سولزبرى » واطلب إليه أن يجمع رجاله ويتبعنى توا إلى جبل سنت جورج ، قل له إن الحمى قد خرجت من دماء الملك ، واستقرت فى رأسه» .

وذعر الخادم الذى وجه إليه دى فو الخطاب بهذه اللهفة ، فلم يستمع إلى كل حديثه ، ولم يكد يفقه له قولا ؛ وانطلق على إثر ذلك رئيس رعاة الخيل وزملاؤه من خدام البيت المالك وهرولوا إلى خيام النبلاء المجاورة ، وسرعان ما نشروا الذعر بين الجنود البريطانيين كافة ، وبقى الباعث غامضا لم يدر به أحد ، فاستيقظ الجند الإنجليز وهبوا من قيلولتهم ، التى علمتهم حرارة الجو أن يستغرقوا فيها كأنها لون من ألوان الترف ، وأخذوا فيما بينهم يتساءلون ما تلكم الجلبة ، وما ذلك الشغب ، وقبل أن يجابوا سؤلهم كفتهم قوى الخيال ما نقصهم من خبر ، وقال بعضهم إن العرب قد حلوا بالمعسكر ، وقال بعضهم حياة المليك مهددة ، وقال بعضهم إنه هلك من الحمى فى المساء السابق ، وقالت كثرة منهم إن دوق النمسا قد اغتال حياته ، وبات الأشراف والضباط — كغيرهم من عامة الرجال — فى حيرة من حقيقة الباعث على هذا الاضطراب ، فلم يعملوا إلا على أن يُبقوا أتباعهم شاكى السلاح ، مؤتمرين لذوى النفوذ والسلطان ، خشـية أن ينجم عن تهورهم شر مستطير يلحق بجيش الصليبيين ؛ ورن رنين الأبواق الإنجليزية ، وجلجل صوتها دون انقطاع ، وعلا صوت القوم مذعورين ، وأخذوا ينادون : « قسيّـكم ورماحكم — قسـيكم ورماحكم ! » ، وسرى النداء من حى إلى حى ، وأخذ يتردد مرة تلو الأخرى ، فيجاب بالفوج إثر الفوج من المقاتلين المتأهبين ، ودعواهم القومية : « سنت جورج لانجلترا الطروبة ! ».

وسرى الذعر فى أقرب الأحياء بالمعسكر ، وتجمهرت زمرة من الرجال من الأمم المختلفة جميعا ، وربمـا كان لـكل قوم من أقوام العالم المسيحى من يمثلهم ، ورفع الجميع السلاح متكاتفين فى ظرف هـذا المعمعان المضطرب الذى لم يعرفوا له باعثا أو مرمى ؛ وكان من حسن الطالع وسط هـذا المشهد المروع أن (الإيرل أف سولزبرى) — وقد هرع بعد أن استدعاه دى فو فى ثلة من خيار الرجال الإنجليز المدججين بالسلاح — قد سير بقية الجيش الإنجليزى ، وأشار لهم أن يحتشدوا ويبقوا شاكى السلاح ، كى يسـيروا إلى نجدة رتشارد إن دعا إلى ذلك داع ، وأن

يتقدموا بنظام لائق ، وألا يتحركوا إلا إن جاءهم أمر معتمد ، وألا يسيروا بعجلة لجبة قد يجلبها عليهم مايتملكهم من ذعر وما يدفع بهم من غيرة على سلامة المليك .

وفى تلك الآونة أخذ رتشارد يشق طريقه إلى جبل سنت جورج منطلقاً كالشهاب ، ولم يكترث لحظة لتلك الصيحات وذلك الهتاف والضجيج الذى أخذ يتعالى حواليه ، وثيابه أبعد ما تكون عن الاتساق ، ولم يتبعه غير دى فو وواحد أو اثنين من حشمه .

وكان فى انطلاقه أسرع من الذعر الذى أثاره باندفاعه وتهوره ، ومر بحى جنوده البواسل من « نورماندى » و « بواتو » و « غسقونيا » و « أنجو » قبل أن يبلغهم الاضطراب — وإن يكن الشغب الذى كان يرافق قصف الألمان قد دفع بالكثير من الجند إلى أن يهبوا على أقدامهم يتسمعون — وكانت قلة الاسكتلنديين تقطن إلى جوار ذلك الحى ، ولكن هذا اللجب لم يزعجهم ، أما فارس النمر فقد لحظ شخص الملك وما كان عليه من عجلة ، فعلم أن الخطر لا بد دان ، فسارع كى يساهم فيه ، وانتزع درعه ومهنده ، وانضم إلى دى فو الذى كان يجد بعض المشقة فى مسايرة سيده — وقد اشتعل ناراً وجزعاً — وصوب الفارس الأسكتلندى إلى دى فو نظرة تطلع وتشوق ، فأجابه دى فو بهز كتفيه العريضتين ، وانطلقا جنباً إلى جنب ، يتابعان خطى رتشارد .

وسرعان ما بلغ الملك سفح جبل سنت چورچ ، وقد حوط القوم إذ ذاك سفح الجبل وجوانبه ، واحتشد من الناس زحام ، بعضه من أتباع دوق النمسا الذين كانوا يمجدون — مهللين هاتفين — ذلك العمل الذى كانوا يعدونه إقراراً للكرامة القومية ، وبعضه نظارة من أمم مختلفة ، ضمهم بعضا إلى بعض ، ليشهدوا نهاية هذا العمل الشاذ ، بغضٌ فى النفوس للانجليز ، أو حب للتطلع مجرد ؛ وانطلق رتشارد فى طريقه وسط هؤلاء الجند المختلطين كأنه سفين كريم امتلأ شراعه بالهواء ، وسار يشق طريقه عنوة خلال الأمواج المتلاطمة ، لا يبالى إن تجمعت الأمواج بعد مسيره أو خر خريرها على مؤخرته .

وكانت قمة الجبل فسحة من الأرض صغيرة مستوية ، اندكت فوقها الأعلام المتنافسة ، وما فتئ يحوطها أصدقاء الأرشدوق وحاشيته ، وكان ليوبولد نفسه وسط الدائرة ، وما برح ينظر إلى الفعلة التى فعلها بنفس مطمئنة ، وما عتم يستمع إلى هتاف الاستحسان الذى لم يدخر حزبه نَفَساً فى توجيهه إليه ، وإذ هو كذلك فى غبطته ، إذا رتشارد يندفع إلى الحلقة وليس له من الأتباع حقا غير اثنين ، ولكنه بنشاطه المتدفق جيش وحده لا يقاوم .

وقال وقد مد يده إلى العلم النمساوى ، وتكلم بصوت يشبه تلك الجلجلة التى تسبق الزلازل : « من ذا الذى حدثته نفسه أن يضع هذه الخرقة الحقيرة إلى جوار الراية الانجليزية ؟ » .

ولم يفتقر الأرشدوق إلى الشجاعة الشخصية ، وكان محالا أن يسمع هذا السؤال دون أن يجيب ، ولكنه رغم ذلك انزعج وذهل ذهولا شديداً لمقدم رتشارد الذى لم يكن فى الحسبان ، وتملكه رعبٌ مبعثه شخصية الملك الغيورة التى لا تلين ، حتى إنه أعاد السؤال مرة بعد أخرى — فى نغمة كأنها تتحدى السموات والأرضين — قبل أن يجيب الأرشدوق ويقول رابط الجأش جهد الطاقة : « أنا ذلك الرجل ، ليوبولد النمساوى » .

فأجاب رتشارد : « إذن فلسوف يرى ليوبولد النمساوى عما قريب أى وزن يقيم رتشارد الانجليزى لرايته ودعواه » .

ولم يكد يتم حديثه حتى اقتلع رمح العلم وحطمه إرباً إرباً ، ورمى بالعلم فوق الثرى ووطأه بقدميه .

ثم قال : « هكذا أدوس علم النمسا ! فهل من بين فرسانكم التيوتون من يجرؤ على مناقشتى الحساب ؟ » ، وحينئذ ساد الصمت حيناً ؛ ولكن ليس فى الرجال من لهم شجاعة الألمان ، فكم من فارس من أتباع الدوق أجاب رتشارد قائلا : « أنا ذلك الرجل » ، وضم الدوق نفسه صوته إلى أصوات أولئك الذين ردوا على ملك انجلترا تحديه .

قال « الإيرل وَالَــنْرَود » وهو مقاتل كبير الجسم من حدود المجر : « فيم هذا التوانى ، أى إخوانى يا كرام النبلاء ، إن هذا الرجل يطأ بقدمه شرف بلادكم — هلموا بنا ننقذه من هذا الاعتداء ، ولتسقط كبرياء انجلترا ! » .

ولم يكد يتم قوله حتى استل حسامه ووجه نحو الملك ضربة ، كان فيها قضاؤه لولا أن اعترضها الرجل الاسكتلندى وتلقاها بدرعه .

فقال الملك رتشارد ، وقد استشرى وعلا صوته الشغبَ الذى ارتفع ضجيجه إذ ذاك : « لقــد أقسمت يميناً أن لا أضرب رجلا يحمل الصليب على كتفه ، وإذن فلتعش يا « والنرود » — ولــكن عش لتذكر رتشارد ملك انجلترا » .

ولم يفرغ من حديثه حتى أمسك الرجلَ المجرى الطويل القامة من خصره — وهو رجل لا يبارى فى الصراع كما لا يبارى فى غيره من الحركات الحربية ، وطوح به إلى الوراء بعنف ، فتدحرج جسم الرجل البدين — وكأنه ينطلق من مدفع عسكرى — لا وسط النظارة الذين شهدوا هذا المنظر الشاذ فحسب ، وإنما فوق حافة الجبل نفسه وعلى جرفه الذى أخذ يتقلب عليه والنرود رأساً على عقب ، حتى ارتكز أخيراً على كتفه ، وتخلخلت عظامه ، ولبث ملقى على الأرض وكأن الحياة قد فارقته . هذا الحادث الذى بدت فيه قوة الملك — وهى تكاد تفوق الطاقة البشرية — لم تشجع الدوق أو أحداً من أتباعه ، على أن يعاود السجال الذى لم تكن بدايته ميمونة الطالع ؛ وحقاً لقد صلصل بالسيوف أولئك الذين وقفوا بعيداً إلى الخلف وصاحوا : « مزقوا وغد الجزيرة إرباً إرباً » ، ولــكن الأقربين منهم أخفوا مخاوفهم الشخصية تحت ستار مصطنع ، هو ستار الرغبة فى حفظ النظام ، وكنتَ أكثر ما تسمع منهم « السلام ، السلام ! سلام الصليب ! سلام الـكنيسة المقدسة وأبينا البابا ! » .

هذه الصيحات المختلفة من المغيرين كان يناقض بعضها بعضاً فتدل على فتور فى العزيمة ، بينما كان رتشارد — وقدمه ما تزال فوق راية الأرشدوق — يتطلع حواليه بعين كأنها تبحث عن عدو ، عين تراجع منها الأشراف الغاضبون فزعين ،

كأن ليثاً هصورا يتهددهم بالهجوم ، ولبث دى فو وفارس النمر مكانهما إلى جوار الملك ، ورغم أن سيفيهما ما برحا مغمدين ، إلا أنه كان جليا أنهما يتحفزان لحماية شخص رتشارد حتى النفس الأخير ، وكانا بضخامة جسميهما وقوة بنيتهما الفائقة يدلان دلالة واضحة على أن دفاعهما سوف يكون دفاع المستقتلين .

وقد دنا سولزبرى وحاشيته كذلك إذ ذاك برماح وحراب مسنونة وقسى مشدودة .

وفى تلك الآونة جاء فيليب ملك فرنسا يتبعه واحد أو اثنان من أشرافه ، واعتلى المنصة مستعلماً عن سبب تلك الشحناء ، ولوّح بشارات التعجب حينما ألفى ملك انجلترا وقد هب من فراش مرضه ، وواجه دوق النمسا ، حليف الطرفين ، وقد وقف وقفة المتوعد المتحدى ؛ ولقد خجل رتشارد نفسه حينما رآه فيليب — وكان يقدر فيه حكمته بقــدر ما كان يكره شخصه — وهو فى هيئة لا تليق بمركزه كملك ،ولا بصفته كصليبى ، ولحظ الحاضرون أنه رفع قدمه — وكأنه غير عامد — من فوق الراية المهينة ، وبدل من نظرته الممزوجة بالعاطفة الحارة نظرة اصطنع فيها الطمأنينة وعدم المبالاة ؛ وجاهد ليوبولد أن يظفر بشىء من الهدوء ، وكاد يموت كمداً حينما رآه فيليب وهو فى موقف الذلة والخنوع بسبب الإهانة التى لحقته من ملك انجلترا وهو يتقد غضباً .

وكان فيليب على كثير من تلك الصفات الملـكية التى أطلقت عليه رعيته من أجلها لقب العظيم ، حتى أننا نستطيع أن ندعوه « يوليسيز » كما كان رتشارد « أخيليس »[1] غير منازع فى الحرب الصليبية . كان ملك فرنسا حكيما عاقلا حازما فى مشورته ، متزنا ساكنا فيما يعمل ، يتبصر فيما يدبر لصالح مملـكته ، ويرسم لذلك خطة يتابعها راسخ القدم ثابت العزيمة ؛ وهو فى سلوكه ملك موقر ، مقدام فى نفسه ، إلا أنه إلى السياسى أدنى منه إلى المقاتل ؛ وما كان للحرب الصليبية أن تـكون من محض اختياره ، ولـكن عدواها أصابته ، وفرضت عليه الـكنيسة

(١) « يوليسيز » و« أخيليس » شخصيتان هامتان فى إلياذة هومر .

الحملة فرضاً ، كما دفعته إليها رغبة قوية أجمع عليها أشرافه ؛ ولو كان الظرف غير الظرف ، أو لو كان العصر أشد رفقاً ، لكان يعلو فى خلقه على قلب الأسد الجسور ، ولكن فى حرب صليبية — هى فى ذاتها أمر لا روية البتة فيه — لا يكون العقل السليم من بين جميع الصفات إلا أقلها قدراً ؛ ولو أن شجاعة الفروسية ، التى كان يتطلبها العصر ومشروع الحرب ، اختلطت بأدنى أثر من آثار الحكمة لحط ذلك من قدرها ، ولذا فإن مزية فيليب ، إذا قيست بصفات منافسه الشامخ بأنفه ، ما كانت إلا كضوء المصباح الضئيل الصافى إذا وضع إلى جوار وهج المشعل المتوقد الذى ليس له من النفع نصف ما للآخر ، إلا أن له من الأثر على العين عشرة أمثاله ؛ وكان فيليب يحس بحطته عن رتشارد فى أعين الجمهور ، فيألم لذلك ألماً يحس به كل أمير كريم النفس ؛ وليس عجيباً أن ينتهز كل فرصة تسنح كى يقرر شخصيته إلى جوار منافسه بحيث يرفع من قدر نفسه ، وكان الظرف إذ ذاك إحدى تلك المناسبات التى تنتصر الحكمة والهدوء فيها على العناد والتهور والعنف .

« ما وراء هذا الشجار الذى لا يليق بأخوين فى الصليب أقسما له الولاء — بين صاحب الجلالة ملك انجلترا والأمير الدوق ليوبولد ؟ كيف يجوز لزعماء هذه الحملة المقدسة وعمدها أن . . . »

فقال رتشارد — وقد تأججت النار فى صدره حينما ألفى نفسه وقد وضع على شىء من المساواة مع ليوبولد ، ولم يدر كيف يستنكر هذا الموقف — : « مهلا بعض هذا العتاب ملك فرنسا ؛ إن هذا الدوق أو الأمير أو الدعامة — إن شئت — قد دل على قحته فلاقى منى الجزاء ؛ وهذا هو ما نحن فيه ؛ وحقاً إن هذا لشغب كثير من أجل وغد مهين » !

فقال الدوق : « أى جلالة ملك فرنسا ، إنى أحمد إليك وإلى كل أمير ملكى فى هذا الخزى المشين الذى كابدته وعانيت منه ؛ إن ملك انجلترا هذا قد نزع رايتى ومزقها وداسها » .

فقال رتشارد : « أجل ، لأنه بلغ من الجرأة أن يرفعها إلى جوار رايتى » .

فأجاب الدوق وقد شجعه مثول فيليب : « إن مكانتى كند لك تخول لى هذا » .

فقال الملك رتشارد : « وحق القديس جورج لو أعلنت هذه المساواة بينك وبينى لفعلت بك ما فعلت بهذه الراية الموشاة التى لا تليق إلا بأدنى وظيفة يمكن لراية أن تؤديها » .

فقال فيليب : « صبراً أخى ملك انجلترا ، ولسوف أرى الآن دوق النمسا أنه مخطىء فى هذا الشأن » ، ثم استأنف الكلام وقال : « لا تظنن أيها الدوق النبيل أننا ، إذ نرضى لعلم انجلترا أن يحتل المكانة العليا فى معسكرنا ، نقر — نحن ملوك الحرب الصليبية المستقلين — بأننا أصغر من الملك رتشارد شأناً ، أو أحط منه قدراً ؛ كلا ، ليس هذا من الصواب فى شىء ، مادام لواء الجهاد ذاته — وهو علم فرنسا الأعظم الذى ليس الملك رتشارد نفسه فيما يخص أملاكه الفرنسية إلا تابعاً له — يتبوأ الآن مكانة أدنى من ليوث انجلترا[1] . ولكننا — كإخوة فى الصليب — قد أقسمنا له جميعاً يمين الولاء ، وكحجاج حربيين قد طرحنا عظمة الدنيا وكبرياءها جانباً ، وأخذنا نشق بسيوفنا طريقاً إلى القبر المقدس ، فتخليت أنا نفسى وغيرى من الأمراء للملك رتشارد — احتراماً لصيته الذائع ومآثره فى القتال — عن هذا التصدر الذى ما كنا لنسلمه له فى مكان غير هذا المكان ، وتحت بواعث غير هذه البواعث ؛ وإنى على يقين أنك يا صاحب الفخامة الملكية دوق النمسا ، لو تدبرت ما أقول ، سوف تأسف على أنك رفعت رايتك فى هذا المكان ، وأنا على ثقة بأن جلالة ملك انجلترا سوف يرضيك بعد هذا لما ألحق بك من مهانة » .

وكان المحدث والمهرج كلاهما قد أويا إلى مكان بعيد مطمئن حينما ادلهمت الأمور وأنذرت بالقتال ، ولكنهما عادا بعد أن عرفا أن الكلام — وهو جل بضاعتهم — قد أوشك أن يكون هو الحكم فى ذلك اليوم .

وكم سر رجل الأمثال (أى المحدث) من خطاب فيليب السياسى حتى لقد

(١) يقصد العلم الإنجليزى

هز بعصاه عند اختتام الكلام كأنه يؤيد ما قال فيليب ، ونسى الحضرة التى كان ماثلا لديها ، وبلغ به النسيان أن رفع عقيرته قائلا إنه هو نفسه لم يفه حياته بكلام أحكم من هذا .

فهمس جوناس شوانكر وقال : « قد تكون مصيبا فيما تقول ، ولكنك إن رفعت صوتك بالكلام فستضربن بالسياط » .

وأجاب الدوق ، مكتئبا ، بأنه سوف يرفع أمر هذا النزاع إلى مجمع الصليبيين العام — وهو رأى أثنى عليه فيليب كثيرا وقال عنه إنه قمين بأن يرفع خزيا بالغ الأذى بالعالم المسيحى .

أما رتشارد فقد بقى كما كان على هيئته غير مكترث أو مبال ، وأنصت لفيليب حتى أوشك أن ينضب معين فصاحته ، ثم قال بصوت جهورى : « إنى وسنان ، وما زالت الحمى تلعب برأسى . أى أخى ملك فرنسا ، إنك بمزاجى عليم ، وإنك لتعرف أنى دائما لا أكتم إلا قليلا من اللفظ ؛ فاعلم إذن فى التو والحين أنى لن أعرض أمرا يمس شرف انجلترا على أمير أو مجمع أو بابا ؛ هذا لوائى قائم ، وأية راية ترتفع على مدى رماح ثلاثة منه — حتى وإن كانت راية فرنسا التى أظنك كنت تتحدث عنها الآن — فلسوف يكون حظها كحظ تلك الخرقة المهينة ، ولن تنالوا منى ترضية غير تلك التى تستطيع جوارحى الضعيفة هذه أن تؤديها ، وذلك بمبارزة من يجرؤ منكم على النزال — أى وربى ، حتى وإن يكن منازلىّ خمسة من أبطالكم لا واحدا فحسب » .

فقال المهرج همسا إلى زملائه : « تالله إن هذا الحديث خرافة ما بعدها خرافة ، وكأنه قد صدر عنى ، ومع ذلك فما اخال إلا أن هناك من هو أشد من رتشارد غفلة وأكثر هراء » .

وقال رجل الحكمة : « ومن عسى أن يكون ذلك الرجل ؟ » .

فقال المهرج : « ذلك هو فيليب أو دوقنا الملكى ، لو أن أحدهما قبل النزال . هيه يأيها المحدث الحكيم ، والله ما كان أجدرنى وإياك أن نكون من عظام الملوك ،

ما دام أولئك الذين يحملون التيجان على رؤوسهم يستطيعون أن يمثلوا دور المحدثة بالأمثال والمهرج ، مثلى ومثلك تماماً ! » .

وبينا هذان الرجلان مشتغلان بهذا الحديث وحدهما ، أجاب فيليب على رتشارد تحديه الجارح فى هوادة وهدوء وقال : « إنى لم آت إلى هنا كى أوقظ خصومات جديدة لا تتفق واليمين التى أقسمناها ، والقضية المقدسة التى نشتغل بها ؛ إنى أبرح أخى ملك انجلترا كما يبرح الأخ أخاه ، ولن تكون بين أسد انجلترا[1] وزنبق فرنسا[2] من الخصومة إلا ما توجهه معاً حاملين على صفوف أعدائنا الكفار » .

فقال رتشارد : « هذه صفقة رابحة يا أخى المليك » . ومد يده وقلبه مفعم بالإخلاص الذى يتصف به طبعه الكريم رغم تهوره ، ثم قال : « وعما قريب قد تتاح لنا الفرصة لتنفيذ هذا الاتفاق الأخوى المجيد » .

فأجابه فيليب وقال : « دع هذا الدوق النبيل يساهم كذلك فى صداقة هذا الظرف السعيد » ؛ واقترب الدوق مكتئباً بعض الاكتئاب ، يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، كى يصل إلى تسوية ما .

فقال رتشارد غير مكترث : « إنى لا أفكر فى الغافلين أو فى غفلتهم » فولاه الأرشدوق ظهره وانسحب من الميدان ، ونظر إليه رتشارد وهو يتراجع وقال : « إن من ألوان الشجاعة لوناً كالبراعة ، لا يظهر للعيان إلا ليلا ، وإنى لن أبرح هذا العلم بغير حارس فى كنف الظلام ، أما إذا انبثق ضياء النهار ، فإن عيون الأسد كفيلة وحدها بأن تدفع عنه ؛ أى توماس الجلزلاندى ، إنى أعهد إليك برعاية العلم ، وأكلفك السهر على شرف انجلترا » .

فقال دى ڤو : « سلامة انجلترا عزيزة على ، وإن فى حياة رتشارد لسلامة لها ، يجب على أن أعود بجلالتك إلى الفسطاط ، وينبغى أن لا نتريث هنا بعد هذا » .

فانفرجت شفتا الملك عن ابتسامة وقال : « إنما أنت ممرض غليظ صارم يا دى ڤو » ثم واصل الحديث مخاطباً السر كنث وقال : « أيها الأسكتلندى

(١) رمز لعلم انجلترا .   (٢) رمز لعلم فرنسا .

الجسور ، إنى مدين لك بالجميل ، وسوف أرده لك جزيلا . هناك ترى لواء انجلترا مرفوعاً ! هلا عنيت برقابته كما يعنى الناشئ بسلاحه عشية اليوم الذى يحرز فيه شرف الفروسية ؛ لا تبتعد عنه أكثر من طول ثلاثة رماح ، وادفع عنه بجسمك أى أذى أو إهانة — لو هاجمك أكثر من ثلاثة رجال فى آن فانفخ فى البوق ؛ فهل تقوم بهذه المهمة ؟ »

فقال كنث : « لأقومن بها عن رغبة ، ولئن قصرت فى أدائها لحياتى قصاصى ، وسوف أمتشق سلاحى وأعود فوراً إلى هنا » .

وحينئذ استأذن فى الانصراف ملكا فرنسا وانجلترا أحدهما الآخر ، وكلاهما يخفى وراء ستار من المجاملة أسباب شكواه من الآخر — أما رتشارد فيشكو من فيليب ما كان فى ظنه تدخلا فضوليا بينه وبين دوق النمسا ، أما فيليب فيشكو من قلب الأسد مسلكه المشين إزاء توسطه . أما أولئك الذين حشدهم هذا الاضطراب ، فقد تسللوا الآن ، وسلك كل منهم سبيله ، مخلفين الجبل الذى دار النزاع على قمته فى عزلته التى لم تفارقه حتى شابها استخفاف دوق النمسا ؛ وحكم الرجال على حوادث ذلك اليوم كل على هواه ، فبينما عاب الإنجليز على دوق النمسا أنه أول من تقدم بسبب للنزاع ، أجمع أهل الأمم الأخرى على صب اللوم الأكبر على كبرياء رجل الجزيرة وعلى صلف رتشارد » .

وقال مركيز منتسرا لرئيس فرسان المعبد : « أما رأيت أن الدهاء أبلغ أثراً من الشدة والعنف ، لقد حللت المواثيق التى كانت توثق هذه الرابطة من الصوالجة والرماح ، ولسوف تراها عما قريب وهى تساقط متناثرة متنافرة » .

فأجاب رئيس المعبد وقال : « ما كان أحكم خطتك لو كان هناك رجل واحد باسل بين أولئك النمساويين ذوى الدم البارد يفصم بسيفه عرى الروابط التى تحدثت عنها ؛ إن العقدة إذا انحلت قد تلتئم ثانية ، ولكن ذلك لن يكون إذا تقطع الحبل إربا إربا » .

الفصل الثانى عشر

هى المرأة تغرى بنى الإنسان جميعا
جاى .

كان جزاء الشجاعة العسكرية فى أيام الفروسية كثيرا ما يكون وظيفة خطرة ، أو مغامرة مهلكة ، تسند إلى الرجل تعويضا له عما كابد من محن ؛ مثلهم فى ذلك مثل الإنسان يصعد جبلا عاليا ، كلما تسلق صخرة ارتفع إلى صخرة أشد خطرا .

ففى منتصف الليل ، والقمر فى كبد السماء يتلألأ ضياء ، كان كنث الأسكتلندى واقفا فوق قنة جبل سنت چورج ، إلى جوار راية انجلترا يخفرها منعزلا نائيا ، ويحمى رمز تلك الأمة من أية إهانة قد تلعب برأس واحد من تلك الألوف التى صيرها رتشارد بكبريائه أعداء له . ودارت برأس هـذا المقاتل خطير الفكر واحدة تلو الأخرى ، وخيل له أنه قد اكتسب الرضا فى عينى ذلك الملك الفارس ، الذى حتى آنئذ لم يكن يميزه بين جموع شجعان الرجال ، الذين جمعهم تحت رايته صيته الذائع ؛ ولم يكترث السر كنث كثيرا للموقف الخطر الذى ساقته إليه الرعاية الملكية ، وكان تفانيه فى حبه لفتاة من ذوى المكانة الرفيعة يشعل فيه الحماسة العسكرية . وحقا لقد كان فاقد الأمل فى وصلها تحت الظروف المألوفة ، إلا أن تلك الأحداث التى وقعت أخيرا قاربت ما بينه وبين (أديث) بعض المقاربة ، ولم يعد كنث — وقد منّ عليه رتشارد وميزه بحراسة رايته — مقحاما خامل الذكر ، وإنما هو محط الرعاية من أميرة من الأميرات ، وإن يكن أبعد ما يكون عن مستواها . ولن يكون بعد اليوم نكرة من النكرات ، ولو أنه أخذ على حين غرة ، وقتل وهو قائم بالعمل الذى أسند إليه ، فلسوف يستحق بموته — وقد اعتزم أن يكون موتا يحوطه الجلال — من قلب الأسد الثناء ، كما يظفر منه بالانتقام له ، وسوف يتبع موته الأسى والدمع ، تذرفه الجميلات من بنات الأسر الكريمة فى البلاط

الإنجليزى ؛ ولم يبق بعد اليوم ما يحمله على أن يخشى أن يموت كما يموت صغار الرجال .

استرسل السر كنث فى الاستمتاع بهذه الخواطر الطامحة وأشباهها ، التى يغذيها ذلك الروح الهمجى ، روح الفروسية الذى يحلق فيعلو ويرتفع ويسبح فى الخيال ، ولكنه يظل رغم ذلك نقيا طاهرا من شوائب حب النفس — هو روح كريم مخلص ، وقد لا تعيب عليه إلا أنه فى أغراضه وما يرسم من خطط العمل لا يتفق وضعف الإنسان ونقصه . والطبيعة كلها حول السر كنث نائمة فى ضياء القمر الهادىء ، أو فى الظلال الحالكة ، والصفوف الممتدة من الخيام والسرادقات ، مظلمة كانت أو متألقة بالنور — وهى قائمة فى ضوء القمر ، أو فى الظلام — كانت صامتة ساكنة ، كما تكون الطرقات فى مدينة مهجورة ، وإلى جوار سارية العلم كان يرقد الكلب الذى ذكرنا من قبل ، رفيق السر كنث الأوحد وهو فى خفارته ، يركن إلى تنبهه نذيرا له باكرا كلما دنا من عدو وقعُ القدم ؛ وكأن هذا الحيوان النبيل قد أدرك مرمى هذه الرقابة ، فأخذ يتلفت الحين بعد الآخر إلى ثنايا العلم الثقيل ، وإذا ما سمع صياح الحراس من الصفوف النائية وأماكن الدفاع فى المعسكر ، أجابه بنباح عميق متكرر ومتواصل ، كأنه يؤكد أنه كذلك يقظ فى أداء واجبه ، وكان يخفض رأسه الشامخ الفينة بعد الفينة ، ويهز ذيله كلما مر به سيده مرة بعد الأخرى وهو يدور دوراته القصيرة أثناء حراسته ؛ وكلما وقف الفارس صامتا شارد الذهن ، متكئا على رمحه ، ومصوبا نظره نحو السماء ، اجترأ صاحبه الأمين « أن يقطع عليه سلسلة خواطره » إن صح هذا التعبير الخيالى ، ووخز الفارس فى يديه ذواتى القفاز بمقدم فمه الخشن الكبير ، فأيقظه من أحلامه متوسلا إليه أن يدلله لحظة أو بعض لحظة .

وهكذا تصرمت من رقابة الفارس ساعتان دون أن يقع فيهما أمر ذو بال ، وأخيرا ، وعلى حين بغتة ، أخذ هذا الكلب الشهم ينبح محتدما ، وبدا عليه كأنه

يوشك أن ينطلق إلى الأمام ، حيث الظلال على أشدها حلوكة ، ولـكنه رغم ذلك تريث ، كأنه على ارتقاب ، حتى يتعرف ما يريد صاحبه .

فقال السر كنث وقد أحس بأن شيئا يزحف قدُما على جانب الجبل الظليل ، « من السائر هناك ؟ » .

فأجابه صوت خشن يعافه السمع : « باسم « مارلين » و « موجيس » قيد أقدام ماردك[1] هذا الأربع ، وإلا فلن آتيك » .

فقال السر كنث وقد حدق ببصره الثاقب ما استطاع فى شىء يكاد لا يراه فى أسفل المنحدر ، ولم يستطع أن يتبين له شكلا أو هيئة : « ومن عسى أن تكون أيها الدانى من منصبى — حذار ! حذار ! — إنما أنا هنا للموت أو الحياة » .

فرد عليـه الصوت قائلا : « أبعد مخالب شيطانك الطويلة ، وإلا فسأرميه بسهم من قوسى » .

وسُمع فى ذات الحين صوت انثناء أو جذب كذلك الذى تسمعه حينما تشد القوس .

فقال الأسكتلندى : « أقم قوسك ولا تثنها ، وتعال فى ضوء القمر ، وإلا فبحق القديس اندراوس لأطرحنك أرضاً ، وكن ما شئت أو من شئت ! » .

وأمسك برمحه من وسطه وهو يتكلم ، ودنا ببصره نحو ذلك الجسم الذى كان كأنه يتحرك ، وهز بسلاحه كأنه يفكر فى قذفه من يده — والسلاح يستخدم أحياناً — وإن يكن نادراً — ويُركن إليه حين تلزم الرماية . ولـكن السر كنث استحى من مقصده ، فرمى بسلاحه أرضاً حينما أقبل من الظلام إلى ضوء القمر مخلوق مقعد عاجز ، وكأنه ممثل قد أقبل على المسرح ، وقد عرف السر كنث من زيه الغريب وتشويه خلْقه ، ولما يزل بعيداً عنه ، أنه ذكر القزمين اللذين رآهما فى معبد (عين جدة) ؛ وفى تلك اللحظة عينها عادت إلى ذاكرته المشاهد الأخرى التى رآها فى تلك الليلة الفريدة ، وهى تختلف جد الاختلاف عن هذا القزم فى مرآها ،

(١) يقصد بالمارد هنا الـكلب .

وأومأ إلى كلبه بإشارة أدركها الكلب فى الحين ، فأوى إلى العلم ورقد إلى جواره وهو يدمدم بصوت مختنق .

هذه الصورة الإنسانية الصغيرة المشوهة[١] ، بعد ما أيقنت من سلامتها من هذا العدو المخيف ، أقبلت تصعد الجبل وهى تلهث من الإعياء ؛ وكان الصعود شاقاً على ساقيه القصيرتين ، ولما بلغ مستوى القمة ، نقل إلى يسراه القوس الصغيرة ، وهى أشبه باللعبة التى كان يسمح للأطفال فى ذلك الأوان أن يصيدوا بها صغار الطير ، ووقف موقف الكرامة والاعتزاز بالنفس ، ومد يمناه برشاقة وكياسة إلى السر كنث ، وتدل هيئته على أنه كان يرتقب منه أن يلثمها ، ولما لم يفعل ذلك السر كنث ، طلب إليه بصوت فيه رنة الحدة والغضب وقال : « أيها الجندى ، لماذا لا تؤدى إلى « نكتابانس » الولاء الواجب لكرامته ؟ أو قد نسيته ؟ » .

فأجاب الفارس وهو يود لو يخفف من حدة هذا المخلوق وقال : « أى نكتبانس العظيم ، إن هذا عسير على كل من وقعت عليك عيناه ؛ وإنى لأسألك العفو ، إذ أنى كجندى أؤدى واجبى ورمحى بيدى ليس لى أن أسمح لرجل من شاكلتك أن يدنو من مكان حراستى ، أو أن يسيطر على سلاحى ، وحسبك أنى أحترم كرامتك ، وأخضع لك خاشعاً على قدر مايستطيع جندى فى مكانى أن يخضع » .

فقال نكتبانس : « حسبى هذا ، إن كنت بعد قليل تصحبنى إلى حضرة أولئك الذين بعثوا بى إلى هنا كى أستدعيك » .

فأجاب الفارس : « سيدى العظيم ، لا أستطيع فى هذا الأمر كذلك أن أصدع بما تريد ، فلقد أمرت أن ألزم هذه الراية حتى مطلع الفجر — ولذا فإنى ألتمس منك أن تعذرنى فى هذا الشأن كذلك » .

وبعد ما أتم حديثه استأنف مسيره فوق الجبل ، ولكن القزم لم يطق أن يدعه يفلت من لجاجته بتلك السهولة .

---

(١) الإشارة هنا إلى القزم .

فقال وقد وقف قبالة السر كنث كى يعترض سبيله : « استمع إلى ، إما أطعتنى يا سيدى الفارس كما يحتم عليك واجبك ، أو أمرتك باسم تلك التى تستطيع بجمالها أن تستنزل الجن من عاله ، وبجلالها أن تسيطر على هذه المخلوقات الخالدة بعد هبوطها من عليائها » .

فخطر للفارس خاطر وحشى بعيد الاحتمال ، ولكنه كبته ورده عن نفسه ، وظن أن من المحال أن ترسل إليه غادة قلبه وهواه رسالة كهذه على لسان رسول كهذا — ومع ذلك فقد أجاب وفى صوته رعشة وقال : « اذهب عنى يا نكتبانس . خبرنى على الفور وأصدقنى القول هل هذه السيدة الكريمة التى تتحدث عنها امرأة غير الحوراء التى رأيتها تعاونك وأنت تكنس معبد عين جدة ؟ » .

فأجاب القزم قائلا : « ما هذا أيها الفارس المدعى ! أفتظن أن السيدة التى عقدنا بها حبنا الملكى ، شريكة عظمتنا ، ورفيقة جلالتنا ، تستذل نفسها وتتعلق بتابع مثلك ؟ كلا ، إن شرفك لعظيم ، ولكنك لست بعد جديراً برضى الملكة « جنفرا »[1] عروس آرثر الحسناء التى تعتلى مقعداً مرتفعاً فيبدو لها الناس قاطبة ، حتى أمراؤهم ، أقزاماً ؛ ولكن ، انظر إلى ، إن كنت تعرف هذه الشارة أوتنكرها فلتطع أمر صاحبتها أوأعصه ، ذلك الأمر الذى تعطفت بفرضه عليك» .

وبعد ما أتم حديثه ، وضع بين يدى الفارس خاتماً من ياقوت ، فاستطاع الرجل أن يتعرف فى لمحة — حتى فى ضياء القمر — أنه ذلك الذى يتحلى به عادة إصبع السيدة ذات الأصل الكريم ، التى كرس نفسه لخدمتها . ولو كان له أن يرتاب فى صدق الشارة لاستيقن من الوشاح الصغير المعقود ذى اللون القرنفلى ، الذى كان مربوطاً إلى الخاتم ، فذلك كان اللون الرغيب إلى نفس سيدة قلبه ، وكم من مرة عمل على أن ينتصر القرنفل على كل ما عداه من ألوان فى حلبة المصارعة أوميدان القتال ، مدعياً أن ذلك اللون هو لون حاشيته وأتباعه .

---

(١) هى زوج الملك آرثر فى الأسطورة الشهيرة ، ويقصد بها هنا زوجه .

وحقاً لقد صعق السر كنث ، وأوشك أن يخرس حينما رأى هذه الشارة بين تلك اليد .

فقال الفارس : « باسم كل ما تقدس ، خبرنى ممن أخذت هذا الشاهد ؟ ناشدتك الله أن تجمع — إن استطعت — ذهنك الشارد لحظة أو لحظتين ، وأن تكون ثابتاً رزيناً ، وتحدثنى شيئاً عمن أرسلتك ، وعن حقيقة الغرض من رسالتك ، وحاذر فيما تقول ، فليس هذا مجال المجون » .

فقال القزم : « حقاً إنك لفارس متيم غافل ، أفتريد أن تعرف عن هذا الشأن أكثر من أنك تتشرف بتلقى الأمر من أميرة ألقى إليك بها ملك من الملوك ؟ إنا لا نريد أن نتحدث إليك بأكثر من أن نأمرك باسم هذا الخاتم ، وبما له من نفوذ ، أن تتبعنا إلى صاحبته ، واعلم أن كل دقيقة تتوانى جرم فى واجب ولائك » .

فقال الفارس : « أى نكتبانس الكريم ، تريث قليلا ، هل تعرف سيدتى أية مهمة قد أُسندت إلى هذا المساء ، وفى أى مكان أقوم بها ، وهل هى عليمة بأن حياتى — رحماك اللهم ، كيف لى أن أتحدث عن حياتى — كلا ، إنما شرفى ، يتوقف على حراسة هذه الراية حتى منبثق النهار ؛ وهل يجوز أن ترضى هى بأن أخلفها حتى وإن يكن لأداء واجب الخضوع ؟ كلا ، إن هذا لأمر محال ، إن الأميرة قد أرادت أن تمزح مع خادمها حينما بعثت إليه بمثل هذه الرسالة ، وما أظن غير ذلك ، وبخاصة حينما أذكر أنها قد اختارت مثلك لها رسولا » .

فقال نكتبانس وقد تلفت كأنه يريد أن يفصل عن قنة الجبل « اعتقد بما شئت ، إننى لا أكترث كثيراً إن كنت لهذه السيدة الملكية خائناً أو أميناً ؛ وإذن فلأستودعك الله » .

فقال السر كنث : « إلبث قليلا ، إلبث هنا ؛ إنى أتوسل إليك ألا تبرح ؛ أجبنى عن سؤال واحد ، هل السيدة التى بعثت بك قريبة من هذا المكان ؟ » .

فقال القزم : « وما شأن هذا ؟ هل يحسب الإخلاص للفراسخ والأميال حساباً ، كما يحسب الساعى الفقير الذى يؤجر على عمله بمقدار ما يقطع من أبعاد ؟

ولـكن ، لتعلم أيها المرتاب أن صاحبة الخاتم الحسـناء ، التى بعثت بى إلى تابع مثلك ليس له وزن ، وليس به صدق أو إقدام ، لا تبعد عن هـذا المكان أكثر من مرمى السهم من هذه القوس » .

فحدق الفارس فى الخاتم ، كأنه يريد أن يتثبت أن ليس بالشارة أثر من زيف أو بهتان ، ثم قال للقزم : « هل سأمثل طويلا هناك ؟ » .

فأجاب نكتبانس بأسلوبه الطائش وقال : « طويلا ! ما ذا تعنى بقولك طويلا — إنى لا أدرك للزمن معنى ولا أحس به ، إن هى إلا كلمة مبهمة — ما الزمن إلا أنفاس متلاحقة نقيسها ليلا برنين الأجراس ونهاراً بظل المزولة . هلا عرفت أن الوقت للفارس الحق ينبغى ألا يقاس إلا بمـا يؤدى من عمل فى سبيل الله وفى سبيل سيدته ؟ » .

فقال الفارس : « حقا إنها لـكلمة الصدق من فم الطائش الأرعن ، ولـكن هل تستدعينى سيدتى حقاً كى أقوم بعمل ذى بال باسمها وفى سبيلها ؟ وهلا يمكن أن نستأخره بضع ساعات حتى ينبثق النهار ؟ » .

فقال القزم : « إنها تريد منك المثول توّاً وبأسرع مما تتسرب عشر حبات من رمال مقياس الزمن[1] ؛ استمع إلى أيها الفارس المرتاب ذو الدم البارد ، هذى هى كلماتها لفظة لفظة : (قل له إن اليد التى يتساقط منها الورد فى وسعها أن تضفر الأكاليل) » .

هذا الإلماع إلى لقائها بمعبد (عين جدة) أثار فى ذهن السر كنث ألوف الذكر ، وأقنعه بأن الرسالة التى بلغه إياها القزم صادقة لا غبار عليها ، وكانت براعم الزهر — رغم ذبولها — لما تزل مكنوزة تحت درعه ، وأقرب ما تكون إلى قلبه ، فوقف الفارس قليلا ولم يستطع أن يعتزم عزمة قوية على أن يدع هـذه الفرصة — وهى الفريدة التى ربما تعرض له حياته ، ويفوز فيها بالرضا فى عينى تلك التى ولاها ملكة

(١) هو مقياس على هيئـة إناء منبعج الطرفين دقيق الوسط ، يمتلئ أعلاه بالرمال ، ويعرف به الزمن بمقدار ما يتسرب من طرفه الأعلى إلى طرفه الأسفل .

على قلبه — وفى ذلك الحين زاده القزم ارتباكا بأن كرر عليه القول ، وعرض عليه إما أن يرد الخاتم أو يتبعه على الفور .

فقال الفارس : « مهلا ، مهلا . تريث لحظة واحدة » . ثم واصل الكلام وهو يدمدم ويقول : « هل أنا للملك رتشارد تابع أو رقيق علىّ من الواجبات أكثر مما على الفارس الحر يقسم على خدمة الحرب الصليبية ؟ ومن عسانى قد أتيت من أجله هنا لأرفع من شرفه بالرمح والسيف ؟ إنما أتيت لغرضنا المقدس ولسيدتى البارعة ! »

وصاح به القزم جَزِعا وهو يقول : « الخاتم ! الخاتم ! أيها الفارس الخائن المتوانى . رد إلى الخاتم فلستَ جديرا بمسه أو بالنظر إليه » .

فقال السر كنث : « أمهلنى لحظة . برهة واحدة يا نكتبانس الكريم . لا تزعج خواطرى — هب أن الأعراب يوشكون أن ينقضوا على صفوفنا ، أألبث هنا كتابع أقسم الولاء لانجلترا ، وأسعى على أن لا يلين كبرياء مليكها لذلة أو خضوع ، أم أسارع إلى الحنث فى اليمين وأقاتل من أجل الصليب ؟ كلا ، بل إلى الحنث ، وليس بعد سبيل الله إلا ما تأمرنى به حبيبتى سيدة قلبى — ولكن ما الرأى فى مشيئة قلب الأسد والوعد الذى أخذت على نفسى ! أى نكتبانس ، إنى أناشدك مرة أخرى أن تقول لى هل أنت سائر بعيدا عن هنا ؟ »

فأجاب نكتبانس وقال : « كلا ، بل إلى ذلك السرادق ؛ وأنت لا ريب ترى القمر يتلألأ فوق القبة الموشاة بالذهب ، التى تتوج أعلاه ، والتى تستحق فداء المليك » .

فقال الفارس وقد تملكه اليأس ، وأغمض عينيه عن كل ما قد ينجم بعد ذلك من نتائج : « إنى أستطيع أن أعود بعد لحظة ، وإنى أستطيع أن أستمع من هناك لنباح الكلب لو اقترب من العلم إنسان — لسوف أرتمى لدى قدمى سيدتى وأستأذنها فى العود كى أتم رقابتى — أسمعت يا رزوال ؟ » (ونادى كلبه وطرح عباءته إلى جوار رمح العلم) « راقب هذا المكان ، ولا تسمح لأحد أن يقترب» .

فحدق الكلب المهيب فى وجه صاحبه ، كأنه يؤكد له أنه فهم ماعهد به إليه ، ثم جلس إلى جانب العباءة ، وأذناه مستقيمتان ، ورأسه مرفوع كأنه حارس يدرك تمام الإدراك الغرض الذى استقر من أجله هناك .

وقال الفارس : « هيا يا نكتبانس الكريم ، سارع بنا إلى تلبية ما أتيت به من أمر » .

فقال القزم مكتئبا : « ليسارع من يستطيع ذلك ، إنك لم تخفّ لإطاعة مادعوتك إليه ، وأنا لا أستطيع أن أسرع فى مشيتى بحيث أسير وخطاك الواسعة . إنك لاتمشى كما يمشى الرجال ، إنما أنت تثب كما تثب النعامة فى الصحراء » .

ولم يكن هناك غير سبيلين للتغلب على عناد نكتبانس الذى أبطأ فى مشيته وهو يتحدث ، وبات يسير كما تسير القوقعة ؛ إما رشوته وليس للسر كنث إلى ذلك من سبيل ، وإما مصانعته وليس لها من الوقت متسع ؛ فنفد من فارسنا الصبر ، واختطف القزم ورفعه من فوق الأرض ، وحمله وسار به لا يعبأ بتوسله أو بخوفه ، حتى كاد أن يبلغ السرادق الذى أشار إليه القزم من قبل وقال إنه سرادق الملكة ؛ ولما دنا الأسكتلندى ، ألفى هناك قليلا من الحراس الجنود متربعين على البسيطة ، وقد كانت تخفيهم عنه الخيامُ المتوسطة ؛ وعجب الفارس كيف أن صليل سلاحه لم يجذب منهم التفاتا ، وعرض له أنه ينبغى فى ذلك الظرف الراهن أن يسير فى الخفاء ، فوضع مرشده الصغير على الأرض — وهو يتنهد — كى يسترد أنفاسه ويشير بما ينبغى بعد ذلك أداؤه ؛ وكان نكتبانس غاضبا حانقا ، ولكنه شعر بأنه أضحى بكليته تحت سلطان الفارس القوى ، كأنه البوم فى مخلب النسر ، ولذا لم يفكر فى استثارته إلى ما يدعوه لإظهار قوته أكثر مما فعل .

ومن أجل هذا لم يَشْكُ من المعاملة التى لاقى ، وإنما عرج خلال تيه الخيام ، وسار بالفارس فى سكون إلى الجانب الآخر من السرادق الذى كان يحجبهم عن رؤية الحراس ، الذين كانوا إما بالغى الإهمال أو فى النوم مستغرقين فلم يؤدوا واجبهم بكثير من العناية .

ولما بلغا ذلك المكان رفع القزم جانب الخيمة الأسفل من الأرض ، وأشار إلى السر كنث أن يتسرب إلى داخل الفسطاط زاحفا تحته ، فتردد الفارس قليلا ، إذ لم يكن من اللياقة فى شىء أن يتسرب خفية إلى داخل السرادق الذى ضرب — بغير ريب — لإيواء كرائم السيدات ، ولكنه تذكر الشارات الأكيدة التى عرضها عليه القزم ، واستقر به الرأى على ألا يجادل فى رغبات سيدته .

وعلى ذلك طأطأ الرأس ، وزحف تحت السور الذى كان يحوط الفسطاط ، وسمع القزم يهمس من الخارج ويقول : « إلبث هنا حتى أناديك » .

الفصل الثالث عشر

إنكم تتحدثون عن اللهو مع البراءة !
ولـكنهما فى اللحظة التى أكلت فيها الثمرة التى كان فيها القضاء ،
افترقا على غير لقاء ؛
ومن ثم بات الشر قرين اللهو والحبور
من اللحظة الأولى حينما يودى الطفل الباسم
بالزهرة أو بالفراشة لاعبا لاهيا ،
إلى أن يقهقه البخيل وهو يموت
إذ يضحك ضحكاته الأخيرة فوق فراش الفناء
حينما يسمع أن جاره الثرى قد أصابه الإفلاس .

من رواية تمثيلية قديمة

لبث السر كنث بضع دقائق وحده فى الظلام ، وكان فى ذلك عطلة له ، وبات لزاما عليه أن يمد أجل غيابه عن مقر حراسته ، وبدأ يدب فى نفسه الندم على السهولة التى أغرى بها على أن يترك مكانه ، ولـكن لم يعد يطرأ على ذهنه أن يعود دون أن يرى السيدة أديث . لقد خرج على النظام العسكرى ، واعتزم أن يحقق على الأقل صدق الأمل الذى أغرى به وساقه إلى ما فعل ؛ ولـكن موقفه لم يكن رضيا فى ذلك الحين ، فلم يكن هناك ضوء يبين له أية غرفة كانت تلك التى سيق إليها — والسيدة أديث كانت من الوصيفات الملازمات للملـكة انجلترا — ولو عُرف عنه كيف ولج السرادق الملكى خلسة ، فقد يؤدى ذلك — لو كشف الأمر — إلى شكوك كثيرة خطرة . أسلم الفارس نفسه لهذه الخواطر البغيضة إلى النفس ، وكاد يود لو عاد وتم له ذلك دون أن يُرى ؛ وإذ هو كذلك ، طرق أذنه شغب من أصوات النساء يتضاحكن ويتهامسن ، ويتبادلن الحديث فى غرفة مجاورة لا يفصله عنها إلا حاجز من القماش ، كما تدل على ذلك الأصوات التى نمت إليه ، وقد عرف أن المصابيح موقدة من النور الخافت الذى انتشر حتى ظهر على الجانب الذى كان

إلى ناحيته من الحاجز الذى يقسم السرادق ، واستطاع أن يرى ظلالا لشخوص عديدة ،كانت تجلس وتتحرك فى الغرفة المجاورة . وليس عدلا أن نقول إنه لم يكن من اللياقة فى شىء أن يستمع السر كنث — وهو فى موقفه الذى وقف — إلى الحديث الذى ألفى نفسه وقد التذ منه غاية اللذة .

وقال صوت من أصوات أولئك النسوة الضاحكات المختفيات عن الأبصار : « ادعها[١] ، ادعها ، بحق العذراء ! أى نكتبانس ، إنك سوف تعين سفيرا لبلاط «برسترجون» لتريهم كيف أنك تستطيع أن تؤدى الرسالات بحكمة وتدبير » .

وسمع السر كنث صوت القزم الأجش ، وقد خنع واستذل ، حتى إن الفارس لم يدرك مما كان يقول ، إلا أنه قد تفوه بشىء عن أسباب الطرب التى قدمت للحراس .

« ولكن كيف نستطيع أيتها الأوانس أن نخلص من هذا الروح[٢] الذى أثاره نكتبانس ؟ »

قال صوت آخر : «استمعى إلى سيدتى الملكة ، إذا لم يكن نكتبانس الحكيم الأمير شديد الغيرة من عروسه وعاهلته البارعة ، فلنبعث بها تنقذنا من هذا الفارس الشارد السفيه ، الذى أمكن إغراؤه بهذه السهولة ، حتى ظن أن كرائم السيدات بحاجة إلى بسالته المتصلفة العاتية » .

وأجابت الأخرى : « من العدل أن تصرف الأميرة « جنفرا » بكياستها ذلك الرجل الذى استمالته إلى هنا حكمة زوجها » .

وأصاب سويداء القلب من السر كنث الخزىُ والغيظ مما سمع ، حتى أوشك أن يسعى إلى الفرار من السرادق مهما كلفه ذلك ، لولا أن ما تلا ذلك من حديث ملك عليه لبه وخاطره .

إذ قالت المحدثة الأولى : « كلا . حقا إن ابنة عمنا أديث ينبغى أن تعلم أولا أى مسلك سلك هـذا الرجل المتبجح ، وعلينا أن نسوق إليها دليلا عيانا على أنه

(١) تقصد المتكلمة أديث .
(٢) تقصد المتكلمة بذلك السر كنث .

قد فشل فى أداء واجبه ، وقد يكون فى ذلك درس نافع لها ، لأنى — وصدقينى فيما أقول يا « كالستا » — كثيرا ما ظننت أنها قد سمحت لهذا المخاطر من أهل الشمال أن يدنو من قلبها أكثر مما تجيز لها الروية » .

وارتفع حينئذ صوت آخر يدمدم بشىء عن حكمة السيدة أديث ، وحصافة رأيها .

فقيل ردا على ذلك : « أى حصافة رأى يا فتاة ! إن هو إلا كبرياء ورغبة فى أن تشتهر بالصرامة والصلابة أكثر منا جميعا ؛ كلا ، إنى لن أتهاون فى حقى ، إنكن تعرفن حق المعرفة أننا إن أخطأت إحدانا ، فلا تستطيع أينا أن تضع بلباقة أمام الآثمة إثمها واضحا ملموسا كما تستطيع سيدتى أديث — صه ! ها هى ذى قد أقبلت » .

وانتشر من شخصها وهى تلج الغرفة ظل فوق الحاجز أخذ ينزلق رويدا رويدا حتى اختلط بغيره من الظلال التى كانت تظلم بغيومها الحاجز ، ورغم ماحل بالفارس من خيبة مريرة ، ورغم الإهانة والأذى اللذين ألحقهما به حقد الملكة (برنجاريا) ، — أو إن أحسن الظن بها فتندرها به تندرا شديدا — (وكان إذ ذاك قد أيقن أن تلك التى كانت تعلو بصوتها جميع الأصوات وتتكلم بنغمة الآمر إن هى إلا زوج رتشارد) ، رغم كل ذلك ، أحس الفارس بشىء يلطف مشاعره ، حينما علم أن أديث لم تكن تساهم فى الغدر الذى تواطأ به الحاضرات عليه ، كما أحس بشىء من التشوق والتطلع إلى ما يوشك أن يقع ، فلم يقم بإنفاذ العزم الحكيم الذى اعتزم ، وهو الرجوع توا بغير توان ؛ بل على النقيض من ذلك ، أخذ يبحث متلهفا عن شق أو خصاص يستطيع أن يكون منه شاهد عيان ، وشاهد سمع ، لكل مايقع .

وقال محدثا نفسه : « لا ريب أن الملكة التى سرها أن تتفكه فكاهة سمجة سقيمة ، وتعرض بذكرى بل وبحياتى ، لا تستطيع الشكوى إن أنا اغتنمت هذه الفرصة — التى أراد الجد السعيد أن يرمى بها إلى — كى أظفر ببعض العلم عما برح فى مكنون الطوايا » .

وفى ذلك الحين كانت أديث كأنها ترتقب ما تأمر به الملكة ، وكأن الملكة قد أحجمت عن الكلام خشية أن يفلت زمام نفسها منها ، فلا تستطيع لضحكها أو لضحك زميلاتها ردا ، لأن السر كنث لم يستطع أن يميز أكثر من صوت كأنه صوت ضحكات محبوسة ومرح مكبوت .

وأخيرا قالت أديث : « يظهر أن لجلالتك الآن مزاجا طروبا ، وإن كنت أرى أن هذه الساعة من الليل تحث على الميل إلى النوم ؛ ولقد كنت فى فراشى راغبة ، حتى أتانى أمر جلالتك بأن أمثل لديك » .

فقالت الملكة : « لن أستأخرك يا ابنة العم طويلا عن راحتك ، وإن كنت أخشى أن تنامى نوما غير عميق حينما أقول لك إنك قد خسرت الرهان » .

فأجابت أديث وقالت : « كلا يا مولاتى الملكة ، ما هذا حقا إلا إصرار منك على فكاهة أوشكت أن تبلى ؛ إنى لم أراهن على شىء رغم إلحاح جلالتك بأنى فعلت ذلك » .

« كلا ، ولكن رغم حجنا إلى هنا فما فتئ للشيطان عليك ياابنة العم الكريمة سلطان عظيم ، وإنه ليدفع بك إلى المخاتلة والخداع ؛ هل تنكرين أنك قد رهنت خاتمك الياقوتى تلقاء سوارى الذهبى على أن فارس النمر ذاك — أو أيا كان ما تسمينه به — لا يمكن أن يُغرى عن أداء واجبه ؟ » .

فأجابت أديث قائلة : « إن جلالتك أعظم من أن أعارض ، ولكن هؤلاء السيدات يستطعن — إن أردن — أن يؤيدننى فى أن جلالتك هى التى تقدمت بهذا الرهان ، وأخذت الخاتم من إصبعى ، رغم أنى كنت أعلن صراحة أننى لم أر من الخير فى شىء أن أراهن بأى شىء فى هذه السبيل » .

فرد عليها صوت آخر قائلا : « ولكن ينبغى يا سيدتى أديث أن تسلمى راضية بأنك قد بحت بشديد ثقتك فى بسالة هذا الفارس عينه — فارس النمر » .

فقالت أديث غاضبة : « هبينى فعلت ذلك يا حبيبتى ! فهل فى هذا ما يبرر أن ترفعى صوتك تداهنين جلالة الملكة فى مزاحها ؟ إننى لم أذكر عن هذا الفارس

إلا ما يذكر عنه كل رجل رآه وهو فى ساحة الوغى ، وليس لى فى الذود عنه هوى أكثر مما لك فى الانتقاص منه . بماذا عسى النساء أن يتحدثن فى المعسكر غير رجال الحرب وأعمال القتال ؟ » .

فأجاب صوت ثالث قائلا : « إن السيدة أديث الكريمة ما عفَتْ قط عن « كالستا » أو عنى مذ ذكرنا لجلالتك أنها أسقطت من يدها زهرتين فى المعبد» .

فقالت أديث بنغمة كانت فيما يرى السر كنث عتابا لطيفا : « إذا لم يكن لجلالتك أمر غير أن أستمع إلى سخرية وصيفاتك ، فهل لى أن أستأذنك فى الانصراف ؟» .

فقالت الملكة : « صه يافلورنس ، ولا يدفعنك تهاوننا إلى تجاهل ما بينك وبين قريبات الملك من فارق » ثم استأنفت الكلام مستعيدة نغمة التهكم والتعنيف ، وقالت : « أما أنت يا ابنة العم العزيزة ، فكيف لك — وأنت دمثة الطبع — أن تضنى علينا نحن البائسات ببضع دقائق نتضاحك فيها بعد ما مرت بنا أيام عديدة صرفناها جميعا باكيات تتميز من الغيظ ؟ » .

فقالت أديث : « زادك الله يا سيدتى المليكة مرحا وحبورا ، ولكن والله لخير لى ألا أبسم بقية العمر من أن ... » .

ثم توقفت عن الكلام إجلالا ، ولكن السر كنث استطاع أن يتسمع ويدرك أنها كانت فى ثورة نفسية عنيفة .

وقالت برنجاريا وهى أميرة من بيت ناقار ، خفيفة العقل ، ظريفة الطبع : « ماذا عسى أن تكون الإساءة الكبرى ؟ إن فارسا شابا قد خُدع وسيق إلى هنا ، فتسلل من منصبه — أو قلن إنه أُستل من منصبه الذى لن يعتدى عليه أحد فى غيبته ، وجاء من أجل سيدته الكريمة ؛ إننا ينبغى أن ننصف بطلك أيتها الحسناء ؛ إن حكمة نكتبانس ما كان لها أن تستهويه إلى هنا باسم غير اسمك » .

فقالت أديث بصوت فيه رنة الذعر ، يخالف كل الخلف ذلك الغضب الذى بدا عليها منذ حين : « يا لله ! هل تقول جلالتك بذلك ! إن معنى هذا ضياع شرفى

وشرفك ، فإنى أمت لزوجك بصلة الرحم ! قولى إنك كنت معى تمزحين يا سيدتى الملكة ، واعفى عنه فإنى ما كنت أحسبك لحظة واحدة إلا هازلة » .

فأجابت الملكة بصوت يرن فيه الاستياء وقالت : « إن السيدة أديث تأسف على الخاتم الذى ظفرتُ به منها . . . سنرد إليك الرهان يا ابنة العم اللطيفة ، على ألا تنكرى علينا تلقاء ذلك أن نتغلب — ولو قليلا — على هذه الرزانة التى انتشرت فوق رؤوسنا مرارا كما ينتشر العلم على رؤوس الجنود » .

فصاحت أديث حانقة وقالت : « تتغلبين ! تتغلبين ! إنما الغلبة سوف تكون للكافر حينما يسمع أن ملكة انجلترا فى وسعها أن تجعل من اسم امرأة من دم زوجها موضوعا للهو والعبث » .

فقالت الملكة : « إنما أنت غاضبة يا ابنة العم الحسناء لأنك سوف تفقدين خاتمك العزيز . استمعى إلى ، ما دمت تضنين ببذل الرهان ، فسوف نتنازل عن حقنا فيه ؛ إنما أتى بالرجل إلى هنا اسمك وهذا الخاتم ، وإنا لا نقيم للطُّعم وزنا بعد أن يقع الصيد فى الشباك » .

فأجابت أديث جازعة وقالت : « مولاتى ، إنك تعلمين جد العلم أن جلالتك لا تتطلعين إلى شىء مما أملك إلا صار لك فى التو والحين ، وإنى لأبذل قنطارا من الياقوت على ألا يُستخدم خاتمى أو اسمى للإيقاع برجل باسل فى الخطيئة ، أو سَوْقه إلى الخزى والعقوبة » .

فقالت الملكة مجيبة : « إننا لا نخشى إلا على سلامة فارسنا الحق ، وإنك لتستخفين بنفوذنا يا ابنة العم الحسناء إذ تتحدثين عن حياة هذا الرجل وكأنها هريقت من جراء فكاهتنا وتندرنا . أيتها السيدة أديث ، من النسوة غيرك من لهن على صدور القاتلين الحديدية نفوذ كما لك — وحتى الليث ذاته ليس قلبه إلا من لحم ودم لا من حجر ، وصدقينى إن لى برتشارد من الصلة ما يكفى لإنقاذ هذا الفارس — الذى تهتم السيدة أديث بشؤونه اهتماما كبيرا — من العقوبة التى حقت عليه لعصيانه أمر مليكه » .

فقالت أديث : « أستحلفك بحب الصليب المبارك أيتها الملكة . . . » وهنا أحس السر كنث بعاطفة كان عسيرا عليه أن يدرك كنهها وهو يستمع إلى أديث ، وهى تنكب بوجهها لدى قدمى الملكة وتقول : « ناشدتك بحب العذراء البتول ، وبكل قديس مبارك فى الوجود ، أن تحذرى فيما تفعلين ! إنك لا تعرفين الملك رتشارد — ولم يمض على قرانك به إلا زمن وجيز — والله لأيسر لك أن تناهضى بأنفاسك رياح الغرب حين يشتد هبوبها من أن تحملى هـذا الملك قريبى على أن يعفو عن جريمة عسكرية . أستحلفك بالله أن تصرفى هذا الرجل الكريم ، إن كنت حقا قد أغويته إلى هنـا ! تالله لأرضين أن يعلق بى عار دعوته لو أنى عرفت أنه عاد ثانية حيث واجبه يناديه ! »

فقالت الملكة برنجاريا : « انهضى يا ابنة العم ، انهضى ، وتيقنى أن الأمر سوف ينتهى على خير مما تظنين . انهضى يا عزيزتى أديث ؛ إنى آسفة لأنى تفكهت بفارس ، لك فيه كل هذا الهوى — كلا ، كلا ، لا تهزى بيديك ؛ سوف أعتقد أنك لا تعنين بأمره ، لسوف أعتقد بأى شىء حتى لا أراك فى هذا المظهر البائس الكئيب . اعلمى أنى سوف أتلقى من الملك رتشارد على نفسى العتاب نيابة عن صاحبك الكريم ابن الشمال — كلا ، بل ينبغى أن أقول أحد معارفك ، فإنك لا تعترفين به صاحبا لك — كلا ؛ لا تنظرى إلىّ بهذه العين العاتبة — سوف نبعث بنكتبانس كى يصرف هذا الفارس الذى وُكلت إليه حراسة العلم ، ويعود إلى مقره ، وسوف نتعطف عليه يوما نحن أنفسنا ونهيئ له ظرفا يعوض به هذا الخطأ الفاحش ؛ ما إخاله الآن إلا مستلقيا متخفيا فى إحدى الخيام المجاورة » .

فقال نكتبانس : « أقسم بإكليل الزنبق الذى أحمل ، وبصولجان القصب الجميل الذى أرفع ، إن جلالتك لخاطئة — إنه أقرب مما تظنين — أنه يرقد متحجبا هناك خلف حاجز الفسطاط » .

فصاحت الملكة بدورها ، وقد اشتد بها الذعر والغضب وقالت : « إنه إذن لعلى مسمع من كل ما نقول . اعزب عنى أيها الوحش الأحمق الخبيث ! » .

وما إن فاهت بهذه الكلمات حتى فرّ نكتبانس من السرادق وهو يصرخ صراخا بداخلك من طبيعته الشك : هل قَصَرت برنجاريا زجرها على اللفظ أم هل أضافت إلى ذلك تعبيراً آخر عن حنقها أشد توكيداً .

وقالت الملكة لأديث وهى تهمس همسا بادى القلق : « ماذا عسانا نصنع الآن ؟ »

فقالت أديث رابطة الجأش : « لنصنع ما ينبغى ؛ يجب أن نرى هذا الرجل الكريم ، وأن نضع أنفسنا تحت رحمته » .

وبعد ما أتمت هذا الحديث ، خفت إلى سجاف ترفعه ، وكان السجاف يستر من أحد جوانبه مدخلا يصل الداخل بالخارج .

وقالت الملكة : « رب السموات لا تفعلى ، انظرى ، هذه غرفتى وذاك ردائى — وفى أى ساعة ! وشرفى ! » .

ولكن قبل أن تدلى بكل عتابها ، سقط السجاف ، ولم يعد بين الفارس المسلح وجماعة النساء حجاب ؛ وكان ذلك فى ليلة من ليالى الشرق الدفيئة ، التى حدت بالملكة برنجاريا ووصيفاتها إلى أن يخلعن أثوابهن ولا يرتدين إلا لباساً خفيفا لا كلفة فيه ، ولا يتفق وما يقتضى موقفهن ، ولا يلتئم ومثول شاهد من الرجال له مكانته . وما إن ذكرت الملكة هذا حتى صاحت صيحة عالية ، ولاذت بالفرار من الغرفة التى كشفت عن السر كنث ، وأظهرته للعيان فى غرفة أخرى من غرف السرادق الفسيح لم يعد يفصلها عن الغرفة التى وقف النسوة بها فاصل ؛ وكانت السيدة أديث فى حال من الأسى والهياج ، وأحست بلهفة شديدة وهى تتبادل الحديث مع الفارس الأسكتلندى متعجلة مسرعة ، فأدى بها ذلك إلى أن تنسى أن خصلات شعرها كانت على شعث ، وأن جسمها لم يكن محكم الحجاب ، ولم يكن ذلك مما تألفه بنات الأسر الكريمة فى عصر لم يكن — رغم هذا — أكثر عصور العهد القديم تحسبا أو بصرا ؛ وكان أهم ما تسترت به رداء رقيق فضفاض من الحرير الأحمر ، وخف شرقى ، دفعت بقدميها العاريتين فيه على عجل ، ووشاح اتشحت به على كتفيها فى لهفة وبغير اكتراث ، وليس على رأسها ما يحجبه غير قناع من خصلات

شعرها الغزير المهوش ، تتدلى حوله من كل جانب ، وتحجب محياها حجابا خفيفا — وقد انتشرت الحمرة فيه مما اعتراها من مزيج المشاعر ، إذ أحست بالحياء والاستياء وغير ذلك من العواطف الثائرة العميقة .

وأحست أديث بموقفها بكل تلك الرقة التى هى أشد ما يسحرنا فى الجنس اللطيف ، ولكن لم يطرأ لها لحظة أن ترفع حياءها إلى حد التغاضى عن أداء الواجب نحو هذا الرجل الذى انساق إلى الخطأ والخطر من أجلها ؛ حقا إنها جرت وشاحها ، وقربته من جيدها وصدرها ، وأسرعت بنبذ مصباح كان بيدها ، يشع منه ضياء شديد على جسمها ؛ وبينما وقف السر كنث لايبدى حراكا فى ذات المكان الذى شوهد به أول الأمر ، كانت هى إلى التقدم إليه أدنى منها إلى التقهقر عنه ، وهى تصيح مذعورة وتقول : « أسرع إلى مقر حراستك أيها الفارس الجسور ! لقد خُدعت إذ سيق بك إلى هنا . عد ولا تسل » .

فجثا الفارس على إحدى ركبتيه ، كأنه القديس أمام المذبح إخلاصا وتقديرا ، ثم قال : « ليس بى حاجة إلى سؤال » وأطرق ببصره نحو الأرض خشية أن يزيد بمرآه ما كانت عليه السيدة من حيرة وارتباك .

فقالت أديث جازعة : « هل سمعت كل ما دار . يا كرام الأولياء ! إذن فلماذا أنت باق هنا ، وأنت تعلم أن كل دقيقة تنقضى معبأة بالخزى وامتهان الكرامة ؟ »

فأجابها كنث وقال : « سمعتُ منك يا سيدتى أن الخزى قد أصابنى ، فلست أبالى أن يحل بى الجزاء بعد هذا ، إنما لى لديك مطلب واحد ، لا أعبأ بعده أن أسير خلال سيوف الكفرة علّنى أمحو الخزى بالدماء »

فقالت السيدة : « كلا ، لاتفعل ذلك . كن حكيما ولا تلبث هنا ؛ ولئن هممت بالعودة فلربما ينتهى الأمر بخير العواقب » .

فقال الفارس وما برح جاثيا : « إنما أنا أنتظر العفو منك عن جرأتى فى الاعتقاد بأن خدماتى القليلة ربما سدت لديك حاجة أو لاقت منك تقديرا » .

« لقد عفوت عنك — يا إلهى ، ليس لدى ما أعفو عنه ! — لقد كنتُ

السبيل إلى أذاك — ولكن بربك انصرف ! — لسوف أعفو عنك — ولسوف أقدر خدمتك — وذلك بمقدار ما أقدر كل صليبي مقدام — ولن تنال منى ذلك إلا إن انصرفت ! » .

ثم عرض الفارس الخاتم على أديث ، وهى تبدى من الشارات ما ينم عن الجزع ، وقال : « خذى أولا هذا الميثاق النفيس القاتل » .

فقالت وهى معرضة عن تناوله : « كلا ، كلا ، احتفظ به . احتفظ به دليلا على تقديرى — بل على أسفى . أوّاه ، هلا انصرفت من أجلى ، إن لم يكن من أجل نفسك ! » .

فهب السر كنث من جثوه ، ورمق أديث بنظرة عجلى ، وانحنى كثيراً ، وهمّ بالانصراف وكأنه قد أثيب — بما بدا عليها من لهفة على سلامته — عن كل ما افتقد ، حتى عن ضياع شرفه الذى افتضحته بنبرة صوتها . وفى تلك اللحظة عينها غلب على أديث ذلك الحياء العذرى ، الذى تمكنت حتى آنئذ بشدة انفعال مشاعرها من أن تكبح جماحه ، نخفت من الغرفة ، وأطفأت المصباح وهى تنصرف ، وخلّفت فى خواطر السر كنث من بعدها اكتئاباً فى حسه ونفسه .

وكان أول خاطر واضح أيقظ السر كنث من هواجسه وجوب طاعتها ، فسارع إلى المكان الذى ولج منه السرادق ؛ ولكنه إن انزلق تحت السور كما دخل فإنه يحتاج لذلك إلى الوقت والحذر ، فثقب بخنجره السور الحائط ، وأصبح له بذلك مخرج ميسور ؛ وما إن خرج إلى الهواء الطلق حتى هاجمته المشاعر المتنازعة ، فتبلد حسه وغُلب على أمره ، ولم يستطع أن يستوثق من كنه ما مر به ومن حقيقة الأمر ، واضطر أن يحفز نفسه للعمل حينما ذكر أن أمر السيدة أديث يتطلب العجلة ؛ وحتى بعد هذا كان لا بد له — وهو مشتبك بين الخيام وحبالها — أن يسير حذراً حتى يبلغ الطريق الجانبية التى سلكها القزم وإياه من قبل ، كى يتحاشى أعين الحراس الواقفين لدى سرادق الملكة ، واضطر إلى أن يسير وئيداً حريصا ، كى لاينبه الأذهان إن هو خر على الأرض أو صلصل سلاحه ؛ وفى تلك

اللحظة عينها التى قصل فيها السر كنث عن الفسطاط ، غشت القمر سحابة رقيقة ، واضطر الفارس أن يواجه هذه المشقة فى وقت لم يكد يُبق له دوار رأسه وخفقان قلبه من نفاذ البصيرة ما يكفى لأن يدبر به مسيره .

ولكن سرعان ما طرقت أذنيه الأصوات على حين غرة ، فثاب توا إلى رشده وإلى قواه العقلية كاملة ؛ وكان جبل سنت چورچ هو مبعث هذه الأصوات ، وكان أول ما سمع نباحاً منفرداً همجيا غاضباً متوحشاً تبعه على الفور صراخ الكرب والألم ، وما كان الظبى ليثب فازعا من صوت «رزوال» كما وثب السر كنث ، إذ خشى أن يكون ذلك الصوت هو نزع الموت يصيح منه ذلك الكلب النبيل ، الذى ما كان لأذىً مألوف أن يستخلص منه أدنى شكاية من الألم ، فذلل الفارس المدى الذى كان يفصل ما بينه وبين الطريق ، وما إن بلغها حتى شرع يجرى نحو الجبل ، ورغم أنه كان مثقلا بالزرد فما كان لرجل أن يلحق به ، حتى وإن كان مجردا عن السلاح ؛ ولم يتراخ فى خطاه وهو يصعد جوانب الرابية المصطنعة الشديدة الانحدار ، ولم تمض بضع دقائق حتى كان فوق قمة الجبل .

وفى تلك اللحظة أرسل القمر سهام نوره ، وتبين له أن راية انجلترا قد اختفت ، وأن الرمح الذى كانت ترفرف فوقه كان ملقى على الأرض محطما ، وإلى جواره كلبه الأمين يعالج سكرات الموت .

الفصل الرابع عشر

... لقد أضعت أذيال الشرف الطويلة ،
وقد جمعتها فى شبابى وادخرتها لمشيبى !
ماذا ؟ هل غاض معين الشرف ؟
أجل ، لقد كان ،
ولتمض إذن صغار الأطفال بأقدام عارية
يجمعون الحصا من مخاضة العين بعد جفافها .
دون سبستيان

انتاب السر كنث فيض من الإحساسات المتضاربة ، كاد أول الأمر أن يذهله ويشتت ذهنه ؛ ولما أفاق كان أول ما خطر له أن يبحث عمن اعتدوا على العلم الإنجليزى ، ولكنه لم ير لهم أثراً فى أية ناحية من النواحى ، فخطر له ثانياً أن يفحص حال (رزوال) الأمين ، وقد أصيب بجراح قاتلة وهو — على ما يظهر — يؤدى الواجب الذى أغرى سيده بهجرانه ؛ وقد يبدو هذا الخاطر غريباً لبعض القوم ، ولكنه ليس كذلك لكل من كانت له بالكلاب صلات وثيقة . أخذ كنث يدلل الكلب مخلصاً حتى النهاية ، فتناسى الكلب آلامه من أثر السرور الذى أحس به من قرب سيده ، ولبث يهز ذيله ، ويلعق يديه ، حتى حينما كانت أناته الضعيفة تدل على أن آلامه كانت تتزايد كلما حاول السر كنث أن يستخلص من الجرح شظايا الرمح أو النشاب الذى أصيب به ؛ وأخذ الكلب يضاعف من إعزازه لصاحبه — رغم فتوره وضعفه — كأنه كان يخشى أن يسىء إليه إن هو أبدى إحساساً بالألم الذى أصابه من جراء تعرّضه للدفاع ؛ ولقد كان فى هذا المظهر الذى ظهر به الكلب وهو يعالج سكرة الموت ، مظهر التعلق بصاحبه ، شىء من المرارة اختلط فى نفس السر كنث بشعوره بالخزى والوحشة اللذين حاقا به ؛ وشعر كأن صديقه الأوحد قد رحل عنه فى الوقت الذى كان يحس فيه بالازدراء والبغضاء لكل من عداه ، فلم يسع الفارس — رغم صدق عزيمته — إلا أن يستسلم للانفجار من هذا الكرب الأليم ، فأخذ يتأوه ويبكى بكاء مرا .

وبينا هو كذلك مستغرق فى الهم ، إذا بصوت جهورى وقور وراءه وعلى مقربة منه ينطق بهذه الكلمات ، برنين فيه نغم القراء فى المساجد ، وباللغة الفرنجية التى كان يفهمها المسيحيون والأعراب على السواء .

« إنما المصائب كالمطر المتلاحق — فيه للإنسان والحيوان برودة ومشقة وعداوة ، وفيه كذلك حياة للزهر والتمر والورد والرمان » .

فتلفت السر كنث فارس النمر صوب المتكلم ، ووقع بصره على الطبيب العربى وقد اقترب صامتاً ، وجلس خلفه وقريباً منه ، ووضع ساقاً فوق الأخرى ، وأخذ — فى هدوء ورزانة وبنغمة تنطوى على العطف — ينطق بالحكم والأمثال التى فيها للإنسان عزاء ، وقد استمدها من القرآن وأقوال المفسرين ؛ وليست الحكمة فى الشرق فى ما يُظهر الحكيم من قوة الابتكار بمقدار ما هى فى حضور الذاكرة وإجادة التطبيق والإشارة إلى « الكلام المسطور » .

وخجل السر كنث إذ بوغت وهو ينفس عن أساه كما تنفس النساء ، فمسح دموعه ، وأزالها حياء وخزياً ، ثم أخذ يشتغل ثانية بكلبه العزيز وهو يفارق الحياة .

وواصل العربى حديثه ، ولم يسترع التفاته أن الفارس قد أشاح ببصره ، أو ما كان يعلو محياه من الاكتئاب ، وقال : « لقد قيل : (الثور للحقل ، والجمل للصحراء) ، أليست يد الطبيب ألين من يد المقاتل لشفاء الجروح ، وإن تكن أقل منها قدرة على ثلمها ؟ »

فقال السر كنث : « ليس لك بهذا المريض أيها الحكيم حيلة ، وهو فوق ذلك حيوان نجس فى شريعتكم » .

فقال الطبيب : « حيثما منّ الله بالحياة ، وأوجد الحس باللذة والألم ، فإنه لكبرياء باطل من الحكيم — وقد أنار الله بصيرته — أن يحجم عن أن يمد أجل البقاء ، أو يخفف وقع الألم . إنما علاج الخادم البائس ، أو الكلب المسكين ، أو الملك الظافر ، سواء لدى الحكيم ، كلها أمور لا نفرق بين أحدها وبين الآخر ؛ دعنى أفحص هذا الحيوان الجريح » .

فأسلم له السر كنث صامتا ، وأخذ الطبيب يفحص ما برزوال من جراح ، ويقلبه بين يديه بحرص وعناية كأنه مخلوق آدمى ، ثم استخرج حقيبة بها بعض آلاته ، وأولج فى جسم الكلب مسبرا بحكمة ومهارة ، واجتذب من كتفه الجريحة شظايا السلاح ، ثم أوقف بالأدوية الواقية والضمادات ما عقب ذلك من تدفق الدماء ، والكلب خلال ذلك يكابد الألم صابراً ، ويستسلم للطبيب وهو يعالجه برفق ، كأنه يدرك طيب طويته .

وقال الحكيم موجهاً للسر كنث الخطاب : « إن فى شفاء الكلب لرجاء لو أذنت لى أن أحمله إلى خيمتى وأعالجه بالعناية التى يستحقها نبل طبيعته ، ولتعلم أن خادمك « أدنبك » ليس بفصائل الكلاب وكرام الخيل وسلالاتها وطباعها ، أقل حذقا منه فى الأمراض التى تصيب البشر » .

فأجاب الفارس وقال : « إذن فلتصطحبه ، وإنى أهبكه بغير مقابل إذا عوفى ، إنى مدين لك بالجزاء على عنايتك بخادمى ، وليس لدى غير ذلك أرد لك به حسن صنيعك . أما أنا فلن أنفخ بعد اليوم فى بوق أو أنادى كلبا ! »

فلم يحر العربى جوابا ، وإنما صفق بيديه إشارة أجيبت على الفور بمثول عبدين أسودين ، أصدر لهما أمره بالعربية وأجاباه « سمعا وطاعة » ، ثم حملا الكلب بين أذرعهما ، ورفعاه بغير كبير مقاومة من جانبه ، لأنه — وإن يكن قد رفع بصره نحو سيده — لم يقو على المناضلة .

فقال السر كنث : « أستودعك الله إذن يا رزوال ، وداعا يا صاحبى الأوحد والأخير ، إنما أنت أنفس من أن يتملكك رجل له ما سوف يكون لى فى مستقبل أيامى » ، ولما تراجع العبدان قال : « وددت لو أنى بدلت بحالى حال هذا الحيوان النبيل ، رغم أنه يلفظ أنفاسه الأخيرة ! » .

فأجاب العربى مع أن السر كنث لم يتوجه إليه بهذا الرجاء وقال : « لقد كتب على المخلوقات جميعا أن تكون فى خدمة الإنسان ، فإذا كان سيد الأرض

يود لو يبدل — وهو جازع — بأمله فى الدنيا والآخرة حالاً وضيعة يعيش عليها مخلوق دنىء كالكلب ، فإنه لا ينطق إلا حمقا » .

فقال الفارس عابسا : « إنما الكلب الذى يموت فى أداء واجبه خير من الإنسان الذى يحيا بعد إهماله ؛ دعنى أيها الحكيم . أجل ، إن لديك بطبك المعجز أعجب ما وصل إليه الإنسان من علم ، ولكن جراح الروح فوق طاقتك » .

فقال أدنبك الحكيم : « كلا ، ليس كذلك إن كان المريض يبوح برزئه ، ويسلس للطبيب القياد » .

فقال السر كنث : « ما دمت تلحف كذلك فلتعلم إذن أن راية انجلترا كانت الليلة البارحة مرفوعة فوق هذه الرابية — وكنتُ على حراستها — لقد انبثق النهار — انظر ترى رمح العلم المحطم ملقى هناك — وقد افتقدت الراية نفسها — وهأنذا أجلس هنا على قيد الحياة ! »

فأجاب الحكيم وهو يتفرسه وقال : « كيف كان ذلك ! إنى أرى درعك سليما ولا أرى أثرا للدماء على سلاحك ؛ وذكرك بين الناس ينطق ببعد احتمال عودك هكذا بعد القتال . أجل ، لقد انسقت من منصبك ، وجذبتك بورد خديها ، وحور عينيها ، إحدى أولئك الحور ؛ اللائى تحملون لهن — أنتم أيها النصارى — ولاء يليق برب السموات ، لا حبا يجوز التوجه به شرعا لمخلوقات مثلنا من الطين . لا شك فى أن الأمر كان كذلك ، فهكذا زل الإنسان منذ الأزل من يوم أبينا آدم » .

فرد عليه السر كنث مكتئبا وقال : « وإن كان الأمر كذلك أيها الطبيب فما دواؤك ؟ » .

فقال الحكيم : « العلم فوق المقدرة ، كما أن الشجاعة فوق القوة — استمع إلىّ ، ليس الإنسان كالشجرة معقودا بمكان واحد من الأرض ، وليس مصاغا بحيث يتشبث بصخرة واحدة جرداء كالقوقعة تكاد لاتدب فيها الحياة ، وكتابكم المسيحى يأمركم إن لا قيتم جورا ببلد أن تلوذوا ببلد آخر ، ونحن المسلمين كذلك

نعرف أن محمدا رسول الله بعدما فر من مكة المكرمة أوى إلى المدينة وألفى بها أنصارا».

فقال الأسكتلندى : « وما شأن هذا بى ؟ » .

فأجابه الطبيب قائلا : « شأن كبير ، ألا تعلم أن الحكيم نفسه يتوارى عن العاصفة إن كان لا يستطيع لها ردا ؟ إذن فلتعمد إلى العجلة وتفر من نقمة رتشارد إلى ظل راية صلاح الدين الظافرة » .

فرد عليه السر كنث ساخرا وقال : « إذن لسوف أخفى عارى فى معسكر الكفرة الذين لا يعرفون لهذه الكلمة معنى ؛ ولكن أليس خيرا لى أن يلحق بى عارهم ؟ هلا توصينى بلبس العمامة ؟ تالله لم يعد لى إلا أن أرتدّ عن دينى كى تبلغ فضيحتى منتهاها » .

فقال الطبيب عابساً : « لا تجدف أيها النصرانى ، إن صلاح الدين لا يقبل فى دين محمد إلا أولئك الذين يؤمنون بقواعد الإسلام . افتح عينيك للنور — إن شئت — يهبك السلطان العظيم مُلكا ، فهو رجل ليس لجوده أو سلطانه حد ، وإن شئت فلتبق أعمى البصيرة ، فلن يكون نصيبك من الحياة الآخرة غير الشقاء ، ولكن صلاح الدين سوف يغنيك ويسعدك فى هذه الدار الفانية ؛ ولا تخش أن تطوق حاجبيك العمامة إلا إن أردت ذلك راغبا » .

فقال الفارس : « إنما إرادتى أن يسودّ جبينى المقطب وهو ما يحتمل وقوعه عند مغيب الشمس هذا المساء » .

فأجاب الحكيم وقال : « كلا ، ليس من الحكمة فى شىء أيها النصرانى أن تنبذ ما عرضت عليك ؛ إن لى على صلاح الدين لسلطانا ، وأنا أستطيع أن أرفع من شأنك حتى تشملك رعايته . استمع إلىّ يا بنى ، إن هذا المشروع الهمجى الذى تسمونه الحرب الصليبية ليس إلا كالسفين يشق عباب الماء ؛ لقد حملتَ بنفسك شروط الهدنة من الملوك والأمراء — الذين تتجمع جيوشهم هناك — إلى السلطان العظيم ، وربما لم تكن تعلم كل ما كانت ترمى إليه رسالتك » .

فقال الفارس وقد تملكه الجزع : « لست أعرف ولا يهمنى أن أعرف ؛

وماذا يعنيني أني كنت منذ حين رسول الأمراء ، ما دمت سوف أمسي — قبل أن يسدل الليل ستاره — جثة مهينة تحت المقصلة ؟ » .

فأجابه الطبيب وقال : « كلا ، سوف أسعى في أن يكون إلى غير ذلك منتهاك ؛ إنهم جميعا يتوددون إلى صلاح الدين ؛ إن آحاد الأمراء في هذا المجمع ، الذي تألف لمعارضته ، قد تقدم إليه يعرض المهادنة والصلح ، ولو كنا في زمان غير هذا لكان جديراً بشرف صلاح الدين أن يمنحهم سؤلهم ؛ وسعى إليه غير هؤلاء بالأصالة عن أنفسهم يعرضون فصل قواهم عن معسكر ملوك الفرنجة ، بل ويعيرون أسلحتهم للذود عن راية الإسلام ، ولكن ليس صلاح الدين بالذي يقبل الخدمات من أمثال هؤلاء الخونة العاجزين ذوي المنافع الخاصة ؛ ليس لملك الملوك أن يواتي غير الملك الأسد . إن صلاح الدين لن يعقد مع أحد ميثاقا سوى الملك رتشارد ، وسوف يواتيه كما يواتي الأمير الأمير ، أو يقاتله كما يقاتل البطل البطل . إنه يسلم لرتشارد — لجوده وسخائه — بشروط ليس لسيوف أوروبا جميعا أن تفرضها عليه عنوة أو إرهابا ، إنه يسمح بالحج دون قيد أو شرط إلى بيت المقدس وإلى كل مكان يحب النصارى أن يتعبدوا فيه ؛ بل إنه ليقتسم حتى دولته مع أخيه رتشارد ، فيسمح للجاليات المسيحية أن تقيم في أشد مدن فلسطين الست قوة وفي بيت المقدس ذاته ، ويرضى لهم أن يكونوا تحت إمرة ضباط رتشارد مباشرة ، ويقبل لهؤلاء الضباط أن يحملوا اسم (حرس فلسطين الملكي) ، وفضلا عن ذلك لتعلم يا سيدي الفارس — وقد يبدو لك ما سأحدثك به أمراً غريبا لا يحتمل التصديق ، ولكني سأبوح إكراماً لك بهذا السر الذي يكاد لا يصدقه أحد — اعلم أن صلاح الدين سوف يختم بخاتم قدسي على هذا الائتلاف السعيد بين أشجع الشجعان وأنبل النبلاء في بلاد الفرنجة وفي آسيا : وذلك بأن يرفع إلى مرتبة الزوجية الملكية فتاة مسيحية تصلها بالملك رتشارد أواصر الدم وتعرف باسم السيدة أديث بلانتاجنت[1] » .

---

(١) قد يبدو هذا الاقتراح شاذا غير مقبول ، فينبغي أن نقول إنه قد وقع حقيقة ، =

فصاح السر كنث قائلا : « ها ! أفهذا ما تقول ؟ » وكان يستمع شارد اللب غير آبه إلى الشطر الأول من حديث الحكيم ، إلا أن هذا الخبر الأخير قد مس منه كامن حسه ، وأيقظه كما توقظ رجفة الأعصاب — حين تنتفض على حين بغتة — الحسَّ بالألم حتى فى سبات المفلوج ، ثم خفف من نبرة كلامه ، وإن يكن قد عانى فى ذلك ما عانى ، واكتتم ما أحس به من امتهان الكرامة ، وستره بستار من الريبة والازدراء ، ثم واصل الحديث كى يظفر بأكثر ما يستطيع من علم عن هذه المؤامرة — وقد ظنها كذلك — هذه المؤامرة التى كانت تدبر ضد فتاته ، ضد شرفها وسعادتها ، ضد تلك التى لم ينتقص من حبه لها ما أصاب جده وشرفه بسببها ، فقال فى سكينة وهدوء : « وأى مسيحى ذلك الذى يصادق على عقد غير طبيعى ، كذلك الذى يكون بين مسيحية عذراء وعربى مسلم ؟ » .

فأجاب الحكيم وقال : « إنما أنت نصرانى جاهل متعصب ، أفلم تر إلى الأمراء المسلمين كيف يتزاوجون كل يوم مع النبيلات من عذارى أسبانيا النصارى ، وما فى هذا عار على مغربى أو مسيحى ؟ ولسوف يسمح السلطان النبيل — لثقته التامة فى دم رتشارد — للفتاة الإنجليزية بالحرية التى وهبتها المرأة طباعكم الفرنجية ، سوف يسمح لها بالحرية فى ممارسة دينها ، وسوف يخصها بمكانة ومرتبة فوق نسائه جميعاً ، فتبيت من كل وجه ملكته الفريدة المطلقة » .

فقال السر كنث . « كيف تجرؤ أيها المسلم على أن تحسب أن رتشارد يتنازل عن قريبته ، وهى أميرة فاضلة كريمة النسب ، لتكون — أحسن ما تكون — فضلى الإماء بين (حريم) رجل مسلم ! اعلم أيها الحكيم أن أدنى مسيحى نبيل حر يأبى لابنته مثل هذا العار الشنيع » .

= ومع ذلك فإن المؤرخين يستبدلون ملكة نابلس الأرملة بأخت رتشارد هذه العروس ، وأخى صلاح الدين بهذا الزوج ؛ ولكن يخيل لى أنهم كانوا يجهلون وجود أديث بلانتا جنت — ارجع إلى « تاريخ الحروب الصليبية » تأليف مل — صفحة ٦١ من الجزء الثانى .

فرد عليه الحكيم وقال : « والله لقد أخطأت ، ولقد نما هذا الرأى إلى فيليب ملك فرنسا ، وهنرى صاحب شمبانيا ، وغيرهما من زعماء أحلاف رتشارد ، ولم يصعق أحدهم للخبر ، ووعدوا جميعا أن يسعوا ما وسعهم السعى فى حلف قد تكون فيه نهاية هذه الحرب الضروس ؛ وقد أخذ الرجل الحكيم كبير قساوسة (صور) على نفسه أن يزف هذا المقترح إلى رتشارد ، ولا تداخله ريبة فى أنه سوف يستطيع أن يسوق الخطة إلى خير غاية ، وقد احتفظ السلطان — لحكمته — بهذا الأمر سرا ، وكتمه على أمثال صاحب منتسرا ورئيس فرسان المعبد ، لأنه يعلم أنهما وأمثالهما يسعون إلى الفلاح من وراء حتف رتشارد أو خزيه ، لا عن سبيل حياته وشرفه — فهيا إذن يا سيدى الفارس ، وامتط صهوة جوادك ، وسأعطيك مكتوبا يرفع من شأنك لدى السلطان ، ولا تحسبن أنك تارك بلادك أو قضيتها أو دينها ما دام صالح الملكين عما قريب سوف يتحد ؛ إن مشورتك سوف تلقى من صلاح الدين خير القبول ، ما دام فى وسعك أن تخبره بالكثير عن الزواج لدى المسيحيين ، وكيف يعاملون أزواجهم ، وغير ذلك من أمور شريعتهم وعاداتهم ، فإن السلطان يهمه كثيرا أن يعرف ذلك من أجل المعاهدة . إن السلطان يقبض على كنوز الشرق بيمناه ، ومنها تنفجر عيون الجود والسخاء ؛ ولن يتعسر على صلاح الدين — إن تحالف مع انجلترا — أن يظفر من رتشارد لا بالعفو عنك وردك إلى حظيرة الرضى فحسب ، وإنما يستطيع أن يحصل لك كذلك على قيادة شريفة بين من قد يتخلف من جنود جيش ملك انجلترا للإبقاء على حكمهما المشترك فى فلسطين ، فهيا إذن واركب جوادك وأمامك الطريق واضحة » .

فأجابه الفارس الأسكتلندى وقال : « أيها الحكيم ، إنما أنت رجل من رجال السلم — وإنك كذلك أنقذت حياة رتشارد ملك انجلترا — بل وحياة خادمى المسكين (ستروخان) ، ولذا فلقد أصغيت إليك حتى النهاية وأنت تتحدث فى أمر لو أن رجلا مسلما غيرك تقدم به إلىّ لأوقفته بطعنة من خنجرى ! أيها الحكيم ، إنى أنصح لك — جزاء رأفتك — أن تنصح العربى الذى يتقدم إلى رتشارد

يطلب وصل دم بلانتاجنت بدمه الكريه ، بلبس خوذة تقوى على تلقى ضربة بالفأس كتلك التى دكت تحتها أبواب عكا ، وإلا فلا ريب أنه سوف يضع نفسه موضعا ينأى حتى عن حذقك ومهارتك » .

فقال الطبيب : « إذن فلقد اعتزمت عامدا مصرا على ألاّ تفر إلى صفوف الأعراب ؛ ولكن ألا فلتذكر أنك قد قلت إن فى هذا قضاءك المحتوم ، وحدود شريعتكم — كحدود شريعتنا — تحرم على المرء أن يعتدى على حرم حياته » .

فرسم الأسكتلندى علامة الصليب على نفسه وقال : « حاشا لله ، ولقد حرم علينا كذلك أن نتحاشى ما يحق على ذنوبنا من جزاء ؛ ولكن عقيدتك فى الله ضعيفة أيها الحكيم ، وإنه والله ليحفظنى أنى وهبتك كلبى الكريم ، لأنه إن عاش فسوف يكون له صاحب جاهل بقدره » .

فقال الحكيم : « إن العطية إن ضن بها معطيها فكأنه يستردها ، ولكنا معشر الأطباء قد أقسمنا أن لا نرد مريضاً بغير علاج ؛ لئن شفى الكلب فلسوف يكون ثانية لك » .

فأجاب السر كنث وقال : « اذهب أيها الحكيم ، إن المرء لا يتحدث عن البزاة والكلاب حينما لا يكون بينه وبين الموت غير ساعة من نهار ، دعنى أذكر ذنوبى وأتقرب إلى الله » .

فقال الطبيب : « إنى أدعك لعنادك ، إن الغيوم لتخفى وراءها المنحدر فلا يراه أولئك الذين كتب الله عليهم الهبوط من فوقه » .

ثم تسلل وئيدا ، ولبث يتلفت وراءه الفينة بعد الفينة ، كأنه يرقب عسى أن يستدعيه هذا الفارس المخلص بكلمة أو إشارة ، وأخيرا اختفى هذا الرجل المعمم بين تيه الخيام التى كانت تمتد فى أسفل الجبل وبياضها ينصع فى ضوء الفجر الشاحب — وقد اندحر أمامه شعاع القمر .

ولم يكن لكلمات « أدنبك » الطبيب على السر كنث ذلك الأثر الذى كان يرمى إليه الحكيم ، إلا أنها بعثت فى الأسكتلندى حب الحياة ، وقد كان منذ حين

يود لو يفارقها كأنها ثوب ملوث لم يعد يليق به ارتداؤه ، وذلك رغم أنه كان يحسب أنه يتسم بالخزى والهوان ، وعاد إلى ذاكرته كثير مما دار بينه وبين الناسك ، ومما شهد بين الناسك وشيركوه (أو الضريم) ، ومال به ما ذكر إلى تأييد ماخبره به الحكيم عن الشرط الخفى الذى ورد بالمعاهدة .

ثم صاح محدثا نفسه : « ياله من محتال فى ثياب الشرف[1] ! يا له من منافق أشيب ! لقد تحدث عن الزوج المشرك كيف ترده عن شركه الزوجة المؤمنة ؛ وماذا عساى أن أعرف غير أن الخائن قد عرض على العربى ما حبا الله أديث بلانتاجنت من جمال ، حتى يستطيع هذا الرجل أن يحكم إن كانت هذه الأميرة المسيحية تليق بأن تنخرط فى سلك « حريم » رجل مسلم ؟ والله لو وقع ذلك الرجل « الضريم » — أو أيا كان اسمه — ثانية فى قبضتى التى أمسكت عليه بها يوما إمساكا شديدا ، كما يمسك كلب الصيد بالأرنب ، فلن يأتى أحد ثانية — وهو خاصة — برسالة مشينة بشرف ملك مسيحى أو فتاة نبيلة فاضلة . . . إن ساعاتى تتناقص سريعا إلى دقائق ، ولكن لا بد رغم ذلك من أداء عمل ما ، ولا بد من أدائه سريعا ، ما دام فىّ عرق ينبض ونفس يتردد » .

وسكت بضع دقائق ، ثم رمى بخوذته ، وانطلق مسرعا من فوق الجبل ، وسار فى الطريق المؤدية إلى سرادق الملك رتشارد .

---

(١) الضمير يعود على الناسك .

الفصل الخامس عشر

نفخ الديك — وهو ذاك المنشد المريش —
فى البوق ؛ يعلن للقروى الباكر إشراق الصباح .
ورأى إدوارد الملك خيوط الضياء الموردة
يتراجع من وهجها الظلام ،
واستمع إلى الغراب الأسحم ناعبا ،
ينادى بانصرام يوم من الزمان .
فقال الملك : « إنك لعلى حق ،
وإنى لأقسم بالله الذى يتربع على العرش فى السماء ،
ليموتن اليوم (شارل بودوين) وصاحباه»
تشاترتن .

فى الليلة التى استولى فيها السر كنث على منصبه ، أوى رتشارد إلى فراشه بعد ذلك الحادث العاصف الذى عكر صفو المساء ، وهو أشد ما يكون ثقة بالنفس ؛ وقد أوحت إليه بهذه الثقة شجاعته التى لا تحد ، وذلك الفضل الذى أحرزه على غيره حينما أصاب مرماه على مرآى من الجيوش المسيحية وزعمائها جميعا ؛ وكان يعلم أن كثيراً منهم من كان يرى فى دخيلة نفسه أن المهانة التى لحقت بدوق النمسا إن هى إلا انتصار عليه ؛ وإذن فلقد أشبع رتشارد كبرياءه ، فإنه إذ كبح عدوا قد أذل مئين .

ولو أن هذا الأمر قد وقع لملك آخر لضاعف من حرسه فى المساء بعد هذا الحادث ، ولأبقى جانبا على الأقل من جنوده بالسلاح مدججين ، ولكن قلب الأسد صرف على أثر ما وقع حتى حرسه الذى اعتاد ، وخص جنوده بهبة من النبيذ ، كى يحفلوا بشفائه ، ويشربوا نخب راية سنت چورچ ؛ ولولا أن سر توماس دى ڤو وإرل سولزبرى ، وغيرهما من الأشراف ، قد اتخذوا الحيطة لحفظ السكينة والنظام بين الحافلين ، لا نطبع على هذه الناحية من المعسكر التى يشغلها الملك طابع الفوضى والاستهتار .

أما الطبيب فقد سهر على الملك مذ أوى إلى فراشه حتى انصرم الهزيع الأول

من الليل ، وفى هذه الفترة ناوله الدواء مرتين ، وهو فى كل مرة يرقب فى السماء ذلك البرج الذى يتربع فيه بدر التم ، فإن للبدر — كما يقول الطبيب — أثراً على فعل عقاقيره ، يجعل فيها الحياة أو الهلاك ، وانقضت ثلاث ساعات بعد ما تصرم النصف الأول من الليل ، ثم تسلل الحكيم من السرادق الملكى إلى سرادق آخر ضرب له ولأتباعه ، وإذ هو فى طريقه إلى هناك ، عرّج على خيمة السر كنث فارس النمر ، كى يرى حال مريضه الأول فى معسكر المسيحيين ، وهو (سترو خان) ذلك الرجل المسن خادم الفارس ، ولما استعلم هناك عن السر كنث نفسه ، علم الحكيم على أى واجب كان يقوم ، وقد دفع به هذا الخبر إلى جبل سنت چورچ ، حيث ألفاه وهو فى ذلك الظرف المنكوب الذى أشرنا إليه فى الفصل السابق .

وقبيل شروق الشمس ، نما إلى سرادق الملك وقع خطوات وئيدة دانية من قوم مسلحين ، وما إن هب دى ڤو من مرقده وتساءل « من القادم ؟ » — وكان ينام إلى جوار فراش سيده نوما خفيفاً ، ولم يأخذ الكرى بمعقد جفنيه إلا كما يأخذ بجفون كلاب الحراسة — حتى ولج الفسطاط فارس النمر ، تعلو ملامح الرجولة فيه كآبة عميقة بعيدة المدى .

فقال دى ڤو عابسا ، وفى نغم كلامه نبرة الاحترام لسبات سيده : « فيم هذا التهجم الجرىء يا سيدى الفارس ؟ » .

فتيقظ رتشارد توا وقال : « صه يادى ڤو ! لقد أقبل علينا السر كنث إقبال الجندى الكريم ، يقص علينا قصة حراسته — ولمثل هذا ينبغى أن يكون سرادق القائد أبدا قريب المنال ، ثم نهض من نومه ، وارتكز على مرفقه ، ورمق المقاتل بعينيه الواسعتين البراقتين ، وقال : « تكلم ياسيدى الأسكتلندى ؛ لقد أتيت تحدثنى عن حراسة يقظة آمنة شريفة ، أليس كذلك ؟ إن حفيف ثنايا راية انجلترا قمين وحده بحراسة العلم ، حتى دون أن يمثل مثل هذا الفارس بشخصه فيراه كل ذى عينين » .

فأجاب السر كنث قائلا : « كلا ، لن يرانى بعد اليوم أحد ، إن حراستى لم

تكن يا مولاى يقظة ولا آمنة ولا شريفة ، ولقد امتدت إلى راية انجلترا يد واختطفتها » .

فأجاب رتشارد وفى صوته نبرة الازدراء والتكذيب وقال : « وما برحتَ على قيد الحياة تذكر ذلك ؟ عنى ! إن هذا لن يكون . إنى لا أرى أثراً لخدش على محياك . خبرنى لماذا أنت ماثل كذلك صامتا ؟ أصدقنى واعلم أن المزاح مع الملوك خطير — ومع ذلك فلأعفون عنك إن كان كذبا ما تقول » .

فرد عليه الفارس البائس وقال : « لم يكن كذبا ما خبرتك يا مولاى المليك ! » وفى صوته نغم التأكيد الجاف ، وفى عينيه سهام من النار براقة نافذة متألقة ، كأنها وميض الصوان المتحجر البارد ، ثم قال : « ولكن ينبغى أن أصمد هنا كذلك — هذا هو الحق خبرتك به يا مولاى » .

فانفجر الملك فى عاصفة من الغضب ، ما لبثت أن خمدت وسكن ثائرها ، وقال : « يالله ! ويا لسنت چورچ ! دى‌ڤو ، إذهب إلى المكان وألق عليه بنظرة — لقد عكرت هذه الحمى صفو ذهنه — إن هذا لن يكون — حسب شجاعة الرجل مناعة — إن هذا لن يكون ! — إذهب — عنى سريعاً — أو أرسل من لدنك رسولا إن كنت لا تريد الانصراف » .

وهنا استوقف الملكَ السر هنرى نڤيل ، وقد أقبل متقطع الأنفاس يقول إن الراية قد اقتلعت ، وإن الفارس الذى كان يقوم على حراستها قد غلب على أمره ، وغالب الظن أنه قتل ، لأنه رأى بركة من الدماء إلى جوار رمح العلم المحطم .

وما إن وقعت عينا نڤيل بغتة على السر كنث حتى تساءل « من ذا أرى هنا ؟ » فهب الملك على قدميه ، وأمسك بالفأس القصيرة التى كانت أبداً لا تبرح جوار فراشه ، وقال : « خائنا ، خائنا ! ولسوف تراه يموت ميتة الخونة » ثم جذب سلاحه إليه كأنه يريد أن يضرب به .

ووقف الاسكتلندى أمامه ممتقع اللون ، ولكنه رابط الجأش ، كأنه تمثال من المرمر ، ورأسه عار لا يقيه لباس ، وعيناه مطرقتان نحو الأرض ، وشفتاه

لاتـكادان تنبسان ، والراجح أنه كان يتمتم بالدعوات ، ووقف الملك رتشارد قبالته على قيد رمح ، وقد ادثر جسمه الضخم بين طيات ثوب من الـكتان فضفاض ، وتستر جميعه ، إلا حيث أزال انفعاله الشديد الدثار من فوق ساعده الأيمن وكتفه وجانبا من صدره ، وبدا للعيان كأنه مثال من صورة إنسانية جديرة بالصفة التى كان يتصف بها سلفه السكسونى وهى « جانب الحديد » . ولبث هنيهة متأهبا للضراب ، ثم أمال رأس السلاح صوب الأرض ، وصاح متعجبا وقال : « أفـكانت هناك دماء يا ثقيل — هل كان لدى المـكان دم . استمع إلى ياسر كنث — لقد كنتَ باسلا فى يوم من الأيام ، ولقد شهدتك وأنت تقاتل ، فهلا قلت لى إنك جندلت لصين دفاعا عن العـلم — بل جندلت واحداً — بل قل لى إنك ضربت ضربة قوية فى سبيلى ، ثم انصرف عن المعسكر بحياتك وخزيك ! » .

فأجابه كنث رابط الجأش وقال : « مولاى الملك ؛ لقد دعوتنى كاذبا ، ولقد أسأت إلى فى هذا على الأقل ؛ إعلم أنه لم تُرق فى سبيل الذود عن العلم دماء ، اللهم إلا دم الـكلب المسكين ، حين تصدى للدفاع عن الواجب الذى هجره صاحبه ، والـكلب أشد إخلاصا منه » .

فقال رتشارد : « بحق القديس چورچ » ؛ وهمّ بساعده ثانية — ولـكن دى ڤو رمى بنفسه بين الملك ومحط نقمته ، وشرع يدلى بذلك الصدق الصراح الذى يتخلق به ؛ قال : « مولاى ، لن يكون هذا ، لن يقع هذا الأمر هنا ، ولن تتلوث به يداك ؛ وكفى حمقا بين عشية وضحاها ، أن تـكل أمر العلم إلى رجل اسكتلندى — ألم أقل لك إنهم أبداً على ظاهر من الحق وباطن من الباطل ؟ »[1] .

فأجاب رتشارد وقال : « أجل ، لقـد فعلت يا دى ڤو ، ولقد أُصبت ، وإنى

(١) بهذه النعوت ألف الإنجليز أن يتحدثوا عن جيرانهم المساكين من أهل الشمال ، ناسين أن اعتداءهم على استقلال اسكتلندا قد أكره هذه الأمة الضعيفة على أن تدفع عن نفسها بالدهاء كما تدفع عنها بالقوة ؛ وينبغى أن يقتسم الخزى فى هذا إدوارد الأول وإدوارد الثالث للذان فرضا سلطانهما فرضاً على أمة حرة ، وأهلُ اسكتلندا الذين أكرهوا إكراها على أن يقسموا يمينا وليس فى عزمهم أن يبروا بها .

بذلك أقر . كان ينبغى لى أن أعرفه خيراً من هذا ، وكان ينبغى أن أذكر كيف أن الثعلب وليم قد خدعنى فى أمر هذه الحرب الصليبية » .

فأجابه السر كنث وقال : « مولاى ، إن وليم الأسكتلندى لم يخدعك ، ولكن الظروف لم تمكنه من حشد جنوده » .

فقال الملك : « مهلا بعض هذا واستح قليلا ! إنك تلوث اسم الأمير حتى إن لفظت به » ، ثم أردف بقوله : « ولكن ، مع هذا ، إنه لعجيب يادى ڤو مسلك هذا الرجل ، إنه إما جبان أو خائن ، ولكنه صمد — رغم ذلك — لضربة رتشارد بلانتاجنت حينما ارتفع ساعدنا لوسم الفروسية على كتفه[1] ؛ والله لئن كان قد أبدى أتفه دليل على خوفه ، والله لو كانت قد ارتعدت منه فريصة أو ارتجف له جفن ، لهشمت رأسه كما يتهشم القدح من البلور ، ولكن ما كان لى أن أضرب حيث لا خوف هناك ولا صدود » .

ثم كان سكون .

ثم قال كنث : « مولاى . . . » .

فاعترضه رتشارد وأجابه قائلا : « ها ! آلآن عرفت الكلام ؟ أدع ربك الرحمة ولا تدعنى ، لقد لحق بانجلترا العار من جراء خطئك . ووالله لو كنت لى أخا ، ولولم يكن لى سواك أخ ، لما عفوت عن إثمك » .

فقال الأسكتلندى : « إنى لم أتكلم طلبا للرأفة من إنسان فان ، إنما الأمر لجلالتكم إما جدتم أو ضننتم على بالوقت أكفر فيه عن سوءاتى كما يكفر المسيحيون ؛ ولئن أنكر الإنسان على هذا فالله أرجو أن يهبنى المغفرة التى أطلب من الكنيسة بعد الله ! وسواء مت الآن أو بعد هذا بنصف ساعة فإنى ألتمس من جلالتكم أن تهبنى الفرصة لحظة واحدة أتحدث فيها إلى شخصك الكريم بما يمس ذكرك كملك مسيحى مساً شديداً » .

فأجابه الملك وقال : « هيا ، قل ما تريد » . ولم يشك فى أنه إنما كان يتأهب

(١) يشير إلى العادة التى كانت تتبع فى العصور الوسطى عند منح الرجل مرتبة الفروسية .

للإصغاء إلى شيء من الاعتراف فى أمر يخص العلم .

قال السر كنث : « إن ما سوف أذكر يمس ملكية انجلترا ، وينبغى أن لايتطرق إلى غير أذنيك » .

فقال الملك لنفيل ودى ڤو : « اعزبا عنى سيدى » .

فصدع أولهما بالأمر ، وصمد ثانيهما فى حضرة الملك لأيبدى حراكا .

وأجاب دى ڤو مولاه قائلا : « ألم تقل مولاى إنى على جادة الصواب ؟ إذن فلتعاملنى كما ينبغى أن يعامل من هو على محجة الحق — وإذن فلتبق لى إرادتى ، وإنى لن أتركك وحدك مع هذا الأسكتلندى الأفاك » .

فقال رتشارد غاضبا وهو يضرب الأرض بقدمه ضربا خفيفا : « كيف هذا يادى ڤو ! وكيف لا تأمن على شخصنا مع خائن واحد ؟ » .

فأجاب دى ڤو وقال : « عبثاً يا مولاى أن تقطب جبينك أو تضرب بقدمك . إنى لا آمن أن أترك رجلا مريضاً مع آخر معافى ، رجلاً مجرداً عن السلاح مع آخر مسلح ممتنع » .

فقال الفارس الاسكتلندى : « ليس هذا بأمر ذى بال ، إنى لن أتلمس المعذرة كى أستأخر الزمن ، ولأتكلمن فى حضرة لورد جلزلاند فإنه سيد كريم صادق » .

فأجاب دى ڤو وفى صوته رنة الأسى ، وفيها مزيج من الحزن والحنق وقال : « لقد كنت أقول عنك مثل هذا القول منذ نصف ساعة ! »

ثم استأنف السر كنث حديثه وقال : « إن الغدر يحيط بك يا ملك الانجليز » .

فأجاب رتشارد قائلاً : « قد يكون صدقاً ماتقول ، فإن أمامى لمثالا محسوساً » .

فقال السر كنث : « إنها خيانة سيكون أذاها أشد وقعاً عليك من ضياع مائة راية فى ساحة الوغى ، إن... إن ... » وهنا تردد السر كنث ، ثم استأنف الكلام أخيراً وقد خفض من صوته وقال : « إن السيدة أديث . . . »

فاستجمع الملك نفسه بغتة ، واتخذ هيئة المنصت المتكبر ، وحدق ببصره فيمن ظن فيه الإجرام ثم قال : « ها ! ما بها ؟ خبرنى ما بها ؟ ما شأنها وهذا ؟ » .

فقال الاسكتلندى : « مولاى ، هناك دسيسة تدبر لتدنيس ذريتكم الملكية الكريمة ، وذلك بمنح يد السيدة أديث للسلطان العربى ، وشراء سلم مشين بالعالم المسيحى بحلف هو وصمة شديدة فى جبين انجلترا » .

وكان لهذا البلاغ أثر يختلف كل الخلف عما كان يتوقع السر كنث ، فلقد كان رتشارد بلانتاجنت أحد أولئك الذين لا يعملون لله انصياعاً لأمر الشيطان — كما يقول أياجو —(١) ولم يكن فى غالب الأحيان ليتأثر بالنصح أو بالخبر بمقدار ما ينطويان عليه من صدق ، كما كان يتأثر بهما بمقدار ما يصطبغان به من شخصية المحدث ونظرته . ومن نكد الطالع أن أحيي ذكر هذه السيدة — وهى من ذوات قرباه — ذكرياته عن وقاحة فارس النمر فى هذا الشأن ، حتى حينما كان فى طليعة الفرسان . وقد بدا له أن فى ما ذكر السر كنث — وهو فى تلك الحال الراهنة — مهانة تكفى لأن تدفع بالملك ، وهو يشتعل غضباً ، إلى انفعال الجنون .

فقال : « الزم الصمت أيها المرذول الوقح ! وحق السموات لأمزقن لسانك بمقبض الحديد الحار لأنك ذكرت اسم سيدة من كرائم المسيحيات ! اعلم أيها الخائن الوضيع ، أنى كنت أعلم من قبل إلى أى حد بلغت بك الجرأة أن ترفع عينيك ، ولقد تحملت ذلك — رغم ما فيه من قحة وجرأة — حتى حينما خدعتنا حتى ظننا أنك رجل له ذكر وصيت ؛ أما الآن وقد تقيحت شفتاك بما اعترفت به من خزيك — إذ كيف تجرؤ على أن تذكر الآن سيدة كريمة تربطها بنا صلة الرحم ، وكأنها سيدة لك فى حظها سهم أو نصيب ! — ما شأنك إن هى تزوجت من عربى أو مسيحى ؟ — ما شأنك ونحن فى معسكرٍ الأمراءُ فيه أنذال نهاراً ولصوص مساء ، وبواسل الفرسان فيه خونة أدنياء يفرون من الواجب — أقول ما شأنك ، أو ما شأن غيرك ، إن أنا أردت أن أتحالف مع الصدق والشجاعة متمثلين فى شخص صلاح الدين ؟ » .

فأجاب السر كنث متشجعاً وقال : « شأنى فى هذا قليل حقا ، وأنا رجل

---

(١) أياجو شخصية مشهورة بالحقد فى رواية عطيل لشكسبير .

سوف تصبح الدنيا لى عما قريب هباء ؛ ولكن ، حتى ولئن كنت الآن موثوقا بسرير العذاب ، أقول إن ما ذكرت لك يمس ضميرك واسمك مساً كبيراً ، إنى أقول يا مولاى الملك إنك إن قبلت — ولو فى خاطرك وحسب — أمر زواج قريبتك هذه السيدة أديث . . . » .

فقال الملك : « لا تذكر اسمها ، ولا تفكر فيها لحظة واحدة » وضغط على فأسه القصيرة ثانية بقبضته ، حتى برزت العضلات فى ساعده المفتول كخيوط الحبلاب حول أعضاء السنديان .

فأجاب السر كنث قائلا : « لا أذكر اسمها ! ولا أفكر فيها ! » وقد صعق وخيمت عليه الكآبة وتملكه انقباض النفس ، ثم أخذ يسترد مرونته بعد هذا اللون من الحديث ، فقال : « والآن بحق الصليب الذى عقدت به آمالى ، ليكونن اسمها آخر ما يلوك فمى ، ولتكونن صورتها آخر ما يخطر لذهنى ! جرب قوتك — التى بها تفخر — على هذا الجبين العارى ، وانظر هل أنت بمانعى عن مرماى ؟ » .

فقال رتشارد : « والله إنه ليدفعنى إلى الجنون » ورده ثانية عن هدفه — راغماً — عزم لا يلين مَلَكَ على الجانى نفسه .

وقبل أن يحير توماس الجلزلاندى جواباً ، نما إلى السرادق شغب من الخارج ، وأعلن المعلن من ظاهر الفسطاط قدوم الملكة .

فصاح الملك : « ردّها يا نفيل ، ردها ! ليس هذا بالمشهد الذى يليق بالنساء — تبا ، تبا ، لقد عانيت من مثل هذا الخائن الوضيع إغاظته لى كما ترون » ! — ثم قال همساً : « ابعده عن مرآى يا دى فو ، واخرج به من المدخل الخلفى من سرادقنا ، وضيقوا عليه أشد ضيق ، واعلم أن حياتك رهينة بحفظه فى محبسه ، وضع نصب عينيك أنه عما قريب يفارق الحياة ، فأت له بأب روحى فإنا لن نقتل فيه الروح والجسد — البث قليلا واستمع إلىّ ، إنا لا نريد به خزياً ولا عاراً — لسوف يموتن ميتة الفرسان بنطاقه ومهازه ؛ فلئن كانت خيانته مظلمة كالجحيم فإنه ليبارى بإقدامه الشيطان نفسه » .

ولا نعدو الحقيقة إذا نحن قلنا إن دى ڤو قد سر سروراً عظيما بانتهاء ذلك الموقف دون أن يتنزل رتشارد إلى عمل لا يليق بالملوك ، ويقتل بنفسه سجيناً لا يدفع عن نفسه ، ثم سارع إلى إخراج السر كنث من منفذ خاص إلى خيمة منفصلة ، حيث جرده من سلاحه وكبله فى الأصفاد ، كى يأمن جانبه ، ووقف دى ڤو ينظر إلى ما يجرى رابط الجأش حزيناً ، وضباط السجن ، الذين بات السر كنث تحت إمرتهم ، يتخذون هذه الحيطة الشديدة .

ولما فرغوا قال للآثم التعس مكتئباً : « هى إرادة الملك أن تموت محتفظاً بشرفك — فلن نبتر جسدك أو نشوه ساعديك — وأن يَفصل رأسك عن جذعك سيفُ الجلاد » .

فقال الفارس : « إنها لرأفة منكم » وفى صوته نغم خافت ، فيه ذلة وخنوع ، كأنه رجل ظفر برضا غير منظور ، ثم قال : « إذن فأهلى لن يسمعوا عنى أسوأ القصص — آه يا أبتاه ! يا أبتاه ! »

وهذا الابتهال الذى تمتم به لم يغب عن الرجل الانجليزى الجلف الطيب القلب ، فمسح بظاهر يده الكبيرة محياه الغليظ قبل أن يشرع فى الجواب .

ثم قال أخيراً : « ويريدك الملك كذلك أن تتحدث إلى رجل من رجال الدين ، ولقد التقيت فى طريقى إلى هنا بقس من كرمل يليق بك وأنت تفارق هذه الدار الدنيا ، وهو ينتظر خارج الفسطاط حتى تتهيأ للقائه » .

فقال الفارس : « سارع به إلىّ ، إن رتشارد فى هذا كذلك لرؤوف بى رحيم ؛ لن أكون ساعة ما أكثر تأهباً للقاء القس الكريم منى الآن ، فلقد ودعت الحياة ، وافترقت وأياها كراحلين بلغا مفترق الطريق ، ثم اختلف سير أحدهما عن الآخر » .

فقال دى ڤو متئداً رزيناً : « هذا خير ، فوالله إنه ليضنينى بعض الشىء أن أذكر لك فحوى رسالتى : وذلك أن الملك رتشارد يريدك على أن تتأهب للموت العاجل » .

فأجاب الفارس صابراً : « لتكن إرادة الله ومشيئة المليك ؛ إنى لا أعارض فى عدالة الحكم ، ولا أرغب فى تأجيل القضاء » .

وحينئذ شرع دى ڤو يفصل عن الفسطاط فى أناة شديدة ، ثم وقف لدى الباب ، والتفت خلفه ، ونظر إلى الأسكتلندى الذى وقف وكأن آمال هذه الدار الفانية قد انتفت من خاطره انتفاء تاما ، وكأنه رجل قد توجه إلى الله بكل نفسه ؛ ولم يكن البارون الإنجليزى البدين عامة من ذوى المشاعر الحادة ، ولكن عاطفته فى ذلك الموقف غلبت عليه — رغم ذلك — غلبة لم يعهدها فى نفسه من قبل ، فقفل راجعاً إلى فراش القصب الذى كان يرقد عليه الأسير ، وأمسك بإحدى يديه المغلولتين وقال بنغم فيه من اللين بمقدار مايستطيع صوته الأجش أن يلفظ : « سيدى كنث ، إنك ما زلت فى ريعان الشباب ، وإن لك لأبا ، وإن ابنى « رالف » الذى خلفته يدرب جواده الصغير الذى أتينا له به من (جالوى) على ضفاف (ارذنج) قد يبلغ عمرك يوماً من الأيام — ولا أخفيك أنى ليلة الأمس كنت أرجو الله أن أرى شبابه كشبابك — هلا تريدنى أن أقول شيئاً أو أفعل فعلاً نيابة عنك ؟ »

فكان الجواب الحزين على ذلك : « لا شىء ، لقد أهملت واجبى ، وفُقد العلم الذى عُهد به إلىّ — فإذا ما أصبح الجلاد وباتت المقصلة على استعداد ، فإن رأسى وجذعى كليهما على أهبة أن يفترقا » .

فقال دى ڤو : « رحماك اللهم ، والله لوددت لو أنى قمت بحراسة العلم عوضاً عن رعاية جوادى الكريم . إن فى الأمر لسرا أيها الرجل الشاب ، سرا يلمسه الرجل الساذج وإن كان لا يدرك له كنهاً ، هل كان جبناً منك ؟ كلا . ما قاتل جبان قط كما شهدتك تقاتل — هل كانت خيانة ؟ لا أظن الخونة يموتون فى خياناتهم بمثل هذه السكينة . إنما صرفك عن مقرك غدر بعيد المدى وخطة محكمة التدبير — إنما ملك عليك سمعك صياح فتاة منكوبة ، أو صرف عنك بصرك وجهٌ ضاحك باش ، لا تستح من هذا ، فليس منا من لم يَحِدْ به يوماً مثلُ هذا الدافع عن جادته ؛ هيا ، هيا ، وبح لى عوضا عن قسك بمكنون سريرتك — إن رتشارد

لرؤوف رحيم حينما تهدأ ثورته . أليس لديك ما تعهد به إلىّ » ؟

فأشاح الفارس البائس بوجهه عن هذا القاتل الرحيم ، وأجابه بغير تردد أن : « لا شيء » .

ولما أن استنفد دى ڤو كل حديث من أحاديث الإغراء ، نهض وفصل عن الفسطاط مطبق الذراعين ، تعلوه كآبة ظن أنها أظلم مما تقتضى الحال ، بل وناقماً على نفسه لأنه رأى أن أمراً تافهاً — كموت رجل أسكتلندى — له مثل هذا الأثر العميق فى نفسه .

ولكن ، كما قال محدثاً نفسه : « لئن كان الأجلاف ذوو الأقدام الخشنة أعداء لنا فى كمبرلاند[1] فإنا فى فلسطين نكاد نحسبهم لنا إخواناً » .

---

(١) هى البلاد التى تقع بين انجلترا وأسكتلندا .

الفصل السادس عشر

ليس الأمر ما تدرك فتاتى ،
فهى فى إدراكها لا تعدو ما ألفتم ،
وما فطنتها إلا لغو ،
كغيرها من بنات حواء .
أنشودة

كانت برنجاريا العريقة النسب ابنة (سانشز) ، ملك نافار ملكةً حليلة لرتشارد الباسل ، وتعد من أجمل النسوة فى زمانها ، قدُّها نحيل ، وجسمها بارع الجمال فى صورته ، حباها الله ببشرة غير مألوفة بين بنات جلدتها ، ولها شعر كث يضرب إلى الصفرة ، وملامحها غاية فى نضارة الشباب ، حتى إنها لتبدو للعيان أصغر سنا من حقيقتها بسنوات عدة ، وإن تكن فى الواقع لما تعد الحادية والعشرين ، ولربما كان إحساسها بمظهرها هذا البالغ فى حداثته ، باعثاً لها على أن تصطنع ، أو أن تقوم على الأقل ، بقليل من أعمال النزق الصبيانية وصلابة الرأى فى سلوكها ؛ وليس هذا — حسب ظنها — مما لا يليق بعروس شابة ، مرتبتها وسنها يعطيانها الحق فى أن تمادى فى نزواتها هذه ، وأن تأمر فتطاع ، وكانت بالسليقة غاية فى طيب القلب ، وإذا ما أسلم لها رفيقاتها — غير منازعة — بحظها من الإعجاب والولاء لها (وهو حظ كبير فيما كانت ترى) فلن تجد من يفضلها مزاجاً أو ميلا إلى المحبة والوداد ؛ ولكنها — ككل حاكم مطلق — كلما نالت زيادة فى نفوذها من الناس طوعاً ، ازدادت شغفاً بمد سلطانها ؛ وإذا ما أشبعت جميع أطماعها تراها تتظاهر أحياناً بانحراف صحتها وتعكير صفو مزاجها ، فيقدح الأطباء الأذهان ، ويبتدعوا لها أسماء لأمراض ما أنزل الله بها من سلطان ، وتشحذ وصيفاتها الخيال حتى يجدن لها ألعاباً مبتكرة ، وأزياء جديدة للرأس ، وفضائح فى البلاط لم تسمع عنها من قبل ، تصرف بها تلك الساعات البغيضة — وهى ساعات لا يكون موقف

وصيفاتها فيها مما يغبطن عليه كثيراً . وأكثر ما كن يلجأن إليه ليسرين عن الملكة علتها خدعة أو عمل ضار تعمله إحداهن بالأخرى ؛ ولا نعـدو الحق إن قلنا إن الملكة ذات القلب الطيب — وهى فى نشوة انتعاش مزاجها — كانت لا تبالى كثيراً إن كان هذا المزاح الذى يمزح به الوصيفات مما يليق بكرامتها كل اللياقة ، أو كان الألم الذى يكابده أولئك اللائى يصيبهن وقعه لا يتناسب واللهو الذى تظفر به هى منه ؛ وكانت أبداً على ثقة من رضا زوجها ، ومن علو مرتبتها ، ومما كانت تفرض فى نفسها من حق الإفادة من المرح مهما كلف غيرها ؛ أو قل فى عبارة موجزة إنها كانت تثب من مكان إلى آخر حرة كأنها شبل من الأشبال لا يحس بثقل مخالبه على أولئك الذين تلهو بهم .

وكانت الملكة برنجاريا تحب زوجها حبا جماً ، ولـكنها كانت تخشى من خلقه الـكبرياء والخشونة ؛ ولما كانت تحس من نفسها أنها لا تباريه ذكاء ، فلم تـكن لتطمئن إليه حين تراه وهو يكثر من التحدث إلى أديث بلانتاجنت ، راغباً فيها عنها ، لا لشىء إلا لأنه يجد فى حديثها لذة ، وفى إدراكها سعة ، وفى خواطرها وعواطفها سيما النبل والشرف ، أكثر مما تبدى حليلته الحسناء ؛ ولم تكن برنجاريا تبغض أديث من أجل هذا ، وما كان أبعدها عن أن تدبر لها أذى أو مضرة ، لأن خلقها — إن تهاونا فى شىء من حب الذات — كان على الجملة سمحاً برئياً ؛ ولـكن حاشيتها من السيدات — وهن بعيدات النظر فى مثل هذه الأمور — كن قد أدركن منذ حين أن التندر الصارم على حساب السيدة أديث كان لجلالتها فيه شفاء من توعك المزاج ، وقد خلصن بهذا الإدراك من كثير من كد الخيال .

ولم يكن فى هذا شىء من كرم الخلق ، إذ كان يعرف عن السيدة أديث أنها يتيمة الأم والأبوين ؛ وهى وإن كان يطلق عليها اسم بلانتاجنت ، وفتاة انجو الحسناء ، ولئن كان رتشارد قد أذن لها أن تستمتع ببعض المزايا مما لا يمنح إلا لأعضاء الأسرة المـالـكة ، فكانت وفقاً لهذا تتبوأ مكانتها فى الأوساط والدوائر ، إلا أنه رغم ذلك قل من كان يعرف على أية درجة من صلة الرحم هى من قلب الأسد ؛ ولم

يجرؤ على السؤال فى هذا أحد ممن له صلة ببلاط انجلترا . أتت مع « اليانور » أم ملك انجلترا الشهيرة ، واتصلت برتشارد عند « مسينا » على أنها ممن قدر لهن أن يكن من وصيفات برنجاريا التى كان زواجها إذ ذاك وشيك العقد ؛ وكان رتشارد يعامل قريبته هذه بكثير من الاحترام والرعاية ، وجعلت الملكة منها ألزم وصيفاتها ، وكانت تعاملها على الجملة بما يليق بها من إجلال رغم ما شهدنا فيها من أثر الغيرة .

ولبث سيدات البلاط طويلا دون أن يكون لهن على أديث فضل ، اللهم إلا ما تهيئه الفرصة حينما يأخذن عليهـا عدم الحذق فى وضع لباس رأسها ، أو سوء اختيارها لثوبها ، إذ كن يحكمن عليها بالحطة والجهل بأسرار اللباس والتجمل ؛ ولم يمض ذلك الإخلاص الصامت — الذى كان يحمله الفارس الاسكتلندى لها — دون التفات ، فكن يرقبن عن كثب ما يرتدى من ثياب ، وما يبدى من دراية ، وما يظهر من حذق فى الضرب بالسلاح ، وما يحمل من شعار ويدبر من مكائد ، وكثيرا ما اتخذن من هذا موضوعا لفكاهة عارضة ؛ وبقيت الحال كذلك حتى آن للملكة ووصيفاتها أن يحججن إلى عين جدة ، وهى رحلة قامت بها الملكة كى تبتهل إلى الله أن يرد لزوجها صحته ، وشجعها على القيام بها رئيس أساقفة (صور) لغرض سياسى فى نفسه ؛ وفى ذلك الحين ، فى المعبد القائم بذلك المكان المقدس ، الذى يتصل فوق الأرض بدير الراهبات فى كرمل ، وتحت الأرض بكن الناسك ، لحظت إحدى وصيفات الملكة تلك الشارة الخفية التى أومأت بهـا أديث إلى عشيقها ، ولم يفتها أن تبلغ الملكة نبأها فى الحال ، فعادت الملكة من حجها مزودة بهذا الدواء الناجع شفاء لها من الكآبة والضجر ، وقد انضم إلى حشمها قزمان شقيان وهبتهما إياها ملكة بيت المقدس المخلوعة عن العرش ، لهما من تشويه الخلق والخبل (وهذا خير ما يتصف به هذا الضرب التعس من الناس) ما يحببهما إلى أية ملكة من الملكات ، وكان من ضروب اللهو العقيم تلهو به برنجاريا أن تختبر ما لظهور هذه الصور الوهمية ، الشاحبة اللون ، على أعصاب الفارس من أثر ، حينما يخلو لنفسه فى المعبد ، ولـكن تندرها لم يفلح إذ أن الرجل الاسكتلندى قد صمد

للموقف ، كما أن الناسك اعترض الأمر ، ولم تتم الفكاهة ، فحاولت الآن فكاهة أخرى ، وهى تأمل أن تكون عواقبها أشد خطراً .

وبعد أن انصرف السركنث عن الفسطاط ، اجتمع السيدات ثانية ، ولم تهتز الملكة أول الأمر إلا قليلا من غضب أديث وعتابها ، فلم تجبها بأكثر من عذلها على اصطناعها الحشمة والخفر ، ومن تماديها فى التندر على حساب ثياب فارس النمر ، وعلى أمته ، وفوق هذا وذاك على فقره الذى سخرت منه كثيراً سخراً تستشف من خلفه الحقد والضغينة ، وإن كان ممزوجا بالبشاشة والمجون ؛ وبقيت على ذلك حتى اضطرت أديث أن تأوى إلى غرفتها المستقلة بهواجسها وبلبالها ؛ ولما أشرق الصباح بعثت أديث بإحدى خادماتها تستعلم عما وقع ، فأتت اليها بنبأ فحواه أن العلم قد افتقد وأن بطله قد اختفى ، فانطلقت أديث إلى غرفة الملكة ، وتضرعت إليها أن تنهض وتخف إلى سرادق الملك بغير توان ، وأن تستخدم وساطتها النافذة كى تمنع العواقب الوخيمة التى نجمت عن مزاحها .

وارتاعت الملكة بدورها ، وألحت كمادتها باللائمة فى عبثها هذا على من كن يتحوطنها ، وحاولت أن تخفف من أسى أديث ، وأن تخمد فيها ثائر غضبها بألوف الأقوال المتضاربة ، وكانت على يقين من أن لم يحدث أذى ، وخيل إليها أن الفارس لابد نائم بعد سهره ليلا ؛ وفيم الخوف من غضب الملك إن كان الفارس قد فر بالعلم ؟ ليس العلم إلا قطعة من حرير ، وما الفارس إلا رجل جرىء معدم ؛ وإن كان كنث قد زج به فى السجن إلى حين فلسوف تستصدر له من الملك العفو سريعا — وما عليها إلا أن تتريث حتى تمر بتشارد هذه السحابة الكثيبة ثم تنقشع .

وهكذا واصلت حديثها بغير انقطاع ، وتفوهت بكل ضروب المتناقضات ، وهى ترجو عبثا أن تخدع أديث وتخدع نفسها بأن اللهو لن ينتهى إلى أذى ، ولكنها كانت الآن من صميم قلبها نادمة أحر الندم على هذا العبث الذى عبثت .

وبينا أديث تحاول دون جدوى أن تعترض هذا السيل الدافق من الحديث العقيم ، دخلت إلى غرفة الملكة إحدى السيدات فملكت على أديث بصرها ، إذ كان

الموت فى مرآها المروع الخائف ؛ وما إن وقع بصر أديث على محياها حتى خرت على الأرض صريعة ، ولولا الضرورة الملحفة وعلو خلقها لما أمكنها أن تستبق على الأقل ظاهرا من رباطة الجأش .

وقالت للملكة : « مولاتى ، لا تنبسى هباء بكلمة واحدة تلفظينها بعد هذا ، ولكن انقذى حياة .. » ثم أردفت وصوتها يختنق وهى تتكلم وقالت : « انقذى حياة إن كان للحياة من بعد هذا منجاة » .

فأجابت السيدة كالستا وقالت : « إن فى النجاة لأملا ، فلقد نما إلى الآن أنه سيق إلى الملك — ولما ينته الأمر ولكن ... » ، ثم انفجرت فى فيض من البكاء غزير ، كان لمخاوفها الذاتية فيه نصيب وقالت : « ولكن الأمر عما قريب ينتهى إلا إن سلكتن طريقا أخرى » .

فقالت الملكة محتدة : « نذرت للقبر المقدس قنديلا من الذهب ، ولسيدتنا صاحبة عين جدة حرما من الفضة ، وللقديس «توماس أرثر» بساطا للرحمة قيمته مائة بيزنط .. » .

فقالت أديث : « هيا ، هيا يا مولاتى . ادعى القديسين إن شئت ؛ ولكن كونى أنت خير قديسة » .

فأجابت الوصيفة المرتاعة وقالت : « حقا مولاتى ، ما تقول السيدة أديث إلا صدقا ؛ انهضى مولاتى وهيا بنا إلى سرادق الملك رتشارد نطلب العفو عن حياة هذا الرجل الفاضل » .

فقالت الملكة : « إنى ذاهبة ، سوف أتوجه إليه توا » ، ثم نهضت وهى ترتعد ارتعادا شديدا ، والنسوة حواليها فى مثل حيرتها وارتباكها ، عاجزات عن أن يؤدين لها تلك الخدمات التى لم يكن عنها مندوحة لهذه الزيارة الرسمية ، وتقدمت أديث إلى الملكة هادئة رابطة الجأش ، إلا أن صفرة كصفرة الموت كانت تعلو جبينها ، وناولت بيدها الملكة ما أرادت ، وسدت وحدها ما قصر فيه الوصيفات العديدات .

ولم تستطع الملكة حتى آنئذ أن تنسى ماتميزت به من الاستخفاف والاستهتار فقالت : « أية خدمة تؤدين أيتها النسوة ، كيف ترضين أن تقوم السيدة أديث بواجبكن فى الخدمة ؟ هلا ترين ياأديث أنهن لا يعملن شيئا — ما أظننى بمستطيعة أن أتم ارتدائى فى حينه ؛ لنبعثن إذن لرئيس أساقفة صور ونستخدمه لنا وسيطا » .

فصاحت بها أديث قائلة : « كلا ، كلا ، بربك لا تفعلى ؛ اذهبى بنفسك يا مولاتى ، لقد صدرت عنك الإساءة وعليك محوها » .

فقالت الملكة : « إذن لأذهبن ، ولكن إن كان رتشارد لما يزل غاضبا فلن أجرؤ على التحدث إليه ، إنه ليقتلنى إن أنا فعلت ! » .

فقالت السيدة كالستا وهى خير من يعرف مزاج مولاتها : « ومع ذلك فلتذهبى مولاتى الكريمة ، ولن ينظر إلى هـذا الجبين وذاك الجسد ليثٌ غاضب ثم يقوى على استبقاء خواطره ثائرة ، فما بالك بفارس محب شغوف كرتشارد الملك ، وما أدنى كلمة منك إلا فريضة عليه ؟ » .

فقالت الملكة : « هل تظنين ذلك يا كالستا ؟ آه ، إنك لا تعرفين إلا قليلا — ومع ذلك فإنى ذاهبة ، ولكن استمعى إلى ؛ ماذا تعنين بهذا ! لقد كسوتنى بكساء أخضر وهو لون بغيض إلى نفسه ؛ منى هذا ، وهات لى ثوبا أزرق وائت لى بالبنيقة الياقوتية التى كانت بعض رداء ملك قبرص — وسوف تجدينها إما فى صندوق الحديد أو فى مكان آخر » .

فقالت أديث ساخطة حانقة : « كل هذا وحياة الرجل فى خطر ! إن هـذا لفرق ما يصبر عليه المرء ؛ مهلا مولاتى ، سأذهب أنا إلى رتشارد ؛ إن هـذا الأمر يهمنى — وسـوف أعرف إن كان يجوز العبث إلى هذا الحد بشرف فتاة مسكينة من دمه ، وأن يُنتهك اسمها لصرف رجل فاضل عن واجبه ، والاتيان به إلى دائرة الموت والعار ، وأن يبيت مجد انجلترا ذاتها فى الوقت عينه سخرية للجيوش المسيحية قاطبة » .

وأصغت برنجاريا إلى هذه العاطفة التى تفجرت على غير انتظار ، وكاد أن يطير

لها خوفاً وعجباً ، ولـكنها ، وأديث توشك أن تغادر الفسطاط ، صاحت بصوت ضعيف خافت وقالت : « أوقفها ، امنعها عن الذهاب ! » .

فقالت كالستا : « حقا يجب أن لا تذهبي أيتها السيدة النبيلة أديث » وأمسكت بذراعها فى لين ورفق ثم قالت : « وإنى على يقين من أنك يا مولاتى الملـكة سوف تذهبين ، وسوف تذهبين بغير توان بعد هذا ، ولئن ذهبت السيدة أديث وحدها إلى الملك ليثورن ثورة عنيفة ، وليبيتن رهينة غضبه الـكثير من الناس » .

فقالت الملـكة وقد أذعنت للضرورة : « إذن لأذهبن » وتوقفت أديث عن السير ، غير مطمئنة ، ترقب ما سوف تفعل الملـكة .

وأسرع النسوة جميعاً كما أرادت أديث ، ولفّت الملـكة نفسها متعجلة فى ملاءة كبيرة فضفاضة ، وارت بها كل ما فاتها من أسباب التجمل ، وفى هـذا الستار — وأديث ونسوتها يتبعنها ، ويتقدمها ويخلفها قليل من الضباط والرجال المسلحين — خفت إلى سرادق زوجها المستأسد .

الفصل السابع عشر

لو أن كل شعرة فى رأسه حياة ،
ولو أن أربعة أمثال هذه الشعرات عدا
تتضرع لكل حياة منها ،
لبذلها جميعا حياة بعد حياة ،
وتناقص عديدها كالكواكب قبل منبثق النهار ،
أو كالمصابيح توقد فى المآدب
وتشع الضياء على اللاهين فى منتصف الدجى
ثم ينطفئ بريقها والحافلون يفصلون !
من رواية تمثيلية قديمة

تصدى للملكة برنجاريا عند ولوجها إلى داخل سرادق رتشارد أولئك الحجاب القائمون على الحراسة فى السرادق الخارجى ، وحقا لقد اعترضوا سبيلها باحترام وتقدير ، إلا أنها تعطلت على أية حال ، واستطاعت أن تستمع إلى الملك وهو يأمر من الداخل أمراً صارماً بمنع دخولهن .

فقالت الملكة متوجهة إلى أديث ، كأنها استنفدت كل ما تملك من وسائل الشفاعة « الآن ألا ترين أنى كنت به عليمة — إن الملك يأبى أن يستقبلنا » .

وسمعن إذ ذاك رتشارد يتحدث فى الداخل إلى شخص ما ويقول : « اذهب واصدع بما تؤمر الآن أيها المولى ، فإن فى هذا لرأفة بك ، ولك عشر بيزنطات لو قضيت عليه بضربة واحدة — استمع إلى أيها الشقى ، راقبه وقل لى إنْ امتقع لون خده أو فترت عيناه ، وخبرنى بأدق ما تلحظ من لمحة فى طلعته أو طرفة فى عينه — إنى أحب أن أعرف كيف تلقى النفوس الجريئة الموت » .

وأجابه صوت أجش عميق يقول : « تالله لو رأى ظباتى وهى تهتز عاليـة ولم يتقهقر لكان أول من يفعل ذلك » . ولطف من حدة هذا الصوت إحساس بالرعب لم يألفه ، وأحاله إلى نبرات أكثر خفضاً من نبراته الخشنة المعهودة .

فلم تستطع أديث أن تلزم الصمت بعد هذا وقالت : « إذا لم تشقّ جلالتك لنفسها طريقاً فدعيني أفعل ذلك — وإن لم يكن لك ، فلى على الأقل — أيها الحجاب ؛ إن الملكة تريد أن ترى الملك رتشارد — الزوجة تريد أن تتحدث إلى زوجها » .

فقال الضابط وقد خفض عصاه « أيتها السيدة النبيلة ، يحزننى أن أعترضك فيما تقولين ، ولكن جلالة الملك مشتغل بأمور فيها حياة أو موت » .

فقالت أديث « ونحن كذلك نريد أن نكلمه فى أمور فيها حياة أو موت — سأجعل لجلالتك مدخلا » ، ثم أزاحت الحاجب جانباً باحدى يديها وأمسكت السجان بالأخرى .

فقال الحاجب وقد أذعن لحدة هذه الحسناء صاحبة الحاجة « إنى لا أجرؤ على معارضة رغبة جلالتها » وألفت الملكة نفسها — والحاجب يخلى الطريق — مضطرة إلى دخول غرفة رتشارد .

وكان الملك مستلقياً على سريره ، وعلى مقربة منه يقوم رجل كأنه يرتقب أمراً جديداً ، ولم تكن مهمته مما يشق حدسه ، فلقد كان يرتدى سترة قصيرة من القماش الأحمر لا تتدلى دون كتفيه إلا قليلا ، تاركا ذراعيه عاريتين من منتصف ما فوق المرفق ، وكان يكتسى معطفا أو صدرة بغير كم ، يرتديه فوق ذلك حين يهم — كما همّ الآن — بأداء واجبه الشاق ، وهو أشبه بمعطف الرائد مصنوع من جلد الثور المدبوغ ، ويلوث ظاهره نقط كثيرة كبيرة الحجم ولطخات حمراء قاتمة ؛ والسترة والصدرة فوقها تتدليان حتى ركبتيه ، وجواربه السفلى — أو ما يغطى به ساقيه — من الجلد عينه الذى صنعت منه الصدرة ، وله تقيّة من الشعر الخشن ، يتخذها حجابا للنصف الأعلى من وجهه الذى يشبه وجه البوم الصياح ، وتبدو عليه كالبوم الرغبة فى الاختفاء عن النور — أما النصف الأدنى من محياه فتخفيه لحية كبيرة حمراء تختلط بخصلات مشعثة لونها من لون اللحية ، أما ما بدا من ملامحه فعليه سيما الفظاظة وبغض الناس ؛ أما قامته فقصيرة ، ولكنه

قوى البنية ، له رقبة ثور ، وكتفان عريضتان ، وساعدان بالغتا الطول لا تناسق فيهما ، وجذع كبير مربع جدا ، وساقان غليظتان عوجاوان ؛ وكان هذا الموظف الشرس يرتكز على حسام تبلغ ظباته نحو أربعة أقدام ونصف قدم طولا ، وطول مقبضه عشرون بوصة ، ويحيط بالمقبض حلقة من خيوط الرصاص كى توازن ثقل مثل هـذا السيف ، ويرتفع المقبض كثيراً فوق هامة الرجل ، وقد أسند الرجل ساعده فوق نصابه ينتظر إرشاداً جديداً من الملك رتشارد .

ولما دخل النسوة على حين غرة ، كان رتشارد مستلقياً على سريره ووجهه صوب الباب ، مرتكزاً على مرفقه وهو يتحدث إلى خادمه هذا البشع ، فارتمى على الجانب الآخر مسرعاً كأنه غاضب دهش ، وولى ظهره الملكة وحاشيتها من النسوة ، والتحف بغطاء سريره وهو يتألف من جلدى ليثين كبيرين ، دبغا فى البندقية بمهارة تدعو إلى الإعجاب ، حتى أصبحا أشد نعومة من جلد الغزال ، وهذا الغطاء ربما كان من انتقاء رتشارد نفسه ، أو ربمـا كان على الأرجح قد اختاره له حجابه ملقا له ودهاناً .

وكانت برنجاريا كما وصفنا تعرف جيـدا طريقها إلى الظفر — وأى امرأة لا تعرف الطريق إلى الظفر ؟ فبعد ما ألقت نظرة عجلى ، فيهـا رعب غير خاف ولا مصطنع من هذا الرفيق المروع ، رفيق زوجها وهو فى مجالسه الخاصة ، اندفعت توا إلى جوار سرير رتشارد ، وخرت على ركبتيها ، ونزعت ملاءتها عن كتفيها ، فبدت منها جدائل شعرها الذهبية الجميلة وقد استرسلت بتمام طولها ؛ ومع أن طلعتها كانت تبدو كالشمس يشق ضياؤها ظلام السحب ، إلا أن جبينها الشاحب كانت — رغم ذلك — تبدو عليه آثار السنا قد انطفأ بريقه ؛ وبهذه الصورة أمسكت بيمين الملك ، وكانت يمناه وهو يستعيد رقدته التى ألف مشتغلة بجذب غطاء السرير ، ثم أخذت تجذب إليها يد الملك شيئاً فشيئاً بقوة قاومها الملك مقاومة طفيفة ، حتى تملكت الساعد ، وهو دعامة العالم المسيحى وفزع المشركين المنافقين ،

ولما أن استولت على زمام الساعد بين يديها الدقيقتين الجميلتين ، ثنت جبينها عليه ولثمته بشفتيها .

فقال الملك ولما يزل منصرفا عنها برأسه ، وإن تكن يده تحت سلطانها : « فيم هذا يا برنجاريا ؟ » .

فتمتمت برنجاريا قائلة : « اصرف هذا الرجل ، إنه يقتلنى بمرآه ! » .

فقال رتشارد وما عتم مشيحا بوجهه : « اعزب عنا أيها الخادم ، فيم بقاؤك هنا ؟ وهل يليق بك أن تنظر إلى هؤلاء السيدات ؟ » .

فقال الرجل : « لتكن مشيئة مولاى » .

فأجاب رتشارد : « عنى أيها الوغد ! قاتلك الله » .

ثم اختفى الرجل بعد ما رمق بنظره الملكة الحسناء وقد خلعت عنها رداءها ، وبدا للعيان جمالها الطبيعى ، وعلى شفتيه ابتسامة الإعجاب ، وبسمته أبغض إلى النفس من عبوسه المألوف وكراهيته الساخرة لبنى الإنسان .

ثم قال رتشارد : « والآن ما ذا تريدين أيتها المرأة الحمقاء » واستدار بجسمه فى أناة وشبه إباء نحو هذه الملكة المتضرعة .

وليس من الطبيعى لامرئ أيا كان — بله رجل كرتشارد يعجب بالجمال ويحله فى المحل الثانى بعد المجد -- أن ينظر بغير عاطفة إلى طلعة مخلوق جميل كبرنجاريا وإلى ترنحه وارتجافه ، أو أن يحس بشفتيها وجبينها وهما على يده ، وقد بللتها بالدموع ؛ دون أن تفعم العاطفة قلبه ، فأخذ الملك يلفت نحوها محياه المسترجل شيئاً فشيئاً ، وفى عينيه الكبيرتين الزرقاوين اللتين كثيراً ما يشع منهما ضياء لا يحتمل ، كل ما وسعتا من نظرات اللين والدعة ، وأخذ يمسح برأسها الجميل ، ويرسل أصابعه الكبيرة خلال فرعها الفاتن المسدول ، ثم رفع جبينها الملائكى ولثمه برفق وصاحبته تبدى رغبتها فى إخفائه فى يده ؛ وهذا الجسم الضخم ، وذاك الجبين النبيل العريض ، وتلك النظرات المهيبة ، وذاك الساعد والكتف العاريتان ، وجلود الأسد التى كان يستلقى عليها ، وذلك المخلوق الضعيف الذى خر إلى جواره على ركبتيه ،

كل هـذا يصح أن يكون تمثالا لهركيوليز[1] ، وقد اتفق وزوجه « ديمانيرا » بعد ما وقع بينهما من خلاف .

« إنى لأتساءل ثانية ماذا تريد سـيدة قلبي فى سرادق فارسها فى هذه الساعة الباكرة التى لم تألف ؟ » .

فقالت الملكة : « العفو ، العفو ، سـيدى الـكريم » وقد تملكتها المخاوف ثانية ، ولم يعد فى وسعها أن تؤدى واجب الشفاعة .

فسألها الملك : « فيم العفو ؟ » .

قالت : « العفو أولا عن مثولى لدى حضرتك الملكية بجرأة وبغير روية .. » .

ثم سكتت عن الـكلام .

فقال الملك : « أفتقولين إنك كنت جريئة ! إذن فللشمس أن تطلب العفو عن تسرب أشـعتها خلال النوافذ إلى جب مظلم ذميم ؛ إنمـا أنا كنت مشتغلا بأمر لا يليق بك أن تشهديه يا سيدتى الـكريمة ، وفوق ذلك كنت لا أحب أن تخاطرى بصحتك العزيزة إلى حيث حل المرض من منذ حين » .

فقالت الملكة : « ولـكنك الآن بخير » وأرجأت التحدث فى الأمر الذى كانت تخشاه .

« نعم إنى بخير ، وأستطيع أن أحطم الرمح فوق قمة رأس ذلك البطل الجسور الذى ينكر أنك أجمل سيدة فى العالم المسيحى » .

« إذن فلن تجحدنى هبة واحدة ليس غير ... تلك هى حياة رجل مسكين ؟ »

فقال الملك وقد قطب الجبين : « ها ! قولى ما تريدين » .

فتمتمت الملكة وقالت : « هذا الفارس الاسكتلندى البائس » .

فصاح بها رتشارد عابسا وقال : « لا تتكلمى بشأنه سيدتى ، لسوف يموت — إن قضاءه محتوم » .

---

(١) هركيوليز رجل فى الخرافة اليونانيـة والرومانية ذو قوة عظيمة قام بالـكثير من جسيم الأعمال .

« كلا يا سيدى المليك ويا حبيب قلبى ، ما هى إلا راية من حرير قد أهملها ، ولسوف تعطيك برنجاريا راية أخرى طرزتها بيدها ، راية ثمينة كأية راية أخرى داعبها الريح ، سوف أحليها بكل ما أملك من جواهر ، وسوف أذرف مع كل جوهرة دمعة شكر لفارسى الكريم ! » .

فعارضها الملك غاضبا وقال : « إنك تهرفين بما لا تعرفين — جواهر ! أفتظنين أن جواهر الشرق جميعا تستطيع أن تكفر عن وصمة واحدة فى شرف انجلترا ، أو أن كل ما بكت نساء العالم من دمع يمحو لطخة لحقت برتشارد ؟ عنى يا سيدتى واعرفى لنفسك مكانها وزمانها وحدودها ، أما الآن فلدينا من الواجبات مالا تستطيعين أن تساهمى فيه » .

فهمست الملكة قائلة : « هل سمعت هذا يا أديث ؟ إنما نحن نثير كامن غضبه » .

فقالت أديث وقد تقدمت خطوة أو بعض خطوة : « ليكن ذلك ، سيدى ! أنا قريبتك المسكينة أطلب إليك عدلا ورحمة ؛ ولصوت العدالة يجب أن تتفتح آذان الملوك فى كل حين وفى كل زمان وتحت كل ظرف » .

فهب رتشارد من مرقده ، واستقام فى جلسته على جانب السرير ، وأدثر بدثاره الأحمر وقال : « هيه ! ابنة عمى أديث ؟ والله إنك لتنطقين أبدا بما ينطق الملوك ، ولسوف أجيبك كما يجيب الملوك ؛ إنك ما أتيت إلى بمطلب لا يليق بكرامتك » .

وكان جمال أديث عليه مسحة أشد فطنة وأقل شهوة مما يبدو على الملكة ، ولكن الجزع والفزع قد رسما على محياها وميضا كانت تفتقر إليه أحيانا ، وكان على طلعتها سيما الوقار والنشاط ، حتى لقد فرضت عرآها السكون لحظة من الزمن على رتشارد نفسه ، الذى كان فيما يبدو على ملامحه يود لو يعارضها . قالت : « سيدى ، إن هذا الفارس الكريم الذى توشك أن تريق دماءه قد أدى فى حياته خدمة للعالم المسيحى ، وإنه لم يقصر فى واجبه إلا لأن مكيدة قد دبرت له فى ساعة ساد فيها لهو عقيم أخرق ؛ بُعث إليه برسالة باسم سيدة — ومالى لا أفوه باسمها ؟ — باسمى أنا — فأغوته هذه الرسالة على أن يترك مكانه لحظة — وأى

فارس فى معسكر المسيحيين لا يتخطى واجبه إلى هذا الحد انصياعا لإرادة فتاة ، مهما كانت ضعيفة من بعض صفاتها ، فإن دم بلانتا جنت يجرى فى عروقها ؟ » .

فقال الملك وقد عض على شفتيه كى يكبح جماح غضبه : « وهل رأيتِه يا ابنة عمى ؟ » .

فقالت أديث : « أجل لقد رأيته يا مولاى ، وليس لى الآن أن أبوح بما بعثنى على ذلك ، ولست هنا لأبرئ نفسى أو أعذل غيرى » .

« وأنّى صنعت فيه هذا الجميل ؟ » .

« فى سرادق جلالة الملكة » .

فقال رتشارد : « فى سرادق زوجى الملكة ! برب السماء ، وبالقديس چورچ الإنجليزى وبكل قديس صعد إلى القبة الزرقاء ، لقد أتيتن شيئا إدا ! إنى لحظت على هذا المقاتل قحته فى إعجابه بسيدة تعلوه كثيرا وأغضيت عن ذلك ، ولم أضن عليه بأن تسبغ عليه واحدة من ذوات قرباى مثل هذا الهوى وهى فى عليائها كما ترسل الشمس من علاها على الدنيا الضياء — ولكن وحق الأرض والسموات ، كيف رضيتِ له أن يمثل لديك ليلا ، وفى خيمة زوجنا الملكية ! وكيف تجسرين على أن تتقدمى بهذا معذرة له على عصيانه وإهماله فى واجبه ! وروح أبى يا أديث لتكفرن عن هذا حياتك فى الدير ! » .

فقالت أديث : « مولاى ، إن عظمتك تجيز لك الظلم ؛ ولكن شرفى يا سيدى المليك — كشرفك — لم يمسه أحد ، وتستطيع مولاتى الملكة أن تشهد بذلك إن شاءت . ولكنى قلت لك من قبل إنى لست هنا لأبرئ نفسى أو أتهم غيرى ، إنى أضرع إليك أن تمد إلى رجل ارتكب إثمه تحت تأثير الإغراء الشديد ، تلك الرحمةَ التى سوف تلتمسها أنت نفسك يا سيدى المليك يوم من حَكَمٍ أعلى ولآثام ربما كانت أقل من هذى حقا بالغفران » .

فأجاب الملك بحرارة وقال : « أهذى أديث بلانتاجنت ، أديث بلانتاجنت العاقلة النبيلة ؟ — أم امرأة مريضة بالحب ، لا تبالى بشرف اسمها من أجل

حياة عشيقها ؟ والآن أقسم بروح الملك هنرى لن يصرفنى شىء عن أن آمر بأن يؤتى بجمجمة حبيبك من المقصلة ، وأن تعلق حليةً دائمة على الصليب فى بيتك ! » .

فقالت أديث : « لو بعثت بها من المقصلة كى توضع على مرأى منى أبدا ، فلسوف أقول إنها أثر لفارس كريم ساقه إلى الموت عنوة وجورا رجل ... » ، (ثم كبحت جماح نفسها وقالت) : « ... رجل لا أقول عنه إلا أنه كان ينبغى أن يعرف خيرا من هذا كيف يجزى الشهامة » ، ثم أردفت وقد زادت من حدتها وقالت : « إنك تقول إنه كان عشيقى ؟ حقا لقد كان لى حبيبا ، وحبيبا غاية فى الإخلاص ، ولكنه لم يتقرب إلى بنظرة أو كلمة ، واكتفى بمثل تلك الرعاية وذلك الخضوع الذى يقدمه للقديسين الرجال — ولكن هذا الرجل الطيب ، هذا الرجل الجسور ، هذا الرجل المخلص ، ينبغى أن يموت من أجل ذلك ! » .

فهمست الملكة قائلة : « مهلا ، مهلا ، ورفقا به ، إنك إنما تزيدين من الإساءة إليه ! » .

فردت أديث قائلة : « إنى لا أبالى ، إن العذراء البتول لا تخشى الليث الثائر ، لينفذ فى هذا الفارس الكريم إرادته ، فإن أديث التى يموت من أجلها تعرف كيف تندب ذكراه ؛ ولن يكلمنى أحد بعد هذا عن حلف سياسى ويطلب إلى عقده بهذه اليد الضعيفة ، ما كان لى — وكيف يكون لى ؟ — أن أكون له عروسا فى الحياة ، إن بينى وبينه فى المرتبة فراسخ ، ولكن الموت يزاوج بين الرفيع والوضيع — إنى منذ الآن قرينة قبره » .

وأوشك الملك أن يجيبها غاضبا ، لولا أن راهبا من كرمل دخل الغرفة مسرعا ورأسه مكمم ، وجسمه مستتر فى عباءة طويلة وقلنسوة من القماش المخطط ذى النسيج الخشن الذى يميز مذهبه الدينى ، وخر على ركبتيه أمام الملك ، وناشده بكل كلمة وشارة مقدسة أن يقف إنفاذ الحكم .

فقال رتشارد : « أقسم بمهندى وصولجانى لقد تآمرت الدنيا على جنونى !

فكل غافل وكل امرأة وكل راهب يعترضنى فى كل خطوة أخطو ؛ كيف يعيش هذا الرجل حتى الآن ؟ » .

قال الراهب : « مولاى الكريم ، لقد توسلت إلى لورد جلزلاند أن يوقف الإعدام حتى أرتمى لدى جلالتكم .. » .

فقال الملك : « وهل بلغت به صلابة الرأى أن يمنحك مطلبك ؟ ولكن ما هذا إلا جانب من عناده المألوف — والآن ماذا تريد أن تقول ؟ هيا وقل لى باسم الشيطان ! » .

« مولاى ، إن لدى لسرا عميقا — ولكنى أخفيه بحق الاعتراف — وإنى لا أجرؤ على التحدث به أو حتى على الإيماء إليه — ولكنى أقسم لك بحياتى المقدسة — بهذا الرداء الذى أرتدى ، « بإلياس » المبارك الذى وضع لنا الأساس ، وهو ذلك الرجل الذى انتقل إلى جوار ربه دون أن يعانى ما يعانى الناس من آلام الموت ، أقسم لك إن هذا الشاب قد فشا لى سرا ، إن بحت به إليك عدلت عدولا تاما عن هذه الغاية القاضية التى فرضت عليه » .

فقال رتشارد : « أبى الكريم ، إن هذا السلاح الذى امتشق الآن من أجل الكنيسة ليشهد بإجلالى لها ؛ بح لى بهذا السر ، ولسوف أفعل ما أراه لائقا فى هذا الشأن ، ولكنى لست رجلا أعمى البصيرة أعمل بغير روية إن أهاب بى رجل من رجال الدين ، لست « كبيارد » العاجز أقفز فى الظلام إذا استحثنى قس أو قسان » .

فطرح القس عنه قلنسوته وحلته الخارجية ، وكشف تحت الحلة عن كساء من جلد الماعز ، وتحت القلنسوة عن وجه استوحش ونحل من أثر الجو والصيام والتوبة ، حتى بات أشبه بصورة من هيكل عظمى تسرى فيه الروح منه بوجه الإنسان ، ثم قال : « مولاى ، لقد تقشفت عشرين عاما فى كهوف عين جدة ، حتى أضعفت هذا الجسد الدميم تكفيرا عن ذنب عظيم ارتكبت ، فهل تظن أنى — وأنا ميت فى هذه الدنيا — أدبر زورا أو بهتانا أعرض بهما روحى للخطر ، أو هل

تظن أن رجلا أقسم يمينا غليظة على أن يجانب الإثم ، رجلا مثلى ليس له فى هذه الدنيا أمل واحد يعقد به رجاءه — وذلك أن نعيد للكنيسة المسيحية بناءها — هل تظن أن رجلا مثلى يفشى سر الاعتراف ؛ إن كليهما بغيض لنفسى » .

فأجابه الملك « إذن فأنت ذلك الناسك الذى يتحدث عنه الناس كثيراً ، إنى أقر بأنك شديد الشبه بتلك الأرواح التى تسرى فى الأرض الخلاء ، ولكن رتشارد لا يخشى مارداً ولا عفريتاً ؛ وما إخالك إلا ذلك الرجل الذى بعث أمراء المسيحية إليه بهذا الجارم كى تفاوض السلطان فى وقت أنا فيه طريح فراش المرض ، وأنا أول من تنبغى مشورته فى هـذا الأمر ؛ فلتطمئن وليطمئنوا ، إنى لن أضع رقبتى فى سَمِّ نطاق رجل من كرمل ؛ أما رسولك فسوف يموت ، وهو بالموت العاجل أحق وأجدر بعد شفاعتك له وتضرعك » .

فقال الناسك وقد ملكت عاطفته نفسه : « بارك الله فيك يا مولاى الملك ! إنك والله لتخلق شرا ، سوف تود فى مقتبل الأيام لو أنك أقلعت عنه ، حتى ولو كلفك هذا شلواً من أشلائك . ليكن رجلا مندفعاً أو أعمى ، ولكنى أضرع اليك أن ترفق به » .

فصاح به الملك ، وقد ضرب الأرض بقدميه : « عنى ، عنى ! لقد أشرقت الشمس على عار انجلترا ولما ننتقم له — أيتها السيدات وأيها القس ، اعزبوا إن أردتم أن لا تسمعوا أمراً يسىء إليكم ، لأنى بحق القديس چورچ أقسم ... » .

فأجابه صوت رجل دخل إذ ذاك السرادق وقال : « لا تقسم ! » .

فقال الملك : « ها ! هذا طبيبى النطاسى قد أقبل يستجدى سخاءنا » .

كلا ، إنما أطلب التحدث إليك فوراً فى أمور ذات بال » .

« أنظر أيها الحكيم إلى زوجتى ، ودعها تعرف فيك رجلا أبقى لها زوجها » .

فأطبق الطبيب ساعداً فوق الأخرى ، ليظهر التواضع والاحترام على الطريقة الشرقية ، وأطرق ببصره نحو الأرض ، ثم قال : « ليس لى أن أنظر إلى جمال لا يحجبه قناع ، جمال يذود عنه رونقه وبهاؤه » .

فقال الملك : إذن فلتراجعي يا برنجاريا ، وأنت يا أديث تراجعي كذلك ؛ كلا ، لا تعيدي على مسمعي لجاجتك ! هـذا ما أمنحكما : ليبق نفاذ الحكم حتى تبلغ الشمس رابعة النهار — إذهبا بهذا مطمئنتين — إذهبي يا عزيزتي برنجاريا » ثم ألقى نظرة بعثت الرعب حتى في نفس أديث قريبته الجريئة وقال : « اذهبي إن كنت حكيمة » .

فانسحب النسوة ، أو قل خففن من السرادق ، وقد نسين المراتب والرسوم وهن كسرب الطير البرى نزل به باز منذ حين فاختلط الحابل فيه بالنابل .

عدن من هنا إلى سرادق الملكة ، كي يسترسلن في أسفهن ومهاتراتهن ، وليس في هـذا أو ذاك ما يجدى . وكانت أديث وحدها من بينهن تستخف بضروب الأسى هذه التي ألفن ، فوقفت بخدمة الملكة لا تتنهد ولا تبكي ولا تنبس بكلمة لوم أو تأنيب ، وقد أبدت الملكة — لضعفها — أسفها ، في نزوات كنزوات الجنون شديدة على النفس ، وفي صيحات حارة كأنها عليلة آدتها العلة ، وفي غضون ذلك كانت أديث تقوم بخدمتها بكل ما وسعت من جهد ، بل وبكل ما في نفسها من حب .

وقالت « فلوريس » إلى « كالستا » رئيستها في خدمة الملكة « محال أنها أحبت هذا الفارس ؛ إنا كنا خاطئات ؛ ما هي إلا آسفة على قضائه كما تأسف على غريب حلت به المصائب من أجلها » .

فأجابتها زميلتها ، وهي أكثر منها خبرة وأشد تأدباً « صه ، صه ؛ هي من ذلك البيت الفخور ، بيت بلانتاجنت ، الذي ما يقر أبناؤه قط بأن الأذى يحزنهم . قد يصيب الواحدَ منهم جرح مميت يدمى حتى الموت ، ولكنك ترينه مع ذلك يضمد أخداشاً خفيفة يكابدها أقرانه من ذوى القلوب الواهنة — فلوريس ! لقد أخطأنا خطأ كبيراً ؛ وإني من جانبي أود لو بذلت كل ما أملك من جواهر لو أصبحت فكاهتنا هذه كأنها لم تكن » .

الفصل الثامن عشر

هذا أمر يتطلب من الشمس والمشترى وساطة الكواكب ،
ولكن هذين النجمين العاليين
بأنفيهما شامخان ، وفى الخيال سابحان ،
وما أكثر ما يكلفاتنا
حتى ينصرفا عن فلكيهما ،
وينزلا لرعاية الأحياء .

البومازار

سار الناسك خلف النسوة من سرادق رتشارد ، يتبعهن كما يتبع الطفل شعاعاً من الضياء حينما تنطلق السحب على وجه الشمس ؛ ولما بلغن الباب أدار وجهه ورفع يده نحو الملك يحذره ، ووقف وقفة التهديد والوعيد وهو يقول : « الويل لمن ينبذ مشورة الكنيسة وينصرف إلى « ديوان » الكفرة الدنس ! أيها الملك رتشارد ، إنى لما أنفض التراب عن قدمى وأفصل عن مقامك — والسيف لما يهو — وإنما هو معلق بشعرة — أيها الملك الغطريس ، سوف نلتقى ثانية »

فرد عليه رتشارد وقال : « ليكن ذلك أيها القس الغطريس ، وأنت فى جلد الماعز أشد صلفا من الأمراء فى لباس الكتان الأرجوانى الرقيق » .

ثم اختفى الناسك عن الفسطاط ، وأردف الملكُ موجها خطابه للعربى وقال : « هل للدراويش فى الشرق أيها الطبيب الحكيم مثل هذه الألفة مع الأمراء ؟ »

فقال (أدنبك) مجيبا : « الدرويش إما حكيم أو مجنون ، وليست هناك طريق بين بين لمن يلبس «الخرقة» ويسهر الليل ويصوم النهار ، ولذا فهو إما حكيم يستطيع أن يتأدب ، ويحرص وهو فى حضرة الأمراء ، أو رجل لا يحمل تبعة ما يفعل لأن الله لم يمنحه نعمة العقل » .

فقال رتشارد : « يخيل إلى أن أكثر رهباننا قد اتخذوا لأنفسهم هذه الصفة

الأخيرة ، ولـكن دعنا من هذا ولنتكلم فيما أتيت من أجله ، كيف لى أن أُدخل السرور على نفسك أيها الطبيب العالم ؟ »

فامتثل الحـكيم للملك امتثاله الشرقى الخاشع ، وقال : « أيها الملك العظيم ، اسمح لخادمك أن ينبس بكلمة واحدة لا يموت بعدها ، إنى أذكِّرك أنك مدين للوسطاء من الـكواكب — ولا أقول لى ، فما أنا إلا أداة لها خاضعة ، أفيد منها وأنفع الأحياء وأرد لهم حياة . . . . » .

فعارضه الملك قائلا : « وأنا أكفل لك أن أجازيك حياة بحياة ، فهل هذا ما تريد ؟ » .

فقال الحـكيم : « هـذى ضراعتى المتواضعة للملك رتشارد العظيم — هى حياة هذا الفارس الـكريم ، الذى قضى عليه بالموت من أجل إثم كذلك الذى ارتكب آدم أبو البشر » .

فعبس الملك قليلا وقال : « وهلا ذكّرتـك حكمتك أيها الحـكيم أن آدم قد مات من أجل خطيئته » ثم شرع ينقل الخطى فى حيز فسطاطه الضيق ، وقد غلبه الانفعال وأخذ يحدث نفسه ، ثم قال : « رحماك اللهم ، لقـد عرفتُ فيم أتى حينما دخل الفسطاط ! هنا حياة واحدة بائسة حكم عليها عدلا بالإعدام ، وأنا ذلك الملك القاتل الذى قتل الألوف بأمر منه ، والعشرات بيده ، ليس لى سلطان على تلك الحياة ، مع أن شرف سلاحى وبيتى ومليكتى قد لوثته جريمة الآثم — وحق القديس چورچ إن هـذا ليضحكنى ! — وبحق القديس « لويس » إنه ليذكرنى بقصة « بلندل والقصر المسحور » حيث وقفت فى وجه الفارس البائس أشكال وجسوم متتابعة لا شبه بين بعضها وبعض ، ولـكنها جميعا تناصبه فيما أراد العداء ، ما إن اختفى واحد منها حتى بدا له آخر — زوجة ، ثم قريبة ، ثم ناسك ، ثم حكيم ، — إذا ما انهزم منهم واحد تصدى للدفاع آخر — ماذا ؟ والله إنى إذن لفارس أوحد ينازل حشـدا بأسره فى ساحة الوغى — ها ! ها ! ها ! » ، ثم أخـذ رتشارد يضحك ضحكات عالية ، وبدأ فعـلا يبدل من حال نفسه حالا أخرى ،

لأنه كان فى حنقه عادة شديدا عنيفا بحيث لا يستطيع أن يبقى كذلك طويلا .

وإذ ذاك رناه الطبيب بنظرة دَهِشة لا تخلو من الازدراء والاستخفاف ، لأن أهل الشرق لا يتسامحون فى مثل هذه التغيرات المتقلبة فى المزاج ، ويظنون الضحك الصراح — مهما كان الظرف — محطا بكرامة الرجل ، ولا يليق إلا بالنساء والأطفال ؛ وأخيرا لما أن استقرت نفس الملك ، خاطبه الحكيم وقال :

« إن حكم الموت لا يصدر عن شفتين ضاحكتين — وما يخال خادمك إلا أنك قد منحت الرجل حياته » .

فقال رتشارد : « لك أن تنال الحرية لألف أسير عوضا عنه ، ولك أن تعيد من شئت من بنى جلدتك إلى خيامهم وأهلهم ، وسوف أمنحك هذا بغير توان ، ولكن حياة هذا الرجل لا تجديك شيئا ، وقد صدر فيها القضاء وانتهى الأمر »

فقال الحكيم وقد مد يده إلى قلنسوته : « إن حياتنا جميعاً إلى الضياع ، ولكن الإله الأعظم الذى وهبنا الحياة بنا رحيم ، وهو لا يسلبنا ودائعه عنوة وبغير أوان » .

فقال رتشارد : « وهل لك صالح خاص فى التوسط بينى وبين إنفاذ العدالة التى أقسمت لها كملك على رأسه تاج ؟ » .

فقال الحكيم : « إنك أقسمت أن تقيم الرأفة كما تقيم العدل ، وإنما أنت أيها الملك العظيم ترمى إلى تنفيذ إرادتك الخاصة ، ولتعلم أن حياة الكثير من الرجال تتوقف على جودك بالعفو فى هذا الأمر الذى أتضرع إليك فيه » .

فقال رتشارد : « أفصح عن القول ، ولا تظنن أنك سوف تفرض علىّ إرادتك بباطل دعواك » .

فقال أدنبك : « ما أبعد خادمك عن هذا ، ولتعلمن إذن أن الدواء الذى تدين له بالشفاء أنت يا سيدى الملك وكثيرون غيرك ما هو إلا طلسم ، تألف والسماء فى برج خاص ، ونجوم السماء ميمونة الطالع ، ولست إلا رسولا لفضائله ، أغمسه فى قدح من الماء ، وأرقب الساعة التى تليق بالمريض أن يتناوله فيها ، ثم تفعل الجرعة فعلها بما فيها من قدرة على الشفاء » .

فقال الملك : « أندر بهـذا من دواء وأنجع به ! ولما كان بوسع الطبيب أن يحمله فى حقيبته ، فإنه يوفر عليه قافلة بأسرها من البعير قد يحتاج إليها لحمل العقاقير والأدوية — وإنى لأعجب إن كان هناك غير هذا الدواء دواء يتعاطاه الناس » .

فأجاب الحكيم فى رزانة وغير اضطراب يقول : « لقـد كتب على الناس ألا يسيئوا إلى الدواب التى تحملهم من ساحة القتال ؛ ولتعلم أن أمثال هذه التمائم يمكن حقا أن تسطر ، ولـكن قلّ من النطاسيين من جرؤ على الانتفاع بفضائلها ؛ إذ أن الحكيم الذى يستخدم هذا الضرب من العلاج ينبغى له أن يتعرض لقيود شديدة وشروط أليمة ، وللصوم والتكفير العنيف ؛ ولو فاتـه أن يشفى ما لا يقل عن إثنى عشر شخصاً كل شهر إهمالا منه ، أو حبا للدعة والراحة ، أو لاسترساله فى الشهوات الحسية ، فإن مزية هذه الهبة الإلـهية تسقط عن التميمة ، ويتعرض الطبيب ومريضه الأخير كلاهما لنكد الطالع يحل بهما سريعا ، ولن يبقى بعد الحول أحدهما على قيد الحياة ؛ وقد بقيت لى حياة واحدة أبلغ بها العدد المضروب » .

فقال الملك : « اذهب أيها الحكيم الكريم إلى المعسكر حيث تجد هنـاك الكثير ، ولا تفكر فى أن تسلب جلادى أسراه ، فإنه لا يليق بطبيب له مكانتك أن يتدخل فى عمل غيره ، وفضلا عن ذلك فإنى لا أرى كيف أن إنقاذ جارم من الموت الذى يستحق يُتم لدوائك هذا المعجز قصته » .

فقال الحكيم : « إن استطعت أن ترينى كيف أن جرعة من الماء البارد قد جلبت لك الشفاء حيث باءت بالفشل أنفس العقاقير ، إذن فلك أن تفكر فى العجائب الأخرى التى تتعلق بهذا الأمر ؛ أما أنا فلست قمينا بهذا العمل العظيم ، إذ أنى لمست هذا الصباح حيوانا دنسا ، وإذن فلا توجِّه إلىّ بعد هذا سؤالا ، وحسبك أن تعرف أنك إن استبقيت لهذا الرجل حياته إذعانا لرجائى ، أنقذت خادمك ونفسك أيها الملك العظيم من خطر جسيم » .

فأجاب الملك قائلا : « استمع إلى يا « أدنبك » ، إنى لا أعترض على الأطباء يراوغون فى الحديث ويزعمون أنهم يستمدون من النجوم علما ، ولـكنك

حينما تريد رتشارد بلانتاجنت على أن يخشى خطرا ينزل به من طيرة سقيمة ، أو لإهمال فى المواصفات ، فلست تخاطب رجلا سكسونيا جاهلا ، أو امرأة عجوزا خرفة تتخلى عن هدفها لأن أرنبا يعبر الطريق ، أو لأن غرابا أسحم ينعب أو قطا يعطس »

فقال أدنبك : « ليت بوسعى أن أقف بينك وبين ريبتك فيما أقول ، ولـكن ليعلم سيدى المليك أن الحق على لسان خادمه ؛ هل ترى عدلا أن تحرم الدنيا وكل بائس يعانى مما أصابك أخيرا من آلام ألزمتك الفراش ، من نفع هـذه التميمة ذات الفضل العظيم ، ولا تمد عفوك إلى رجل واحد آثم بائس ؟ هل ترى ياجلالة الملك أنك — وقد استطعت أن تقتل الألوف — لاتستطيع أن ترد إلى رجل واحد صحته ؛ إن للملوك لقوة الشيطان على التعذيب ، وللحكماء قدرة الله على الشفاء ، إن كنت لا تستطيع أن تفعل الخير للإنسانية فحذار أن تقف فى سبيلها ؛ إنك تستطيع أن تفصل الرأس عن الجسد ، ولـكنك لاتستطيع أن تعالج سنا موجعة ».

وتكلف الحـكيم فى حديثه نغمة الترفع ، بل الإشراف والتسلط ، فشد الملك من أزر نفسه وقال : « إن هذه لقحة منك ، بل وأكثر من قحة ، لقد اتخذناك لنا طبيبا لا ناصحا ولا على الضمائر قائمـا » .

فقال الحـكيم : « وهل هكذا يرد أعلى أمراء الفرنجة فضلا أصاب شخصه الـكريم ؟ » وبدل من وقفته الخاشعة الذليـلة ، التى وقف حتى ذاك متضرعا إلى الملك ، وقفةَ الشامخ الآمر ، ثم قال : « فلتعلم إذن أنى سوف أذيع فى كل بلاط فى أوروبا وآسيا — لـكل مسلم ونصرانى ، ولـكل فارس وسيدة — وحيثما يضرب على وتر أو يُمتشق حسام — وأنـى يستحب الشرف ويمقت الخزى والعار — أن الملك رتشارد جحود ضيق الفكر ، وستبلغ فضيحتك هذه كل بلد لم يسمع باسمك — إن كان هناك منها ما هو كذلك ! »

فأجاب رتشارد وقد أفج فى خطاه نحوه غاضبا وقال : « هل هـذه شروط تشرطها على أيها الرجل ؟ هل كلت من حياتك ؟ » .

فقال الحكيم : « دق عنق ! إذن ليحسن عملك قدرك أكثر مما تستطيع كلماتى ، وإن كان لكل منها لدغ الزنبور » .

فأشاح رتشارد عنه بوجهه هائجا ، وقد أطبق ساعديه ، وعبر السرادق من جانب إلى آخر كما فعل من قبل ، ثم صاح : « جحود ضيق الفكر ؟ إذن فلتصمنى بالجبن والكفر ! — أيها الحكيم ، لقد أعطيت سؤلك ، وإنى وإن كان خيرا لى أن تطلب إلى جواهر تاجى ، ليس لى كملك أن أنكر عليك ما أردت ؛ خذ هذا الاسكتلندى إذن تحت حفظك ، وسيسلمك إياه السجان على هذه البينة » :

ثم خط مسرعا سطرا أو سطرين وسلمهما إلى الطبيب .

ثم قال : « واستخدمه لديك عبداً رقيقاً ، وتصرف فى أمره كيفما شئت — ولكن حذره من أن يأتى تحت بصر رتشارد ؛ استمع إلىّ ، فأنت رجل حكيم ، إنه جاوز الجرأة بين أولئك اللائى نودع شرفنا فى جميل محياهن وضعف كلهن ، كما تودعون أنتم أهل الشرق كنوزكم فى صناديق من سلوك الفضة دقيقة رقيقة كخيوط الشمس » .

فاستعاد الحكيم لتوه فى أسلوب خطابه ذلك الاحترامَ الذى بدأ به وقال : « إن خادمك يدرك كلمات مليكه . إذا تلوث البساط النفيس أشار الأحمق إلى ما يشوبه ، وستره الرجل الحكيم بعباءته ؛ لقد سمعت ما يريد مولاى ، وما سمعى إلا طاعة » .

فقال الملك : « خير له أن يُبقى على سلامته ، وألا يظهر فى حضرتى بعد هذا — هل هناك أمر آخر أستطيع أن أُدخل به السرور على نفسك ؟ » .

فقال الحكيم : « والله لقد ملأ الملك بسخائه كأسى حتى حافتها . أجل لقد كان جودك غزيرا كتلك العين التى انبثقت وسط مخيم بنى إسرائيل حينما ضرب موسى بن عمران الحجر بعصاه » .

فقال الملك باسماً : « أجل ولكن هذا الجود قد تطلب — كما تطلبت الصحراء — ضربة قوية فوق الصخر قبل أن يُخرج ما به من كنوز ، والله لوددت لو أنى عرفت ما أسرُّك به ، إذن لوهبتك طائعاً كما تلفظ العين الطبيعية ماءها » .

فقال الحكيم : « دعنى ألمس هذه اليد الظافرة ، ليكون فى ذلك دليل على أن أدنبك الحكيم ، لو طلب بعد هذا إلى رتشارد ملك انجلترا مطلباً ، فله أن يفعل ذلك على أن يتوسل ويضرع فيما يريد » .

فأجابه رتشارد قائلا : « لك يدى وقفازها فوقها أيها الرجل ، ولكنك إن استطعت أن تتم قصة مرضاك سليمة دون أن تطلب إلى أن أنقذ من العقوبة من حقت عليه ، لدفعت إليك دَيْنى فى صورة أخرى ، وأنا أشد رغبة وأكثر اختياراً » .

فأجاب الحكيم قائلا : « مد الله فى أيامك ! » ثم خرج من الغرفة بعد ما امتثل خاضعاً خاشعاً كما ألف .

ولما هم بالرحيل ، نظر إليه الملك رتشارد نظرة لا تنم عن الرضا بكل ما فات .

ثم قال : « ما أعجب هذا الحكيم فى إصراره ، وما أغرب هذه الفرصة التى ساقته كى يتدخل بين ذلك الاسكتلندى الجرىء وبين ما حق عليه من جزاء هو الحق ، ولكن ليعش هذا الرجل ! فإنه شجاع يستحق الحياة — والآن ما بال ذلك النمساوى — ها ! هل بارون جلزلاند خارج الفسطاط ؟ » .

وما إن صاح الملك هكذا بتوماس دى ڤو ، حتى هرول وأظلم مدخلَ السرادق بجسمه الضخم ، ووراءه ناسك عين جدة بصورته الوحشية ، متلفعاً فى عباءة من جلد الماعز ، يتسلل كأنه طيف من الأطياف ، لم يدْعه للمثول أحد ولم يعارضه أحد .

ولم يلحظ رتشارد وجوده ، فصاح بالبارون فى صوت مرتفع وقال : « أى سر توماس دى ڤو صاحب (لانركست) و (جلزلاند) ، أصحب معك البوق والمنادى ، واذهب توا إلى خيمة ذلك الذى يسمونه أرشدوق النمسا ، وارتقب حتى يكون احتشاد فرسانه وأتباعه حواليه على أشده — وهو ما سيكون ، على ظنى ، فى هذه الساعة ، لأن هذا الخنزير الألمانى يتناول طعام الإفطار قبل الصلاة — وامثل لديه بقليل من الاحترام بقدر ما تستطيع ، واتهمه باسم رتشارد ملك انجلترا بأنه قد اختطف هذا المساء بيده ، أو بيد غيره ، راية انجلترا من فوق عصاها ، ثم

قل له إنا نريد — قبل أن تنقضى ساعة بعد هذه اللحظة التى أحدثك فيها — أن يعيد الراية بكل احترام ، وأن يعيدها بنفسه مصحوباً بكبار الأمراء المحيطين به برؤوس عارية وبغير ثياب الشرف ؛ وأنه فوق ذلك ينبغى أن يضرب إلى جوار رايتنا من ناحية رايته — راية النمسا — مقلوبة ، كأنها أشينت بالسرقة والخيانة العظمى ، وأن يضرب من الناحية الأخرى رمحاً يحمل رأس ذلك الرجل اللعين الذى نصح له بهذه الإساءة الدنيئة ، وقل له إنه إن قام بإنفاذ إرادتنا هذه فى حينها ، فسوف نعفو عن خطاياه الأخرى ، حفظاً لليمين التى أقسمنا ، ومراعاة لخير الأرض المقدسة » .

فقال توماس دى ڤو : « وماذا لو أن دوق النمسا أنكر كل صلة له بهذا العمل السىء الأثيم » .

فأجاب الملك قائلا : « إذن فقل له إنَّا سوف نثبته على جثمانه — أى والله ، حتى ولئن كان بطلاه الجريئان بنصرته ؛ إنَّا سوف نثبت عليه هذا ونحن كالفرسان على ظهور الخيل ، أو ونحن راجلين ، فى الفلاة أو فى الميدان ، وله أن يختار الزمان والمكان والسلاح كما يريد » .

فقال بارون جلزلاند : « فكر يامولاى فى سلامة الله والكنيسة ، وفى أولئك الأمراء المشتغلين بالحرب الصليبية المقدسة » .

فأجابه رتشارد وقد نفد منه الصبر : « فكر أنت يا مولاى الكريم كيف تصدع بأمرى ، والله إنى لإخال الرجال يظنون أنهم سوف يصرفوننا عن مرمانا بأنفاسهم ، كما تنفخ الأطفال الريش فتطوح به هنا وهناك — سلامة الكنيسه ! — بربك قل لى من ذا الذى يرعى لها حرمة ؟ ، إن سلامة الكنيسة بين الصليبيين معناها محاربة العرب ، وقد هادنهم الأمراء ، وفى هدنتهم قضاء على سلامة الكنيسة ، وفضلا عن ذلك هلا ترى كيف أن كل أمير منهم يرمى إلى غرضه الخاص ؟ فسوف أقصد أنا كذلك إلى مرماى ، وما ذاك إلا الاحتفاظ بشرفى ؛ وما أتيت إلى هنا إلا من أجل الشرف ، فإن لم أنله على حساب الأعراب ، فلا أقل من ألا أضيع

ذرة منه من أجل هذا الدوق الخسيس ، حتى وإن تحصن واحتمى بكل أمير فى الحرب الصليبية » .

فهم دى ڤو بالانصراف إذعانا لأمر مليكه ، ولكنه هز بكتفيه ، إذ أنه — لصراحة طبعه — لم يستطع أن يخفى أن مشيئة الملك لا تتفق وما يرى ؛ ولكن ناسك عين جدة تقدم إلى الأمام ووقف وقفة رجل يحس بعلوّ مرتبته على مراتب الملوك ؛ وحقا لقد كان بزيه الخشن الجلدى ، ولحيته وشعره الأشعث غير المشذب ، وملامحه الهزيلة الوحشية المعوجة ، وتلك النار التى توشك أن تكون نار الجنون تشع من تحت حاجبيه الكثين ، كان بكل هذا أشبه ما يكون بالصورة التى ترتسم فى أذهاننا عن هيئة نبى من أنبياء الكتاب المقدس ، وقد كُلف برسالة عالية يبلغها ملوك (يهوذا) أو بنى إسرائيل الآثمين ، فهبط من ثنايا الصخور وظلام الكهوف التى كان يقطنها منعزلا فريدا ، كى يخزى الظالمين فوق الأرض وهم فى معمعان كبريائهم ، وذلك بأن ينزل بهم من رب السماء سخطه ونقمته ، كما يرسل من السحاب الصواعق يسوقها وينزلها فوق الحصون والقصور ، فمها وبروجها . وكان رتشارد مهما — اشتد عناده وصلابته — يحترم الكنيسة ورجالها ، ولئن ساءه دخول الناسك سرادقه فلقد حياه — رغم ذلك — باحترام وإجلال ، ولكنه أشار إلى سر توماس دى ڤو فى ذات الوقت أن يسارع برسالته .

ولكن الناسك ، بالإشارات والنظرات والكلمات ، منع البارون من أن يسير فى رسالته هذه ذراعا واحدة ، ورفع ساعده العارية — وقد سقطت عنها عباءة جلد الماعز — وانطرحت إلى الخلف من عنف حركته — وهز بها إلى أعلى ، وهى من قلة الغذاء نحيلة ، ومن أثر السياط فى تكفيره الشديد جريحة . ثم قال :

« باسم الله وأبينا الذى يتقدس فى السماء ، وباسم خليفة الكنيسة المسيحية فى الأرض ، أنا أنهى عن هذا التحدى الدموى الوحشى الدنس بين أميرين مسيحيين ، ترتسم على كتفيهما العلامة التى أقسما تحتها ليحافظان على الإخاء . الويل لمن يحنث فى هذى اليمين ! أى رتشارد ملك انجلترا ، ارجع عن هذه الرسالة التى

حمّلتها هذا البارون ، فإنها حرام ما بعده حرام — إن الخطر والموت على كثب منك — والخنجر مصوب نحو حلقك — ! » .

فأجاب الملك شامخا بأنفه وقال : « الخطر والموت زميلان يلعب معهما رتشارد ، وكم من ضربة سيف لم يكترث لها ، فهو لا يخشى بعد هذا الخناجر » .

فقال الكاهن مجيبا : « الخطر والموت منك قريبان » ، ثم انخفضت نغمات صوته ، وأصبحت جوفاء كأنها من غير هذه الدنيا وقال : « وبعد الموت الحساب! » .

فقال رتشارد : « أيها الأب الصالح المقدس ، إنى أجل شخصك وطهارتك — » .

فعارضه الناسك وقال : « لا تجلّنى ، وإنما أجلّ من قبلى أدنى حشرة تزحف على شطآن البحر الميت وتطعم على مَدَرها الكريه ، وأجل ذلك الذى أبلِّغُك أمره — أجل ذلك الذى أقسمت لتنقذن قبره — وأجل يمين التضامن التى أقسمت ، ولا تقطعن خيط الوحدة والإخلاص الفضى الذى ربطت نفسك به مع زملائك الأمراء » .

فقال الملك : « أيها الأب الصالح ، إنما أنتم رجال الكنيسة تزعمون لأشخاصكم المقدسة — إن جاز لرجل علمانى أن يقول بهذا — شيئاً من الكرامة ، وإنى — دون أن أنازعكم حقكم فى السيطرة على ضمائرنا — أرى أنه يجدر بكم أن تتركونا نسهر على شرفنا » .

فكرر الناسك لفظ الملك وقال : « نزعم لأنفسنا ! ليس لى أيها الملك رتشارد أن أزعم ، وما أنا إلا جرس مطواع فى يد خادم الكنيسة — ما أنا إلا بوق لا يحس ولا قيمة له ، يبلغ صوت ذلك الذى ينفخ فيه ؟ انظر إلىّ ، هأنذا أخر أمامك على ركبتى متضرعا إليك أن ترأف بالعالم المسيحى وبانجلترا وبنفسك ! » .

فقال له رتشارد وقد أكرهه على الوقوف : « انهض من مكانك ، انهض . لا يليق بركبتيك اللتين جثوت عليهما لله كثيرا أن يمسا الأرض إجلالا لإنسان من البشر . أى خطر ذلك الذى يرتقبنا أيها الأب المبجل ؟ ومتى كانت قوة

بجلترا بهذه الذلة بحيث تنزعج ، أو يأبه ملكها ، لهذا الشغب الصاخب يثيره غضب
ذا الدوق المُحْدث ؟ » .

« لقد أرسلت النظر من برجى فوق الجبل إلى جيوش النجوم فى السماء ،
كل واحد منها ينبس بالحكمة للآخر وهو يدور دورته فى منتصف الليل ، وينطق
العلم للقليل من بنى الإنسان الذين يدركون أصوات النجوم . مولاى الملك ، إن
ى (منزل الحياة) عدوا لك يتربص بذكرك وبرفاهيتك — وينبعث من زحل
ذير يتهددك بالخطر العاجل الداهى ، وإن لم تسلم جبروت إرادتك لحكم الواجب
فسيسحقك سريعا ، وأنت فى عنفوان كبرك وصلفك » .

فقال الملك : « عنى ، عنى ، إنْ هذا إلا عِلْم المشركين ، علم لا يمارسه
المسيحيون ولا يصدق به الحكماء — وإنما أنت أيها الرجل الهرم تهرف
وتقول هراء » .

فأجاب الناسك قائلا : « أنا لا أهرف يا رتشارد ، ولست بالرجل السعيد ،
وإنما أنا أعرف حالى ، وأعرف أنى ما فتئ لى شعاع من نور العقل أستخدمه
لا لنفعى ، وإنما لصالح الكنيسة ورفع الصليب . أنا ذلك الرجل الأعمى الذى يحمل
النور لغيره ولا يستضىء به ؛ سلنى عما يتعلق بخير العالم المسيحى والحرب الصليبية
أحدثك كأحكم ناصح ما فارقت لسانه قط الهداية والإرشاد ، وحدثنى عن حياتى
التعسة تجد كلماتى كلمات المعتوه المنبوذ ، وما أنا إلا كذلك » .

فقال رتشارد وقد خفض من نغم كلامه وأسلوب حديثه : « لن أفصم عرى
الوحدة بين الأمراء الصليبيين ، ولكن أية معذرة يقدمون لى للظلم والإهانة
التى عانيت ؟ » .

« وفى ذلك أنا على أهبة أن أتحدث إليك ، وقد فوضنى فى هذا الشأن المجمع ،
بعد أن التأم على عجل — بدعوة من فيليب ملك فرنسا — وأصدر فى هذا الأمر قراره » .

فأجاب رتشارد : « عجيب أن يتشاور الآخرون فى أمر هو من حق جلالة
أنجلترا الجريحة ! » .

وأجاب الناسك بقوله : « هم يريدون أن يتعرفوا مطالبك إن أمكن هذا ، وهم جميعا متفقون على أن راية انجلترا ينبغى أن ترد إلى جبل سنت چورج ، ويحبون أن يحكموا بالإدانة والحرمان على ذلك الآثم الجرىء — أو أولئك الآثمين الجسورين — الذين انتهكوا حرمتها ، وسيعلنون عن ثواب جزيل لمن يفضح جرم الآثم ، ثم يقدمون لحمه طعاما للذئاب والغربان » .

فقال رتشارد : « وما الرأى فى دوق النمسا الذى تلابسنا أقوى الظنون بأنه هو الذى فعل ذلك الصنيع ؟ » .

فرد عليه الناسك قائلا : « إن دوق النمسا سوف يخضع لما يفرض عليه بطريق بيت المقدس من محن ، كى يزيل ما يحيط به من الظن والريبة ، وذلك كى لا ينشب فى صفوف الجيش خلاف » .

فقال الملك رتشارد : « وهل بالنزال يبرئ نفسه ؟ » .

فأجاب الناسك : « إن اليمين التى أقسمَ تحرم عليه ذلك ، وفضلا عن هذا فإن جميع الأمراء ... » .

فعارضه رتشارد وقال : « إن مجمع الأمراء لا يبيح قتال الأعراب ولا قتال أحد من غير الأعراب ؛ حسبك هذا أيها الأب ، لقد أبنت لى عن الخطأ فى متابعة هذا الأمر كما رسمتُ من قبل . والله لأقرب إليك أن توقد فى حمأة الأمطار مشعلك من أن تستخرج من هذا الجبان ذى الدم البارد شرارة من نار ؛ إن النمسا لن تنال شرفا ، ولذا فلندعه وشأنه — ولكنى — مع ذلك — سوف أجعله يحنث فى عينه ، وسوف ألح فى امتحانه — والله لسوف يضحكنى أن أستمع إلى أصابعه تطقطق حينما يقبض على كرة الحديد المصهورة ! — أى نعم ولسوف يضحكنى أن أرى فمه الكبير يتشقق ، وحلقه ينتفخ من الاختناق وهو يحاول أن يبتلع الخبز المقدس ! »[1] .

---

(١) كانوا فى العصور الوسطى يعرضون المتهم لهذه المحن وأشباهها ، فإن أصابته بسوء فهو آثم ، وإن نجا منها سليما فهو برىء .

فقال الناسك : « مهلا ، مهلا يارتشارد ، هدئ ثائرة نفسك خجلا إن لم يكن إحسانا ! من ذا الذى يمدح أو يكيل الشرف للأمراء الذين يسبون ويثلبون بعضهم بعضاً ؟ واأسفاه على مخلوق نبيل مثلك ، شب على خواطر الملوك وجسارتهم ، وخليق به أن يشرف العالم المسيحى بعمله ، وأن يحكمه بحكمته ، وهو أهدأ منك الآن مزاجا . واأسفاه على رجل مثلك يصيبه غضب الأسد الهمجى المتوحش ، ممزوجا بالوقار والإقدام وهما من صفات ملك الغاب ! » .

ولبث لحظة يتدبر ويتأمل وعيناه صوب الأرض ، ثم استأنف حديثه وقال : « ولكن الله الذى يعرف عجز طبائعنا ، يتقبل منا طاعتنا على نقصها ، وقد استأخر نهاية حياتك الجريئة الدامية ، ولكنه لم يعدل عنها . لقد وقف ملك الموت سا كنا — كما وقف فى قديم الزمان إلى جوار المكان الذى كان يدق فيه (أرونا جبوست) الحنطة — وبيده ظباة مجردة ، سوف يكون بها عما قريب رتشارد قلب الأسد وضيعاً كأحط فلاح من المزارعين » .

فقال رتشارد : « وهل نهايتى هكذا قريبة جدا ! إذن ليكن ذلك . اللهم إن كانت حياتى قصيرة فلتجعلها مضيئة مستنيرة » .

فقال الرجل صاحب الخلوة ، وكأن دمعة — وهى له زائر غير معهود — كانت تتجمع فى عينه البراقة الجافة : « واأسفاه أيها الملك النبيل ! إن المدى الذى يفصل ما بينك وبين القبر مظلم ، عليه سمات الفناء والنكبة والأسر ، والقبر فاغر فاه ليبتلعك ، وهو قبر سوف توارى فيه دون أن يعقبك خلف ، أو يذرف عليك شعبك الدمع رثاء عليك ، وقد أنهكته بحروب موصولة غير مقطوعة ، ولم تمد فى علم رعيتك أو تفعل شيئا يزيد من سعادتها » .

« ولكنّ حياتى لم تخل من بعض الصيت أيها الراهب ، ولم تحرم دمعات المرأة التى أحب ! وإن فى هذا لعزاء لرتشارد حتى مماته ، عزاء لا تستطيع أنت أن تعرفه أو تدركه » .

فأجابه الناسك فى نبرة كان لها — مدى برهة من الزمن — رنين أشبه ما يكون

بنبرة رتشارد نفسه وحميته ، وقال : « أنا لا أعرف ذلك ، ولا أستطيع أن أدرك قيمة ما يمتدحك به الشعراء ، وما لحب غادتك من قدر ! » ثم واصل حديثه وقد مد ذراعه الهزيلة وقال : « أى ملك انجلترا ، إن الدم الذى يغلى فى عروقك الزرقاء ليس أشد نبلا من ذلك الذى يركد فى عروق ، ولئن كانت قطرات دمى قليلة فهى من دم (الوزجنان) الملكى — هى من دم (جدفرى) البطل المقدس . أنا (ألبريك مرثمار) — أو لقد كان هذا اسمى حينما كنت فى هذه الدنيا » .

فقال رتشارد : « أنت ذلك الرجل الذى تتمشدق بذكره الأبواق ! أفهذا صحيح ؟ وهل يجوز ذلك ؟ هل يمكن لضوء كضوئك أن يهبط من أفق الفروسية ، ويبقى — مع ذلك — الناس وهم بالمكان الذى استقر فيه هذا الضياء جاهلون ؟ » .

فقال الناسك : « لئن بحثتَ عن نجم إذا هوى ، ما وجدت إلا سديما قاتما كانت له — وهو يشق الأفق — صورة زاهية بهية برهة من الزمن . أى رتشارد ، تالله لو كنتُ بتمزيق الحجاب الدامى ، الذى أستر به سرًّا مفزعا أستطيع أن أطأطئ قلبك الشامخ لنظام الكنيسة ، إذن لألفيتُ فى صدرى قصة أقصها عليك ، وقد أبقيتها حتى الآن تقرض فىّ عروق الحياة فى الخفاء ، وأنا كالشاب الوثنى الذى كرس لدينه قلبه . اصغ إلىّ إذن يا رتشارد ، جعل الله للأسى واليأس — وهما لن يجديانى فتيلا — من القوة ما يجعلها مثلا لكائن مثلك ، كائن هو رغم توحشه نبيل شريف ؛ نعم ، لأكشفن عن جراح لبثت فى الخفاء أمداً طويلا ، لأكشفن عنها رغم أنها ربما تدمى حتى أموت وأنا فى حضرتك ! » .

ثم أخذ الملك رتشارد يستمع — وكله احترام — إلى موجز قصة فيها ما يكفى للإبانة عن سبب شبه الجنون الذى أصاب ذلك الإنسان الفريد البائس ؛ وقد كان لتاريخ (البريك مورثمار) على رتشارد فيما مضى أثر قوى فى سنيه الباكرة ، حينما كان المنشدون يملأون قاعات أبيه طربا وسرورا بما يروون من قصص عن الأرض المقدسة .

وقال الناسك : « لستُ بحاجة إلى أن أخبرك بأنى كنت كريم المولد ، سعيد الطالع ، قوىّ السلاح ، حكيم المشورة ، فلقد كنتُ كذلك ، ولكن بينما كان أنبل السيدات فى فلسطين يتسابقن : أيهن تضفر الأكاليل لرأسى ، كان حبى معقوداً بفتاة من مرتبة وضيعة انعقاداً لا يحول ولا يلين ، هى فتاة أبوها جندى قديم من جنود الصليب ، رأى مابين قلبينا من عاطفة ، وعرف ما بيننا من فرق ؛ فلم ير لشرف ابنته ملاذاً غير أن يسوقها إلى ظل الدير . ولما عدت من حملة بعيدة محملا بغنائم الشرف ، ألفيت سعادتى وقد تهدمت إلى أبد الآبدين ! . فقصدت أنا كذلك إلى الدير ، ونفخ الشيطان فى قلبى — وكان يظننى من أتباعه — نفساً من من روح الكبرياء ، وما إخاله إلا منبعثاً من أعماق جحيمه ، وارتفعتُ إلى مرتبة عالية فى الكنيسة ، كما ارتفعت فى الدولة من قبل — ولقد كنت حقا رجلا حكيما مستقلا منزها عن الخطأ ! — وأنَّى لى أن أخشى الإغراء ؟ ياويلتى ! لقد بت معرّفا [1] للراهبات ، وبين هاتيك الراهبات ألفيت تلك التى أحببت طويلا ، وفقدت من زمن بعيد . بربك إلاأغنيتنى عن الاعتراف بأكثر من هذا ! — إن راهبة ساقطة كفرت عن إثمها بالانتحار ترقد هادئة فى لحدها فى عين جدة ، وفوق قبرها يتمتم ويئن ويزأر مخلوق لم يبق له من العقل إلا ما يكفى لأن يجعله يحس بشقائه كل الإحساس ! » .

فقال رتشارد : « أتعس بك من رجل ! إنى لن أعجب لبؤسك بعد هذا ؛ قل لى كيف خلصت من الحكم الذى يقضى به الشرع فى مثل جرمك هذا ؟ » .

فقال الناسك : « سل فى هذا رجلا ما برح شغوفا بهذه الدنيا المريرة يحدثك عن حياة بقيت لأسباب خاصة ولاعتبار النسب الكريم ، ولكن إن سألتنى أنا يارتشارد أقل لك إن العناية الإلـهية قد أبقتنى كى ترفعنى إلى العلا مناراً وهدى ، وبعد مايحترق منى هذا الوقود الدنيوى تتبدد رفاتى فى النار . هذا الجسد الذى تراه ذاويا ضامراً يسرى فيه روحان ، أحدهما فعّال ثاقب نافذ يدفع عن قضية

---

(١) المعرّف هو القس الذى يعترف له المسيحيون بخطاياهم .

الكنيسة فى بيت المقدس ، والآخر وضيع حقير بائس ، يتذبذب بين الجنون والبؤس ، يبكى شقائى ويسهر على الآثار المقدسة ، والآثار التى إن أنا رمقتها بعينى كنت آثماً جارما . بربك لا تشفق على ! إن هو إلا إثم إن تشفق على ضياع شيء دنيء كهذا — لا تشفق على وأفد من مثالى . أنت تقف فوق أعلى قمة يشغلها أمير مسيحى ، ولذا أنت فى أشد المواقف خطراً . أنت متكبر فى نفسك ، متهاون فى حياتك ، دام فى يدك ، أبْعِدْ عنك الذنوب التى هى منك بمثابة البنين ؛ أنْفِ من صدرك هذا الغضب وذلكم الكبرياء والترف والتعطش للدماء ، مهما تكن هذه العواطف عزيزة على الإنسان الآثم فيك ! » .

فتحول رتشارد ببصره عن هذا الرجل الناسك ، والتفت إلى دى ڤو ، كأنه أحس ببعض الألم من هذا التهكم الذى لم يستطع له ردا ، وقال : « إنه يهذى » . ثم التفت إلى الناسك فى سكينة وهدوء ، وفى شيء من الازدراء والاستخفاف ، وقال : « إنك قد وجدت أيها الأب المبجل سربا من حسان البنات [1] لرجل لم يتزوج إلا منذ أشهر قلائل ، ولما كان من واجبى أن أبعدهن عن ظل بيتى ، فقد زودتهن بأزواج يليقون بهن ، كما يفعل الآباء ببناتهم ، فتخليت عن كبريائى لشرف الكنيسة الكريم ، وعن ترفى — كما تقول — لرهبان الدير ، وعن تعطشى للدماء لفرسان المعبد » .

فأجابه الناسك وقال : « إن لك لقلبا من الصلب ، ويدا من الحديد ، لا يجديهما نصح أو مثال ! — ومع ذلك فلسوف نعطيك فرصة من الزمن ، ربما تحولت بعدها وفعلت ما يرضى الله فى سمائه — أما أنا فينبغى لى أن أعود إلى مكانى — رحماك اللهم ! أنا ذلك الرجل الذى تخترقه أشعة الرحمة الإلهية — كما تخترق أشعة الشمس العدسة الحارقة ، ثم تتجمع فوق جسوم أخرى فتشتعل الجسوم وتلتهب ، بينما تبقى العدسة باردة ما بها أثر — رحماك اللهم ! لقد نبذ الغنىُّ المأدبة ، فللفقير أن يتقدم — رحماك اللهم ! » .

---

(١) مشيراً إلى التهم التى وجهها إليه الناسك .

ولم يكد يتم حديثه حتى انطلق من السرادق يصيح صياحا عاليا ؛ وهـذه الصيحات الجنونية من النـاسك محت من ذهن رتشارد شيئا من الأثر الذى تركه تفصيل ما ضيه وأرزائه الخاصة ، فقال الملك : « تالله إنه لقس معتوه ! اتبعه يا دى ڤو ، وراقبه كى لا يصيبه أذى ، لأنـا وإن كنا صليبين ، إلا أن للمشعوذ بين سوقتنا تقدير فوق تقدير القس أو القديس ، وربما ألحقت به السوقة بعض المهانة . »

فصدع الفارس بالأمر ، وأفسح رتشارد لتوه فى المجال للخواطر التى أوحت بها نبوءة الراهب الساذجة ، فقال محدثا نفسه : « هل أموت عاجلا ولا يخلفنى من بعدى ولد ، ولا يبكى على باك ؟ » . أثقل به من حكم ، والحمد لله على أنه حكم لم يصدر عن قاض كفء قدير ؛ ومع ذلك فالأعراب ، الذين بلغوا الذروة فى علم الروح ، كثيرا ما يقولون إن الله — الذى ليست حكمة الحكماء فى تقديره إلا حمقا وجهلا — يوحى بالحكمة والكهانة فى ثنايا الخبل البادى على المعتوهين من الرجال . إن ذلك الناسك يقال عنه كذلك إنه يقرأ النجوم ، وهو فن كثيرا ما يُمـارس فى هذه البلاد التى كانت فيها جيوش السماء من قديم الزمان موضع العبادة . ووددت والله لو أنى سـألته فى شأن ضياع رايتى فليس (تِشْبيْت) المبارك ذاته مؤسس مذهبه بأكثر منه صراحة وسذاجة ، أو يتكلم مثله بلسان أشبه ما يكون بلسان نبى — والآن ما ذا رأيتَ يا دى ڤو ، وما خبر هذا القس المعتوه ؟ » .

فأجابه دى ڤو قائلا : « هل تقول عنه يا مولاى إنه قس معتوه ؟ والله إنى لا إخاله أشـبه ما يكون (بالمعمدان) نفسه حينما خرج من القفر مباشرة ، لقد اعتلى آلة من الآلات الحربية ، وأخذ من فوقها يعظ الجند موعظة لم ينطق بها منذ بطرس الناسك إنسان ، وقد ذُعر المعسكر من صياحه ، فتجمع الخلق حوله ألوفا ألوفا ، وهو بين الحين والآخر يحيد عن مجرى حديثه الأول ، ويخاطب الشعوب العديدة كلا بلسانه ، ويرميهم بأحسن ما يستفزهم من برهان كى يثابروا على تخليص فلسطين » .

فقال الملك رتشارد : « وحق هـذا النور إنه لناسك نبيل ! ماذا عسى أن

يصدر من دم (جدفرى) غير ذلك ؟ هل هو من السلامة يائس لأنه عاش بالحب في سالف أيامه ؟ لأطلبن إلى البابا أن يبعث إليه بالمغفرة الكاملة ، ولن أكون أنا نفسى أقل رغبة فى أن أتوسط له ، حتى وإن كانت معشوقته الحسناء من الراهبات » .

وإذ هو يتحدث كذلك إذا بأسقف صور يلتمس المثول لديه ، كى يرجوه أن يحضر — إن سمحت له صحته — جلسة سرية سوف يعقدها زعماء الصليبيين ، وكى يشرح له الحوادث الحربية والسياسية التى وقعت إبان مرضه .

الفصل التاسع عشر

إذن فلنغمد سيوفنا ولما تزل ظافرة ،
ولنرجع إلى الوراء بخطانا بعد أن سرنا بها قُدُما ،
ووطأنا بها طريق المجد صعدا ،
فوق رقاب الخصوم .
ولننزع من فوق أكتافنا زرد الحديد ،
وقد أقسمنا أغلظ الأيمان فى بيت الله لنحملنه ،
يمينا لم توفّ ،
كوعد الحاضنات لأطفالهن فى القرى ،
يهدئنهم به حينا ،
ثم من بعد لا يذكرون .
من مأساة « الحروب الصليبية » .

كان أسقف صور خير رسول لإبلاغ رتشارد نبأ لو سمعه الملك قلب الأسد من رجل آخر ما أطاق سمعه دون أن ينفجر غاضبا انفجارا لا حد له ، وحتى هذا الأسقف الحكيم الجليل لم يكن باليسير عليه أن يغرى الملك بالإصغاء إلى ذلك النبأ الذى هدم كل آماله فى استرداد القبر المقدس بقوة السلاح ، والفوز بتلك الشهرة التى كان صوت العالم المسيحى قاطبة يتأهب لمنحه إياها كبطل الصليب .

ولكن بلاغ الأسقف كان يتبين منه أن صلاح الدين كان يجمع قوى قبائله المائة جميعا ، وأن ملوك أوروبا — وقد كانوا من قبل لكثير من بواعث هذه الحملة كارهين ، هذه الحملة التى دلت الأيام على أنها مغامرة شديدة ، والتى كان خطرها يتفاقم يوما بعد يوم — قد اعتزموا أن يتنحوا عن مقصدهم ، وشد من أزرهم فيما قصدوا إليه مَثَلُ فيليب ملك فرنسا ، الذى أعرب عن عزمه على العودة إلى أوروبا ، بعدما قدم البرهان على احترامه لأخيه ملك انجلترا ، وأكد أنه سوف يطمئن على سلامته قبل الرحيل ؛ وبات على مثل هذا العزم تابعه الأكبر أمير شمبانيا ، وليس عجيبا أن يرحب ليوبولد أمير النمسا — وقد ألحق به رتشارد الذلة

والإهانة — بفرصة تمهد لههجران هذه الحرب التى كان يُعدّ خصمه المتصلف لها زعيما ؛ وأعلن الآخرون مثل هذه النية ، حتى بات جليا أن ملك انجلترا إن أحب البقاء فسيخلونه ، ولا معين له غير أولئك المتطوعين الذين قد ينضمون إلى الجيش الإنجليزى فى مثل هذه الظروف السيئة ، وغير معونة غير أكيدة يقدمها كنراد منتسرا والجنود من رجال المعبد ورجال القديس يوحنا ، وهؤلاء جميعا — رغم أنهم قد أقسموا ليشهرن حربا على الأعراب — كانوا على الأقل لا يقلون عن سواهم غيرة من أى ملك أوروبى تتم له الغلبة على فلسطين ، حيث كانوا ، من قصر النظر ومن سياسة تقوم على حب الذات ، يطمعون فى إنشاء ولايات مستقلة لهم .

ولم يحتج الأسقف إلى نقاش طويل كى يبين لرتشارد حقيقة موقفه ، وبعدما انفجر الملك ثائرا غاضبا أول الأمر — استوى على مقعده هادئا ساكنا ؛ وبنظرات كئيبة ورأس مطأطئ ، وذراعاه على صدره منطبقتان ، أخذ يصغى للحجج التى أدلى له بها الأسقف على استحالة مواصلة الحرب الصليبية بعد تخلى أقرانه عنه ، بل لقد أمسك الملك عن اعتراض الأسقف ، حتى حينما بلغت بهـذا الرجل الجرأة على أن يلمع فى عبارة متزنة إلى أن اندفاع رتشارد كان من الأسـباب القوية التى بغّضت الأمراء فى الحملة .

فنظر رتشارد نظرة كئيبة ، وابتسم ابتسامة حزينة ، وأجاب قائلا : « إنى أقرّ أيها الأب الوقور ، بأنه ينبغى لى فى بعض الظروف أن (أعترف بخطئى) ، ولـكن أليس شديدا علىّ أن ألـقَى على ضعف جبلتى مثل هذا الجزاء ، وأن يُقضى علىّ ، لثورة أو ثورتين انفجرت بهما لانفعال طبيعى فى نفسى ، بأن أرى مثل هـذه الثمار النفيسة ، ثمار المجد لله والشرف للفروسية ، تتبدد قبل أن تتجمع ؟ — ولـكنها سوف لا تتبدد — أقسمت بروح المنتصر الجبار لأرفعن الصليب فوق بروج بيت المقدس أو لـيُرفعن فوق قبر رتشارد ! »

فقال الأسقف : « لك أن تفعل هذا ، ولـكن لن تراق بعد اليوم فى هـذا الصراع قطرة واحدة من دماء المسيحيين » .

فقال رتشارد : « إنك يا سـيدى الأسقف تتحدث عن الصلح — ولـكن دماء الـكلاب المنافقين ينبغى كذلك أن تتوقف عن السريان والتدفق » .

فأجاب الأسقف قائلا : « حسبنا فخارا أن نستخلص من صلاح الدين بقوة السلاح ، وبمـا يوحيه ذكرك من تقدير ، شروطا نسترد بمقتضاها القبر المقدس توا ، ونفتح للحجاج الأرض المقدسة ، ونضمن لهم سلامتهم بقوى الحصون ، وفوق هذا وذاك نؤكد سـلامة المدينة المقدسة بأن يمنح رتشارد لقب ملك بيت المقدس وحاميه » .

فتطاير الشرر من عينى رتشارد بدرجة غير مألوفة وقال : « كيف هذا ! أنا ! أنا — أنا أكون ملك المدينة المقدسة وحاميها ! إنْ هـذا إلا النصر عينه ، ولن نكسب بالظفر فى القتال أكثر من هذا ، بل وقلّ أن نبلغ هذا بقواتنا المشتتة التى لا إرادة لها . ولـكن صلاح الدين ما برحت له مآرب يرمى إلى الاحتفاظ بها فى الأرض المقدسة ، أليس كذلك ؟ » .

فأجاب الأسقف : « إنمـا يحتفظ بها كملك شريك وحليف ، أقسم ليخلصن لرتشارد العظيم — وإن شئت فقل لصهره بصلة الزواج » .

فدهش لهذا الخبر رتشارد دهشة أقل مما كان يتوقع الأسقف وقال : « بصلة الزواج ! ها ! — أى نعم ، أنت تعنى أديث بلانتاجنت ، هل نما إلىّ هذا فى حلم من الأحلام ؟ أم هل نبأنى به إنسان ؟ والله إن عقلى ما يزال من أثر الحمى مضطربا ثائراً ضعيفا — تُرى من ألمع لى بهذه الصفقة الهمجية ؟ آلاسكتلندى، أم الحكيم ، أم ذلك الناسك المقدس ؟ »

فقال الأسقف : « الراجح أنه ناسك عين جدة ، لأنه جاهد فى هذا الأمر كثيراً ، ومذ تبين له تبرم الأمراء ، وأن تشتت قواهم أمر لا مناص منه ، أكثر من الاجتماع بالمسيحيين والمسلمين للتشاور معهم ، كى يمهد لهذا الصلح الذى يحقق للعالم المسيحى جانباً على الأقل من أغراض هذه الحرب المقدسة » .

فتطاير الشرر من عيني رتشارد وصاح عاجبا : « إمرأة من دمى لرجل مسلم — ها ! »

فسارع الأسقف إلى صرفه عن غضبه وقال :

« لا ريب أنه ينبغى لنا أن نحصل أول الأمر على رضا البابا ، وسوف يفاوض أبانا المقدس فى هذا ذلك الناسكُ القديس المعروف فى روما » .

فقال الملك : « كيف يكون هذا قبل أن يصدر منا الرضا والقبول ؟ »

فقال الأسقف وفى صوته نغمة التهدئة والإيعاز : « كلا لن يكون ذلك إلا بتصديق خاص منك » .

فقال رتشارد : « تريدون رضاى عن زواج فتاة من دمى لرجل من المنافقين ؟ » ولكنه كان يتكلم بنغمة تلمس فيها الشك أكثر مما تلمس اللائمة الصريحة على هذا المقترح ، ثم قال : « والله ما حلمت بمثل هذا التآلف حينما وثبت من مقدم سفينتى ووطأت أرض سوريا كما يثب الليث لفريسته ! والآن — ولكن دعنى من هذا ، وواصل حديثك فسوف أستمع إليك صابرا » .

وقد سُرّ الأسقف حين ألفى مقصدة من المليك أشد يسرا مما كان يخشى ، فبادر إلى عرض الأمثلة لرتشارد من أشباه هذا التحالف فى أسبانيا مما لم تتم بغير رضا السدة البابوية ، وإلى سرد المزايا العديدة التى سوف يظفر بها العالم المسيحى من توثيق العرى بين رتشارد وصلاح الدين برباط له كل هـذه القداسة ؛ وفضلا عن ذلك كان الأسقف يتكلم بحماسة شديدة وروح دينى عن احتمال اعتناق صلاح الدين للمسيحية لو تم هذا الحلف المقترح » .

فقال رتشارد : « وهل أبدى السلطان ميلا إلى اعتناق المسيحية ؟ إن كان هذا كذلك ، فليس على وجه الأرض ملك أمنحه يد قريبتى ، بل أختى ، قبل أن أقدمها لصاحبى صلاح الدين النبيل — أى والله ، حتى وإن جاء الأول يقدم التاج والصولجان تحت قدميها ، وجاء صلاح الدين خالى الوفاض لا يملك غير سيفه الكريم وقلبه الطيب ! » .

فقال الأسقف مراوغاً بعض المراوغة : « لقد استمع صلاح الدين إلى معلمينا المسيحيين ، وأصغى إلى شخصى الضعيف كما أصغى إلى غيرى ، ولما كان يصغى صابراً ، ويجيب هادئاً ، فما إخال ذلك إلا لأنه كان ينتزع نفسه كما ينتزع الميسم من النار ، ولقد قيل : « ما أعظم الحق وما أشد سلطانه » وفضلا عن ذلك فإن ناسك عين جدة — وهو ذلك الرجل الذى قلما صدرت عنه كلمات لم تثمر — على يقين تام بأن بين الأعراب ومن إليهم من المشركين رأيا بأن هذا الزواج سوف يكون له أثره ؛ إنه يقرأ مسالك النجوم ، ولما كان يقطن ، زاهدا فى شهوات الجسد ، فى تلك الأماكن المقدسة التى وطأها القديسون فى قديم الزمان ، فقد تلبس بروح (أليجا تشبيت) مؤسس مذهبه المبارك ، كما تلبس بها من قبل (اليشع) الرسول حينما نشر فوقه عباءته » .

وأصغى الملك رتشارد للحجج التى أدلى بها الأسقف بعين كسيرة ، ونظرة كليلة .

ثم قال : « إنى لا أستطيع أن أقول ما شأن هذا بى ، ولكنى أظن أن هذه الآراء الباردة ، آراء أمراء العالم المسيحى ، قد أصابتنى كذلك بفتور روحى ؛ لقد انقضى وقت لو أن رجلا علمانيا تقدم لى فيه بمثل هذا الحلف لطرحته أرضاً — ولو تقدم لى به رجل من رجال الكنيسة لبصقت فى وجهه على أنه كافر ومن قساوسة (بعل) ، ولكن هذا الرأى منهم الآن ليس غريباً على مسمعى ، وإنى لأقول : ما لى لا أسعى فى إخاء العربى ومحالفته ، وهو رجل شجاع عادل كريم ، يحب عدوه الفاضل ويجله ، كأنه له صديق ، بينما يتنحى أمراء العالم المسيحى عن جانب حلفائهم ويهجرون قضية الله والفروسية الطيبة ؟ ولكنى سوف أتمالك الصبر ولا أفكر بعد فيهم ، لن أقوم بعد هذا إلا بمحاولة واحدة كى أبقى على تماسك هذه الأخوة السامية إن أمكن ذلك ، ولو فشلت فيها ياسيدى الأسقف ، فلنتحدث معاً فى أمر مشورتك ، التى لا أقبلها الآن فى الظرف الراهن ولا أنبذها كل النبذ . هيا بنا إلى المجمع يا سيدى — إن الوقت ينادينا . إنك تقول إن رتشارد عجول

متغطرس — سوف تراه يذل نفسه كذلك العشب الوضيع الذى يشتق منه لقبه » .

ثم خف الملك يساعده رجال غرفته الخاصة ، وارتدى صدرة وعباءة سوداء لونها رسمى ، ولم يلبس من شارات الأبهة الملكية غير حلقة من ذهب يطوق بها رأسه ، ثم سارع وأسقف صور كى يحضر المجمع الذى كان منعقدا ينتظر قدومه كى يبدأ جلسته .

وكان السرادق الذى يلتئم فيه المجمع فسطاطا فسيحا ، تنتشر أمامه راية كبيرة عليها شارة الصليب ، وأخرى ترتسم عليها امرأة جاثية على ركبتيها ، شعرها غير ممشوط ، وزيها غير مهندم ، قصد بها أن تمثل كنيسة بيت المقدس القفرة المنكوبة ، وكانت تحمل هذا الشعار : « لا تنس محنتك » ، ووقف لدى هذا الفسطاط جماعة من الحراس عنى باختيارهم ، واتخذوا جميعاً أمكنة بعيدة عن السرادق كى لا يتسرب الجدل — وكان أحياناً يعلو ويعصف — إلى آذان غير تلك التى أريدت به » .

وفى هذا المكان اجتمع الأمراء الصليبيون ، ولبثوا ينتظرون قدوم رتشارد ؛ وحتى هذا التأخير الوجيز الذى اعترض رتشارد ، فسّره خصومه تفسيراً لا يرضيه ، وأخذوا يتداولون فيما بينهم أمثلة عديدة من تكبره واستعلائه عليهم استعلاء لا مبرر له ، حتى إن هذا التأخير الراهن القصير ، الذى لم يكن للملك مندوحة عنه ، قد سيق مثالا لذلك ، وأخذ الرجال يجاهدون فى تأييد بعضهم بعضاً فى هذه الآراء السيئة عن ملك انجلترا ، ويبررون الأخطاء التى ارتكبوها من قبل بالمبالغة فى أتفه الأمور ؛ وربما كان ذلك كله لأنهم كانوا يحسون بتقدير غريزى لهذا الملك البطل ، تقدير يتطلب لمغالبته مجهوداً غير عادى .

ولذا فقد قر بينهم الرأى على أن يستقبلوه حين مقدمه بقليل من الرعاية ، ولا يولونه احتراماً أكثر من مجرد ما ينبغى للمحافظة على حدود الحفاوة الباردة ؛ ولكنهم ما إن رأوا تلك الهيئة النبيلة ، وتلك الطلعة الملكية وعليها أثر من

شحوب المرض الذى انتابه أخيرا ، وتلك العين التى أطلق عليها المنشدون اسم النجم اللامع فى مواقع القتال والظفر ، وما إن هاجمت ذاكرتهم مآثره التى تكاد تفوق شجاعة الإنسان وطاقة البشر ، حتى هب مجمع الأمراء جميعا فى آن واحد — وحتى ملك فرنسا الغيور ، ودوق النمسا المكتئب المستاء هبًّا راضيين — وانفجر الأمراء الحاشدون جميعا فى صوت واحد مهللين هاتفين : « سلام الله على الملك رتشارد ملك انجلترا ! — وليحى قلب الأسد الجسور ! » .

وبجبين واضح جلى كشمس الصيف المشرقة ، أخذ رتشارد ينثر شكره يمنة ويسرة ، وهنأ نفسه على عودته ثانية بين إخوانه أمراء الحرب الصليبية .

ثم خطب الحاشدين وقال : « إنه كان يريد أن يقول كلمة موجزة حتى وإن تكن فى أمر — كمثله — تافه زهيد ، مخاطرا بتأجيل تشاورهم فى صالح العالم المسيحى بضع دقائق ، وبإيقاف تقدمهم فى مشروعهم المقدس » .

فعاد الأمراء المجتمعون كل إلى مقعده ، وساد بينهم جميعا سكون عميق .

واستطرد ملك انجلترا الخطاب وقال : «اليوم عيد كبير للكنيسة ، وما أجدر رجالا مسيحيين — فى مثل هذا الظرف — أن يزيلوا ما بينهم وبين إخوانهم من خصومة،وأن يعترف كل منهم بخطيئه ؛ أيها الأمراء النبلاء ويا آباء الحملة المقدسة ، إنْ رتشارد إلا جندى ، ولقد كانت يده أبدا أخف من لسانه — وقد ألف لسانه خشن اللفظ — ولكنى أتوسل إليكم أن لا تنتحوا عن الغرض النبيل الذى قصدتم ، عن تخليص فلسطين ، لما يُلقى بلانتاجنت من كلام طائش ، ويعمل من فعال تخرج عن اللياقة ؛ بالله لا تنبذوا حسن الذكر فى الدنيا والخلاص فى الآخرة — ولكم هنا مجال لإحرازها إن كان لإنسان أن يحرزها — من أجل جندى قد يكون عجولا فى فعاله ، شديدا فى كلامه كالحديد الذى لبسه منذ نعومة أظفاره . إن كان رتشارد قد قصر فى حق أحدكم ، فرتشارد سوف يعوض ذلك بالفعل واللفظ — أى أخى ملك فرنسا النبيل ، هل كان من سوء طالعى يوما أن أسأت إليك ؟ » .

فأجاب فيليب وعليه جلال الملك : « إن جلالة فرنسا لا تطلب الكفارة من

جلالة انجلترا » ، ثم صافح بيده يد رتشارد — وقد مدّها إليه — وقال : «ومهما يكن رأيي فى شأن مواصلة ما شرعنا فيه ، فهو رأى يقوم على أسباب نشأت عن حال مملكتى ، ولا ريب فى أنه لم يقم على غيرة أو بغض لأخى المليك أشجع الشجعان » .

ثم سار رتشارد نحو دوق النمسا ، وفى نفسه مزيج من الصراحة والوقار ، بينما نهض ليوبولد من مقعده ، وكأنه كاره ، وتحرك كما تتحرك الآلة الميكانيكية يتوقف مسيرها على دافع خارجى ؛ وقال الملك : « إنما دوق النمسا يحسب أن لديه ما يبرر استياءه من ملك انجلترا ، وملك انجلترا يرى أن لديه من الأسباب ما يدعو إلى الشكاية من النمسا ، إذن فليتبادلا العفو حتى يبقى السلم فى أوروبا ، ويبقى التضامن بين هذه الصفوف سليما لا ثلمة فيه ؛ نحن الآن جميعا نصراء لراية أعلى مجدا من أية راية رفرفت يوما أمام أمير من أمراء هذه الدار الفانية ، تلك هى راية الخلاص ؛ فلا تجعلوا إذن للإحن سبيلا إلى قلوبكم ، من أجل هذا الرمز ، رمز شرفنا فى الدنيا ، وليرد ليوبولد علم انجلترا إن كان تحت سلطانه ، وسيقول رتشارد إنه نادم على طبعه العجول الذى حدا به أن يسىء إلى علم النمسا ، ولن يبعثه على هذا القول غير محبته للكنيسة المقدسه » ، فوقف الأرشدوق ساكنا مكتئبا غير راض ، حاسر الطرف مطأطىء الرأس ، يكتم فى نفسه الغضب ، ويمنعه الوجل وخشية الشذوذ أن ينفس عن نفسه بكلمة .

فسارع بطريق بيت المقدس إلى ثلم هذا السكون وتلك الحيرة ، وشهد لأرشدوق النمسا بأنه قد برأ نفسه بيمين غليظة من كل عِلْم مباشر وغير مباشر بالاعتداء الذى لحق براية انجلترا .

فقال رتشارد : « إذن فلقد أسأنا إلى الأرشدوق النبيل أشد الإساءة ، ونحن نطلب إليه العفو عن اتهامنا إياه بالعدوان والجبن ، ونمد إليه يدنا إشارة إلى تجديد السلم والمودة بيننا — ما هذا ؟ دوق النمسا يرفض يدنا هـذه العارية كما رفض من قبل قفازنا الحديدى ؟ ماذا ! ألسنا له أقرانا فى السلم ولا أعداء فى القتال ؟ ليكن

ذلك ، ولسوف نعدُّ ضعف تقديره لنا وحطه من مكانتنا كفارة لأى صنيع ربمـا اندفعنا إليه ساعة ونحن فى حمية الغضب ، وسنعد الأمر بيننا بهذا قد انتهى » .

وبعد أن أتم حديثه ، أشاح بوجهه عن الأرشدوق وعليه من علامات الوقار والحشمة أكثر مما عليه من الازدراء والاستخفاف ، وترك الدوق — وقد بدا عليه الفرج بعد ما صرف الملك عنـه بصره — كالتلميذ المكتئب الشارد عن الدرس حينما يصرف عنه معلمه القاسى نظرته .

« أى إيرل شمبانى النبيل — أى مركيز منتسرا الأمير — أى رئيس الفرسان الأعظم الجسور — اعلموا جميعاً أنى هنا تائب معترف بخطئى ، فهل منكم من له علىَّ إدانة ، أو من يطلب منى ترضية ؟ » .

فقال كنراد صاحب اللسان الناعم : « والله إنى لا أدرى على أى أساس نقيم إدانتك ، اللهم إلا إن كان ملك انجلترا يأخـذ من إخوانه فى الحرب المساكين كل صيت كانوا يطمعون فى إحرازه من هذه الحملة » .

وقال رئيس فرسان المعبد : « لو سألتنى أن أدينك فإدانتى إياك أشد وأخطر من إدانة مركيز منتسرا لك ، وقد تظنون أنه لا يليق براهب عسكرى مثلى أن يرفع صوته حين يبقى العدد العديد من الأمراء صامتين ؛ ولـكن الأمر يخص صفوفنا جميعاً ، ويهم ملك انجلترا هـذا النبيل — كما يهم غيره — أن يستمع إلى رجل يدينه علانية فى وجهه بتهم هناك الـكثير من الناس ممن يكيلونها له كيلا فى غيبته ؛ نحن جميعاً نمجد ونحمد فى ملك انجلترا شجاعته ورفيع أعماله ، ولـكننا يسوءنا منه أن يستولى أبداً فى كل ظرف على السبق والرفعة علينا جميعاً ، وليس يليق بالأمراء المستقلين أن يستكينوا لذلك ؛ نحن نسلم راضين بالـكثير لبسالته وغيرته وثروته وسلطانه ؛ ولـكن ذلك الذى يختطف منا كل شىء على أنه حق من حقوقه ، ولا يترك لنا شيئاً يمنحه إيانا عن رضا وطواعية ، يحط بنا من مرتبة الأحلاف إلى مرتبة الخدام والأتباع ، ويعتم فى أعين جنودنا ورعيتنا بريق نفوذنا ، إذ يرون أنا لا نباشره مستقلين ؛ وحيث أن رتشارد الملك قد سألنا أن نصدقه ، فينبغى له أن لا يدهش أو يغضب إن سمع رجلا حُرِّمت عليه أبهة الدنيا ،

وليس للسلطان الدنيوى لديه وزن إلا بمقدار ما يزيد به من نجاح بيوت الله وإذلال الأسد الذى يتجول هنا وهناك يبحث عمن يفترس — أقول يجب ألا يدهش أو يغضب إن استمع إلى رجل مثلى يصدقه القول ردا على سؤاله ، وهو ذلك القول الحق ، الذى يؤيده بقلبه فى هذه الآونة التى أتحدث فيها إلى كل مصغ لى ، مهما كظم صوتَه احترامُ المليك » .

وبينما كان رئيس الفرسان الأعظم يهاجم مسلك رتشارد هذه المهاجمة المباشرة ، التى لا يسترها من اللفظ طلاء ، علا الدم فى وجنتى الملك علوا شديداً ، وتمتم الحاضرون إثر الخطاب بالرضا ، مما كان يدل أوضح دلالة على أنهم يكادون جميعاً يؤيدون هذه التهم ، وأحنق الملكَ هـذا ، بل كاد يقتله كمداً ، ولـكنه مع ذلك رأى بثاقب بصره أنه إن استسلم لـما فى قلبه من ضغينة ، وأطلق نفسه على سجيتها ، أعطى ذلك المدعى الحذر حقا له عليه ، وهو أهم ما كان يرمى إليـه رئيس فرسان المعبد ، ولذا فقد لبث رتشارد صامتا — رغم شدة وقع الحديث على نفسه — إلى أن أتم دعاء « أبانا الذى فى السماء ... » سرا ، وهى الطريقة التى نصح له قسيسه باتباعها كلما أوشك الغضب أن يملك منه زمام نفسه ، ولـما هدأت ثائرة الملك ، شرع يتكلم كلاماً لا يخلو من نغم مرير ، وبخاصة فى مستهل الخطاب ، قال :

« هل بلغ الأمر هـذا المبلغ ؟ وهل بلغ من إخواننا ألم النفس حدا يجعلهم يلحظون ضعف مزاجنا الطبعى ، وغلظتنا فى التعجل والغيرة اللذين قد يدفعاننا أحياناً إلى إصدار الأمر حينما يضيق الوقت عن عقد المجلس للتشاور ؟ ما كنت أحسب أن الإساءة — إن كانت عارضة وبغير إصرار سابق — تجد لها فى قلوب أحلافى مرتعاً خصيباً فى هذه القضية المقدسة التى نسعى لها ، وأنهم من أجلى يسقطون المحراث من أيديهم ، بعد ما خط الأخدود حتى قرب نهايته ، وأنهم من أجلى يحيدون عن الطريق المستقيمة التى تؤدى إلى بيت المقدس ، والتى بسلاحهم شقوها ؛ حقا لقد كنت أخدع نفسى حينما كنت أظن أن خدماتى القليلة ترجح أخطائى الطائشة — وأنـكم إن ذكرتم أنى خففت إلى الطليعة مهاجماً فما نسيتم أنى كنت أبداً فى

.يل المقهقرين — وإنى إن رفعت رايتى فوق بلد مقهور ، فإن فى ذلك لكل
لجزاء الذى أرجو ، تاركا لغيرى اقتسام المغانم ؛ كنت أستطيع أن أطلق
سمى على المدائن التى نغزو ، ولكنى أسلمت لغيرى البلاد ، وإن كنت عنيداً صلب
الإرادة ، أفرض الرأى بجرأة وإقدام ، فما أحسب أنى ضننت بدمى ودم قومى فى إنفاذ
.لك الرأى بمثل تلك الجرأة وذلك الإقدام ؛ وإن كنت فى عجلة المسير أو فى ساعة
لقتال زعمت لنفسى على جنود الآخرين سلطانا ، فقد كنت أبداً أنظر إلى هؤلاء
لجنود وكأنهم جندى ، أشترى لهم بغالى المؤونة والدواء إن قصر أربابهم عن
حرازها ؛ وإنه والله ليخجلنى أن أذكركم بما يبدو لى أنكم جميعاً من دونى قد نسيتموه ،
لخير لنا أن ننظر قدما إلى مستقبل أعمالنا ، وصدقونى أيها الإخوان . . . »
هنا واصل الملك خطابه ، وقد اشتعل وجهه حماسة وغيرة ، وقال: « صدقونى إنكم لن
تجدوا فى كبرياء رتشارد أو غضبه أو أطماعه إساءة تقف لكم حجر عثرة فى السبيل
لتى يناديكم إليها الدين والمجد نداءً عالياً ، كأن الملك الأعلى ينفخ فى الصور كلا !
كلا ! والله إنى ما أستطيع العيش لو عرفت أن ضعفى ووهنى كانا سببا فى التفرقة
بين هؤلاء الإخوان الكرام من الأمراء الحاشدين ، ووالله لأقطعن بيمينى
يسارى لو كان لديكم دليل ينهض شاهداً ضد إخلاصى ، ولسوف أنزل لكم طائعاً
عن كل حق لى فى قيادة الجيوش ، بل وفى رعيتى الخاصة من أتباعى ، وليسر
بهم أىٌّ ندبتم من الملوك ، ومليكهم — وما كان أحب إليه أبدا من أن — يستبدل
بعصا القائد رمح المقاتل — وسوف ينضوى تحت لواء (بوسان) يخدم بين أصحاب
لعبد ، أى والله ، بل وتحت لواء النمسا ، لو أتت النمسا برجل مقدام يقود
جيوشها . أما إن كنتم أنتم أنفسكم قد مللتم هذه الحرب ، وتحسون بسلاحكم
يعقر بضَّ جلودكم ، فما عليكم إلا أن تتركوا رتشارد ونحو عشرة آلاف ، أو خمسة
عشر ألفاً من جنودكم ، يعمل لكم على البرّ بيمينكم » ثم صاح بهم وقد هز برأسه
إلى أعلى كأنه ينشر علم الصليب فوق بيت المقدس وقال : « وإذا ما ظفرنا
صهيون ، فسوف لا نكتب على أبوابه اسم رتشارد بلانتاجنت ، وإنما أولئك

الأمراء الأكرمين الذين عهدوا إليه بوسائل الظفر والانتصار » .

هذه الفصاحة الجاهلية ، وذلك القول الباسم الذى ألقاه الملك العسكرى ، أثار فى الصليبيين خائر العزيمة ، كما بعث الحياة من جديد فى إخلاصهم ، وتنبهت أذهانهم إلى الغرض الأول من حملتهم ، فعرا أكثرهم الحياء من تأزمهم بتافه الشكاوى التى غمرتهم أمثالها من قبل ، وانتقلت النار من عين إلى عين ، وسرت الحمية من صوت إلى صوت ، فكرروا — وكأنهم مجمعون — نداءَ الحرب الذى سبق لهم أن رددوا به ضراعة بطرس الناسك ، وصاحوا بصوت مرتفع : «سرْ بنا قلبَ الأسد الهمام — ليس لأحد أن يتقدم إن تخلّف الشجعان ؛ سر بنا إلى بيت المقدس ! هذه هى إرادة الله ! هذه هى مشيئة الرحمن ! بارك الله فيمن يقدم لإنجازها سلاحه ! » .

هذه الصيحة ، التى صاحوا جميعا على حين غرة ، نمت إلى ماوراء حلقة الحراس القائمين على سرادق المجمع ، وانتشرت بين جند الجيش ، الذين فتّ من قواهم المرض والجو حتى باتوا متعطلين خائرى العزيمة ، وأخذوا كزعمائهم يهن منهم العزم ؛ ولكن ظهور رتشارد ثانية فى نشاطه المتجدد ، وتلك الصيحة المعروفة التى تردد صداها بين مجمع الأمراء ، أثارت فيهم الغيرة بغتة ، وأجابت الألوف وعشرات الألوف مرددين الصيحة عينها : « صهيون ، صهيون ! — الحرب ، الحرب ! — هيّا توا إلى قتال الكفار ! هى إرادة الله ! هى مشيئة الرحمن ! » .

وهذا الهتاف فى الخارج ضاعف بدوره الغيرة التى سادت داخل السرادق ، وخشى أولئك الذين لم تشتعل النار فى قلوبهم فعلا أن يظهروا أقل حرارة من غيرهم ؛ ولم يعد هناك حديث آخر غير حديث الزحف نحو بيت المقدس بأنوف شامخة بعد انقضاء الهدنة ، وحديث الوسائل التى تتبع فى عين الوقت لإمداد الجيش وإعداده بالرجال ؛ ثم انفض المجمع وظاهرهم جميعا الإيمان التام بغرض واحد — غرض سرعان ما ذوى فى صدور أكثرهم ، وما كان له البتة وجود فى صدور الآخرين .

ومن هذه الجماعة الأخيرة كان المركيز كنراد والرئيس الأعلى لفرسان المعبد ، فأويا معا إلى كنفيهما على مهل ، غير راضيين عما أسفر عنه يومهم هذا .

وقال ثانيهما وعليه سيما الاستخفاف البارد الذى عرف به : « كم من مرة ذكرت لك أن رتشارد يستطيع أن يشق طريقه وسط الحبائل الرقيقة التى تنشر ، كما يشق الأسد نسيج العنكبوت ؛ أفلم تر أنه ما إن تكلم حتى لعبت أنفاسه بأولئك الحمقى المترددين ، كما يلعب الإعصار بالهشيم المنثور فيجمعه أو يبدده كيفما شاء » .

فقال كنراد : « إذا ما انقشع الإعصار استقر الهشيم فوق الأرض ثانية بعد هبوبه على متن الريح » .

فأجابه رئيس المعبد وقال : « لكن هلا علمت فوق ذلك أنه يرجح — إذا ما انتهينا من هذا القصد الجديد الذى قصدنا بالغزو ، وقضى الأمر ، وعاد كل أمير جليل يسترشد بما يهديه إليه عقله الضعيف — أن عسى رتشارد برضا من الأمراء ملكا على بيت المقدس ، وأن يقبل حدود المعاهدة مع صلاح الدين ، التى ظننت أنت نفسك أن ليس أقرب منه أحد بازدرائها والغض منها » ؟

فقال كنراد : «والآن بعد ما أصبحت الأيمان المسيحية عتيقة بالية ، أستحلفك بمحمد ورب محمد إلا قلت لى إن كنت تحسب أن ملك انجلترا العاتى سوف يربط دمه بدم السلطان المسلم ؟ لقد كان من سياستى أن أدخل فى المعاهدة هذا الشرط ، حتى أجعلها بأسرها بغيضة إلى نفسه — وكلا الأمرين شر لنا ؛ إن أصبح سيداً علينا بالغلبة والنصر ، أو بالاتفاق والرضا » .

فأجاب صاحب المعبد قائلاً : « لقد أخطأ دهاؤك مرمى رتشارد ، أنا أعلم هوى الملك مما وسوس لى رئيس الأساقفة ، ومن ضربتك القاضية التى ضربت بذلك العلم ؛ ألم تنقض بتقدير لا يزيد عما تستحق ذراعان من الحرير المزركش ؟ ! — أى مركيز منتسرا ، لقد خبت منك شعلة ذكائك ، وسوف لا أثق بعد اليوم

فى مكائدك الدقيقة الحبك ، ولأعمدن إلى حيلتى . هلا سمعت بأولئك القوم الذين يسميهم الأعراب بالخوارج ؟ »

فأجاب المركيز بقوله : « لا مراء فى أنهم قوم تملك اليأس قلوبهم ، وسلبت الغيرة عقولهم ؛ وقفوا حياتهم على نصرة الدين — وبينهم وبين أصحاب المعبد فى هذا بعض الشبه — إلا أنا ما عرفنا عنهم قط أنهم وقفوا لحظة عن السير فى سبيل دعوتهم » .

فأجاب الراهب عابساً مقطب الوجه وقال : « صاح لا تمزح ، واعلم أن واحداً من أولئك الرجال قد ذكر — فى يمين غليظة أقسمها — اسم عاهل الجزيرة ذاك ، وأقسم لينادين به ألد أعداء دين الإسلام » .

فقال كنراد : « أعدل به من أممى مشرك ، وما أجدره بجنات الخلد جزاء له » !

فقال الرئيس الأعظم : « لقد هداه إلى المعسكر واحد من أتباعنا ، ولما سئل سرا أقر إلىّ صراحة بمرماه الثابت الذى اعتزم » .

فأجاب كنراد : « اللهم اغفر لأولئك الذين وقفوا فى سبيل هذا (الخارجى) العادل ! »

فرد عليه صاحب المعبد وقال : « هو الآن سجينى ، وأظنك تعلم أنه قد حرّم عليه أن يتحدث إلى غيره ؛ ولكن السجون قد هوجمت[1] و ... »

فأجاب المركيز : « ... وكانت السلاسل مسترخية ، فلاذ الأسرى بالفرار — وقديماً قيل : ليس من جب أكيد غير القبر » .

ثم استأنف القس العسكرى حديثه وقال : « ولما ينفك إساره يواصل مسعاه ، فانه من طبع هذه الطائفة من السفاكين ألا يتخلى الواحد منهم أبداً عن طريق الفريسة بعد أن يشتم رائحتها » .

---

(١) هذه هى المكيدة التى يدبرها رئيس فرسان المعبد

فقال المركيز : « حسبك هذا ، إنى ألمس سياستك ، إنها لهيبة ، ولكن سبيل الخلاص قريبة » .

فقال صاحب المعبد : « إنما ذكرتها لك حتى تأخذ لنفسك حذرها ، إذ سوف يكون الضجيج مروعاً ، ولن تدرى على من يصب الإنجليز جام غضبهم — أى والله وإن هناك لخطراً آخر — إن حاجبى يعرف ما بدخيلة هذا (الخارجى) ، وفضلا عن ذلك فإنه أحمق ، سريع الغضب ، قوى الإرادة ؛ وددت والله لو خلصت منه فهو يعترض سبيلى ، ويزعم أنه يرى بعينيه لا بعينى ؛ ولكن طائفتنا المقدسة تخول لى أن أزيل أمثال هذه الحواجز . البث قليلا — قد يجد العربى خنجراً طيباً فى جيبه ، وأنا قمين لك أنه سوف يعمد إليه حينما يريد الانطلاق ، وهذا أمر لا مرية فيه إذا ما دخل عليه الحاجب بالطعام » .

فقال كنراد : « هذا يُلبس الأمر بالشبهات ولكن ... »

فأجاب صاحب المعبد : « إنما (ليت) و (لكن) من كلمات الحمقى الأغبياء ، ولكن الحكماء العقلاء لا يترددون ولا يتراجعون — إنهم إذا قالوا فعلوا » .

الفصل العشرون

إذا أوقعت الليثَ فى حبائلها الحسناء ،
سحرته فلا ينتفض غضباً ،
ولن ينشر من مخالبه رعباً .
وقديما جعل من عصاه مغزلا .
(السديز العظيم) وبات (لأمفالى الحسناء) .
يغزل كى يسر قلبها .

لشاعر غير معروف

كان رتشارد لا تداخل قلبه الريبة ، ولا يعلم بتلك المؤامرة التى كانت تدبر له فى الظلام والتى فصلنا فى مختتم الفصل السابق ، وقد نجح الآن على الأقل فى الظفر بتوحيد الأمراء الصليبيين ، معتزماً أن يواصل الحرب بعنف وشدة ، ولو لم يكن أحب إلى قلبه بعد هذا من أن يقر السكينة بين أهله ؛ والآن ، وقد أضحى فى حكمه أشد اتزاناً ، أراد أن يدقق البحث فى الظروف التى أدت إلى ضياع رايته ، وفى طبيعة العلاقة بين ذات رحمه أديث والمُخاطر الاسكتلندى الطريد .

ومن أجل هذا باغت السر توماس دى ڤو الملكة ووصيفاتها بالزيارة ، يطلب مثول السيدة (كالستا منتفوكن) أول رفيقات الملكة فى مخدعها ، لدى الملك رتشارد .

فقالت كالستا للملكة وهى ترتجف : « ماذا عساى أن أقول يامولاتى ، إنه سوف يقتلنا جميعاً » .

فأجابها دى ڤو وقال : « كلا . لا تخشى ياسيدتى ، لقد أبقى جلالته للفارس الاسكتلندى حياته ، رغم أنه كان أشد من أساء إليه ، وخلعه على الطبيب المغربى فلن يكون جلالته شديدا على سيدة حتى وإن كانت خاطئة » .

وقالت برنجاريا : « ابتكرى لك قصة ماكرة أيتها المرأة ، فإن زوجى وقته يضيق بالبحث وراء الحقيقة » .

وقالت أديث : « قصى عليه القصة كما وقعت وإلا قصصتها نيابة عنك » .

وقال دى ڤو : « إنى ألتمس من مولاتى المليكة خاضعا أن تأذن لى أن أقول بأن السيدة أديث قد أصابت فيما أشارت به ؛ فالملك رتشارد قد يسره أن يعتقد فيما يلذ لجلالتك أن تقصى عليه ، إلا أنى أشك فى أنه يقيم للسيدة كالستا مثل هذا الاحترام ، وبخاصة فى هذا الأمر الذى نحن به » .

وخطر لكالستا ما سوف يجرى من بحث وتدقيق فى هذا الشأن ، فعراها اضطراب شديد وقالت : « لقد أصاب لورد جلزلاند . وفضلا عن ذلك فإنه لو كان لى من حضور الذهن ما يكفى للخداع بقصة معقولة ، فصدقونى إنى لأحسب أنى سوف لا أجد من نفسى الشجاعة على قصها » .

وبهذا الميل إلى الصراحة فى القول سار دى ڤو بكالستا إلى الملك حيث أقرت — كما اعتزمت — إقراراً صريحاً بالخدعة التى أغرى بها فارس النمر التعس على أن يهجر مقر واجبه ؛ وبذا برّأت السيدة أديث ، وكانت تعلم أنها لن تقصر فى تبرئة نفسها ، وألقت بالعبء كله على عاتق الملكة سيدتها ، وكانت تعرف حق المعرفة أن حظها فى هذا المزاح بالفارس سوف يكون فى عينى قلب الأسد أشد ما هو جدير بالعفو . وحقا لقد كان رتشارد زوجاً متيما ، بل خاضعاً لزوجه ذليلا لها ؛ وقد طال الأمد مذ انفجر غاضباً أول الأمر ، ولم يعد الآن يميل إلى اللوم الشديد فى أمر لا سبيل إلى تقويمه ؛ وكانت السيدة كالستا الخبيثة قد تعودت منذ نعومة أظفارها أن تسبر غور دسائس البلاط ، وترقب ما قد يدل على إرادة المليك ، نخفت كالطائر مسرعة تحمل أمر الملك إلى زوجه بأن تتأهب لزيارة مباغتة منه ، وزادت على هذا الأمر رفيقةُ الملكة فى مخدعها تعليقا من عندها ، يقوم على ملاحظاتها الخاصة ، أرادت أن تبين به أن رتشارد لم يقصد إلا إلى أن يظهر ببعض الشدة ، كى يحمل زوجه المليكة على أن تقر بندمها على مزاحها ، ثم يحبوها هى وكل من له يد فى الأمر بعفوه الكريم .

وسرّى هذا النبأ عن الملكة كثيرا فقالت : « هل هذا كل ما فى الأمر أيتها

المرأة ؛ صدقيني إن رتشارد قائد عظيم ، لكنه سوف يتعسر عليه أن يراوغنا فى هذا الشأن ، وهو فى هذا ينطبق عليه قول رعاة (البرانيس) المألوف فى وطنى (نافار) : « ما أكثر من أتى طلبا لصوف الأغنام وعاد بغنمه مجزوزا » .

وبعد ما ألمّت الملكة برنجاريا بكل ما حدثتها به كالستا من خبر ، ارتدت فاخر الثياب ، ولبثت هادئة الخاطر ، مستقرة النفس ، ترقب قدوم رتشارد الجسور .

ولما أن قدم الملك ألفى نفسه وهو فى موقف الأمير الذى يدخل إقليما أساء أهله إليه (إلى الأمير) ، وهو على ثقة من أن عمله سوف لا يعدو توقيع الملامة وتلقى الخضوع ، فإذا به يجد أهل الإقليم — على غير ما كان ينتظر — فى أشد حال من المناوأة والعصيان ؛ فلقد كانت برنجاريا تعرف حق المعرفة سحر جمالها ، ومبلغ حب رتشارد لها ، وتحس بالثقة فى أنها تستطيع أن تتفق معه على ما يرضيها بعد ما انقشعت عنه ثائرة الغضب المخوفة الأولى دون أن يصدر عنه أذى أو ضرر ، وما كان أبعدها عن أن تستمع إلى ما اعتزم الملك من عذل حق عليها لرعونتها فى مسلكها ، فقد أخذت تلتمس المعاذير عما اتُّهمت به ، بل وتدفع عنه على أنه مزاح لا ضرر منه ، وقد أنكرت — وكانت صيغة الإنكار جميلة حقا — أنها بعثت بنكتبانس كى يغرى بالفارس إلى أبعد من حافة الجبل الذى وقف حارسا على قمته ؛ وحقا لقد صدقت فيما قالت ، إذ أنها لم ترد بالسر كنث أن يدخل فسطاطها ؛ ولئن كانت الملكة فى سياقها لدفاعها ذلقة فصيحة ، فلقد كانت أفصح وأذلق فى اتهامها لرتشارد بالقسوة لضنه عليها بمنحة حقيرة يمنحها إياها ، وتلك هى حياة فارس بائس ، ساقه إلى خطر القانون العسكرى مزاحٌ غير مقصود ، ثم بكت ونشجت وبالغت فى وصفها لعناد الملك فى هذا الأمر ، وقالت إن صرامته تهددها بالشقاء فى حياتها ، كلما فكرت فى أنها كانت — على غير قصد منها — الباعث الأول على هذه المأساة ، فلسوف ينتابها فى أحلامها مرأى الفريسة الصريعة ، ولسوف يقف إلى جوار سريرها شبحه بعينه ويحرمها النوم ، وما تعرف لهذا من سبب ، ولكن هذا هو ما يحدث فى غالب الأحيان ؛ ولن تستهدف

لهذا الشقاء النفسى إلا من قسوة رجل ، بينما هو يزعم أنه يموت هوى فى أدنى إشارة منها ، لا يتخلى عن نقمته على ذلك الرجل المسكين مهما نجم عن ذلك من شقاء لها .

وصحبت كل هذه الفصاحة النسوية المتدفقة لغة الدموع والحسرات ، وكان فى حديث الملكة من النغم والحركات ما يدل على أن استياءها لم ينشأ عن كبر أو نزق ، وإنما عن شعور آثم حينما أدركت أن نفوذها على زوجها أضعف مما كانت تظن .

وكان رتشارد الملك الصالح شديد الحيرة والارتباك ، وعبثا حاول أن يتفاهم وامرأة أعجزتها غيرتها على محبته عن الإصغاء للحديث ؛ ولم يستطع الملك أن يعمد إلى ماله من نفوذ شرعى يسيطر به على سيدة لها هذا الجمال ، وهى فى شدة الحزن الذى ليس له ما يبرره ، فتراجع إلى حدود الدفاع ، وحاول متلطفا أن يعذلها على ريبتها ، ويخفف من غلوائها ، ويذكرها أن لاحاجة بها إلى ذكر الماضى بالندم أو بالخوف الشديد ، مادام السر كنث مابرح على قيد الحياة وما به من سوء ، فقد خلعه الملك على الطبيب النطاسى العربى ، وهو رجل — من دون الرجال لاريب — عرف كيف يحفظ له حياته ؛ ولكن هذه الكلمة الأخيرة كانت أشد كلمات الملك على نفسها وقعا ، فتجددت للملكة أحزانها حينما ذكرت أن عربيا طبيبا قد نال هذا العطاء الذى طلبته هى إلى زوجها جاثية على ركبتيها ، ورأسها حاسر ، ولكن بغير جدوى ؛ وما إن فرغت من هذه التهمة الأخيرة حتى نفد صبر الملك ، وقال فى نغمة الجد : « أى برنجاريا ، اعلمى أن هذا الطبيب قد أنقذ لى حياتى ، فإن كان لحياتى فى عينيك وزن فلن تضنى عليه بجزاء خير من هذا الجزاء الوحيد ، الذى استطعت أن أحمله على قبوله » .

وسرت الملكة لبلوغها بر السلامة بعد غضبها ودلالها .

فقالت : « حبيبى رتشارد ، لِمَ لَمْ تأت لى بهذا الحكيم ، حتى تستطيع ملكة انجلترا أن تبين له قدره فى عينها ، وقد أنقذ من الخبو مصباح الفروسية ،

ونخار انجلترا ، ونور حياة برنجاريا الضعيفة ، وأملها ورجاءها ؟ » .

وهكذا انتهى النزاع الزوجى ، ولكن الملك والملكة كليهما ارتأيا أن العدالة تتطلب بعض العقاب ، واتفقا على صب اللوم بأسره على عاملهما نكتبانس ، وكانت الملكة إذ ذاك قد ملت نكات القزم المسكين ، فأصدرت مع الملك حكما عليه وعلى حليلته الملكة جنفرا بإبعادهما عن البلاط . وما كان للقزم التعس أن ينجو من الضرب بالسياط ، لولا أن الملكة قد أكدت أنه قد نال عقوبته الشخصية من قبل ؛ وكذلك أصدر صاحبا الجلالة إرادتهما بأنه لما كان لا بد من بعث رسول إلى صلاح الدين فى وقت قريب لإخطاره باعتزام المجمع على مواصلة العداء بعد انتهاء الهدنة مباشرة ، ولما كان رتشارد يفكر فى إرسال هدية قيمة للسلطان اعترافاً بالجميل الكبير الذى ناله على يدى الحكيم ، فإن ذينك الشخصين البائسين ينبغى أن ينضما إلى الهدية طُرفتين تصلحان للإهداء من مليك إلى مليك ، لما لهما من ظاهر غاية فى الغرابة ، وعقل موزع شتيت » .

وكان على رتشارد ذلك اليوم أن يكابد مقابلة نسوية أخرى ، ولكنه تقدم إليها قليل الاكتراث غير آبه ، وذلك لأن أديث وإن كانت جميلة يحلها قريبها الملك محلا رفيعاً ، بل ولئن كانت قد عانت فعلا من جراء شكوكه الجائرة ذلك الأذى الذى تظاهرت برنجاريا بالشكاية منه ، إلا أنها لم تكن لرتشارد زوجاً ولا حظية ، فكان يخشى عتابها — على ما فى عتابها من حق — أقل مما كان يخشى عتاب الملكة ، رغم مافيه من جد وشذوذ . وبعد ما طلب الملك أن يتحدث إليها منفردة ، سيق إلى غرفتها المتاخمة لحجرة الملكة ، وما برح جاريتاها القبطيتان جاثيتين على الركب فى أقصى زاوية طوال المقابلة ؛ وكان يستر هذه الفتاة الكريمة النسب حجابٌ أسود رقيق ، تتدلى ثناياه الكثيفة على قدها الفاتن المشوق ، ولم تتحل بأية زينة مما يتجمل به السيدات ، وما إن دخل عليها رتشارد حتى نهضت وانحنت إجلالا ، ثم عادت إلى مقعدها بعد ما أشار إليها بذلك ، ولما جلس إلى جوارها لزمت الصمت ، ولم تنبس ببنت شفة ، حتى يبدأها الحديث بما يريد .

وقد ألف رتشارد مع أديث الصراحة التى تخولها لها صلة الرحم ، إلا أنه أحس ببرودة هذا اللقاء ، وافتتح الحديث فى شىء من الحيرة والارتباك .

وأخيراً قال : « إن ابنة العم الحسناء غاضبة منا ؛ وإنا نقر بأن ظروفاً قاسية قد حدت بنا — لغير ماسبب — إلى أن نعزو إليها مسلكا لايتفق وما عرفنا من قديم عن سيرتها فى حياتهـا ، ولـكنا إذ نسير فى وادى الإنسانية المظلم نخطئ الأشباح نحسبها جسوماً ، فهلا صفحت ابنة العم الحسناء عن ابن جلدتها رتشارد ، الذى يشوبه شىء من الشدة والعنف ؟ » .

فأجابت أديث وقالت : « من ذا الذى يضن بالصفح عن رتشارد ، إن كان رتشارد الرجل يأتى بالعفو من رتشارد المليك ؟ » .

فأجابها قلب الأسد قائلا : « تعالىْ قريبتى ، هذا جد صارم ، أقسم بالسيدة العذراء إن هذه النظرات الـكئيبة ، وهذا الحجاب القاتم الطويل ، لتحدو بالرجال إلى أن يحسبوك أرملة محدثة ، أو على الأقل امرأة فقدت عشيقها وخطيبها ، سرّى عن نفسك — ألم يبلغك أن ليس هناك سبب حق للحزن والأسى — فلمـاذا تظهرين بمظهر الحداد ؟ » .

« أظهر به أسى على شرف بلانتاجنت الضائع ، وعلى الجـلال الذى خلّف بيت أبى » .

فقطب رتشارد الجبين ، وكرر قولها غاضباً وقال : « الشرف الضائع ! والجلال الذى خلف بيتنا ؟ ولـكن ابنة عمى أديث على حق ، فلقد حكمت عليها متعجلا ، فمن حقها إذن أن تغلظ علىّ وتقسو ، ولـكن لا أقل من أن تخبرينى فيم كان خطئى » .

فقالت أديث : «كان على بلانتاجنت إما أن يتسامح فى الإساءة أو يجازيها ، وما يليق به أن يكبل فى قيود الـكفار رجالا أحراراً من المسـيحيين وبواسل الفرسان ، وماينبغى له أن يفاوض ويساوم ، أو أن يمنح الحياة على أن يسلبها حريتها ؛ والله لو أنك قضيت على هذا البائس بالموت لـكان قسوة منك وغلظة ، ولـكنها

الغلطة فى ثياب العدالة ؛ أما أن تحكم عليه بالرق والنفى فهذا ظلم صراح » .

فقال رتشارد : « ما أحسب ابنة عمى الحسناء إلا من أوليائكن الغيد اللواتى يرين بُعد العاشق وموته سـواء ؛ صبراً فتاتى ، إن عشرة من خفاف الفوارس يستطيعون أن يتبعوا الرجل ويصلحوا ما أخطأنا ، إن كان لدى محبك هذا سر من الأسرار يجعل موته خيراً من نفيه » .

فاشتد احمرار أديث وقالت : « كفاك بذاءة فى المزاح ، واعلم أنك كى تسترسل فى هواك بترت من هذا المشروع العظيم عضواً كريماً ، وحرمت الصليب دعامة من أقوى دعاماته ، وأسلمت خادماً من خدام الإلـه الحق إلى أيدى الكفرة المشركين ؛ وأعطيت كذلك لعقول مرتابة — كعقلك الذى أبديت فى هذا الشأن — بعض الحق فى القول بأن رتشارد قلب الأسد قد نفى من معسكره أشجع جنوده ، خشية أن يبارى باسمه فى القتال اسمه » .

فصاح بها رتشارد ، وقد غلت ثائرته الآن حقا ، وقال : «أنا — أنا ! أفتحسبيننى ممن يغارون من الذكر وبعد الصيت ؟ — وددت لو كان هنا وأقرّ بمساواته بى ! إذن لنفضت عنى شرفى وتاجى ، ولاقيته كما يلاقى الرجل الرجل فى ساحة النزال ، حتى يبدو للعيان إن كان رتشارد بلانتاجنت لديه مجال للحسد أو للخوف من جرأة إنسان فان أيا كان . تعالىْ أديث ، إنك لا تعتقدين بما تقولين ؛ لا تكونى لغضبك أو حزنك على غياب عشيقك لقريبك ظالمة ، وهو — رغم هياجك وثورتك — يحمل لحسن طويتك تقديراً كبيراً لا يعلوه تقدير لأى امرئ على قيد الحياة » .

فقالت السيدة أديث : « غياب عشيقى ؟ أى نعم ، تستطيع أن تسميه عشيقى بعد أن دفع لهذا الاسم ثمنا غاليا ؛ إنى يامولاى — وإن كنت غير قمينة بولائه هذا — إلا أنى كنت له كالضياء أهديه سبيله قدُما فى طريق الفروسية النبيلة ؛ أما أنى قد نسيت مكانتى ، وأما أنه قد زعم لنفسه ما ليس له فزور وبهتان ، حتى وإن كان مَلِكاً من يقول بهذا » .

فقال رتشارد : « لا تتقوّلى علىّ يا ابنة العم الحسناء بما لم أقل ، أنا لم أذكر

أنك حبوت هذا الرجل بأكثر مما قد يكسبُ فارس كريم من رضاً — حتى من أميرة — مهما يكن منبته . ولكني أقسم لك بالسيدة العذراء إني أعلم شيئا عن هذا الضرب من الحب . إنه يبدأ بالاحترام مع الصمت ، والتقدير مع البعد ؛ ولكن ما إن تسنح الفرصة حتى تنمو الألفة ، ثم . . ولكن دعينا من هذا ، فليس من الكياسة أن أتحدث إلى سيدة ترى نفسها أحكم العالم طرا » .

فقالت أديث : «يسرني أن أصغى عن طيب خاطر لما يشير به قريبي ، إن كانت مشورته لا تنطوى على المهانة لمكانتي وخلق » .

فأجابها رتشارد وقال : « إن الملوك يا ابنة عمى الحسناء لا ينصحون ، وإنما هم يأمرون » .

فقالت أديث : « حقا إن السلاطين ليأمرون ، وما ذلك إلا لأن لهم رقيقا يحكمون » .

فرد عليها الملك وقال : « هيّا أديث ، ولا تزدرى السلطنة جانبا ، ما دمت ترفعين رجلا اسكتلنديا إلى هذه المرتبة العالية . والله إني لأرى صلاح الدين أبر بكلمته من وليم صاحب اسكتلندا ، الذى يلقب بالليث ؛ لقد أساء إلىّ إساءة شنعاء بتقصيره فى إرسال المدد والمعونة التى وعدنى ؛ دعينى أخبرك يا أديث أنك قد تحيين حتى يأتى يوم تؤثرين فيه تركيا صادقا على اسكتلندى كاذب » .

فأجابته أديث قائلة : « كلا . أبدا ! إن رتشارد نفسه لن يعتنق الدين الكاذب الذى عبر البحار لإقصائه عن فلسطين » .

فقال رتشارد : « لك الكلمة الأخيرة ، وسوف تُعطينها ، ولتظنى بى ما شئت يا أديث الحسناء ، فلن أنسى أنّا بنو عمومة قريبة وعزيزة » .

وما إن أتم حديثه حتى انصرف فى رقة وكياسة ، ولكنه قليل الرضا بما انتهت إليه زيارته .

وفى اليوم الرابع مذ أبعد السر كنث عن المعسكر ، جلس الملك رتشارد فى سرادقه يستمتع بنسيم المساء يهب من الغرب ، ويحمل على جناحيه برودة غير

معهودة فيه ، كأنه يصّاعد من انجلترا الطروبة لإنعاش مليكها الخاطر ، وهو يسترد شيئا فشيئا كامل القوى الضرورية لإنفاذ مشروعاته الخطيرة ؛ وكان وحيدا لأنه بعث بدى ڤو إلى عسقلان كى يأتى بالمدد والمؤونة من الذخيرة الحربية ، وكانت الكثرة الأخرى من حاشيته مشتغلة بمختلف المهام ، كلهم يتأهبون لفتح باب العداوة من جديد ، ولاستعداد عظيم إعدادىّ لجيش الصليبيين يقام فى اليوم التالى ؛ وجلس الملك منصتا للطنين والضجيج بين الجند ، وللطقطقة المنبعثة من الأكوار ، حيث كانت الخيل تُعد بحوافر من حديد ، وللشغب يصدر من صانعى الأسلحة الذين كانوا يصلحون عدة الخيول ؛ وكذلك كانت أصوات الجند — وهم يسيرون جيئة وذهابا — عالية مرحة ، فى نبراتها ما يؤكد الهمة القعساء والبسالة الثائرة ، وما يبشر بالنصر القريب ؛ فاهتزت أذنا رتشارد طربا لهذه الأصوات واسترسل لأحلام الظفر والمجد التى أثارها فى نفسه هذا الصخب . وبينا هو كذلك إذا برئيس الحجاب يخبره أن رسولا من صلاح الدين ينتظر واقفا بالباب .

فقال الملك : « أدخله توا ، وأدِّ له ما يجب من الاحترام يا چوسلين » .

فصدع الفارس الانجليزى بالأمر ، وأقبل ومعه رجل تدل هيئته على أنه لا يعلو على العبد النوبى مرتبة ، ولكن ظاهره — رغم ذلك — يسر الناظرين . كان طويل القامه ، سمح البزة ، ملامحه نافذة حالكة ، ولكنها لا تنم عن شىء من سلالة الزنوج ؛ وكانت تغطى خصلات شعره الفاحم عمامةٌ ناصعة البياض ، وعلى كتفيه وشاح قصير من لون العمامة ، منفرج من مقدمه ومن كميه ، ويظهر من تحته صدار من جلد النمر المدبوغ ، يتدلى إلى ما فوق الركبتين بعرض الكف ، وأما ما بقى من أطرافه المفتولة ، ساقيه وساعديه ، فقد كان عاريا ؛ اللهم إلا خفين فى قدميه ؛ وكان يلبس طوقا على رقبته ، وسوارا من فضة ، ويتدلى من خصره سيف مستقيم عريض النصل ، له مقبض من خشب البقس ، وغمد يكسوه جلد الأفعوان ، وبيمينه نشابة قصيرة ، رأسها عريض لامع صلب ، طولها شبر ؛ وبيساره يقود كلبا كبيرا نبيلا يجذبه برباط من خيوط الذهب والفضة المفتولة .

وخر الرسول ساجدا ؛ وقد عرّى جانبا من كتفيه إشارة إلى خضوعه ؛ وما إن لمس الأرض بجبينه حتى نهض جاثيا على ركبتيه ، وناول الملك منديلا من الحرير يضم آخر من قماش من صفائح الذهب ؛ بداخله خطاب من صلاح الدين ، عربى أصله ، ومصحوب بترجمة إلى الانجليزية النورماندية تعريبها كما يلى :

« من صلاح الدين ملك الملوك ، إلى الملك رتشارد ليث انجلترا ؛ نما إلينا من رسالتكم الأخيرة أنكم قد آثرتم الحرب على السلم ، وعداوتنا على صداقتنا ، وما نحسبك فى هذا إلا رجلا أعمى الله بصيرته ، وإنا على يقين أنا عما قريب سوف نقنعك بخطئك ؛ تعاوننا فى ذلك جيوش ألف قبيل لاتقهر ؛ وسيفصل الله فيما بيننا من خصومة . وأما ما خلا ذلك فنحن نعتقد فى نبل خلقك ؛ ونقدر الهدايا التى بعثت بها إلينا قدراً كبيراً ؛ كما نقدر القزمين الفريدين فى تشويه خلقهما كأن كلا منهما (عيسو) ، الطروبين كقيثارة إسحق ؛ ردا على هذه الهدايا التى بعثت من كنوز جودك ، نرسل إليك عبدا نوبيا اسمه (زوهاق) لا تحكم عليه ببشرته كما يحكم الأغبياء فى هذه الدنيا ، فإن الثمر إذا اسودت قشوره حلا مذاقه ؛ واعلم أنه يقوى على تنفيذ إرادة سيده ، كما كان (رستم زبلاستن) . وإن تعلمت مخاطبته ألفيته حكيما فى مشورته ، واذكر أن (رب الفصاحة) قد أصابه العى وهو بين جدران قصره العاجية . نحن نسلمه لرعايتك آملين أن لا يطول الأمد قبل أن يؤدى لك خدمة طيبة ؛ ونحن مع هذا نقرئك السلام راجين أن يمن عليك نبينا صلى الله عليه وسلم بإدراك الحق ، ولئن فاتك نور الحق فرجاؤنا لك أن تسترد صحتك العزيزة عاجلا ، حتى يحكم الله بيننا وبينك فى ساحة الوغى » .

وكانت الرسالة مذيلة بتوقيع السلطان وخاتمه .

وحدق رتشارد فى النوبى صامتا ، والرجل ماثل أمامه ، خافض الطرف ، وقد أطبق ذراعيه على صدره ، يشبه فى وقفته تمثالا من المرمر الأسود ، دقيق الصنع ، ينتظر الحياة من ملمس (بروميتيس[1]) ؛ وقد قال هنرى الثامن خليفة ملك انجلترا

---

(١) إله من آلهة اليونان يخلق الإنسان من الطين ، ويسرق النار من فوق (أولمب) ويعلم الناس استخدامها كما يعلمهم فنونا أخرى .

بصيغة التأكيد عن رتشارد إنه يحب النظر إلى الرجال ، وحقا لقد سره كثيرا أن يشهد من ذلك الماثل أمامه عصبه ومفتول عضلاته واتساق جسمه ، ووجه إليه السؤال باللغة الفرنجية ، وقال له : « هل أنت وثنى ؟ » .

فهز العبد برأسه ، ورفع إصبعه إلى جبينه ، ورسم علامة الصليب على نفسه دليلا على إيمانه بالمسيحية ، ثم عاد إلى وقفته خاشعا لا حراك به .

فقال رتشارد : « لا مشاحة فى أنه نوبى مسيحى ، وقد حرمه القدرةَ على الكلام هؤلاء الأوغاد المنافقون ، أليس كذلك ؟ » .

فهز الرجل الأبكم برأسه ثانية فى تؤدة وأناة دلالة النفى ، وأشار بسبابته إلى السماء ، ثم وضعها على شفتيه .

فقال رتشارد : « إنى أدرك ما ترمى إليه ، إنك تعانى من الله بلواه ، ولا تشكو قسوة الإنسان . هل تستطيع أن تجلو السلاح وتنظف النطاق ، وتعقده عند الحاجة ؟ » .

فخفض الأبكم رأسه ، ثم سار نحو الزرد الذى كان معلقا — مع دزع الملك الفارس وخوذته — بدعامة من دعامات السرادق ، وأمسك به بهوادة ورفق ، وكان فى ذلك دليل كاف على أنه كان يعرف حق المعرفة واجب حامل السلاح .

فقال الملك : « حقا إنك لهذا لكفء ، ولا ريب فى أنك تصلح خادما نافعا . عليك أن تقف بحجرتى وتقوم على خدمتى ، حتى يرى الناس كم ذا أنا أقدر عطية السلطان الملكى ؛ وليس لك لسان ، فجلىٌّ إذن أنك لا تستطيع رواية ما ترى ، ولن تستفزنى فأتعجل بجواب غير لائق » .

فخر النوبى ساجدا ثانية حتى مس جبينه الأرض ، ثم انتصب قائما بعيدا عن الملك ببضع خطوات ، كأنه يرتقب ما يأمر به سيده الجديد .

فقال رتشارد : « أى والله ، لتبدأن عملك توا ، فإنى أرى أثرا من صدإ يسوِّد وجه هذا الدرع ، وأنا أوده — إذا ما هززت به فى وجه صلاح الدين — أن يكون براقا لاقتام فيه ، كشرفى وشرف صلاح الدين » .

وفى تلك الآونة نفخ فى البوق نافخ خارج السرادق ، ودخل فى الحال السر هنرى نقيل ومعه ثلة من الرسائل ، قال وهو يقدمها : « هذه الرسائل من انجلترا يا مولاى » .

فكر رتشارد قوله بنغمة المتلهف الحزين وقال : « من انجلترا ! من بلادى العزيزة ! وا أسفاه ! إنهم لا يفكرون إلا قليلا كيف حاق بمليكهم المرض العضال والأسى الشديد — ما أوهى صداقتهم وما أجرأ عداوتهم ! » ثم فض الرسائل ، وقال عاجلا : « ها ! ليست هذه الرسائل من بلد آمن ، إن أسباب الشحناء بينهم كذلك — اعزب عنى يا نقيل — ينبغى أن أطالع هذه الأخبار وحيدا وعلى مهل » .

فانسحب نقيل على إثر ذلك ، وسرعان ما انهمك رتشارد فى تفصيل الأمر الأليم الذى جاءه نبأه من انجلترا ، وهو يتعلق بالخصومات الحزبية التى كانت تمزق وطنه إربا إربا من جراء الخلاف بين أخويه (چون) و (جوفرى) ، والنزاع الذى نشب بينهما من ناحية ، وبين كبير القضاة (لنجتشامب) أسقف (إيلى) من ناحية أخرى ، كما يتعلق بالمظالم التى يفرضها النبلاء على أهل القرى ، وثورة هؤلاء على أولى الأمر منهم ثورة نجمت عنها ضروب من الخصومة فى كل مكان وإراقة الدماء هنا وهناك ، ووردت إليه فى الرسائل أنباء مفصلة عن حوادث قاتلة لكبريائه ، ومحطة بنفوذه ، يصحبها النصح الشديد من أحكم مستشاريه وأقربهم إليه ، يشيرون عليه بالعودة إلى انجلترا عاجلا ، إذ أن فى وجوده بينهم الأمل الوحيد فى إنقاذ المملكة من مخاوف الخصومة الأهلية جميعا ، تلك الخصومة التى يرجح أن تفيد منها فرنسا واسكتلندا ؛ وجزع رتشارد لهذه الأنباء أشد الجزع ، فقرأ تلك الرسائل المشئومة مرة تلو الأخرى ، ووازن بين ما يحتويه بعضها من خبر وبين الحقائق عينها كما سيقت فى بعضها الآخر سياقا آخر ، وسرعان ما أضحى وهو لا يحس بما كان يدور حوله ، رغم أنه كان يجلس قريبا من مدخل فسطاطه قصد الانتعاش بالهواء البارد ، وقد أمر برفع السجف حتى يمكنه أن يرى الحراس وغيرهم من الواقفين فى الخارج ويرونه .

وفى ظل السرادق كان العبد النوبى يجلس مستغرقاً فى عمله ، مشتغلا بالواجب الذى فرضه عليه سيده ، مولياً ظهره شطر المليك ، وكان قد فرغ من إعداد الزرد والدرع وتنظيفهما ، وشرع يشتغل بدرقة عريضة كبيرة الحجم مكسوة بصفائح الصلب ، كثيراً ما يستخدمها رتشارد ، حينما يخرج لاستطلاع الأماكن الحصينة أو لضربها فعلا ، حمايةً له وذريعة تقيه قذائف الأسلحة أكثر مما يقيه الدرع الضيق الثلاثى الذى كان يستخدمه وهو على ظهر الجواد ؛ ولم تتسم هذه الدرقة ، لا بأُسد انجلترا ، رمز سلطانها ، ولا بأى رسم آخر فتجتذب أنظار الذائدين عن الجدر التى كانت الدرقة تنطلق صوبها ؛ فكانت إذن عناية خادم السلاح مقصورة على إجلاء وجهها حتى يضىء ضياء البلور اللامع ، وقد نجح الخادم فى هذا العمل غاية النجاح . وإلى ما وراء النوبى كان يرقد الكلب الكبير ، وتكاد لا تراه العين من الخارج ، وتستطيع أن تقول عن هذا الكلب إنه صنو النوبى فى رقه واستعبادهُ ، وكان كأنه يحس بالخوف من الانتقال إلى حيازة الملك ، فاستلقى ملاصقاً لجوار الرجل الأبكم ، ورأسه وأذناه إلى الأرض ، وذيله وأطرافه متجمعة قريب بعضها من بعض تحته وحواليه .

وبينما كان الملك وخادمه الجديد مشتغلين عما هما فيه ، انضم إلى هذا المنظر الذى وصفنا رجل آخر ، واختلط بجماعة العامة من الإنجليز ، وكان نحو العشرين منهم يقومون بالحراسة أمام سرادق الملك صامتين — خلافاً لما عهد فيهم — نظراً لهيئة التأمل والتفكير العميق والانهماك الشديد الذى استرسل فيه مليكهم استرسالا لم يألفوه فيه من قبل ، ولكنهم — رغم هذا — لم يكونوا فى حراستهم أشد يقظة منهم فى أى وقت آخر ، فكان بعضهم يلعب بالحصى الصغير مقامراً ، وبعضهم يتهامسون عن يوم القتال القريب ، وكثيرون منهم قد استلقوا وأغرقوا فى النعاس ، وأطرافهم الجسمية منطوية فى برودهم الخضر .

تسلل وسط هؤلاء الحراس الغافلين رجل تركى هرم ، صغير الجسم ،

زري الهيئة ، حقير اللباس ، يشبه بزيه وليا أو شيخاً من شيوخ الصحراء المتحمسين للدين ، الذين كانوا أحياناً يقتحمون معسكر الصليبيين ، رغم ما كانوا يلاقون دائماً من سخرية ، بل ومن قسوة وشدة فى غالب الأحيان . وحقا لقد كان الترف والانغماس فى الملاذ الذى يسرف فيه زعماء المسيحيين يأتى إلى خيامهم بحشد خليط من المطربين والعاهرات والتجار اليهود والأقباط والترك ومختلف الرجال من أمم الشرق ، وجميعهم من سقط المتاع ، حتى باتت العمامة والقفطان شيئاً مألوفاً فى معسكر الصليبيين ، رغم ما كان يسود بينهم من أن الحملة إنما ترمى إلى إقصائهما من الأرض المقدسة ؛ ولما دنا هذا الرجل الصغير الحجم ، الزرى الهيئة ، الذى وصفنا ، وبات على مقربة من الحراس ، حتى وقفوا فى سبيله ، طرح عمامته الداكنة الخضراء عن رأسه ، وظهر للرائى أنه حليق الذقن والحاجبين كأنه مهرج محترف ، وأن سيماء ملامحه الملتوية العجيبة ، وعينيه الصغيرتين السوداوين اللتين كانتا تتألقان كالكهرمان الأسود ، تنم عن خيال شارد مخبول .

وكان الجند يعرفون أساليب هؤلاء المعتوهين المتجولين ، فصاحوا بالرجل : « ارقص لنا أيها الشيخ ، ارقص وإلا ضربناك بحبال نبالنا حتى يدور جسمك كما يدور الخذروف يحركه الصبي بسوطه » . وهكذا علا صياح الحراس الطائشين ، فرحين جذلين لأنهم وجدوا بينهم رجلا يغيظونه ، كما يفرح الطفل حينما يمسك بالفراشة ، أو التلميذ إذا كشف عن عش طائر .

وكأن الشيخ قد سره أن يصدع بما أمر فقفز من الأرض واستدار بجسمه المائد أمامهم بخفة ما بعدها خفة ، إذا قرنت بها جسده النحيل الهزيل ، ومظهره الضئيل ، ألفيته شبيها بورقة ذاوية من أوراق الشجر ، تترنح على هوى ريح الشتاء العاصف ، وله ذؤابة من الشعر تمتد من رأسه الأصلع الحليق إلى أعلى ، كأن عفريتاً من الجن يعلقه بها . ويظهر أن فنا سماويا كان يلزمه للقيام بهذا الرقص الهمجى الدائر ، الذى توشك معه أن لا ترى أطراف قدمى الراقص وهى تمس الأرض ؛ وبينا كان الرجل يرقص هذا الرقص العجيب ، كنت تراه يتمايل يمنة ويسرة ، وينتقل

من مكان إلى آخر ، مقتربا شيئا فشيئا من مدخل السرادق الملكى ، بحيث لا يكاد الرأى يدرك منه ذلك ، حتى إنه لما خر على الأرض أخيرا منهوك القوى ، بعد ماقفز قفزتين أو ثلاث أعلى من كل وثبة وثبها من قبل ، لم يكن بينه وبين شخص الملك ما ينيف على ثلاثين ذراعا .

فقال أحد العامة : « اعطه ماء . إنهم جميعاً يتشوقون إلى الشراب بعد الرقص والطرب » .

فأجابه نبال آخر بصيغة التأكيد والازدراء بهذا الشراب الحقير وقال : « آه ! أتقول ماء يا (لنج ألن) وكيف تحب أنت شرابا كهذا بعد رقص مغربى كذلك الذى رأيته » .

وقال ثالث : « لن نعطى الوغد قطرة ماء ، ولسوف نعلم هـذا المنافق الهرم الخفيف القدم أن يكون مسيحيا صالحا ويحتسى نبيذ قبرص » .

وقال رابع : « أى والله ، ولئن كان شموسا فلتأت بكأس (دك هنتر) التى يسقى بها فرسه » .

وسرعان ما أحاط (بالدرويش) — وهو منهوك طريح الأرض — حشد من الرجال ، ورفع واحد منهم طويلُ القامة جسمَ الرجل الهزيل عن الأرض ، بينما قدم له الآخر قدحا كبيرا من النبيذ ، ولكن الرجل الهرم ، وقد عيى عن الكلام ، هز رأسه وأبعد بيده الشراب الذى حرمه عليه النبى ؛ ولكن القوم الذين أرادوا به العذاب ما كانوا بهذا يرجعون .

فصاح أحدهم : « الكأس ، الكأس ! ما أشبه الرجل التركى بالجواد التركى ، ولسوف نعامله معاملة الخيول» .

وقال (لنج الن) : « أقسم بالقديس چورج إنكم لتخنقنه ! وإنه لإثم أن ترموا وغدا وثنيا بمقدار من النبيذ يغنى رجلا مسيحيا عن ثلاثة أضعاف ما يحرز من سكرة النوم » .

فرد عليه (هنرى وُدْستول) وقال : « إنك لا تعرف طباع هؤلاء الأتراك

الملحدين يا (لنج ألن) ؛ إعلم أيها الرجل أن قدحا من نبيذ قبرص تلعب برأسه وتديره فى اتجاه غير الاتجاه الذى تدحرج إليه وهو يرقص ، فيثوب إلى رشده ، ويعود كما بدأ — الخمر تخنقه ؟ إنها لا تخنقه إلا كما يخنق رطل من الزبد كلب (بن) الأسود » .

فقال (تمالين بلاكلير) : « وهل تضنون على هذا الشيطان المسلم المسكين بقطرة من شراب فى هذه الدار ، وأنتم تعلمون أنه لن ينال قطرة يرطب بها طرف لسانه فى دار البقاء ؟ » .

فأجاب (لنج ألن) يقول : « تالله إن هذه لشريعة صارمة ، أفكل هذا لأنه تركى كما كان أبوه من قبله ؛ إنى أؤكد لكم أن أشد الأرجاء حرارة لتكونن عليه بردا وسلاما لو أنه كان مسيحيا مرتدا » .

فقال (هنرى ودستول) : « الزم الصمت يا (لنج ألن) ، وصدقنى أن لسانك ليس بأقصر جوارحك ، وإنى أتنبأ لك أنه ليسوقنك إلى الخزى من أبينا (فرنسيس) كما حدث مرة للمرأة السورية الحوراء — ولكن دعنا من هذا فها هى ذى الكأس قادمة — أنشط قليلا أيها الرجل ، وافتح فمه عنوة بنصاب خنجرك » .

فقال (تومالين) : « ارجعوا عن هذا . إنه طيع غير عصى ، انظروا تجدوه يشير إلى القدح . افسحوا له أيها الرجال . أى والله ، إنهم قوم إن شرعوا يشربون ما تركوا الخمر حتى ثملوا ؛ إن هذا التركى لا يسعل فى الكأس ، ولا يتريث فى الشراب » .

وحقا لقد شرب ذلك (الدرويش) — أو سمه ما شئت — القدح الكبير حتى ثمالته فى جرعة واحدة ، أو تظاهر بذلك على الأقل ، ولما رفع الكأس عن شفتيه ، بعد ما غاض كل ما به ، تنهد تنهدا عميقا وتمتم قائلا : « الله كريم » ، فسرى الضحك بين العامة الذين شهدوا الرجل وهو يجترع الكأس فى شربه ، وكانت ضحكاتهم مجاجة صخابة حتى هب الملك من نومه مضطربا ، ورفع إصبعه وقال

غاضبا : « ماهذا أيها اللئام ، أما لديكم لغيركم احترام ، وهل لا ترعون لنا حرمة ؟ »

فسكت الجميع ولزموا الصمت ، إذ كانوا يعرفون مزاج رتشارد ، الذى كان يسمح بالكثير من الألفة الحربية أحيانا ، وأحيانا أخرى يتطلب أجل الاحترام ، وقلما كان هذا المزاج الأخير يملك عليه نفسه . وبعدئذ سارع الرجال إلى مكان قصى عن شخص الملك حتى يبقى له جلاله ، وحاولوا أن يجذبوا معهم الشيخ الولى ، الذى بدا عليه الإنهاك من المشقة السابقة ، أو غلبته الجرعة القوية التى غبها غبا منذ حين ، فقاوم إبعاده عن هذا المكان تارة بالنضال وطورا بالأنين .

فهمس (لنج ألن) لزملائه قائلا : « خلوا سبيله أيها الغافلون ؛ ناشدتكم القديس « كرستوفر » لتخلفن الرجل وإلا طاح منه خنجره ، وشق رؤوسنا عاجلا ، خلوا سبيله ، فإنه سوف ينام كالسنجاب بعد دقيقة » .

وفى تلك الآونة رمى الملك بسهم آخر من سهام نظراته إلى مكان الزحام ، فكروا جميعا قافلين ، مخلفين الشيخ فوق الأرض عاجزا — كما يبدو — عن أن يحرك عضوا أو مفصلا من جسمه . وما انقضت لحظة حتى ساد الهدوء والسكينة ، وعادت الأمور كما كانت قبل قدوم الشيخ .

الفصل الحادى والعشرون

أنا القاتل الواهن ،
وهذا الذئب يعوى كأنه يرقبنى ؛
بخطى خفيفة الوطء كخطى « تاركوين »(١)
أسير نحو الفريسة كما تسير الأشباح .
من « ماكبث » لشكسبير

ما انقضى ربع ساعة أو ما يزيد بعد الحادث الذى روينا حتى ساد السكون التام أمام مسكن الليك ، وجلس الملك لدى مدخل السرادق بين القراءة والتأمل ، وكان العبد النوبى ما يزال يجلو الدرقة الضخمة ، مولياً ظهره باب الفسطاط . وأمام هذا المشهد — على بعد نحو مائة خطوة — وقف بعض من عامة الحراس ، وجلس بعضهم الآخر أو رقدوا مستلقين فوق العشب ، لا يحفلون بغير قصفهم وطربهم ، ويتبعهم فى صمت وسكون ذلك الشيخ لا يحس به أحد ، وما فتىء فى الرحبة التى تمتد بين الحراس والسرادق ، ما تكاد تميزه عن حزمة من الخرق البالية .

وكان النوبى يستخدم الدرقة كالمرآة ، إذ كان لوجهها بريق وهاج تنعكس عليه المرئيات انعكاساً واضحاً ؛ ولشد ما كانت دهشته وذعره حينما رأى فيها أن الشيخ قد رفع رأسه قليلا عن الأرض حتى يرى كل ما كان يدور حواليه ، وأخذ يتحرك بحذر وإحكام لا يتفقان ألبتة وما كان عليه من ثمل ، ثم نكس رأسه فى الحال ، وكأنه اطمأن إلى أن أحداً لم يكن يرقبه ، وشرع يزحف وما يكاد الرائى يلمس فى حركته جهداً تلقائيا ، كأنه يتقدم عفواً نحو الملك شيئاً فشيئاً ، ولكنه بين الحين والحين يقف ويلبث ساكناً ، كالعنكبوت يسير نحو غايته ثم تراه وكأن معين الحياة قد نضب منه ، إذا ظن أنه بات محط النظر ؛ فارتاب النوبى فى هذا الضرب من الحركة ، وتأهب من جانبه — مسرعاً على قدر ما يستطيع —

(١) اسم فارس من فرسان قصة أرثر الخيالية المعروفة فى الأدب الإنجليزى .

حتى يتدخل فى اللحظة التى عسى تدخله فيها أمراً لا مندوحة عنه .

وواصل الشيخ الزحف شيئاً فشيئاً كالأفعى أو القوقعة ، وما يكاد الرأئى يحس به ، حتى بات على بعد عشر أذرعة من شخص رتشارد ، ثم نهض على قدميه ، ووثب قُدُماً كما يثب النمر ، ووقف إلى ظهر الملك فى أسرع من لمح البصر ، ولوح بخنجره فى الهواء ، وكان قد أخفاه فى كمه ، وما كان جيش رتشارد بأسره حينئذ بمستطيع أن ينقذ مليكه البطل ، ولكن النوبى كان — كذلك الشيخ المتهوس — يسير بقدر ، فما إن هم الثانى بالطعن حتى أمسك الأول بذراعه المرفوعة ، فحول « الخارجى » — وظاهره كالأولياء — ثورة غضبه نحو ذلك الذى اعترض ما بينه وبين مرماه فجاءة وبغير انتظار ، وطعن النوبى بخنجره طعنة سحجت ذراعه ، بينما انقض عليه النوبى وطرحه أرضا ، وما أيسر ما هشمه بقوته التى ترجح قوة الشيخ أضعافا مضاعفة ؛ وحينئذ أدرك رتشارد ما دار بين الرجلين ، فنهض ، وما عراه من الدهشة والغضب ، أو ارتسم على محياه انفعال ما ، غير ما يبدى الرجل العادى حينما يبعد عن نفسه زنبورا دخيلا أو يسحقه . ثم أمسك بالمقعد الذى كان يستوى عليه ، وما زاد على أن صاح قائلا : « ها ! وغد دنىءْ ! » ، ثم هشم رأس القاتل تهشيما ، وصاح الرجل وقال : « الله اكبر ، الله اكبر » مرتين ، مرة بنغم عال ، ومرة بصوت متهدج ، ثم أسلم الروح عند قدمى المليك .

هذا الشغب الذى صحب ما وقع ، نبه النبالين من أتباع رتشارد ، فاندفعوا إلى السرادق مرتاعين صاخبين ، فصاح بهم رتشارد فى صوت فيه نغم العتاب والتهكم وقال : « حقا إنكم لحفظة ساهرون ، وحراس نابهون ، فلقد تركتمونى أقوم بعمل الجلاد بيدى لابيد عمرو — أنصتوا جميعا ، وقفوا ضجيجكم هـذا الذى لا ينطوى على شىء ! هلا رأيتم أبدا من قبل رجلا تركيا قتيلا ؟ هو ذا — انبذوا هـذه الجيفة من المعسكر ، وافصلوا الرأس عن جذعه ، وعلقوه فوق رمح ، وولوا وجهه شطر مكة ، حتى يتيسر له أن يقول لذلك المدعى الدنس ، الذى أوحى له أن يأتى إلى هنا ، كيف بلّغ الرسول رسالته » . ثم قال وقد التفت نحو الأتيوبى : « أما أنت

يا صاحبى الأسود الصامت — ولـكن ما هذا ؟ — إنك جريح — وبسلاح فى ظباته السم لا ريب ، إذ أن حيوانا ضعيفا كهذا لا يستطيع بقوة الطعن وحدها أكثر من أن يصيب إهاب الليث — ليمتص السم من جرحه أحدكم — إن السم قاتل إذا اختلط بالدماء ، ولـكنه لا يؤذى الشفاه إن مسته » .

فأخذ عامة الحراس يتبادلون النظر مضطربين مترددين ، وغلب الرعب من هذا الخطر الداهم أولئك الرجال الذين ما كانت الخشية تتطرق إلى قلوبهم .

ثم واصل الملك حديثه وقال : « ثم ماذا أيها الرجال ؟ هل أنتم ذوو شفاه رقيقة ، أم هل تخشون الموت فتتأخرون ولا تتقدمون ؟ » .

فقال (لنج ألن) وكان الملك ينظر إليه وهو يتكلم : « نحن لا نخشى موت الرجال ، ولـكنى لا أحب أن أموت كما تموت الفأر المسمومة فى سبيل تلك الـكتلة السوداء الملقاة هناك ، التى تباع وتشترى فى السوق كثور (مارتلماس) » .

فتمتم رجل آخر وقال : « إن جلالة الملك يطلب إلينا مص السم وكأنه يقول لنا هيا احتسوا من هذه الخمر ! » .

فقال رتشارد : « كلا ، والله ما سألت يوما رجلا أن يعمل ما لم أعمل » .

ثم وضع الملك شفتيه على جرح العبد الأسود ، غير آبه ولا مكترث بأصوات الاحتجاج ممن أحاط به ، ولا بمعارضة النوبى نفسه الذى كان يجل سـيده ، فلقد هزأ رتشارد بكل عتاب وغلب كل مقاومة ، وما إن توقف لحظة عن هـذا العمل الفريد الذى أقدم عليه ، حتى امّلس منه النوبى ، ورمى فوق ساعده وشاحا ، وألمع — بشارات تنم عن الحزم كما تنم عن إجلاله لمليكه — إلى عزمه على أن لا يسمح للملك أن يعود إلى هذه الخدمة المحطة به ؛ وتعرض (لنج الن) كذلك وقال : إن كان لا بد من إبعاد الملك عن الاشـتغال بمثل ذلك العلاج فإنه يقدم شفتيه ولسانه وأسنانه لخدمة العبد (وكان يسمى الأتيوبى كذلك) ، وإنه ليلتهم جسده التهاما قبل أن يلمسه الملك رتشارد بفمه .

ثم دخل نفيل مع ثلة من الضباط ، وضم صوت احتجاجه إلى أصوات الآخرين .

فقال الملك « كلا ، كلا ، لا تصيحوا صياحا لا طائل منه بعد أن يفلت الظبي من كلاب الصيد ، أو بعد ما يقبل الخطر ثم ينقضي . سوف يكون الجرح طفيفا لأني لم أكد أمتص من الدماء قطرة . والله لو كان قطا غاضبا لكان خدشه أشد وأعمق — أما أنا فحسبي أن أتناول حبة من بلسم شاف أتقي بها ، وإن تكن لا حاجة لي بها » .

وهكذا كان يتكلم رتشارد غير مستح من تنازله من عليائه ، بل لقد كساه جلالا حنوه واعترافه بالجميل ، ولما واصل نقيل اللوم والعتاب على تعريض الملك ذاته الكريمة للخطر ، فرض عليه الملك أن يلزم السكون .

وقال : « أرجوك الصمت وأن لا تذكر هذا الأمر بعد هذا — إنما فعلت ذلك كي أبين لهؤلاء السفلة الجهلة المتحاملين كيف يستطيعون أن يعاون بعضهم بعضا إذا ما هاجمنا أولئك الأدنياء الأنذال بحبالهم ونبالهم المسمومة » ، ثم قال : « خذ هذا النوبي إلى مسكنك يا نقيل ، لقد عدلت عن رأيي في أمره ، وأسبغ عليه رعاية كافية ، ولكن اسمع مني هذا في أذنك — تنبه كي لا يفر منك — إن مخبره خير من مظهره ؛ أعطه الحرية كاملة كي لا يترك المعسكر ، وأما أنتم أيها الأوغاد الإنجليز أكلة اللحوم ونهلة الخمر ، فعودوا إلى أماكن حراستكم ثانية ، واستوثقوا من زيادة الحذر في رقابتكم . لا تحسبوا أنكم الآن في بلادكم حيث الصراحة في المعاملة ، وحيث يتكلم الرجل قبل أن يضرب ، ويصافح قبل أن يحز الرقاب . إنما الخطر في بلادنا يسير صراحا وظباته مسنونة مسلولة يتحدى العدو الذي يريد به الهجوم ، وأما هنا فخصمك يستنهدك وعلى يديه قفاز من الحرير لا من الحديد ، ويحز رقبتك بريش اليمام ، ويطعنك بطرف دبوس القس ، أو يخنقك برباط ثياب الغيد . اذهبوا وافتحوا أعينكم وأغلقوا أفواهكم ، وأقلوا من شرابكم ، وأحدّوا من أبصاركم ، واشهدوا ما حواليكم ، وإلا قصرت في إطعام بطونكم الكبيرة حتى يشكو الجوع أشد الاسكتلنديين صبرا » .

فخجل الحراس وخارت نفوسهم ، ثم عادوا إلى أماكنهم ، وبدأ نقيل يعتب على سيده مخاطرته بتهاونه فى إهمال الحراس لواجبهم ، وضربهم لغيرهم مثلا سيئاً فى أمر بالغ الخطر كسماحهم لرجل مريب كالشيخ أن يدنو حتى يصير من شخص الملك قاب قوسين ، وهنا عارض الملك نقيل وقال : « لاتذكر هذا الأمر يا نقيل ، أفكنت تريدنى على أن أنتقم لنفسى من خطر زرى كهذا بأشد من نقمتى على ضياع راية انجلترا ؟ لقد انتُزعت وسرقها لص ، أواختطفها خائن ثم أسلمها ، ولم تُرِق فى سبيلها قطرة من دم — أى صاحبى الأسود ، يقول السلطان المجيد إنك تدرك من الأمور خفيها ، والآن لو استخدمتَ رجلا أشد منك حلوكة ، أو أى وسيط آخر أردت ، كى تكشف لى عن اللص الذى ألحق بشرفى الإساءة ، أعطيتك وزنك ذهباً ، ماذا تقول فى هذا ؟ ها ! » .

وبدت على الرجل الأبكم الرغبة فى الكلام ، ولكنه تمتم بصوت خافض متقطع ، صادر عن نفس حزينة كئيبة ، ثم أطبق ذراعاً فوق الأخرى ، ونظر إلى الملك بعين فيها لمحة الأريب ، ونكس رأسه إجابة على ما سئل .

فقال رتشارد جازعاً متلهفاً : « ماذا تقول ! هل تأخذ على نفسك أن تكشف عن هذا الأمر ؟ » .

فكرر العبد النوبى الإيماءة الأولى .

وقال الملك : « كيف لنا أن نتفاهم ؟ هل تستطيع الكتابة أيها الرجل الكريم ؟ » .

فنكس العبد رأسه ثانية إيجاباً .

فقال الملك : « أعطوه ما يكتب به ، لقد كانت أداة الكتابة أبداً فى فسطاط أبى أقرب منالا منها فى فسطاطى ، ولكن إن بحثتم وجدتموها هنا أو هناك ، اللهم إلا إن كان هذا الجو المحرق قد جفف المداد — والله يا نقيل إن هذا الرجل لجوهرة ، بل لؤلؤة سوداء » .

فقال نقيل : « هل لا يأذن لى مولاى أن أقول ما أرى ، والله ياسيدى

ما أحسب هذا الأمر إلا صفقة خاسرة ، وما أحسب هذا الرجل إلا ساحراً ، والسحرة ينضمون إلى الخصوم الذين يريدون أن يدسوا لنا السم فى الدسم ، وأن يبثوا الشقاق فى صفوف مجامعنا و . . . » .

فقال رتشارد : « صه يا نفيل ، إذا ما دنا كلبك الشمالى من ردف الغزال فصح به وارْج تلبيته ، ولكن إذا ما كان بلانتاجنت يأمل أن يسترد شرفه فلا تحاول أن تقف فى سبيله » .

وفى غضون ذلك الحديث كان العبد يكتب وكأنه قد حذق فن الكتابة ، ثم نهض ورفع ما سطر إلى جبينه ، وخر ساجداً — كعادته — قبل أن يسلم المكتوب إلى يدى رتشارد ؛ وكان المخطوط بالفرنسية ، رغم أن رتشارد كان يتكلم بالفرنجية حتى ذلك الحين .

« إلى رتشارد الملك الظافر الذى لا يقهر ، ملك انجلترا ، يقدم هذا أشد رقيقه خضوعاً . إنما الأسرار الخفية صناديق السماء المغلقة ، ولكن الحكمة قد تفتق الوسيلة لفض ما أوصد . لو كان لعبدك أن يقف حيث زعماء الجيش المسيحى يسيرون أمامه واحداً تلو الآخر ، فكن على يقين أنه إن كان بين جموعهم من صدرت عنه الإساءة التى يشكوها الملك ، فسوف يبدو للعيان إثمه ، حتى وإن كان مستوراً وراء حجب سبعة » .

فقال الملك رتشارد : « أقسم بالقديس جورج لقد تحدثت بأحسن حديث ، نفيل ! أنت تعرف أنا سوف نحشد جندنا غداً ، وقد اتفق الأمراء أن يسير الزعماء برايتنا الجديدة وهى ترفرف فوق قمة سنت جورج ، ثم يحيونها بما يليق من إجلال ، تكفيراً عن الهوان الذى لحق بانجلترا من ضياع العلم . صدقنى إن الخائن المتستر لن يجرؤ على التغيب عن هذا المشهد الرائع الذى تمحى به الإهانة ، خشية أن يكون غيابه موضعاً للريبة . هنالك سوف نقيم هذا الرجل الأسود صاحب الرأى السديد ، وإذا استطاع بفنه أن يكشف عن الوغد الدنىء ، فدعنى أفعل به ما أريد » .

فقال نقيل فى صراحة البارون الإنجليزى : « مولاى ، احذر ما أنت شارع فيه ، لقد تجدد الوئام بين أفراد عصبتنا المقدسة ، وهو أمر لم يكن فى الحسبان ، فهل تريد على أساس واه من الريبة ، يبعثها عبد أسود ، أن تثلم جراحاً ما اندملت إلا منذ عهد قريب ، أم هل تريد أن تجعل من الموكب المهيب — الذى سوف يحتشد لاسترداد شرفك وتأسيس الوحدة بين الأمراء المتنافرين — وسيلة جديدة لإيجاد سبب آخر للأذى ، أو إحياء إحن قديمة فى النفوس ؟ وما كان أغنانى عن هذا القول ، فما هو إلا لمحة من البيان الذى أدلت به جلالتكم لمجمع الصليبيين الحاشد » .

فعبس الملك واعترض نقيل وقال : « أى نقيل ، لقد جعلتك غيرتك وقحاً لا خلاق لك ، إنى ما وعـدت قط أن أحجم عن السير فى أية سبيل تؤدى إلى الـكشف عن ذلك الرجل المقوت الذى ابتعث تهجم على شرفى . والله ما كان أجدرنى أن أنزل عن ملـكى — بل عن حياتى — قبل أن أفعل ذلك . إن كل بيان أدليت به كان لا يخلو من هذا الشرط الضرورى الحاسم ، وما كنت لأعفو عن دوق النمسا من أجل العالم المسيحى إلا إن تقدم وأقر بإثمه إقرار الرجال » .

ثم استأنف البارون حديثه جازعاً والهاً وقال : « ولـكن أى أمل لنا فى أن هذا العبد المحتال لن يخدع جلالتـكم ؟ » .

فقال الملك : « صمتاً نقيل ، إنك تحسب نفسك حكيما قديراً ، وما أنت إلا أحمق جاهل . فإن ذكرت أمرى مع هذا الرجل فحاذر — واعلم أنه أسحق غوراً من أن تدرك كنهه بفطنتك وذكائك ، ذكاء « وستمورلاند » ؛ وأما أنت أيها الأسود الصامت ، فأعد عدتك لتنجز العمل الذى وعدت ، وخذها كلمة من ملك أنك سوف تختار لنفسك جزاءها . صه ، صه ! لقد عاود الـكتابة » .

وخط الرجل الصامت إذ ذاك وريقة أخرى ، قدمها إلى الملك ماثلا كما فعل أول مرة ، وجاء فى مكتوبه هذه الـكلمات : « إن إرادة الملك شريعة عبده ، ولا يليق للعبد أن يطلب الجزاء على أداء واجبه » .

فتوقف الملك عن القراءه وقال متعجباً : « الجزاء ، والواجب ! » ثم وجه

الخطاب إلى نقيل ، وكلمه باللسان الإنجليزى وبصيغة التأكيد قائلا : « سوف يفيد أهل الشرق هؤلاء من الصليبيين — إنهم يتعلمون منهم لغة الفروسية ! — أنظر يا نقيل إلى هذا الرجل كيف هو مضطرب جازع ، ولولا لونه الأسود لبدا الاحمرار على وجنتيه . والله ما عجبت لو أنه أدرك ما أقول ، فهم فى حذق اللغات بارعون » .

فقال نقيل : « ليس فى الأمر إلا أن هـذا العبد المسكين لا قِبَل له بنظرة جلالتك » .

ثم واصل الملك كلامه ، وضرب على الورقة بإصبعه وهو يقول : « ولكن هذا المكتوب الجرىء يذكر أن رجلنا هذا الصامت ، الذى وثقنا فيه ، يحمل رسالة من صلاح الدين إلى السيدة أديث بلانتاجنت ، وهو الآن يرجو الوسيلة والفرصة لإبلاغ ما حُمِّل ، فما ذا ترى يا نقيل فى هذا المطلب المتواضع ؟ » .

فقال نقيل : « إنى لا أدرى كيف تستسيغ جلالتكم مثل هذه الجرأة ، ولكنى ما أشك فى أنك لو بعثت من لدنك رسولا يحمل إلى السلطان مثل هذا المطلب ما استقام على كتفى رسولك رأسه طويلا » .

فقال رتشارد : « الحمد لله على أنى لا أشتهى واحدة من حسانه اللائى لفحتهن الشمس ، وأما أنى أجازى هذا الرجل على أداء رسالة سيده ، وأن أجازيه بعد ما أنقذ حياتى بزمن وجيز ، فما أحسب إلا أن هذا عمل جائر . سوف أبوح لك بسر يانقيل ؛ ولئن كان خادمنا الأسود الصامت واقفاً إلا أنه لا يستطيع — كما تعلم — أن يعيد الكلام ، حتى وإن أدرك ما نقول ؛ اعلم يانقيل أنى فى الأسبوعين الماضيين كنت تحت تأثير تعويذة عجيبة ، وكم وددت لو خلصت من سحرها ، وما تقدم لى رجل بخدمة طيبة حتى محا ما عمل من خير بأذى بالغ ، وما استحق الموتَ على يدى لخيانة أو إهانة إلا — رجل من بين الرجال جميعا — صنع بى جميلا يرجح كل ما به من مثالب وأصبح له — رغم مايستحق من جزاء — دين على شرفى ؛ وهكذا ترى أنى حرمت خير جانب من جوانب وظيفتى ، فأنا لا أستطيع أن أجزى خيرا

ولاشرا ؛ والله إلى أن يبدل الله الأرض غير الأرض ، لن أقول عن مطلب خادمنا هذا الأسود إلا أنه مطلب جرىء جرأة ما بعدها جرأة ، وإن خير فرصة له لكسب عفونا ورضانا ، هى أن يحاول أن يكشف لنا عن الجارم كما عرض ، وحتى آنئذ أولِه رعايتك يا نقيل واسْعَ فى العناية به عناية لائقة » . ثم قال الملك فى صوت خافت : « واستمع إلى مرة أخرى ، اذهب فى طلب ناسك عين جدة وتعال به إلىّ توّا ، قديساً كان أو همجيا ، عاقلا أو مجنونا ، ودعنى أكلمه خفية وسرا » .

ففصل نقيل عن السرادق الملكى ، وأشار إلى النوبى أن يتبعه ، وهو شديد العجب مما رأى وسمع ، وبخاصة من مسلك الملك مسلكا غير معهود . ولم يكن على الجملة هناك أيسر على المرء من أن يكشف عن مشاعر رتشارد وإحساساته المباشرة العاجلة — وإن يكن عسيرا فى بعض الأحيان أن تعرف كم ذا يطول بقاؤها ، فلقد كان الملك لعواصف انفعاله أطوع من الريشة فى مهب الريح القُلّب ، ولكن طبعه فى هذا الظرف كان — على غير المعهود — هادئا غامضاً ، ولم يكن من اليسير أن تحكم أيها غلب عليه فى معاملته لهذا الرجل الذى انضم إلى حاشيته أخيراً : الغضب أم الشفقة ، أو أن تعرف بأى عين كان ينظر إلى الرجل الفينة بعد الفينة ؛ ولقد كان فى الخدمة العاجلة ، التى أداها الملك للنوبى كى يقيه ما قد ينجم عن جرحه من سىء الأثر ، كفاء للجميل الذى صنعه العبد فيه ، حينما تعرّض لضربة القاتل المغتال ، ولكن يظهر أن حسابا طويلا ما برح بينهما رهن التصفية ، وكان الملك فى شك هل سيخرج من هذه التصفية على الجملة دائناً أو مدينا ، ولذا فقد اتخذ فى ذلك الحين طريقا وسطا تليق به إن كان هذا أو ذاك ؛ أما عن النوبى وأنّى تعلم فن كتابة اللغات الأوروبية ، فقد كان الملك يعتقد أنه لم يحذق اللسان الإنجليزى على الأقل ، لأنه راقبه عن كثب خلال ما دار أخيراً ، ورأى أنه يستحيل على رجل يفقه حديثاً يدور بشأنه أن يظهر وكأنه لا يأبه ألبتة بالحديث .

الفصل الثاني والعشرون

من هناك ؟ — هيا اقترب — إنه فضل منك —
هو طبيبي الحكيم ، وصديق الحميم .
السر يوستاس جرى

والآن نعود بروايتنا إلى الفترة التي سبقت ما ذكرنا أخيراً من حوادث بمدة وجيزة ، وذلك حينما أبعد فارس النمر البائس عن معسكر الصليبيين ، وقد تميز بين صفوفه امتيازاً كبيراً ؛ ووهبه الملك رتشارد الطبيبَ العربي — كما يذكر القارئ — وهو إلى مرتبة الرقيق أقرب منه إلى أي شيء آخر . تبع الفارس سيده الجديد — كما يصح لنا الآن أن نسمى الحكيم — وقصدوا خيام المغاربة التي كانت تضم حاشيته وأملاكه ، وشعوره فاقد الرشد كرجل سقط من قمة جبل ونجا بحياته على غير انتظار ، وهو لا يقوى إلا على أن يسير متخاذلا من المكان الذى صرع فيه ، ولكنه لا يستطيع أن يسبر مدى ما لحق به من أذى وضرر ؛ وما إن بلغ الفسطاط حتى ارتمى دون أن ينبس ببنت شفة فوق فراش من جلد الجاموس المدبوغ ، دلّه عليه مرشده ، ثم أخفى وجهه بين يديه ، وأخذ يئن أنينا عاليا وكأن قلبه يوشك أن يتفطر ، وقد سمعه الطبيب — وهو يلقى بأوامره على خدمه العديدين كى يستعدوا للرحيل صبيحة اليوم التالى قبل منبثق النهار — فتحركت فى نفسه الشفقة ، وتوقف عما كان مشتغلا به ، ثم جلس ملقيا ساقا فوق الأخرى إلى جانب سريره ، وأخذ يواسى الرجل كما يفعل أهل الشرق عادة .

وقال : « أى صديق ، هوّن على نفسك ، فلقد قال الشاعر ما معناه : « خير للرجل أن يكون خادماً لسيد شفيق من أن يكون عبداً لشهواته القوية الخاصة ، وتشجع ، فإن يوسف بن يعقوب قد باعه إخوته إلى فرعون ملك مصر ، ولكن مليكك وهبك رجلاً سوف يكون لك كالأخ الشقيق » .

وجاهد السر كنث أن يشكر الحكيم ، ولكن قلبه كان مفعما ، فصدرت عنه صوات غامضة وهو يحاول دون جدوى أن يجيب ، فدفعت هذه الأصوات لطبيب الشفيق إلى أن يكف عن محاولاته المبتسرة لتعزية الفارس ، وخلّف خادمه هذا الجديد — أو قل ضيفه هذا — وادعاً ساكناً يسترسل فى أحزانه . وبعد ا أمر بكل ما يلزم من إعداد للرحيل صبيحة الغد ، جلس على بساط الفسطاط ، تناول وجبة وسطا بين بين ، ولما انتعش بالطعام قليلا ، قدم للفارس الاسكتلندى نوتا كقوته ؛ ورغم أن العبيد قد أفهموا السر كنث أنهم لن يقفوا فى اليوم التالى لطعام إلا بعد أن تتقدم من اليوم ساعات عديدة ، فإن الرجل لم يستطع أن يتغلب على النفور الذى كان يحس به من تناول القوت ، وعبثاً ألحفوا عليه أن يتذوق شيئاً اللهم إلا جرعة من الماء البارد .

واستيقظ السر كنث بعد ما أدى مضيفه فريضة الصباح ثم أوى (المضيف) إلى فراشه بزمن طويل . ولم يزر الكرى جفنى العربى حتى انتصف الليل ، وسرت بين خدمه حركة لم يصحبها حديث ولا ضجيج كثير ، ولكنه علم منها — رغم ذلك — أنهم كانوا يحمّلون البعير ويتأهبون للرحيل ، وبينا هذا الإعداد قائم على قدم وساق ، كان فارس اسكتلندا آخر من هب من رقاده إذا استثنينا الطبيب . ولما كانت الثالثة صباحا أو ما إلى ذلك ، قال له رئيس الخدم إنه ينبغى له أن ينهض ، ففعل دون أن يحير جوابا ، وتبعه فى ضياء القمر حيث الجمال قائمة ، وأكثرها يحمل على ظهره عبئه ، ولم يبق منها غير واحد أناخ حتى يتم تحميله .

وعلى كثب من النوق وقف عدد من الخيل ملجمة مسرجة ، ثم أقبل الحكيم نفسه وامتطى واحدا منها برشاقة تتفق ورزانة مركزه ، وأشار إلى آخر كى يُساق لى السر كنث ، وكان بانتظارهم ضابط انجليزى كى يخفرهم خلال معسكر الصليبيين يتثبت من رحيلهم آمنين ؛ وكان كل شىء على أهبة للسفر ، ثم أقتلع السرادق لذى خلفوه بخفة عجيبة ، وكان حمل الناقة الأخيرة يتألف من أغطية الفسطاط قوائمه العشرة ، ثم كرر الطبيب هذه العبارة فى مهابة وخشوع « الله

يهدينا ومحمد يقينا فى البر والبحر » ثم فصلت القافلة بأسرها فى الحال .

واعترض سبيلهم — وهم يشقون المعسكر — الخفراء العديدون الساهرون على الحراسة هناك ، وإذا ما مرت القافلة بحى من أحياء الصليبيين الغيورين ، سار رجالها اضطرارا فى سكينة وهـدوء ، أو استمعوا إلى اللعنات تنصب على نبيهم تمتمة فغضوا عنها الطرف كارهين ؛ وأخيرا تخطوا آخر العقبات ؛ والتأمت جماعتهم وهى تسير سيرا عسكريا حذرا ، وتقدمهم اثنان أو ثلاثة من الركبان طليعة لهم ، يتبعهم واحد أو اثنان على قيد رمح ، وكلمـا تهيأت الظروف انفصل بعض منهم ليرقب الجناحين ، وهكذا سار الجميع قُدُماً ، ونظر السركنث وراءه إلى المعسكر يفضضه ضياء القمر ، فأحس إحساساً قويا بحرمانه من الشرف والحرية ، وبإقصائه عن الأعلام الخفاقة التى كان يأمل أن يحظى تحت ظلها ببعد الصيت ، وأحس كذلك ببعده عن خيام الفروسية والمسيحية و ... عن أديث بلانتاجنت .

وكان الحـكيم راكبا جواده إلى جواره ، فأخذ بنغمـه المألوف يسرى عن السركنث بسديد الحـكم وقال : « إن كان السفر أمامك فليس من الحـكمة أن تتطلع وراءك » وبينما هو يتكلم زلّ جواد الفارس فى مشيته زلة خطرة كأنها درس خلقى عملى يتمم قصة العربى .

وقد اضطر الفارس من هذه العثرة أن يشتد فى إمتلاك زمام الجواد ، واضطر أكثر من مرة أن يلجأ إلى العنان ويستعين به ، وأما فيما عدا ذلك فلم يكن ثمة أسلس قيادا ولا أخف حركة من هذه الفرس وهى تسير وخداً بخطى متزنة .

وقال الطبيب صاحب الأمثال : « ما أشبه جوادك هذا بحظ الإنسان . لابد للراكب — والجواد يخف به بخطى هينة لينة — أن يحذر من السقوط ، وكذلك الأمر إن بلغ بنا الجدُّ ذروته ، ينبغى لحكمتنا أن تتيقظ وتتنبه كى ننجو من سوء الطالع » .

ولـكننا إذا ما امتلأت منا البطون ، نفرنا حتى من أقراص الشهد ؛ فليس عجيبا إذن أن يضيق بالفارس الصبر — وقد أذله نـكد الطالع ، وخارت عزيمته مما

لحقه من الهوان — فلا يستمع إلى شقوته وقد باتت فى كل مناسبة مضربا للحكمة والمثل ، مهما صدق المثل وأصاب .

فقال متبرما : « ما أحسبنى بحاجة إلى زيادة الإيضاح عن تذبذب الجَدّ ، ولأشكرنك ياسيدى الحكيم على حسن انتقائك لجوادى لو أنه زل زلة قاضية تنكسر فيها رقبتى ورقبته » .

فأجاب الحكيم العربى مهيبا رزينا رابط الجأش وقال : «أخى ! إنما أنت تتكلم كما يتكلم الحمق ؛ أنت تقول فى سريرتك إن الحكيم كان ينبغى له أن يعطيك — كضيف له — خير الجوادين وأصغرهما ، وأن يحتفظ بالفرس العجوز لنفسه ، ولكن اعلم أن مثالب الفرس العجوز يقابلها نشاط الراكب الشاب ، وأن شدة الجواد الفتىّ يكسر من حدتها طبع الشيخ البارد » .

هكذا تكلم الحكيم ، ولكن السر كنث لم يحر لهذا الخاطر جوابا مما قد يؤدى إلى مواصلة الحديث بينهما ؛ ولعل الطبيب قد كلّ من التعزية يتقدم بها إلى رجل لا يقبل التعزية ، فأشار إلى واحد من حاشيته .

وقال : « أليس لديك ، يا حسن ، شىء نقتل به ملل الطريق ؟ »

وحسن هذا قصاص شاعر ومحترف ، دفعه هذا السؤال إلى أن يجيب إلى ما سئل ، فقال محدثا الطبيب : « أى مولاى ، ياسيد دار الفناء ، أنت ذلك الذى إن رآه الملَكُ عزرائيل نشر جناحيه وطار ، أنت أحكم من سليمان بن داود الذى انطبع على خاتمه (اسم الجلالة) ، هذا الاسم الذى يسيطر على الأرواح فى هذه الدنيا — أنت تسير على جادة الخير تحمل حيث تحل الشفاء والأمل ، فحاشا لله أن تكتئب حياتك من قلة القصص أوالغناء . إستمع إلى ! ما دام خادمك إلى جوارك ، فسوف تتدفق كنوز ذاكرته كما يتدفق من النبع فى الدرب تيار الماء ينتعش به كل من سار على الطريق » .

وبعد هذه الديباجة ، رفع حسن صوته ، وشرع يقص قصة حب وسحر ، تتخللها مآثر الظفر والقتال ، وتحليها المقتبسات من شعر الفرس ، والمحدّث بأقوالهم

عليم ، وإذ ذاك احتشدت حول القصاص حاشية الطبيب كلها ، ما خلا أولئك الذين كان لا بد لهم من التخلف لرعاية البعير ، وتزاحموا — على قدر ما يسمح لهم احترامهم لسيدهم — كى ينعموا بتلك اللذة التى يجدها أبدا أهل الشرق فى هذا الضرب من الرواية .

ولربما لذ للسر كنث فى ظرف غير هذا أن يستمع إلى هذه الرواية ، التى كانت شديدة الشبه بقصص الفروسية الخيالية الذائعة فى أوروبا فى ذلك الحين ، وذلك رغم عجزه عن فهم اللسان العربى فهما صحيحا ، ورغم أن هذه القصص كانت من إملاء خيال أشد إسرافا ، ومسوقة فى لغة أكثر مبالغة ، ومليئة بالاستعارة والكناية ، لكنه — فى هذا الظرف — لم يكد يحس حتى بأن رجلا قد توسط القافلة وأخذ ينشد ويغنى فى نغم خافت نحوا من ساعتين ، مترنماً بصوته ترنما يقابل به شتيت العواطف وألوانها المختلفة التى ساقها فى قصته ؛ وهو يستمع لقاء ذلك مرة إلى الإعجاب به فى دمدمة خافتة ، ومرة إلى استحسانه فى تمتمة خافضة ، وحينا إلى النحيب والبكاء ، وحينا إلى إثابته بالبسمات ، بل وبعالى الضحكات — والضحك على قلوب سامعيه ثقيل .

ومهما بلغ بالرجل الطريد من شرود الذهن والاسترسال فى الأحزان ، فقد كان يوقظ انتباهه الفينة بعد الفينة خلال هذا القصص نباح خافت يصدر عن كلب وضع فى صندوق من الصفصاف يتدلى من إحدى النوق ؛ وفارسنا — كالحاطب المحنك — لم يتردد فى معرفة الكلب ، فلقد كان كلبه الأمين بعينه ، ولم يشك من نباح الكلب وأنينه أن الكلب كان يدرك قرب سيده ويناشده — بطريقته — العون على إنقاذه وتحريره .

فقال : « واأسفاه يا (رزوال) المسكين ، أنت تطلب النجدة والعطف من رجل مكبل فى أصفاد أضيق مما أنت فيه . سوف أتظاهر بعدم الاكتراث لك ، ولن أجاوبك المحبة ، ما دام ذلك لن يؤدى إلا إلى اشتداد المرارة عند الفراق » .

وهكذا انقضت ساعات الليل ، وانقشع الفجر المعتم القاتم الذى يسبق تباشير

الصباح فى سوريا ، ولكن ما إن أشرق الخيط الأول من قرص الشمس وعلا فوق الأفق ، وما إن اندلع الشعاع الأول وتألق فى قطرات الندى — التى كانت تنتثر فوق القفر الذى بلغه الركب إذ ذاك — حتى علا صوت الحكيم الجهورى على صوت القصّاص ، وقطع عليه روايته ، وأخذ يردد فوق الرمال ذلك النداء المهيب الذى يدوى به المؤذنون فى المساجد فوق المنائر كل صباح ، ويقول : « حى على الصلاة ، حى على الصلاة ، لا إلـه إلا الله — حى على الصلاة ، حى على الصلاة ، محمد رسول الله — حى على الصلاة ، حى على الصلاة ، هذه الدار إلى الفناء — حى على الصلاة ، حى على الصلاة ، إن يوم الحساب قريب »[1] .

وفى أسرع من لمح البصر ، نزل المسلمون جميعاً من فوق الجياد ، وولوا وجوههم شطر مكة ، وتيمموا بالرمال عوضاً عن الوضوء بالماء ، ودعا كل منهم ربه ونبيه — فى عبارة موجزة حارة — أن يشملاه بالرعاية ويغفرا له ذنوبه وآثامه .

ولما رأى السركنث أقرانه يقومون بعمل لا يحسبه إلا الوثنية بعينها ، تألم فى قلبه وفى نفسه ، ولكنه رغم ذلك لم يسعه إلا أن يجل فيهم إخلاصهم وحماستهم هذه ، وإن يكن فى طريق الضلال ؛ واستحثته حرارة إيمانهم على أن يضرع إلى الله هو ذاته بدعاء أطهر من دعائهم ، ولكنه عجب — مع ذلك — من هذا الإحساس الجديد الذى دفع به إلى مشاركة أولئك الأعراب فى الصلاة — حتى وإن يكن بابتهال غير ابتهالهم — أولئك الأعراب الذين رأى فى صلاتهم إجراماً مشيناً بالأرض التى قامت فيها عجائب المعجزات ، وأشرق فيها نجم الخلاص[2] .

هذا الابتهال — الذى تضرع به السركنث فى هذه البيئة الغريبة — كان يتفجر من شعور طبعى خالص بالواجب الدينى ، وكان له الأثر المعهود فى تهدئة الخواطر التى اضطربت طويلا من هذه النكبات التى توالت عليه واحدة إثر الأخرى ؛ وتقرُّب المسيحى إلى عرش الواحد القهار مخلصا جادا يعلمه خير درس فى الصبر تحت الأرزاء ، لأنا إن كنا نبرم بحكم الله فنحن إذن نسىء إليه ، وإن كنا نسىء

(١) ليست هذه صيغة الأذان المشروعة فى الإسلام .   (٢) يقصد أرض فلسطين .

إليه فكيف لنا أن نتظاهر بالضراعة إليه ؟ أو إن كنا فى صلواتنا نقر فى كل عبارة بعبث هذه الدار الفانية وهبائها إذا قيست بما فى دار الخلود والبقاء ، فكيف لنا أن نأمل فى خداع علام الغيوب ونسمح للدنيا وللشهوات الدنيوية أن تتملكنا فى كل حين ، بل وبعد الدعاء الخاشع لله توا ؟ ولكن السر كنث لم يكن من هؤلاء ؛ فلقد أحس بالراحة والقوة ؛ وشعر بأنه أكثر استعداداً للخنوع أو للقيام بما تتطلبه الظروف من العمل والعناء .

وكان جماعة الأعراب إذ ذاك قد عادت إلى ظهور الجمال ، واستأنفت المسير ، وواصل حسن القصاص حبل روايته ، ولكن سامعيه لم يعودوا — كما كانوا — مصغين منصتين ؛ وكان أحد الخيالة قد صعد على نشز من الأرض إلى يمين الصف القصير ، والآن عاد يهرول مسرعاً إلى الحكيم وأخذ يحادثه ، وعلى إثر ذلك بعث بأربعة أو خمسة من الفرسان ، وشرعت القافلة الصغيرة — وعدتها نحو من عشرين أو ثلاثين رجلا — تتبعهم بالنظرات ، كأنهم قوم فى شاراتهم أو تقدمهم أو تقهقرهم ما يبشر بالخير أو ينذر بالشر . ولما رأى حسن أن سامعيه غير منصتين ، أو قل لما صرفته هو نفسه هذه المظاهر المريبة فى جناح القافلة ، وقف عن الغناء ، وسار الركب فى صمت لا يضطرب إلا حينما يحدو البعير الصابر راكب من الركبان ، أو حينما يتحدث رجل قلق من أتباع الحكيم إلى جاره فى همس خافت وعلى عجل .

وبقوا على هذا الركود حتى أتوا سفح رابية من الرمال أخفت عن قافلتهم ما كان قد حدا بطلائعهم إلى الذعر ، واستطاع السر كنث إذ ذاك أن يرى على بعد ميل أو ما ينيف ، شيئاً أسود يتحرك فى قلب الصحراء سريعاً ، نظر إليه بعين الحنك فأدرك أنه قافلة من الفرسان أوفر من قافلتهم عديداً ؛ وكان الوميض الكثيف المتلاحق الذى يعكس الأشعة الأفقية من الشمس المشرقة يدل على أن تلك الجماعة كانت ثلة من الأوروبيين فى كامل عدتهم وسلاحهم .

فألقى فرسان الحكيم على زعيمهم نظرات جازعة قلقة تنم عن خوف فى النفوس شديد ، أما الحكيم فلبث رزيناً رابط الجأش كما كان حينما دعا قومه

للصلاة ، ثم بعث باثنين من خيار فرسانه الركبان وأمرهما أن يدنوا — ما سمح لهما الحذر — من أولئك المسافرين فى الصحراء ، وأن يرقبا عديدهم على وجه دقيق ، وأن يتعرفا صفاتهم ومراميهم إن استطاعا إلى ذلك سبيلا ؛ وهذا الخطر — أو شبه الخطر — كان وهو يقبل على القافلة حافزاً يحث كل غافل ، فتنبه السر كنث إلى نفسه وإلى موقفه .

وقال للحكيم : « ما إخال أولئك الرجال إلا فرساناً مسيحيين ، فإن كانوا كذلك ، فم أنت خائف ؟ » .

فرد عليه الحكيم قائلا : « خائف ! » مرددا لفظ السر كنث باستخفاف وازدراء ، ثم قال : « إن الحكيم لا يخشى غير الله ، ولكنه أبداً يرتقب من أشرار الرجال أسوأ ما يفعلون » .

فقال السر كنث : « إنهم مسيحيون ، ونحن فى وقت الهدنة ، فلماذا تخشى الحنث فى العهود ؟ » .

فقال الحكيم : « هم جنود المعبد من القساوسة الذين تحظر عليهم عهودهم أن يعرفوا مهادنة المسلمين أو الثقة فيهم ؛ أصبهم بالوباء يا رسول الله جذورا وفروعا وأغصانا ! — سلمهم حرب ، وعهودهم بهتان وزور ؛ إن غيرهم من غزاة فلسطين لهم فترات وأحوال تشرب فيها قلوبهم بالشفقة والرحمة ؛ فرتشارد الأسد إذا ظفر عفا ، والنسر فيليب يخفض جناحه إذا أصاب الفريسة — وحتى دب النمسا إذا امتلأت بطنه أوى إلى النوم ؛ ولكن هذه العشيرة من الذئاب الجياع لا تعرف السكون ولا الشبع فيما تسلب وتغتصب — أما ترى أنهم قد فصلوا عدداً من جماعتهم ، وأنهم يسيرون شرقاً ؟ هنالك ترى غلمانهم وأتباعهم الذين ينشئونهم على مبادئهم الخفية اللعينة ، والذين بعثوا بهم — لحقتهم — كى يحولوا بيننا وبين الماء ؛ ولكن والله ليبوءُنّ بالخيبة والفشل ؛ أنا أعلم منهم بحرب الصحراء » .

ثم وجه إلى كبير ضباطه بضع كلمات ، وتبدل مسلكه ومحياه فى الحال من الاسترخاء والوقار — وهما فى الشرق من صفات الحكماء الذين تعودوا التأمل أكثر

مما تعودوا الحركة — إلى الظهور بالهمة والكبرياء — وهما من صفات الجندى الباسل يستفز نشاطه دنوُّ الخطر يلمحه من بعيد ويستخف به .

ولكن هذا الخطر المقبل كان له فى عينى السر كنث وجه آخر ، فلما أن قال له (أدنبك) : « عليك أن تتمهل وتلزم أبداً جوارى » أجابه بالنفى مطمئناً رابط الجأش .

وقال : « هنا لك أرى صحابى بالسلاح مدججين ، هنالك أرى رجالا أخذتُ على نفسى أمامهم أن أقاتل أو أموت — وعلى راياتهم تتألق علامة خلاصنا المبارك — إنى لا أستطيع أن أفر من الصليب إلى صحبة الهلال » .

فقال الحكيم : « أحمق بك من جاهل ! والله لو استطاعوا إخفاء الحنث فى شروط الهدنة ، لكان أول ما يقطعون به من عمل هو أن ينزلوا بك الموت » .

فأجاب السر كنث قائلا : « علىّ أن آخذ لنفسى حذرها من ذلك ، ولكنى إن استطعت أن أنزع عنى قيود الكفار فلن أتكبل بها لحظة واحدة بعد ذلك » .

فقال الحكيم : « إذن فأنا آمرك أن تتبعنى » .

فأجابه السر كنث غاضبا وقال : « تأمرنى ! والله لولا جميل صنعتَ بى ، ولولا أنك أردت بى خيرا ، ولولا أنى مدين لثقتك بحرية هاتين اليدين اللتين كان بوسعك أن تكبلهما بالأصفاد ، لولا ذلك لأريتك أن إرغامى — وإن كنت من السلاح أعزل — ليس بالأمر الهين أو اليسير » .

فأجاب الطبيب العربى وقال : « حسبك هذا وكفى ، إننا نضيع الوقت وهو نفيس » .

وما إن أتم حديثه حتى لوح بساعده فى الفضاء ، وصاح صياحاً عالياً أجش ، نذيراً لمن كان فى حاشيته ، فتفرقوا على الفور جميعاً على صدر البادية ، وكأنهم عقد انقطع حبله ، وانتثرت حباته كل منها فى ناحية . ولم يكن لدى السر كنث من الوقت ما يمكنه من أن يرقب ما جرى بعد ذلك ، لأن الحكيم فى تلك اللحظة عينها أمسك بزمام فرسه وأطلق لجواده العنان ، وانطلقا معاً كالبرق الخاطف ،

وبسرعة كادت أن تسلب الفارس الاسكتلندى القدرة على الشهيق ، ولئن أراد أن يوقف قائده عن السير لعجز كل العجز ؛ والسر كنث مدرب على الفروسية منذ نعومة أظفاره ، ولكن أخف ما امتطى من جياد — رغم ذلك — لم يكن إلا كالسلحفاة إذا قيس بخيول الحكيم العربى . وأثار الجوادان وراءهما النقع ، وكأنهما ينهبان الفلاة نهباً ، ويطويان الفراسخ فى لحظات ، ومع ذلك فإن قوتيهما لم تفترا ، وبقيت أنفاسهما خالصة كما كانت حينما بدءا هذا العدو العجيب . والحركة كلها بيسرها وخفتها كانت بالتحليق فى الهواء أشبه منها بالركض على الأديم ، ولم يصحبها شعور أليم اللهم إلا ذلك الرعب الذى يحس به المرء بطبيعته وهو يتحرك بسرعة فائقة ، وعسر التنفس الذى ينشأ عن شق الفضاء بسرعة الريح .

ومضى ما ينيف على الساعة بعد هذا الركض الرائع ، الذى يقصر مجهود البشرية بأسرها عن اللحاق به ، ثم أرخى الحكيم من سيره وأبطأ من خطى الخيل ، حتى بات عدْوُها محتملا ، وشرع يحدث الاسكتلندى حديثاً طويلا عن جدارة خيوله فى صوت هادئ مطمئن ، كأنه إنما كان يمشى على قدميه فى الساعة التى انقضت ، والاسكتلندى مقطوع الأنفاس ، أعشى البصر ، قليل السمع ، وجسمه كله فى دوار شديد من سرعة هذا العدو الشديد ، فلم يكد يفهم الكلمات التى كانت تتدفق من صاحبه تدفقاً .

قال العربى : « هذه الخيول من سلالة تعرف (بذات الجناح) تبارى بسرعتها كل شىء عدا براق النبى ، وهى تطعم شعير اليمن الذهبى ممزوجاً بالتوابل ، وقليلا من لحم الضأن المجفف ؛ وكم من ملك بذل ما يملك ليظفر بها ، وهى فى شيبها نشيطة كما فى شبابها ، وأنت أيها النصرانى — إذا استثنينا المسلمين — أول من علا بمتنه جواداً من هذه الفصيلة الكريمة ، وهى من هدايا النبى لعلى كرم الله وجهه ، وهو قريبه وخليفته ويسمى بحق (أسد الله) ؛ هلا عرفت أن الزمن لا يمس هذه الخيول الكرام إلا مسا خفيفاً ، وأن الفرس التى تمتطى صهوتها الآن قد عمرت خمسة وعشرين عاماً وما تزال تحتفظ بقوتها وبسرعتها الفطرية ،

ولو كان عنانها فى يد أكثر حنكة من يدك ، ما احتاجت فى مسيرها إلى أكثر من أن يمسك الراكب بزمامها ؛ صلى الله على نبينا الكريم الذى خلع على المؤمنين وسائل يتقدمون بها ويتأخرون ، وسائل تجعل خصومهم المتشحين بالحديد ينهكون من ثقل ما يحملون ! كم ذا نفخت خيول أولئك الأوغاد أصحاب المعبد ، وتصاعدت منها الأنفاس ، بعد ما جاهدت وضربت بحوافرها فى رمال الصحراء كى تطوى عشر معشار ما نهبت بخطاها هـذه الجياد الفوارس دون أن تتنهد مرة أو تعلو ظهورَها الناعمة الملساء قطرة واحدة من عرق ! » .

والآن حينما بدأ الفارس الاسكتلندى يسترد أنفاسه ، ويستجمع قوة انتباهه ، لم يسعه إلا أن يعترف فى نفسه بالميزة التى يتميز بها هؤلاء المقاتلون من أهل الشرق فى الركض بالخيول مهاجمين أو متراجعين ، وهى ميزة تلتئم كل الملاءمه والصحارى الرملية المستوية فى بلاد العرب وسوريا ؛ ولكنه لم يرد إلى أن يزيد من كبرياء ذلك المسلم بأن يقر له بما كان يزعم لنفسه من فضل ، ولذا فقد توقف عن مواصلة الحديث ، وتلفت حواليه ، واستطاع حينئذ — بعد ما أبطأ وصاحبه فى السير — أن يحس بأنه إنما يشق بلادا ليست غريبة عنه .

فتخوم البحر الميت الجرداء ، ومياهه الكئيبة ، وسلسلة الجبال الشاهقة المعقدة التى كانت ترتفع إلى يساره ، والنخيل المتلاصقة التى يتألف منها المكان الوحيد الأخضر على صدر القفار الجرداء — وهى مشاهد إن وقعت عليها العين مرة لن تغيب عن الذكر أبدا — كل ذلك دل للسر كنث على أنه وصاحبه كانا يقتربان من العين المعروفة باسم (درة الصحراء) ، التى التقى لديها فيما مضى بالأمير العربى شير كوه أو (الضريم) ، وبعد قليل من اللحظات أوقف الرجلان جواديهما إلى جوار العين ، ودعا الحكيم السر كنث أن ينزل عن ظهر الحصان ، وأن يأوى إلى الراحة كأنه فى دار مطمئنة ، وجردا جواديهما من زماميهما ، ورأى الحكيم فى ذلك ما يكفيهما من عناية ، لأن بعضا من خيار الفرسان من عبيده سوف يقدم عما قريب ويقوم بما تقتضيه الضرورة بعد ذلك .

ثم قال وقد طرح فوق العشب قليلا من طعام : « الآن اطعم واشرب يا صاح ولا تيأس ، فالمرء قد يعلو نجمه وقد يأفل ، ولـكن عقل الحـكيم والجندى ينبغى أن يعلو سلطان النجم » .

وحاول الفارس الأسكتلندى أن يبين عن شكره بوداعته ولين عريكته ؛ وجاهد أن يأكل شيئاً تأدباً ومجاملة ، إلا أن البون الشاسع بين موقفه حينذاك ، وموقفه حينما كان بهذا المكان من قبل رسولا من الأمراء ، وظافراً فى النزال ، مرّ بخاطره مر السحاب ، واسترخت قواه البدنية من أثر الصوم والإعياء والـكلال ، ففحص الحـكيم نبضه السريع ، وعينه الملتهبة الحمراء ، ويده الحارة ، وأنفاسه المتلاحقة .

وقال : « كلما سهر العقل زادت حكمته ، ولـكن الجسد — وهو صنو العقل وأخشن منه مادة — يحتاج إلى معونة الراحة ؛ فلتنم يا صاح ، ولـكى يصح نومك خذ جرعة من ماء ممزوجة بهذا الإكسير » .

ثم أخرج من صدره قارورة صغيرة من البلور فى صندوق من الفضة المخرمة وصب قليلا من سائل قاتم أسود فى قدح صغير من الذهب .

ثم قال : « هذا مما أنبت الله لنا فى الأرض من خيرات ، ولـكن الإنسان بضعفه وبما ركب فيه من سوء كثيراً ما أحاله إلى الشر ؛ هذا الشراب قوى كنبيذ النصرانى ، يسدل على العين الساهرة حجاب النوم ، ويخفف العبء عن الصدر المؤود ، ولـكنه إن استخدم فى أغراض الاستهتار والتهتك ، فهو يفتت الأعصاب ، ويهد القوى ، ويضعف العقل ، ويقوض الحياة من أساسها ، ولـكن لا تخش أن تستغل فضائل هذا الشراب إذا دعتك الحاجة ، فالرجل الحـكيم يدفئ نفسه بعين الجذوة التى يحرق بها الأحمق خيمته »[١] .

فقال السر كنث : « لقد شهدت كثيراً من حذقك أيها الحـكيم العاقل ، وإنى لا أجادل فى نصحك » وابتلع المخدر ممزوجاً بمـاء من العين ، ثم التفّ فى برده وكان موثوقاً برمانة سرجه ، واستلقى وفقاً لإرشاد الطبيب مسترخياً فى

(١) الظاهر أن الإشارة هنا إلى بعض مركبات الأفيون .

الظل يرتقب الراحة المرجوة ؛ ولم يزر عينيه الكرى أول الأمر ، وتوالت عليه سلسلة من الإحساسات اللذيذة ، لا هى إلى اليقظة ولا هى إلى النهوض ، ثم عرته بعد ذلك حال شعر فيها — ولما يزل يحس بوجوده وما صار إليه — بأنه يستطيع أن يتأمل ما مر به بغير ذعر أو أسف ، بل وبطمأنينة كأنه يشهد قصة نوائبه ممثلة على المسرح ، أو كأنه روح بغير جسم ينظر إلى ما عمل فى ماضى حياته . ثم انتقل بخواطره من هذا الهجوع ، الذى كاد أن يفقد فيه الشعور بالماضى ، إلى المستقبل الذى كان — رغم كل مايخيم عليه من سحب معتمة ليس وراءها من رجاء — يتألق بألوان زاهية ، ما كان لخياله الضيق المحدود — وهو فى ظرف خير من هذا الظرف — أن يبدع خيرا منها ، حتى حينما يكون الخيال فى أشد حالاته إرهافا ؛ فإن هذا الطريد الأسير ، هذا الفارس المهين ، بل هذا المحب اليائس ، الذى عقد رجاء سعادته على مدى بعيد عن مجال الأمل ، فى أيدى القدر القاسى الذى لايشد أزره فيما يريد ، كان يرجو رجاء أكيداً أن يظفر فى وقت غير بعيد بالحرية وبعد الذكر والحب الموصول . ثم أخذت هذه الصورة الذهنية تظلم شيئا فشيئا ، وأصبحت هذه الأحلام المرحة مبهمة غامضة كأشعة الشمس تذوى ساعة الغروب ، حتى هوت أخيرا فى وهدة النسيان السحيق ؛ وبقى السر كنث مستلقيا لدى قدمى الحكيم ، ولولا أنفاسه العميقة لحسبه الرائى جسدا بغير روح ، كأن الحياة فعلا قد فارقته .

الفصل الثالث والعشرون

وسط هذه المشاهد الموحشة
مد السحر يديه ،
يغير وجه هذه الأرض ذات السر العجيب ،
حتى تبدى ما حوالينا من فيافى القفار
عبثا أبدعته ترهات الأحلام .

من روايات خيالية لأستلفو

لما هب فارس النمر من هذا السبات الطويل العميق ، ألفى نفسه فى بيئة تخالف تلك التى نام فى أحضانها ، ولم يدر هل هو ما فتئ مستغرقا فى الأحلام ، أم هل بدل السحر من بيئته ، فقد رأى نفسه بعد العشب الرطب ملقى على فراش دونه فُرُش الشرق الوثيرة ، وقد امتدت إليه خلال نعاسه يد رحيمة ، ونزعت عنه ثوب الجلد الذى كان يرتدى تحت درعه ، وألبسته عوضا عنه رداء للنوم من الكتان الرقيق وثوبا فضفاضا من الحرير ؛ وما كان من قبل يظلله غير نخيل الصحراء ، أما الآن فهو يرقد فى سرادق من الحرير ، يتألق بأزهى ألوان نسيج الصين ؛ وقد انتشر حول سريره ستار خفيف من الحرير الرقيق يقى نعاسه من الحشرات التى وقع لها — مذ حل فى هذه الأقاليم — فريسة دائمة لا حول له ولا طول ؛ وتلفت الفارس حواليه كأنه يريد أن يثبت لنفسه أنه يقظ حقا ، فكان كل ما وقع تحت بصره ينم عن سناء مخدعه وجلاله ، فقد أُعد طست من السدر فضض داخله ، خفيف المحمل ، يفوح منه عبق العطور التى أُلقيت فيه ، وإلى جوار السرير على قائم صغير من الأبنوس وضع إناء من الفضة يحوى شرابا من أنخر الأصناف ، بارد كالثلج ، مذاقه بعد الظمأ الذى عقب تناول المخدر القوى شهى فائق اللذة ؛ ولكى ينفض الفارس كل أثر من آثار الثمل الذى خلفه الدواء ، اعتزم أن يستخدم الحمام ، وكانت له فى ذلك لذة وانتعاش ، وبعد ما جفف جسده

بقطيلة من صوف الهند ، لم يكن أحب إلى نفسه من أن يعود إلى ارتداء ملبسه الخشن ، حتى يستطيع أن يخرج ويرى إن كان العالم فى الخارج قد بدل وجها غير وجهه ، كما تبدل مقر نومه ؛ ولكنه لم يعثر على هذا اللباس ، بل وجد فى مكانه رداءاً عربيا من النسيج النفيس ، ومعه حسام وخنجر ، وكلها مما يليق بأمير جليل ، ولم يستطع أن يتخرص بالباعث على هذه العناية الفارطة ، ولشد ما كان يخشى أن يكون القصد من هذه الرعاية أن يتزحزح عن دينه وعقيدته ، فلقد كان يعرف حقا عن السلطان أنه يقدر العلم الأوروبى والبسالة الأوروبية قدرا عاليا ، فكان يكيل العطايا بغير حساب لأسراه ويغريهم بلبس العمامة ، ولذا فقد رسم السر كنث علامة الصليب على نفسه متورعا خاشعا ، واعتزم أن يتحدى كل هذه الشباك والأحابيل ، ولكى يتم له ذلك تماما عقد النية عامدا على أن يفيد مما كيل له بسخاء من أسباب الترف والرفاهية بقدر يسير ، ولكنه كان يحس بدوار فى رأسه ، وثقل فى جفونه ، وكان يدرك أنه لا يليق به أن يظهر خارج الفسطاط وهو عار ، فاستلقى على الفراش ، وطوقه الكرى بذراعيه مرة أخرى .

ولكن نعاسه هذه المرة لم يكن متصلا ، فقد أيقظه صوت الطبيب وهو لدى مدخل الفسطاط يستفسر عن صحته ، ويسأل هل أخذ بقسط وافر من الراحة ، ثم ختم كلامه بقوله : « إنى أرى الستار مسدولا على الباب ، فهل لى أن أدخل خيمتك ؟ » .

واعتزم السر كنث أن يظهر له أن الدهشة لم تبلغ به حدا ينسيه مركزه فأجاب قائلا : « ليس السيد بحاجة إلى أن يطلب الإذن كى يلج فسطاط العبد » .

فأجاب الحكيم دون أن يدخل وقال « وهب أنى ما أتيتك سيدا ؟ » .

فقال الفارس : « للطبيب أن يدخل إلى سرير مريضه بغير قيد » .

وقال الحكيم : « وما أتيتك الآن طبيبا ، ولذا فإنى ما زلت أطلب إليك الإذن قبل أن أدخل تحت خباء خيمتك » .

فأجاب السر كنث وقال : « بيت الصديق مفتوح على مصراعيه لمن جاء
ـديقا ، ولقد أريتنى حتى الآن أنك لى صديق » .

فقال الحكيم الشرقى بأسلوب الكناية المألوف بين بنى قومه : « وهب أنى
أتيتك صديقا ؟ » .

ولما نفد صبر الفارس الاسكتلندى من هذه المراوغة قال : « تعال كما شئت
ـ وكن من شئت — فإنك تعرف أنى لا أستطيع ، بل ولا أحب ، أن أمنعك
ـن الدخول » .

فقال الحكيم : « فإنى آتيك إذن بصفتى عدوك القديم ، ولكنى الآن
ـل كريم » .

ثم دخل وهو يتكلم ، ولما وقف إلى جوار سرير السر كنث بقى فى صوته
ـدنبك) الطبيب العربى ، ولكن هيئته زرية وملامحه كلها كانت تدل على أنه
ـلضريم) الكردستانى المعروف باسم (شيركوه) ، فحدق فيه السر كنث وكأنه
ـظر من هذا الشبح أن يختفى كما تختفى الصورة التى يخلقها الخيال .

فقال (الضريم) : « هل يدهشك — وأنت مقاتل معروف — أن ترى جنديا
ـف شيئا من فن الشفاء ؟ اعلم أيها النصرانى أن الفارس الكامل ينبغى له أن يعرف
ـف يضمد جراح جواده كما يعرف كيف يمتطى صهوته ، وأن يعرف كيف يرهف
ـفه فى كور الحداد كما يعرف كيف يستخدمه فى ساحة الوغى ، وأن يعرف
ـيف يجلو السلاح كما يعرف كيف يمتشقه ؛ وفوق كل ذلك يجب أن يعرف كيف
ـفى الجراح كما يعرف كيف يثخنها » .

وكان الفارس المسيحى يغلق عينيه بين الآونة والأخرى والعربى يتكلم ؛ ثم أغمض
ـنيه ، وتمثل فى مخيلته صورة الحكيم فى ثيابه الطويلة الفضفاضة السود ، وعمامته
ـية المرتفعة ، ومحياه الثابت الرصين ؛ وما إن فتح عينيه حتى عرف من العمامة
ـنيقة المرصعة بالجواهر ، والقميص المصنوع من حلق الحديد المجدول بالفضة ،
ـ كان يتألق ويلمع كلما تزحزح الرجل بجسمه ، ومن الطلعة التى لم يعد بها أثر من

وقار العلم ، ومن الوجه المشرق الذى لم يعد يظلله الشعر الكث ، (ولم يبق منه الآن سوى لحية مشذبة جميلة) عرف أن الماثل أمامه هو الجندى لا الحكيم .

وقال الأمير : « أفما فتئت ذاهلا ؟ عجباً ! كيف سرت فى هذه الدنيا ولم تلحظ أن الرجال ليسوا دائما كما يدل عليهم ظاهرهم ! انظر إلى نفسك — هل أنت كما ينم عنك ظاهرك ؟ » .

فصاح الفارس قائلا : « كلا ، وحق القديس أندراوس . إن ظاهرى فى معسكر المسيحيين بأسره ظاهر الجندى الخائن ، وأنا أعرف أنى رجل مخلص رغم ذنوبى » .

فأجابه (الضريم) وقال : « والله لقد عرفتك كذلك ، ولما كنا قد تناولنا من ملح الطعام معاً فقد رأيت أن فى ذمتى أن أنقذك من الموت والعار — ولكن هلا خبرتنى لماذا أنت ما تزال على فراشك ، أفما تعلم أن الشمس قد ضربت فى كبد السماء ؟ أم هل الثياب التى بعثتُ إليك على ظهر ناقتى لا تليق بملبسك ؟ » .

فأجابه الفارس وقال : « كلا إنها تليق بى ، ولكنى لست بها خليقاً . أعطنى ثياب الرق أيها (الضريم) النبيل أرتدها جذلا مسروراً ، ولكنى لا أطيق ارتداء زى المقاتل الشرقى الحر ، ولبس عمامة المسلمين » .

فأجاب الأمير قائلا : « أيها النصرانى ؛ إنكم أمة اتخذتم الريبة دينكم حتى حق لنا أن نرتاب فيكم ؛ ألم أقل لك إن صلاح الدين لا يحب أن يُدخل فى حظيرة الإسلام سوى أولئك الذين يهديهم النبى الكريم لأن يدينوا بشريعته ؟ إنما الشدة واللين كلاهما ليسا من سياسته فى نشر الدين الحنيف . استمع إلى يا صاح ! لما ارتد للأعمى بصره بمعجزة من ربه سقطت عن عينيه الغشاوة بإرادة الله — أفتظن أن طبيباً من هذه الدار كان قادرا على أن يزيل الحجاب عن عينى الرجل ؟ كلا . ما كان لمثل هذا الطبيب إلا أن يعذب المريض بعدته وآلاته ، أو أن يخفف عنه بيلسمه ومنبهاته ، ولكن الضرير سوف يبقى ضريراً ؛ وما أعمى البصيرة إلا كذلك ؛ إن كان بين الفرنجة من لبس العمامة واتبع شريعة الإسلام ، كى

يجنى المال الحرام فهو آثم لا ضمير له ، وهو الذى سلك طريق الغواية ، وما شقها له السلطان . وإذا ما لاقى فى الدار الآخرة جزاء نفاقه وزُج به فى أسفل سافلين ، فى جحيم تحت جحيم النصارى واليهود والسحرة وعبدة الأوثان ، وقضى عليه أن يأكل من شجرة الزقوم ، وهى شجرة طلعها رؤوس الشياطين ، فإثمه وجزاؤه فى عنقه لا فى عنق السلطان . وإذن فلترتـدِ ما أُعد لك من لباس ، ولا تداخلك ريبة أو شك ، لأنك إن سرت إلى معسكر صلاح الدين فإن زيك الوطنى يعرضك للمشقة والرقابة ، بل وللمذلة والمهانة » .

فقال السر كنث مردداً ألفاظ الأمير : « إن سرتُ إلى معسكر صلاح الدين ؟ واحسرتاه ! خبرنى هل أنا رجل طليق ، وهل لى أن لا أذهب حيثما شئتَ ؟ » .

فقال الأمير : « سر أنَّى شئت ، وانطلق حرا كالريح التى تلعب بالرمال فى الصحراء وتثيرها حيثما أرادت ؛ ما كان للعدو النبيل الذى تلقّى مهندى ، وكاد أن ينزعه من كفى ، أن يكون لى عبداً كمن خر تحت ظباته . والله لو كان المال والسلطان يحضانك على أن تنضم إلى أمتنا لـكفلتهما لك ، ولـكنى أخشى أن الرجل الذى أبى على نفسه هبات السلطان ، والسيف مشهور على رأسه ، أن لن يقبلها الآن ، وأنا أقول له إنه حر فيما يريد » .

فقال السر كنث : « أتم على نعمتك أيها الأمير النبيل ، واجتنب أن ترينى طريقاً للمثوبة يأبى علىّ ضميرى أن أسلـكها ، واسمح لى أن أعبر لك — وقد طوقتنى برفقك — عن عرفانى لهذا السخاء الـكريم ، وهذا الجود الذى لست به قمينا » .

فأجابه الأمير (الضريم) قائلا : « لا تقل إنك لست به قمينا ، ألم يكن حديثك معى ، وما رويت لى عن الحسان اللائى يجملن بلاط الملك رتشارد هو ما دفع بى إلى أن أسير متخفيا إلى هناك ، وأظفر بمنظر هو أروع ما رأيت ، وما سوف أرى ، إلى أن تـكتحل عيناى بجلال الجنان ؟ » .

فتناوبت وجهَ السر كنث الحمرة مرة والشحوب أخرى ، وكأنه أحس بأن الحديث قد أخذ يضرب على وتر حساس أليم ، ثم قال : « إنى لا أفهمك » .

فصاح به الأمير : « لاتفهمنى ! إن كان المنظر الذى شاهدت فى سرادق الملك رتشارد قد فاتك أن تراه ، إذن فبصرك أكلّ من حدّ العضب الخشبى فى يد المهرج . نعم إنك كنت إذ ذاك تحت حكم الموت ، أما أنا فوالله لو كان رأسى يسقط عن جذعى لصوبت من مقلتى لحاتهما الأخيرة الكليلة على تلك الصور الحسناء وكلى حبور ، ولتدحرج رأسى صوب أولئك الحور البارعات جمالا ، يلثم بشفتيه المرتعدتين أهداب أرديتهن — هنالك شهدت ملكة إنجلترا ، وهى بحسنها الفاتن جديرة بأن تكون ملكة على العالم بأسره — أى رقة تلك التى تشع من عينها الزرقاء ! وأى بريق ذلك الذى يتألق فى فرعها الذهبى المتهدل ! أقسمت بالرحمن ما أحسب الحوراء التى سوف تقدم لى كأس الخلود اللؤلؤى بأحق من هذى بأحر العناق » .

فقال السر كنث عابسا مقطب الجبين : « أيها العربى ، إنك تتحدث عن زوج رتشارد ملك إنجلترا ، وهى امرأة ليس للرجال أن يفكروا فيها أو يذكروها كما تُذكر النساء اللواتى تجوز حيازتهن ، وإنما يذكرونها كملكة احترامها واجب » .

فقال العربى : « ناشدتك الرحمة ، والله لقد نسيت إجلالكم الخرافى الذى تحملون للنساء اللائى تحسبونهن بالإعجاب والعبادة أقمن منهن بالعشق والمواتاة ، وإنى على يقين أنك إن كنت تكنّ هذا الإجلال الرفيع لتلك المخلوقة الرقيقة الضعيفة ، التى تنم كل حركة وكل خطوة من خطاها ، وكل نظرة تنظر ، على أنها امرأة حتى الصميم ، فإن ذات الجدائل السود ، والعين التى تنم عن النبل والشرف ، جديرة منك بما لا يقل عن العبادة الخالصة ؛ وإنى لأقر حقا أن لها فى قدها وسيماها الجليل شيئا من العفة والثبات — ولكن صدقنى أن المرأة لو أقدم عليها محب جرىء ، وضاقت بها الحيلة ، لشكرت من أعماقها ذلك المحب الذى يعاملها كمخلوق فان لا إله باق » .

فقال السر كنث فى نغمة بينة الغضب : « احترم قريبة قلب الأسد » .

فأجاب الأمير هازئا : « أحترمها ! وحق الكعبة لو احترمتها لجعلتها عروسا لصلاح الدين » .

فصاح المسيحى وقد هب من مرقده وقال : « إن هذا السلطان الـكافر ليس قمينا بأن يلثم الأرض التى تطؤها أديث بلانتاجنت بقدميها ! » .

فصاح به الأمير وقال : « ها ! ماذا تقول يا منافق ؟ » ووضع يده على مقبض خنجره ، وتألق جبينه كما يتألق النحاس البراق ، وارتجفت شفتاه وخداه حتى لـكأن كل خصلة من خصلات لحيته قد أخذت تهتز وتلتوى كأنها أحست بالغضب الفطرى ، ولـكن الفارس الاسكتلندى ، الذى وقف فى وجه الليث الغاضب رتشارد ، لم يرتع لهذا العربى الهائج ، وما هو فى ثورته إلا كالنمر الحانق .

ثم واصل السر كنث حديثه وذراعاه مطبوقتان ، ولا أثر للجبن فى عينيه وقال : « والله طالما كانت يداى طليقتين لأقفن مدافعا عما قلت — راجلا أو راكبا — فى وجه الأحياء جميعا ؛ وليس كثيراً على سيفى هذا العريض الـكريم أن يحطم عشرين من هذه المناجل والمثاقب » مشيراً إلى سيف الأمير المعقوف ، وخنجره الصغير .

فهدأت ثائرة العربى والمسيحى يتكلم ، ورفع يده عن سلاحه كأن حركته الأولى لم يكن لها معنى ، ولـكنه ما فتئ فى وطيس ثورته .

وقال : « وحق سيف النبى ياصاح ، وهو مفتاح الجنة والنار ، إن من يقول بقولك هذا لايقيم لحياته وزنا ! صدقنى أن لو كانت يداك طليقتين — على حد تعبيرك — فإن مسلما واحداً مؤمنا قد يشغلهما طويلا حتى لتود لو تـكبلتا فى أصفاد الحديد من جديد » .

فأجاب السر كنث قائلا : « والله لأن أبترهما بعظام اللوح خير لى من هذا » .

فقال له العربى فى نغم أكثر تودداً : « إذن فهذه العاطفة الرقيقة تغل يديك الآن ، وليس فى عزمى أن أطلق سراحهما ؛ لقد كنا قبل الآن متكافئين قوة وبسالة ، وربما نلتقى ثانية فى ساحة النزال العادلة — ويا لعار من يفصل من خصمه قبل أخيه ! أما الآن فنحن صديقان ، وإنى لأنتظر منك العون لا شديد العبارة والتحدى » .

فأجابه الفارس مردداً عبارته : « أجل نحن صديقان » ، ثم كانت بينهما فترة من السكون ، أخذ العربى المتقد يجوب فيها الفسطاط بخطاه ، كالليث يشتد هياجه ثم يثوب إلى إطفاء حرارة دمه قبل أن يستاق للراحة فى عرينه ؛ أما الأوروبى — وهو أكثر من صاحبه برودة — فقد لبث فى وقفته وهيئته لايدل منهما ، ولكنه كان — لاريب — رغم ذلك يكابد إطفاء مشاعره وقد توقدت غضباً واشتعلت على غير انتظار .

ثم قال العربى : « دعنا نفكر فى هـذا الأمر هادئين . إنى كما تعلم طبيب ؛ ومن أراد لجرحه التئاما ينبغى له أن لاينقبض إذا جاءه الطبيب يسبر جرحه ويضع فيه الفتيل . أما ترى أنى أوشك أن أضع إصبعى على مكمن الداء ؛ أنت تحب هذه المرأة قريبة الملك رتشارد — فلتمزقن ذلك الحجاب الذى يستر خواطرك — أو إن شئت فلا تمزقه ، فإن عينىّ تنفذان إلى ما وراء الحجاب » .

فسكت السر كنث هنيهة ثم قال : « لقد أحببتها كما يحب الرجل رحمة ربه ، وطلبت رضاها كما يطلب الجانى غفران السماء » .

فقال العربى : « أوما تحبها بعد ؟ »

فأجاب السر كنث قائلاً : « واحسرتاه ! إنى لم أعد بحبها قميناً . بربك إلا قطعت هذا الحديث ، إن كلماتك على فؤادى كالخناجر » .

ثم استأنف (الضريم) حديثه وقال : « عفوك لحظة ، وقل لى أفلم ترجُ أن يثمر لك هذا الحب حينما جسرت — وأنت جندى مسكين مجهول — على أن تعقد حبك بهذه الفتاة الكريمة » .

فقال الفارس : « ليس هناك حب بغير أمل ، ولكن حبى كاد أن يكون حليف اليأس ، ومثلى فى ذلك مثل الملاح الذى يريد لنفسه الحياة فيسبح ويسبح ويطوى موجاً إثر موج ، وأمام بصره شعاع من ضوء ناء يراه الفينة بعد الأخرى فيعلم أن فى الأفق مرسىً ، ولكن قلبه الواهن وأطرافه المنهوكة تؤكد له أنه لن يبلغه » .

فقال (الضريم) : « والآن غاص الأمل وانطفأ ذلك الضوء الفريد إلى الأبد ؟ »

فأجاب السر كنث بنغم كالصدى يصدر عن جوف أطلال القبور وقال : « أجل إلى الأبد » .

فقال العربى : « أحسب إن كان ما ينقصك لمحة من السعادة خاطفة بعيدة كتلك التى كانت لك من قبل ، فإن الضوء الذى عقدت به الرجاء قد يتقد ثانية ، والأمل الذى غاص منك فى لجج الأمواج قد يطفو ، وتعود أيها الفارس الكريم إلى الاستمتاع بتغذية عواطفك الخيالية بغذاء كضياء القمر شفوفا ورقة ؛ فلئن بقيت إلى الغد طيب الأحدوثة — كما كنت أبداً — فسوف ترى معشوقتك فى مكانة لا تقل عن مكانة بنات الأمراء ؛ سوف تراها عروس صلاح الدين المنتقاة » .

فقال الأسكتلندى : « وددت لو تم ذلك ، وإذن فوالله إن لم ... »

ثم سكت عن الكلام كرجل يخشى المفاخرة فى ظروف لا تسمح له بأن يثبت بالفعل صدق ما يقول ، فابتسم العربى وعقّب قائلاً : « هل أنت تتحدى السلطان السجال ؟ »

فأجابه السر كنث شامخاً بأنفه وقال : « ولئن تحديته فما عمامة صلاح الدين بأولى العمائم ولا خير ما طعنت برمحى » .

فقال الأمير : « أجل ، ولكنى أحسب أن السلطان قد يرى هذه وسيلة غير عادلة ، يستهدف فيها للخطر حظّه فى العروس الملكية ونهايةُ الحرب الضروس » .

فتألقت عينا الفارس بالخواطر التى أوحى بها إليه هذا الرأى وقال : « قد ألاقيه فى طليعة معركة من المعارك » .

فقال (الضريم) : « لقد كان أبداً فى الطليعة ، وما كان من سجيته أن ينصرف بجواده عن منازل جرىء . ولكنى ما كنت أريد أن أتحدث عن السلطان . وموجز القول إن كان يرضيك أن تنال من الذكر ما يستحق من يكشف عن اللص الذى سرق راية انجلترا ، فإنى أستطيع أن أرشدك إلى خير

سبيل تؤدى بك إلى القيام بهذا العمل — أعنى إن أردت أن تنساق لى ؟ ولقد قال لقمان : « إن أراد الصبى أن يسير فليسترشد بمربيته ، وإن أراد الجاهل أن يفهم فعلى العاقل أن يعلمه » .

فأجابه الأسكتلندى بقوله: « وإنك لعاقل أيها (الضريم) ، عاقل رغم عروبتك ، وكريم رغم كفرك ، ولقد شهدت فيك الخلتين ، إذن فلتكن فى هذا الأمر رائدى ؛ وما دمت لا تسألنى شيئاً يتنافى وإخلاصى أو يناقض مسيحيتى فلأصدعن بأمرك فى حينه ، افعل كما قلتَ ثم خذ منى حياتى بعد ذلك » .

فقال العربى : « إذن فاستمع لى ، لقد عوفى كلبك الكريم ببركة ذلك الدواء السماوى الذى يشفى الإنسان والحيوان ، ولسوف يكشف لك بحكمته عمن هاجموه » .

فضحك الفارس وقال : « والله لقد أدركت ما تعنى ، وما كان أغبانى ألا أفكر فى ذلك ! »

فأردف الأمير وقال : « ولكن خبرنى ، هل لك فى المعسكر من الأتباع أو الخدم من يعرف الكلب ؟ »

فقال السر كنث : « لقد عزلت خادمى العجوز مريضك الذى باشرت ، والصبىّ الذى كان يرعاه حينما كنت أتوقع أن الموت سوف ينالنى ، وأعطيته رسائل يبلغها أصدقائى فى أسكتلندا ؛ ولا يألف الكلب غير هذين ؛ ولكنى إن ذهبت بنفسى فأنا جد معروف ، وسيفضحنى كلامى فى معسكر لعبت فيه دوراً شريفاً عدة شهور » .

فقال العربى : « سوف تتخفيان كلاكما ، ولن يعرفكما أحد حتى وإن أمعن فيكما عن كثب ؛ وصدقنى أن زملاءك فى السلاح ، بل وإخوتك الذين هم من لحمك ودمك ، لن يكشفوا أمرك لو استمعت لنصحى ؛ ولقد شهدتنى أقوم بأمور أشد من هذه عسراً ؛ إن من يخرج الميت من ظلام ظلال الموت يسير عليه أن يسدل حجاباً من الظلمة على أعين الأحياء ؛ ولكن استمع إلىّ ، إن هناك شرطاً يرتبط

بهذه الخدمة ، وذلك أن تحمل من صلاح الدين رسالة إلى قريبة الملك رك (رتشارد) ، واسمه على لساننا وشفاهنا الشرقية عسير ، كما أن جمالها فى أعيننا بهيج » .

فسكت السر كنث هنيهة قبل أن يجيب ، ولحظ العربى تردده ، فسأله إن كان يخشى أن يؤدى هذه الرسالة .

فقال السر كنث : « كلا ، حتى وإن كان فى أدائها الهلاك ؛ إنما سكت كى أفكر إن كان يليق بشرفى أن أحمل رسالة صلاح الدين ، أو يليق بشرف السيدة أديث أن تتسلمها من أمير مشرك » .

فقال الأمير : « بحق محمد ، وبشرف الجندية وبحرم الكعبة ، وبروح أبى أقسم لك إن الرسالة لا تحمل بين سطورها إلا الشرف الرفيع ، والاحترام السامى ، ووالله لتغريد البلبل أقرب إلى إفساد العش الوردى الذى يعشق من أن تسىء كلمات السلطان إلى أذنى قريبة ملك انجلترا الحسناء » .

فرد عليه الفارس وقال : « إذن فسوف أحمل خطاب السلطان مخلصاً كأنى ولدت له عبداً — ولتعلم أننى ، فيما عدا هذا العمل الساذج وهذه الخدمة التى سوف أقوم بها صادقا أمينا ، أبعد الرجال قاطبة عن أن يرتقب منى السلطان وساطة أو نصحاً فى أمر هذا العشق الغريب » .

فأجابه الأمير قائلا : « إن صلاح الدين رجل نبيل ، ولن يحفز جواداً كريما على أن يثب وثبة لا قِبَل له بها » .

ثم قال : « تعال معى إلى فسطاطى ، وسوف أعدك فى الحال بزى تتنكر به ، وكأنه ظلام الليل الدامس لا ينفذ إلى ما وراءه أحد ، وبعدئذ تستطيع أن تسير فى معسكر النصارى وكأن على إصبعك خاتم جيوجى [1] » .

(١) ربما كان العربى يشير إلى جيجيز ، وجيجيز هذا من ملوك ليديا عاش فى القرن السابع قبل الميلاد ، ويعرف فى القصص الخرافية بخاتمه السحرى وثروته الطائلة .

الفصل الرابع والعشرون

إن خالطت كؤوسنا ذرةٌ من تراب ،
لفظنا الشراب عيافة
وقد كنا لريّه ظمأى ؛
وإذا ما جانب المسار الصدئ
إبرة الملاح — وهى دقيقة —
أمالها عن الحق ، وتحطم السفين .
وهكذا أدنى باعث للغضب والنفور
يقطع بين الأمراء حبل المودة
ويحطم فيهم أنبل الأغراض .

من « الحرب الصليبية »

لا يشك القارئ بعد هذا إلا قليلا فى من كان ذلك العبد الأثيوبى فى حقيقته ، ولأى غرض سعى إلى معسكر رتشارد ، ولماذا وبأى رجاء وقف على كثب من شخص ذلك الملك الذى أحاط به أمراؤه الشجعان من الإنجليز والنورمان ، على كثب من قلب الأسد وهو على قمة جبل سنت چورچ ، وإلى جواره راية إنجلترا يرفعها خير رجال الجيش جميعا ، أخوه الطبعى ، وليم صاحب السيف الطويل إرل سالزبرى سليل هنرى الثانى من محبوبته (روزامند) الشهيرة ابنة (ودستك) .

وقد دار بين الملك ونفيل فى اليوم السابق حديث تبين للنوبى من خلال الكثير من عباراته ما أدخل فى نفسه الشك والقلق على أن تنكره قد انكشف ، وبخاصة حينما بدا على الملك أنه يدرك الأسلوب الذى سوف يكشف به الكلب الوسيط عن اللص الذى سرق الراية ، وذلك رغم أن الظروف التى أدت إلى جرح الكلب فى حادث العلم لم يكد يرد لها ذكر فى حضرة رتشارد ؛ ولكن الملك لبث — رغما عن كل هذا — يعامل الرجل المعاملة التى يتطلبها مظهره ، فبقى النوبى فى شك من اكتشاف أمره ، واعتزم أن لا يطرح زى التنكر عنه طوعا .

وإذ ذاك توالت على سفح الجبل الصغير جيوش الأمراء الصليبيين المتعددين

فى خط طويل ، مصطفين خلف زعمائهم من الملوك والأمراء ؛ وبينما كانت جنود الدول المختلفة تسير متتابعة ، تقدم زعماؤهم خطوة أو خطوتين إلى أعلى التل ، وقدموا دلائل المجاملة لرتشارد وللراية الإنجليزية « إشارة إلى الاحترام والمحبة » كما جاء النص صريحا فى الاتفاق الذى عقد بشأن هـذا الحفل « لا إلى الخضوع أو التبعية » ؛ أما رجال الدين الروحانيون — وكانوا فى تلك الأيام لا يطأطئون الرؤوس لمخلوق كائن — فقد خلعوا على رتشارد وعلى شارة زعامته بركاتهم بدلا من أن يقدموا له ولاءهم وطاعتهم .

وهكذا أخذت الصفوف الطويلة تسير ، ورغم تناقص عديدها لأسباب عدة ، كان ظاهرها ظاهر الجيش المسلح الذى ليس غزو فلسطين له إلا عملا يسيرا . وكانت تسرى بين الجند روح الإحساس بوحدة القوى ، فيجلسون منتصبى القامة على سروجهم الصلبة ، وينفخون فى الأبواق بأنغام طروبة . أما الخيول فبعد أن انتعشت بالراحة والعلف ، أخذت تفرك أزمتها ، وتضرب فى الأرض مرحا ؛ وسار الجمع فيلقا إثر فيلق ، والأعلام تخفق والرماح تتألق ، والريش يرقص وهم يسيرون صفا صفا ؛ وكان جيشاً يتألف من أمم مختلفة وبشرات متباينة ولغـات عديدة وأسلحة متنوعة ومظاهر متلونة ، ولـكنهم كانوا جميعاً إذ ذاك يشتعلون حماسة لذلك الغرض المقدس الخيالى ، وهو إنقاذ ابنة صهيون المنكوبة من ذل الاسـتعباد ، وتخليص الأرض المقدسة ، التى وطأتها أقدام الأنبياء ، من نير الوثنيين المنافقين . وينبغى لنا هنا أن نذكر أنه إن كان فى الطاعة يقدمها إلى ملك انجلترا — فى ظرف غير هذا الظرف — مثلُ هذا العدد العديد من المحاربين الذين ما كان له عليهم حق الخضوع الطبعى ، نقول إنه إن كان فى طاعتهم له شىء من الذلة والخنوع ، فإن طبيعة الحرب التى هم فيها وبواعثها كانت تلائم صفة الفروسية الممتازة فيه ، كما تتفق ومآثره المعروفة فى القتال ، حتى إنه لو كان لأحد فى وقت غير هذا أن ينازعه أو يدينه فما كان له إذ ذاك إلا أن يتناسى أسباب الإدانة والنزاع ؛ فتقدم الشجاع طوعا بالولاء إلى من هو أشجع منه فى حملة يتطلب نجاحها إقداما لا يفتر ولا يلين .

وكان الملك الصالح على صهوة الجواد فى منتصف الطريق إلى قمة الجبل ، وعلى رأسه خوذة مفتوحة يعلوها تاج ، وملامح الرجولة فيه بادية لعين الرائى ، وهو بنظرة ، فيها استهانة وفيها إمعان ، يطالع صفوف الجيش وهى تمر به ، ويرد للقواد التحية ؛ وقميصه من المخمل ، لونه لون السماء ، تغطيه صفائح الفضة ، وجواربه من الحرير القرمزى المحلى بالذهب ، وإلى جواره يقف الرجل الذى كان ظاهره ظاهر العبد الأتيوبى ممسكا الكلب النبيل بِعِقْـوَد ، كذلك الذى كان يستخدم وفقا لقواعد الصيد فى تلك العصور ؛ ولم يكن فى وجود هذا الرجل ما يلفت النظر ، إذ أن كثيراً من الأمراء الصليبيين كان يستخدم الرقيق الأسود فى حاشيته محاكاة لأبهة العرب الوحشية .

وكانت ثنايا العلم الكبيرة ترفرف فوق هامة الملك ، وهو ينظر إليها الفينة بعد الفينة وكأنه يرى فى خفقاتها احتفاء لم يوجه إليه ، ولكنه ذو خطر لأنه كان بمثابة التكفير عن المهانة التى لحقت بالمملكة التى يسود عليها . ووراء هذا كله ، على رأس الجبل وفوق قمته ، أقيم برج من الخشب لهذا الظرف كى تأوى إليه الملكة برنجاريا وكبريات سيدات البلاط ، وكان الملك يتطلع إلى هذا البرج حينا بعد الآخر ، ثم يوجه بصره من وقت لآخر صوب النوبى والكلب كلما دنا قائد ، ممن عرف فيهم من قبل سوء الطوية فارتاب فى مساهمتهم فى سرقة العلم ، أو رأى فيهم القدرة على مثل هذا الجرم الوضيع .

وعلى ذلك لم يرفع بصره إلى قمة الجبل حينما دنا فيليب أغسطس ملك فرنسا على رأس جنده الباهر من فرسان الغال — كلا ، بل لقد كان يرتقب مجىء ملك فرنسا فهبط من الجبل وفيليب يصعده ، حتى التقيا فى منتصف الطريق ، وتبادلا التحية بلطف ، حتى إن الرائى ليحسب أن فى المقابلة مساواة الإخاء ؛ وهذا المنظر ، منظر أعظم أميرين فى أوروبا مرتبة وسطوة وهما يعلنان للملأ الوئام بينهما ، دفع بالجيوش الصليبية على بعد أميال إلى أن تنفجر بهتاف كهزيم الرعد ، كما جعل كشافة الصحراء من العرب الجوالة تسارع إلى معسكر صلاح الدين تنذره بزحف

جيوش المسيحيين ؛ ولكن مَنْ غير ملك الملوك يستطيع أن يعلم ما تخفى أفئدة الملوك ؟ وتحت هذا المظهر الرقيق من الملاطفة كان رتشارد يكنّ لفيليب السخط والريبة ، وفيليب يفكر فى الانسحاب بجنوده من جيش الصليب ، مخلفا بعده رتشارد كى يتم المشروع أو يفشل فيه بجيوشه وحدها من غير معين .

وتغيرت ملامح رتشارد حينما دنا رجال المعبد ذوو الأسلحة السوداء من فرسان وأتباع ، وهم رجال اسمارّت بشرتهم حتى باتوا بسواد أهل آسيا على شبه عظيم ، وذلك من أثر الشمس فى فلسطين ، وخيولهم الباهرة وأزياؤهم الفاخرة تفوق كثيراً ما لخيار الجنود الفرنسية والإنجليزية ؛ وحينئذ رنا الملك جانبا بنظرة عجلى ، ولكن النوبى لبث صامتا ، وقبع كلبه الأمين لدى قدميه ، يرقب بعين مستبشرة حكيمة ، تلك الصفوف التى كانت تسير تحت بصره ، ثم عرج الملك ببصره ثانية صوب رجال المعبد الفرسان حينما مر به كبيرهم واستغل صفته المزدوجة — الدينية والحربية — وحبا رتشارد ببركاته كقس بدلا من أن يقدم له الولاء كقائد من قواد الحرب .

فقال رتشارد إلى إيرل سولزبرى : « إن هذا الوغد المتصلف ، هذا الرجل المتلون يقابلنى راهبا ، ولكن دعها تذهب يا (لنجسورد) ؛ لا ينبغى لنا أن نضيّع على المسيحية من أجل هذه التقاليد خدمات هؤلاء المقاتلين المدربين الذين أدخل الظفر فى قلوبهم الغرور — صه يا صاح ! ها هو ذا قد أقبل خصمنا الباسل دوق النمسا ، انظر إلى صورته وهيئته يا (لنجسورد) ، وأنت أيها النوبى دع الكلب يملأ ناظريه ، وحق السماء لقد أتى نديمه معه ! » .

وحقا لقد أقبل ليوبولد يتبعه المحدث والمهرج ؛ إما لأنه تعود صحبتهما ، أو لأنه — على الأرجح — أراد أن يُلمع إلى استخفافه بالحفل الذى أوشك أن ينضم إليه ، ثم تقدم إلى رتشارد وأخذ يصفر صفيراً أراد أن يدل به على قلة اكتراثه ، ولكن رزانة ملامحه كانت تنم عن اكتئاب فى نفسه يمازجه خوف كخوف الصبى الهارب من المدرسة وهو يقترب من أستاذه .

أقبل الدوق فى حشمة ووقار ، وأدى التحية وهو كاره ، وفى عينيه التجهم والعبوس ، فهز المحدث بعصاه ، وأعلن كما يعلن الرائد أن أرشدوق النمسا ، وهو يقدم لرتشارد الخضوع والولاء ، لا ينزل عن امتيازه ومرتبته مرتبة الملك الأمير ، فأجابه المهرج بصوت جهورى وقال : « اللهم آمين ! » فأثار الضحك بين الواقفين .

وتطلع الملك رتشارد إلى النوبى وإلى كلبه أكثر من مرة ، ولكن النوبى لم يبد حراكا ، ولم يجذب الكلب مقوده ، حتى إن رتشارد قال للعبد فى شىء من السخرية والازدراء :

« إنى لأخشى أن نجاحك فى هذا المشروع يا صاحبى الأسود — وقد أتيت بكلبك يؤيدك بحكمته — لن يرفعك إلى مرتبتك بين السحرة ، ولن يزيد من حقك علينا » .

فلم يجب النوبى كعادته بأكثر من انحناء قليل .

ثم سارت بعد ذلك أمام ملك انجلترا جنود المركيز منتسرا متتابعين حسب مراكزهم ، ولكى يعرض هذا البارون القوى الماكر صفوف جيشه عرضا يبهر الأبصار ، قسمهم كتيبتين ، ووضع أخاه (انجراند) على رأس أولاها ، وهى تتألف من أنصاره وأتباعه الذين جمعهم من أملاكه فى سوريا ، ثم جاء بنفسه يتبع أخاه على رأس فرقة باسلة من مائتين وألف مقاتل من خفاف الفرسان الذين جمعهم أهل البندقية من أملاكهم فى دلماشيا وأسلموا قيادتهم للمركيز ، وهو يرتبط بالجمهورية بروابط عدة . وكان هؤلاء المقاتلون يرتدون أزياء نصف أوربية ، عليها كثير من سمات اللباس الشرقى ؛ كانوا يلبسون الزرد ويغطونه بجلباب من فاخر الثياب بهيج اللون ، ويلبسون السراويل الفضفاضة والأحذية القصيرة ، وعلى رؤوسهم قلنسوات مستقيمة معتدلة تشبه قلنسوات الإغريق ، ويحملون تروسا صغيرة مستديرة ، وسهاماً وقسيّا وخناجر وسيوفا ، وكانوا يمتطون جياداً عنى بانتقائها وأعدت كامل الإعداد على حساب دولة البندقية ، وسيوفهم وعددهم تشبه ما يستخدمه الأتراك ، وكانوا كذلك — كهؤلاء — يضعون أقدامهم على ركابات قصيرة

ويجلسون على مقاعد مرتفعة ؛ وكان هؤلاء الجند ذوى نفع عظيم فى مناوءة الأعراب ، ولكنهم ما كانوا يقدرون على الحرب السجال ، مثلهم فى ذلك مثل رجال الحرب فى غرب أوروبا وشمالها المدججين بالسلاح .

وفى طليعة هذه الفرقة الرائعة أقبل كنراد فى زىّ كأزياء الجند ، ولكنه أفخر ثيابا ، حتى لقد بدا للرائى وكأنه يتألق ذهباً وفضة ، وقد علق بقلنسوته ريشة ناصعة البياض ، ووثقها بمشبك من الماس ، وهى تكاد بطولها تناطح السحاب ، وكان الجواد النبيل الذى يمسك بعنانه يقفز ويدور يمنة ويسرة ، مبديا خفته ورشاقته على صورة ربما كلّ منها فارس أقل مهارة من المركيز الذى ملك زمامه برشاقة بإحدى يديه ، ورفع بالأخرى عصاة لها من مطلق النفوذ على صفوف جيشه ما للمركيز على جواده ، ولكن سلطان المركيز على محاربيه — رغم هذا — كان ظاهراً أكثر منه حقيقة ، إذ كان يسير الهوينى إلى جواره رجل ضئيل الجسم ، يستر جسمه كله بالسواد ، أجرد اللحية والشارب ، ومظهره على الجملة وضيع زرى إذا قيس بالأبهة والعظمة التى تحيط به ؛ ولكن هذا الرجل المسن الزرى الهيئة كان أحد أولئك المندوبين الذين كانت حكومة البندقية تبعث بهم إلى المعسكرات كى يرقبوا مسلك الزعماء الذين وكلت إليهم القيادة ، ولكى يبقوا على الغيرة ويحافظوا على نظام التجسس والرقابة اللذين تميزت بهما سياسة الجمهورية زمناً طويلا .

وكان كنراد قد أخذ عن رتشارد روح الفكاهة فأحرز شيئا من رضاه ، وما إن اقترب من رتشارد حتى هبط ملك انجلترا خطوة أو خطوتين كى يقابله ، وصاح به فى الوقت ذاته قائلا : « ها ، أفقد أتيت أيها اللورد مركيز على رأس جندك ، وظلك — كعادته — يتبعك سواء أشرقت الشمس أو لم تشرق ! — هل لى أن أسألك إن كانت إمرة الجند بيدك أم بيد ظلك ؟ »

فهمّ كنراد بالجواب وعلى شفتيه ابتسامة ، حينما أخذ رزوال ذلك الكلب النبيل ينبح نباح الهائج المستشرى ، ثم قفز إلى الأمام ، وأفلت النوبى زمام الكلب من يده ، فانطلق الكلب ووثب على جواد كنراد النبيل ، وأمسك بالمركيز من حلقه

وأنزله عن صهوة الجواد ، فأخذ الراكب ذو الريشة يتدحرج فوق الرمال ، وفر الحصان — وهو يرتعد — يعدو عدواً ثائراً خلال المعسكر » .

فقال الملك للنوبى : « أشهد لقد أصاب كلبك الفريسة الحق فيمن أنزل ، وإنى لأقسم بالقديس چورچ إنه لحيوان نبيل ! — أبعده خشية أن يخنق الرجل » .

فباعد النوبى ما بين الكلب وكنراد ، ولم يتم له ذلك دون مشقة ، ووثق الكلب وما برح فى حمى هياجه يناضل كى يفلت من مقوده ؛ وإذ ذاك احتشد لدى المكان جم غفير ، وبخاصة من أتباع كنراد وضباط جيشه الذين ما إن رأوا قائدهم مستلقياً يحدق فى السماء وهو ثائر مهتاج ، حتى رفعوه وهم يضجون صاخبين ، ويقولون : « بالعبد وكلبه ومزقوهما إربا إربا » .

ولكن صوت رتشارد علا إذ ذاك ورن رنينه وتميز واضحاً جهوريا فوق كل صياح وهتاف ، واستمع إليه الجميع وهو يقول : « من أصاب الكلب بأذى فجزاؤه الموت الزؤام ! إنما قام الحيوان الجسور بواجبه ورائده الحكمة التى حباه بها الله والطبيعة — أى كنراد منركيز منتسرّا ، تقدم ، إنك مخاتل خدّاع ، وإنى أتهمك بالغدر والخيانة » .

وحينئذ أقبل كثير من القواد السوريين ، فصاح كنراد — والغضب والفضيحة والارتباك تصارع حدة العاطفة فى صوته وأسلوب كلامه — وقال : « مامعنى هذا ؟ بم تدينوننى ؟ وفيم هذه المعاملة الوضيعة ، وهذه الألفاظ التى تنطوى على اللوم والتأنيب ؟ هل هذا هو عهد الوفاق الذى جددته انجلترا منذ زمن غير بعيد ؟ »

فقال كبير رجال المعبد فى صوت كأنه ينبعث عن القبور : « هل انقلب الأمراء الصليبيون فى عينى الملك رتشارد أرانب أو غزلانا يرسل الكلاب فى طلب صيدها ؟ »

وقال فيليب ملك فرنسا ، وقد أقبل إذ ذاك راكباً : « لابد أن يكون حادثا فريدا أو إثما مميتاً » .

وقال رئيس أساقفة صور : « خدعة من العدو » .

وقال هنرى أمير شمبانيا : « إنها مكيدة من الأعراب ، ما أجدر هذا الكلب بالإعدام وذلك العبد بالعذاب » .

فقال رتشارد : « لا يمدد أحـدكم عليه يده فهو يحب الحياة ! أى كنراد ، تقدم إن جرؤت ، وأنكر التهمة التى رماك بها هذا الأبكم بغريزته النبيلة ، تهمة الأذى أصبته به ، والمهانة الدنيئة ألصقتها ببلاد الانجليز ؟ »

فقال كنراد متعجلا : « إنى ما مسست الراية قط » .

فقال رتشارد : « إن كلماتك تفضحك يا كنراد ! إذ أنى لك أن تعرف أن الأمر يتعلق برايتنا ؟ اللهم إلا إن كنت بالجريمة تحس ! »

فأجاب كنراد قائلا : « أفمن أجل هذا الباعث وحسب أثرت فى المعسكر هذا الاضطراب ؟ وهل أنت تعزو إلى أمير وحليف جرماً ربما ارتكبه آثم دنىء طمعاً فى الخيط الذهبى[1] ؟ أم هل أنت الآن تتهم أخا لك على شهادة كلب ؟ »

وحينئذ عم بين الحشد الذعر وذاع ، حتى تدخـل فيليب ملك فرنسا فى الأمر .

وقال : « أيها الأمراء النبـلاء ، إنكم تتكلمون على مسمع من رجال سوف يسارعون إلى المقارعة بالسيوف إذا هم أنصتوا إلى زعمائهم وقد توترت بينهـم العلائق ؛ فبالله ناشدتكم أن تصرفوا جندكم إلى ثكناتهم ، ثم نلتقى نحن جميعاً بعد ساعة فى سرادق المجمع كى نتخذ قراراً فى هذه الحال الجديدة المضطربة » .

فقال الملك رتشارد : « إنى بهذا راض ، وإن كنت أحب أن أسائل هذا الوغد وهو فى ثوبه الزاهى يتمرغ فى الرمال ، ولـكن لتكن إرادة فرنسا فى ذلك إرادتنا » .

ثم تفرق الزعماء كما أشار فيليب ، كل أمير على رأس جنده ، وعلا الهتاف بالحرب من كل جانب ، ونفخ فى الأبواق ، وتردد صداها نداءً لـكل هائم وكل شارد كى ينطوى تحت راية أميره ؛ وسرعان ما اضطرب الجند وسلك كل منهم

(١) يقصد الخيط الذى علقت الراية به .

سبيله نحو ثكناته خلال المعسكر ؛ وهكذا امتنع كل عمل عنيف مباشر ، إلا أن الحادث الذى وقع ترك — رغم ذلك — أثره فى كل ذهن ، وعاد الآن إلى التحامل على كبرياء رتشارد وشدته أولئك القوم الأغراب الذين هتفوا صباحا لرتشارد على أنه أجدر من يقود الجيوش ؛ أما الانجليز فلما كانوا يرون أن شرف بلادهم يتعلق بالنزاع الذى ذاع أمره بين الناس ، فقد كانوا يرمون أهل البلاد الأخرى بالغيرة من صيت انجلترا واسم مليكها ، وبالميل إلى إحاطتهما بأحط ضروب الدسائس ؛ وما أكثر الاشاعات التى انتشرت فى هذا الظرف وما أشدها اختلافا ، وكانت منها واحدة تجزم بأن الملكة وصاحباتها قد أصابهن من الضجيج ذعر شديد ، وأن واحدة منهن قد سقطت مغشيا عليها .

وفى الساعة المضروبة التأم الجمع ، وكان كنراد قد نزع عن نفسه رداءه الذى انتُهكت حرمته ، وخلص بخلعه من خزيه وبلبلته اللذين غلبا عليه — رغم ذكائه وسرعة خاطره — نظراً لغرابة الحادث ومفاجأة الاتهام ، وكان الآن يرتدى ثياب الإمارة ، ودخل غرفة الاجتماع وفى ذيله أرشدوق النمسا ، وكبير رجال المعبد ورهبان القديس يوحنا ، وكثير غيرهما من ذوى النفوذ الذين تظاهروا بتأييده والدفاع عن قضيته ، وكان أشد ما حفزهم إلى هذا باعث سياسى ، أو أنهم هم أنفسهم يكنون لرتشارد عداوة شخصية .

هذا المظهر — مظهر الاتحاد فى صف كنراد — كان أبعد ما يكون عن أن يؤثر فى ملك الانجليز ؛ فلقد دخل إلى المجمع وعليه سيما الاستخفاف الذى ألف ، وهو بزيه الذى نزل به عن ظهر جواده منذ حين ، ثم رنا بنظرة فيها عدم المبالاة وشىء من الازدراء ، رمى بها الزعماء الذين اصطفوا حول كنراد يؤيدونه فى كثير من التكلف والتصنع ، وفى صريح العبارة رمى كنراد متنسرا بسرقة الراية الانجليزية وجرح الكلب الأمين الذى وقف للدفاع عنها .

فنهض كنراد للجواب بشجاعة ، وأعلن براءته من الجريمة التى رُمى بها متحديا فى ذلك — على حد قوله — الإنس والوحش والملوك والكلاب .

وتطوّع فيليب لأن يقف فى المجمع موقف التوسط والاعتدال وقال : « أى أخى ملك انجلترا ! إن هذه التهمة شنعاء ؛ إنا لا نسمعك تتحدث بما تعرف أنت نفسك فى هذا الشأن ، وإنما عقيدتك تستند إلى مسلك هذا الكلب نحو مركيز منتسرا ، ولا مراء فى أن كلمة الفارس والأمير ينبغى أن تنصره على نباح الكلب » .

فرد عليه رتشارد وقال : « أخى المليك ، أذكر أن الله القدير الذى خلق الكلاب لتكون لنا رفاقا فى السراء والضراء ، قد حباها بطبع نبيل لا يحتمل الخداع ؛ إن الكلب لا ينسى صديقه ولا عدوه ، وإنه ليذكر النفع والضر أدق الذكر ، إنه يشارك الإنسان فى ذكائه دون أن يكون له فى نفاقه نصيب ، وإنك لتستطيع أن ترشو الجندى ليقتل بسيفه امرأ ، أو الشاهد ليغتصب الحياة بباطل التهم ، ولكنك لا تستطيع أن تحث الكلب على أن يسىء إلى من أحسن إليه ؛ إنه صديق الإنسان ، إلا إن جلب الإنسان على نفسه عداوته ، ولا تثريب على الكلب فى هذا — استر المركيز بما شئت من زاهى الثياب — احجب عن العين ظاهره — بدّل من لون بشرته بالمساحيق والأصباغ — خبئه وسط مئين من الرجال — فوالله — رغم ذلك — إنى لأطرحن عنى صولجانى إن لم يميزه الكلب ويعبر عن استيائه كما شهدتَ اليوم ؛ وليس هذا الحادث بجديد ، وإن يكن غريبا فى بابه ، فلقد أُدين من قبل القتلة واللصوص وكابدوا الموت على مثل هذا البرهان ، وقال الناس إن ليد الله فى الأمر نصيب ، وجرى مثل ذلك فى بلادك ذاتها يا أخى المليك ، وفى مثل هذا الظرف ، وقضى فى الأمر بمبارزة الرجل والكلب ، كأنهما مدع ومدافع فى قضية قتل ، وانتصر الكلب وجوزى الرجل ، واعترف بالجرم ؛ صدقنى يا أخى الملك إن خفىّ الجرائم كثيرا مايبرزها إلى الضياء والنور شهادة حتى من الجماد ، بله الحيوان الذى هو أدنى فى حكمته الغريزية من الكلب صديق الإنسان وزميله » .

فأجابه فيليب قائلا : « أجل ، لقد وقعت هذه المبارزة يا أخى الملك ، وكان ذلك فى عهد أحد أسلافنا عليهم رحمة الله ، ولكن ذلك كان فى قديم الزمان ، ولا نستطيع

أن تتخذه سابقة نقيس عليها هذا الحادث ؛ وكان المتهم فى ذلك الحادث رجلا من عامة الناس وضيع المرتبة ، قليل الهيبة ، ولم يكن من أسباب الاعتداء إلا عصا ، ومن أسباب الدفاع إلا سترة قصيرة من الجلد ؛ ولكن لا يسعنا أن نحط من قدر أمير ونشينه باستخدام مثل هذا السلاح الساذج ، أو نسوقه إلى عار مثل هذا النزال » .

فقال الملك رتشارد : « إننى ما فكرت فى ذلك قط ، وإنها لصفقة خاسرة أن نخاطر بحياة الكلب العزيز فى سبيل خائن ذى وجهين — كما برهن كنراد على أنه كذلك ؛ ولكن هاهو ذا قفازى ، وإنى أدعوه للنزال بناء على التهمة التى وجهناها إليه ، ولا أقل من أن يكون الملك خيراً من صنو المركيز ».

ولكن كنراد لم يخفّ إلى مجاوبة هذا التحدى الذى قذف به رتشارد وسط الجماعة ، فتوفر الوقت للملك فيليب لأن يجيب قبل أن يتحرك المركيز لرفع القفاز .

فقال صاحب فرنسا : « الملك أكبر من أن يكون ندا للمركيز كنراد ، كما أن الكلب أقل من أن يكون له قرينا ؛ أى رتشارد يا صاحب الملك ، إن هذا لا يجوز ؛ أنت قائد حملتنا ، أنت درع المسيحية وسيفها » .

فقال الضابط البندقى : « إنى أحتج على مثل هذا النزال إلى أن يرد ملك انجلترا الخمسين ألف بيزنط التى يدين بها للجمهورية ؛ حسبنا أنا فى خطر من خسران ديننا لو أن مديننا وقع فى أيدى المنافقين ، فكيف نزيد الطين بلة ونعرضه للموت فى هذه المنازعات تقوم بين المسيحيين من أجل الكلاب والأعلام » .

فقال وليم صاحب السيف الطويل إيرل سولزبرى : « وأنا بدورى أحتج على أخى المليك يخاطر بحياته فى مثل هذا الأمر ، وحياته مِلْكٌ لأهل انجلترا — أى أخى النبيل ، هذا قفازك نخذه ثانية ، وسأرمى بقفازى بديلا عنه ؛ إن ابن الملك حتى وإن كان فى درعه ما يدل على أنه ليس ابنا شرعيا — ند على الأقل لهذا المركيز القرد » .

وقال كنراد : « أيها الأمراء النبلاء ، إنى لا أقبل من الملك رتشارد التحدى ، لقد انتخبناه قائداً لنا فى وجه الأعراب ، وإن كان ضميره يستطيع أن يجيب

على تهمة التحرش بحليف ، واستفزازه إلى ساحة النزال على نزاع طفيف كهذا ، فإن ضميرى أنا ، على الأقل ، لا يسعه أن يحتمل التأنيب على قبولها ؛ أما فيما يخص أخاه ابن الزنا ، وليم أف ودستك ، أو أيا غيره ممن يحتضن هذه التهمة الباطلة أو يجسر على مؤازرتها ، فإنى سوف أدفع عن شرفى ، وأثبت أن من يكيلها إن هو إلا كذاب أشر .

وقال رئيس أساقفة صـور : « لقد تكلم مركيز منتسرا كما يتكلم الرجل الـكريم العاقل العادل ، وإنى أرى أن هذا الجدل قد يقف عند هـذا الحد دون أن يصيب أحد الطرفين خزى أو عار » .

فقال ملك فرنسا : « أرى أن ينتهى الجدل عند هذا على شريطة أن يسحب الملك رتشارد تهمته على أنها بنيت على أساس واه » .

فأجاب قلب الأسد : «أى فيليب ملك فرنسا . إن كلماتى لن تسىء إلى ضميرى إلى هذا الحد ، لقد اتهمت كنراد هذا كلص استتر تحت جنح الليل ، وسرق شارة الشرف الإنجليزى من مكانها ، وإنى ما زلت أعتقد فيه ذلك وأتهمه بهذا ، وإذا ما حددنا للنزال يوما فلا تشكن ياصاح فى أنى سوف أجد بطلا يؤيد دعواى ما دام كنراد لا يحب أن يلقانى ، أما أنت يا وليم فلا ينبغى لك أن تزج بسيفك الطويل فى هذا النضال دون إذن خاص منا » .

فقال فيليب ملك فرنسا : « إن مرتبتى تجعل منى حكما فى هذا الأمر الأليم ، ولذا فإنى أحدد لكم اليوم الخامس بعد اليوم لحسم النزاع بالنزال وفقا لتقاليد الفروسية ، وعلى رتشارد ملك انجلترا أن يأتى وبطله كمدع ، وكنراد مركيز منتسرا بشخصه كمدافع ، ولكننى لا أعرف أننى أجد أرضا محايدة بين بين يقوم عليها هذا الصراع ، فهى لاتنبغى أن تكون إلى جوار هذا المعسكر ، حيث يختصم الجند وينضم كل فريق إلى حزب » .

فقال رتشارد : « ما أجدرنا أن نعمد إلى كرم السلطان صلاح الدين ، فهو وإن يكن وثنيا إلا أنى لم أعرف فارسا مثله يتوفر فيـه النبل ؛ ونستطيع أن

نـكل إلى عدله وكرمه أمرنا يقطع فيه ، وإنى إنمـا أقول بهذا لأولئك الذين قد يرتابون فى سوء العواقب — أما أنا فإنى حيثما لقيت عدوى كان موضعُ اللقاء ساحة نزالى » .

فقال فيليب : « ليكن ذلك ؛ سوف نخطر بهذا الأمر صلاح الدين ، وإن يكن فى ذلك ما يكشف للعدو عن الروح السيئ ، روح التفرقة الذى نود أن نستره حتى عن أنفسنا إن استطعنا ؛ وأنا الآن أفض هذا الاجتماع ، وأكلفكم جميعا — بصفتكم رجالا مسيحيين وفرسانا نبلاء — ألا تولدوا من هـذه الخصومة الأليمة شغبا جديدا فى المعسكر ، ولتتركوا الأمر لعدالة الخالق خاشعين ، وتضرعوا لله أن يجعل النصر فى النزال حليف الحق فى أسباب الخصومة ؛ ولتكن مشيئة الله ! » .

فرددت الأصوات من كل جانب : « آمين ، آمين ! » ووسوس كبير رجال المعبد للمركيز وقال : « كنراد ، هلا طابت إليهم أن تخلص من سـلطان الـكلب كما جاء فى (المزامير) ؟ » .

فأجاب المركيز : « أنصت يا .... ؟ إن بظاهر الفسطاط عفريتا من الجن أماط عن نفسه اللثام ، وقد يأتينا بنبأ من الأنباء ويخبرنا إلى أى حد أنت تؤمن بشعار هيئتكم الذى يقول : « لا تخش الأسد » .

فقال كبير رجال المعبد : « وهل تستطيع أن تقف فى معمعان النزال ؟ » .

فأجابه كنراد وقال : « لا ترتب فى أمرى ، حقا إنى ما كنت لألقى — طائعا — الحديد من رتشارد ؛ وإنى لا أستحى أن أقر بأنى قد اغتبطت لخلاصى من لقائه ؛ أما أخوه ابن الزنا ومن دونه جميعاً من صفوف الجيش ، فليس من بينهـم رجل يتنفس أخشى لقاءه » .

فعاود كبير رجال المعبـد حديثه وقال : « ما أحسن هذه الثقة فى نفسك ، وإذن فقد عملت مخالب هذا الكلب على تفكيك عرى عصبة الأمراء أكثر ممـا عمل مكرك ودهاؤك ، وأكثر مما عمل خنجر العربى (الخارجى) . ألا ترى كيف

أن فيليب — رغم السحب القاتمة التي يتكلف إظهارها فوق جبينه — لا يستطيع أن يخفى ما يحس به من رضا لما لاح له من الأمل فى التحلل من الحلف الذى كان على نفسه ثقيلا ؟ انظر كيف أن هنرى صاحب شمبانيا يبسم لنفسه كقدحه الوهاج الذى يحتسى فيه النبيذ ؛ وانظر إلى دوق النمسا تره يكتم الضحك والسرور وهو يظن أن خصومته توشك أن تنال ثأرها دون أن يتعرض لخطر أو مشقة ؛ أنصتوا ، إنه يقترب — أى دوق النمسا الملكى ! ما أسوأ الظرف الذى تكون فيه هذه الشقوق فى جدر صهيون » .

فأجاب الدوق قائلا : « إن كنت تعنى هذه الحرب الصليبية ، فوالله كم وددت لو تشتت إجماعها وآب كل منا إلى وطنه آمناً مطمئنا ! — وإنى لأقول بذلك واثقاً » .

فقال مركيز منتسرا : « ولكن ما أشد على النفس أن تتم هذه التفرقة على يدى الملك رتشارد ، وما رضينا أن نكابد كل ما كابدنا إلا فى سبيله ، وما خضعنا له خضوع العبد لسيده إلا ليستخدم بسالته ضد خصومنا ، ولا يوجهها إلى أصدقائنا ! »

فقال الأرشدوق : « إنى لا أرى أنه أكثر من غيره شجاعة بكل هذا ، وإنى على يقين أن المركيز النبيل لو التقى وإياه فى ساحة النزال لغلبه على أمره ، فلئن كان رجل الجزيرة يضرب بفأسه ضربا شديداً فهو لا يحذق الطعن بالرماح ، والله ما كان أخف على نفسى من أن ألقاه بنفسى — على ما بيننا من خصومة قديمة — لو كان خير العالم المسيحى يسمح للأمراء الملوك أن ينفسوا عن أنفسهم بالنزال . وإن شئت ، أيها المركيز النبيل ، نبت عنك فى هذا النزال » .

وقال كبير رجال المعبد : « وأنا كذلك » .

فقال الدوق : « إذن فلتأتيا سيدىّ إلى فسطاطى ، وتقضيا لدىّ قيلولة هذا النهار ، حيث نستطيع أن نتحدث فى هذا الشأن على مائدة الشراب الرحيق » .

فدخلا إثر قوله فسطاطه .

وكان المحدث قد استغل حريته ودنا من سيدة بعد ما افرنقع الجميع ، ووقف المهرج « چوناس شوانكر » على بعد احتراماً لسيده ، وقال لصاحبه المحدث : « ماذا كان بين مولانا وهذه الجموع الغفيرة ؟ »

فقال المحدث : « خفف من تشوفك يا ابن التهريج ؛ لا يليق بى أن أخبرك بمشورة مولانا » .

فقال جوناس : « لقد أخطأت يا رجل الحكمة ؛ إنما نحن كلانا خادمان ملازمان لولىّ أمرنا ، ويهم اثنانينا سواء أن نعرف أينا أكثر به اهتماماً من أخيه ، أصاحب الحكمة أم رجل التهريج ؟ »

فقال المحدث : « لقد قال للمركيز ولرئيس رجال المعبد إنه كَلّ من هذه الحروب وكم يسره أن يعود إلى وطنه آمناً » .

وقال المهرج : « ما هذا بالأمر الهام وما به من خطر ، ومن الحكمة أن يخطر له هذا الرأى ، ولكن من الحمق الشديد أن يخبر به الآخرين — أتم حديثك » .

فقال المحدث : « ها ، ثم قال لهما بعد ذلك إن رتشارد ليس بأشد من غيره شجاعة أو أكثر حذقا فى الطعان » .

فقال شوانكر : « أشدد بهذا من حمق يا قرة عينى ، ثم ماذا ؟ »

فأجابه رجل الحكمة قائلا : « قاتل الله النسيان ؛ لقد دعاهما كذلك إلى كأس من النبيذ » .

وقال جوناس : «فى هذا ظاهر من الحكمة ، وهو من فضل مشورتك ؛ ولكنه إن أكثر من الشراب وهو الراجح — فسوف يكون ذلك من فضلى أنا — ثم ماذا ؟ » .

قال الخطيب : « ليس بعد هذا ما يستحق الذكر إلا أنه ود لو أنه حظى بلقاء رتشارد فى ساحة النزال » .

فقال جوناس : « مرحى ، مرحى ! إن هذا إلا هراء من الباطل ، وإنى لأستحى أن أظفر عن هذه السبيل ، ولكنا رغم حمقه سوف نتبعه أيها المحدث الحكيم ، وسوف نأخذ بنصيبنا من شراب النبيذ » .

الفصل الخامس والعشرون

هذا حيود عنك تجلينه قرة عيني ،
فما أحببتك وأفرطت فيك حبا ،
إلا لأني للشرف أشد حبا وأقوى .
من شعر منتروز

لما عاد الملك رتشارد إلى سرادقه أمر أن يؤتى له بالنوبي ، فدخل الرجل يقدم آيات الاحترام التي ألف ، وانكبّ على وجهه ، ثم لبث ماثلا أمام الملك كما يقف العبد يرتقب ما يأمر به سيده ؛ وربما كان من حسن طالعه أن القيام بواجبه كان يتطلب منه أن يغض الطرف ، فلو أنه تلقى كل مارمقه به رتشارد من نظرات حادة صوبها نحوه فترة وهو صامت ، لما كان له قِبَل باحتمالها .

وبعد هنيهة قال الملك : « إنك تعرف قواعد الصيد حق المعرفة ، وقد شرعت في مطاردة الفريسة حتى أوقفتها عند حدها بجدارة كأن (ترسترم) نفسه قد علمك هذا[1] ؛ ولكن ليس هذا كل ما في الأمر — إنما ينبغي أن تسحق الصيد سحقا ، ما كان أحب إلى نفسي من أن أصوب رمح صيدي نحوه ، ولكن يظهر أن هناك أسبابا تحول دون ذلك ؛ إنك توشك أن تعود إلى معسكر السلطان برسالة نطلب فيها إلى عظمته أن يعين مكانا على الحياد تقوم عليه أعمال الفروسية ، وأن يُجمع معنا على مشاهدتها إن شاء ؛ والآن ما أحسب — رجما بالغيب — إلا أنك واجد في ذلك المعسكر فارسا يقبل نزال هذا الخائن (منتسرا) حبا في الحق ورغبة في الزيادة من شرفه » .

فرفع النوبي بصره ، وصوبه نحو الملك وهو ينظر نظرة فيها حرارة وغيرة ، ثم رفع عينيه إلى السماء يحمد الله من الأعماق حتى تألق الدمع في مقلتيه ، ثم طأطأ

(١) هذه أسطورة عالمية تعزى إلى السر (ترسترم) الذي عرف بحبه للملكة (إيزلت) الجميلة — وقد كانت القواعد المتعلقة بالصيد ذات خطر كبير في العصور الوسطى .

رأسه تأييدا لإرادة رتشارد ، وعاد إلى وقفته الأولى ، وقفة الخادم الخاضع .

وقال الملك : نِعْمَ هذا ؛ إنى أراك راغبا فى التكرم علىّ فى هذا الشأن ، وينبغى لى أن أقول إن فى هذا فضل خادم مثلك ليس له لسان يجادل به أغراضنا ، أو يطلب شرحاً لما اعتزمنا . لو كان مكانك خادم انجليزى لنصح لى وأصر على أن أَكِلَ بالنزال إلى رمّاح متين من أتباعى ، وهم جميعا من أخى (لنجسورد) فنازلا يتحرقون للقتال فى صفى ؛ ولو كان فرنسيا ثرثاراً لحاول ألف مرة أن يعرف لماذا أنا أبحث عن بطل فى معسكر المسلمين ؛ أما أنت أيها الوسيط الصامت ، فتستطيع أن تؤدى رسالتى دون أن تجادل فيها أو تفهمها ، السمع لديك طاعة » .

فكان الجواب اللائق من الأتيوبى على هذا التعليق أن انحنى بجسمه وجثا إجلالا واحتراما .

وقال الملك وقد تكلم مفاجئا ومسارعا : « والآن لنتكلم فى شأن آخر ، هل رأيت أديث بلانتاجنت ؟ » .

فرفع الصامت بصره كأنه يوشك أن ينبس بكلمة — بل انفرجت شفتاه عن نفى صريح — ولكن هذه المحاولة العقيمة — محاولة الكلام — تلاشت فى تمتمة الأبكم تمتمة ملتوية .

وقال الملك : « ما هذا ! والله لكأن رنين اسم العذراء الملكية ذات الجمال البارع ، ابنة عمنا الحسناء ، له من السلطان ما يكفى لأن ينطق الأبكم ؛ أى المعجزات إذن تصنع عيناها بمثل هذا الرجل ! لأقومن بالتجربة يا صاحبى العبد ، ولسوف ترى هذا الجمال المصطفى من بلاطنا ، ثم تؤدى للسلطان المليك الرسالة » .

هذا والنوبى تارة ينظر نظرة فيها النشوة والسرور ، وطورا يجثو إجلالا ؛ وما إن نهض حتى وضع الملك يده ثقيلة على كتفه ، وفى رزانة رصينة استأنف الكلام وقال : « دعنى أحذرك يا رسولى الأسود من أمر واحد : لو أحسست بأن لتلك التى ستراها عما قريب أثرا على نفسك شفيقا يحل عقدة لسانك — وهو ، على حد تعبير السلطان الكريم ، ينحبس الآن فى قلعة جدرانها من

العاج[1] — لو أحسست بهذا ، فاحذر أن تبدل من نفسك هـذه الـكتومة نفسا أخرى ، وحذار أن تنبس فى حضرتها ببنت شفة ، حتى وإن استعدت قوة منطقك استعادة تدعو إلى الإعجاب ؛ إذن فصدقنى لأخرجن لسانك من جذوره ولأحطمن جدره العاجية — وما أحسبها إلا صفوف أسـنانك — واحدا بعد الآخر ؛ وإذن فلتلزم الصمت والحـكمة » .

وما إن رفع الملك قبضته القوية عن كتف النوبى ، حتى طأطأ الرجل رأسه ، ووضع يده على شفتيه إشارة صامتة إلى طاعته .

ولـكن رتشارد وضع يده فوقه ثانية ثم قال : « هذا الأمر نكلفك به بصفتك مولى ؛ ولو أنك كنت فارساً ورجلا كريماً لطلبنا إليك أن تعدنا بالصمت ، وهو من أسباب ثقتنا فيك الآن » .

فانتصب النوبى بصلف وكبرياء ، وحدق فى الملك ، ووضع يمناه على قلبه .

ودعا بعد ذلك رتشارد كبيرَ حجابه وقال : « اذهب وهذا العبـد يا نڤيل إلى فسطاط زوجنا الملـكة ، وقل إنا نريد به أن يمثل وحيداً أمام ابنة عمنا أديث ، فإن لديه رسالة لها ؛ وتستطيع كذلك أن تدله إلى الطريق إن احتاج إلى إرشادك ، وإن يكن — كما رأيت — قد بات يعرف كل ما جاور معسكرنا معرفة تدعو إلى الإعجاب » . ثم واصل الملك الحديث وقال : « وأنت كذلك يا صاحبى الأتيوبى اصنع ما أنت صانع على عجل ، وعد إلى هنا بعد نصف ساعة » .

ولعب الشك فى نفس النوبى المزعوم ، وظن أن الملك قد كشف أمره ، وتبع خطى نڤيل العاجلة نحو فسطاط الملـكة برنجاريا وهو مطرق البصر ، مطبق الذراعين وقال محدثاً نفسه : « لا مرية فى أن الملك رتشارد قد كشف أمرى ، وعرف حقيقتى ولـكنى لا أرى رغم ذلك أن بغضه لى شديد ؛ إن كنت لم أخطئ فهم كلماته ، — ومحال أنى فعلت — فلقد أعطانى فرصة سعيدة أسترد بها شرفى على رأس هذا المركيز الخداع ، الذى قرأت إثمه فى عينيه الواهنتين ، وشفتيه المرتجفتين ، حينما

(١) يقصد فمه وأسنانه البيض .

وُجهت إليه التهمة — أى (رزوال) ، لقد خدمت صاحبك مخلصاً ، ولسوف يدفع الثمن غالياً ثأراً لك ! — ولكن ما ذا عسى أن يكون الغرض من الإذن لى بأن أنظر إلى من يئست من رؤيتها ثانية حياتى ؟ ولماذا وكيف يرضى بلانتاجنت المليك بأن أشهد قريبته الإلهية ، سواء كنت رسولا من صلاح الدين المشرك أو آثماً طريداً أقصاه عن معسكره أخيراً — وقد كان اعترافه الجرىء بحبه الذى يفخر به هو أشد ما يدعو إلى العجب من جرمه — ؟ أما أن رتشارد يرضى لها بأن تتسلم مكتوباً من محب منافق ، ومن يد رجل مثلى وضيع المرتبة ، فكلاهما أمران تصديقهما عسير ، ويناقض أحدهما الآخر . ولكن رتشارد ، إذا كان لا يندفع بثائرة نفسه ، رجل سمح كريم ونبيل حقا ، ولسوف أجازيه على صفاته هذه وأعمل وفقاً لما يأمر به تصريحاً أو تلميحاً ، ولن أسعى فى أن أعرف أكثر مما يتكشف لى شيئاً فشيئاً دون أن أستعلم بالفضول عن شىء ؛ وإنى حقاً لمدين له بالطاعة والخضوع ، إذ أعطانى هذه الفرصة الباسلة أبرىء بها شرفى الملوث ، ومهما يكن عسيراً على النفس فلسوف أرد الدين » ، ثم انتفض قلبه انتفاضة الكبرياء ، وخطر له ما يأتى ، وقال محدثاً نفسه : « إن قلب الأسد — كما يدعونه — ربما كان يقيس مشاعر الآخرين بمشاعره ؛ كيف لى هذا وأنا لم أوجه إليها كلمة حينما ناولتنى بيدها الهبة الملكية — حينما كنت لا أُعد من أدنى الرجال فى أعمال الفروسية بين حماة الصليب ! كيف لى أن أدنو منها وأنا فى تنكر وضيع وفى لباس خسيس ! يا ويلتى ! إن حالى حقا لحال العبد ، يلطخ العار شرفى ، وقد كان يوماً درعى وحماى ! كيف لى أن أفعل ذلك ؟ إنه لا يعرف عنى إلا القليل ، ولكنى أشكره على هذه الفرصة التى قد تقرّب بين قلبينا » .

وما إن استقر به الرأى على هذا ، حتى كان وصاحبه بباب سرادق الملكة ، فأدخلهما الحراس ، بطبيعة الحال ، وخلف ثقيل النوبى فى غرفة صغيرة للانتظار كان يذكرها تمام الذكر ، ثم انسل إلى الغرفة التى كانت تستقبل الملكة فيها زائريها ، وبلغها إرادة مولاه المليك فى صوت خافت النغم يرن بالإجلال ، ويخالف

أشد المخالفة إقدام توماس دى ڤو ، الذى كان له رتشارد كل شيء ، وبقية البلاط (وفيه برنجاريا ذاتها) لاشيء ، وما إن أتم إبلاغ رسالته حتى علت الأصوات بالضحك .

وارتفع صوت قوى ، سرعان ما أدرك أنه صوت برنجاريا ، وقال : « وما هيئة هذا الرقيق النوبى الذى أتانا سفيراً فى مثل هذه الرسالة من السلطان ؟ أليس يا نڤيل عبدا أسود الجلد ، شعره مجعد كشعر الكبش ، وأنفه أفطس ، وشفتاه غليظتان — أليس كذلك يا سر هنرى ، يأيها الرجل الكريم ؟ » .

وقال صوت آخر : « ولا تنس جلالتك منه عظم الساق المنحنى إلى الأمام كظباة الأحدب العربى » .

فقالت الملكة : « بل كسهم (كيوپد) إذ قد أتانا فى رسالة محب عاشق . أى نڤيل يا كريم النفس ! إنك أبداً متأهب لأن تُدخل السرور على قلوبنا نحن السيدات المسكينات ، اللائى ليس لديهن إلا القليل من أسباب المرح نصرف بها ساعات الخمول ؛ ينبغى أن نرى رسول الحب هذا ، فلقد شهدت كثيراً من الأتراك والمغاربة ، ولكنى ما رأيت عبداً أسود قط » .

فقال الفارس الظريف : « إنما خلقت لأن أطيع أمر جلالتك ؛ وإنك سوف تنيلينى الحظوة لدى سيدى إن سمحت لى أن أفعل ذلك ؛ ودعينى أؤكد لجلالتك أنك سوف ترين رجلا يخالف ما تتوقعين » .

« خير لنا هذا — هل هو أقبح مما يتصور خيالنا ، وهو مع ذلك رسول الحب المصطفى من هذا السلطان الباسل المجيد ! »

وقالت السيدة كالستا : « مولاتى صاحبة الجلالة ، هل لى أن أتوسل إليك أن تسمحى للفارس الكريم أن يذهب وهذا الرسول رأساً إلى السيدة أديث التى ينبغى له أن يوجه إليها الخطاب ؛ إننا ما كدنا ننجو من مثل هذا المزاح » .

فكررت الملكة كلمتها هازئة وقالت : « ننجو ؟ أى والله ، وقد تكونين مصيبة فى حذرك يا كالستا ؛ ليؤدّ هذا النوبى — كما تسمينه — رسالته أولا إلى ابنة عمنا — وفضلا عن ذلك فهو أبكم ، أليس كذلك ؟ »

فأجاب الفارس قائلا : « أجل مولاتى الملكة » .

فقالت برنجاريا : « إنه للهو ملكى تتلهى به نساء الشرق ، إذ يقوم بخدمتهن رجال يستطعن أن يقلن بحضرتهم ما شئن ، وما يقدرون على رواية شىء منه ؛ أما فى معسكرنا ، فالطيور فى سمائها تحمل الأخبار ، كما يقول أسقف سنت چود » .

فقال دى ثفيل : « ذلك لأن جلالتك قد نسيت أنك تتكلمين داخل جدران من الوبر » .

وما إن قال كلمته هذه حتى خفتت الأصوات ، وبعد قليل من الهمس عاد الفارس الانجليزى ثانية إلى الأثيوبى ، وأشار له أن يتبعه ، ففعل ، وسار به ثفيل إلى سرادق ضرب على بعد من سرادق الملكة ، وأعد — كما يبدو — لإيواء السيدة أديث وحاشيتها ، وقد تسلمت إحدى وصيفاتها القبطيات الرسالة التى حملها هنرى ثفيل ، وبعد بضع دقائق سيق النوبى إلى حضرة أديث ، وبقى ثفيل خارج الفسطاط ، وأشارت السيدة إلى المملوكة التى قدمت الرجل بالانسحاب ، ثم جثا الفارس البائس — وهو فى هذا التنكر العجيب — على إحدى ركبتيه خاضعاً خاشعاً لا بوقفته فحسب ، بل ومن صميم قلبه وفؤاده ، ورنا ببصره نحو الأرض ، وأطبق ذراعيه فوق صدره كأنه جارم يرتقب قضاءه وقدره . وكانت أديث ترتدى الرداء عينه الذى استقبلت به الملك رتشارد ، وحجابها الطويل الشفاف يتدلى حواليها كالظل فى ليلة من ليالى الصيف على أرض جميلة المنظر ، والحجاب يخفى بعض جمالها ويعتم بعضه الآخر الذى لا يخفيه ، وكانت تمسك بيدها مصباحا من الفضة يتقد بسائل عبق يتلألأ حين يحترق تلألؤا غير معهود .

وما إن دنت أديث من العبد الساكن الجاثى ، وأصبحت منه على قيد خطوة ، حتى صوبت الضوء على وجهه كأنها تريد أن تستشف ملامحه بدقة ، ثم أشاحت بوجهها عنه ، ووضعت مصباحها بحيث يرتمى ظل وجه العبد من أحد جانبيه على

سجاف يتدلى جانبا ، وأخيراً تكلمت بصوت فيه الطمأنينة ، ولـكن رنين الأسى فيه شديد .

وقالت : « أفهذا حقا أنت فارس النمر الباسل — السر كنث الاسكتلندى الشهم — أفهذا أنت حقا ؟ — تنكرت هـذا التنكر المشين ، وأحاطت بك مئين المخاطر ؟ »

وما إن سمع الفارس نبرات صوت معشوقته ، وقد وجهت إليه الخطاب على غير انتظار ، وبنغم فيه من العطف ما يوشك أن يكون خفة ورقة ، حتى استبق الجواب إلى شـفتيه ، وكاد أن يرد ويخرج على ما أمره به رتشارد وما وعد من صمت ؛ فلقد كان المنظر الذى رأى ، والصوت الذى سمع ، يكفيانه عوضاً عن رق مدى الحياة ، وأخطار يستهدف لها فى كل حين ؛ ولـكنه استجمع قواه ، ولم يزد جوابه على سؤال أديث ابنة البيت الـكريم عن تنهد عميق شديد الانفعال .

واستأنفت أديث حديثها وقالت : « أجل لقد أصاب حدسى ، إنى عرفتك مذ ظهرت أول الأمر قريبا من المنصة التى وقفتُ عليها مع الملـكة ، وعرفت كذلك كلبك الجسور ؛ إن كان تنكر الزى أو تغير اللون يخفى عن فتاتك خادما مخلصا أمينا ، فهى ليست سيدة مخلصة ، وليست قمينة بخدمات أمثالك من الفوارس . تكلم إذن ولا تخش أديث بلانتاجنت ، فهي تعرف كيف ترفق بالفارس الـكريم وهو فى محنته ، ترفق بالفارس الذى أدى واجبه وأحرز الشرف وأصاب المرمى من أجل اسمها حينما كان الخطر له حليفا — أفـا زلت صامتا ! أمن الخوف أو العـار أنت لا تنطق ؟ ينبغى لك ألا تعرف الخوف ، أما العـار فليصب أولئك الذين أساءوا إليك » .

فيئس الفارس من الإبقاء على الصمت فى مثل هذا اللقاء الممتع ، ولـكنه لم يستطع أن يعبر عن حزنه بغير التنهد العميق ، ووضع إصبعه على شفتيه ، فتراجعت أديث كأنها مستاءة .

ثم قالت : «ما هذا ! هل أنت أبكم آسيوى فى فعالك ، كما أنت فى ردائك ؟

إنى ما كنت أرتقب هذا ؛ ولربما ازدريتنى لأنى اعترفت لك صراحة بأنى لحظت ولاءك لى واكترثت له ، ولكن ناشدتك السماء ألا تسىء الظن بأديث من أجل هذا ! إنها تعرف جد المعرفة الحدود التى تنحصر فيها بنات البيوت الكريمة ، والخفر الذى يحق عليهن ، وهى تعرف متى وإلى أى حد ينبغى لتلك الحدود وذلك الخفر أن يفسحا فى المجال للاعتراف بالجميل — لرغبتها الصادقة فى أن تتمكن من إثابتك على خدماتك ، وأن تخفف من آلامك التى نالتك من جراء الإخلاص الذى حملته لها ، كما يفعل الفارس الكريم — لماذا تطبق ذراعيك وتضغط عليهما بكل هـذا الانفعال ؟ » ، ثم قالت وقد خطر لها خاطر اقشعر بدنها منه : « أحقا بلغت بهم القسوة حدا يحرمك فعلا من نعمة الكلام ؟ إنك تهز رأسك ؛ لئن كان هذا سحرا أو عنادا ، فلن أسألك بعد هذا ، وسوف أتركك تؤدى رسالتك كما تحب ، فإنى أستطيع كذلك أن ألزم الصمت » .

فتحرك الفارس المتنكر حركة تدل على أنه يندب حاله ويستعيذ من غضبها ، وقدم لها فى نفس الوقت رسالة صلاح الدين مطوية كالعادة فى حرير رقيق وقماش من ذهب ، فتسلمتها وتصفحتها بغير اكتراث ، ثم طرحتها جانبا وصوبت بصرها بعدها ثانية نحو الفارس ، وقالت بنغم خافت : « أفما تقول ولو كلمة واحدة وأنت تؤدى الرسالة لى ؟ »

فضغط الفارس بكلتا يديه على جبينه ، كأنه يشير إلى الألم الذى أحس به لأنه لا يستطيع أن يصدع بأمرها ، ولكنها انصرفت عنه غاضبة .

وقالت : « اعزب عنى ، لقد تكلمتُ كثيرا — بل وكثيرا جداً — إلى رجل لا يريد أن يصرف فى سبيلى كلمة واحدة جوابا علىّ . اعزب عنى ! — وقل إن كنتُ قد أسأت إليك من قبل ، فقد كفرت الآن عن إثمى ؛ فلئن كنت أنا ذلك السبب التعس الذى هوى بك من منزلة الشرف ، فلقد نسيتُ فى هـذه المقابلة مكانتى ، وحططت من قدر نفسى فى عينيك وفى عينى » .

ثم سترت عينيها بيديها ، وبدا عليها الارتباك الشديد ، وكاد السر كنث أن

يدنو منها ، ولـكنها أشارت إليه أن يعود وقالت : « قف بعيدا ! لقـد أعدّت السماء روحك لأمر جديد ! لو كنتَ أقل غباء ورعبا من عبد أبكم لنطقت بكلمة شكر تواسيني بها فى حطتى وعارى — لماذا تتريث ؟ اعزب عنى ! »

وكأن الفارس المتنكر قد وقع بصره على الرسالة عفواً إذ ذاك ، فحدق فيها معتذراً بها عن إطالة بقائه ، فاختطفت الفتاة الرسالة ، وقالت بلهجة التهكم والازدراء : « أجل لقد نسيت — إن العبـد الطائع ينتظر رداً على رسالته — ما هذا — أهى رسالة من االسطان ! »

وتصفحت فحوى الرسالة على عجل ، وكانت مكتوبة بالعربية والفرنسية ، وما إن فرغت من قراءتها حتى ضحكت ضحك الغضب المرير .

ثم قالت : « إن هذا لفوق مايبلغ الخيال ! ما أظن أن هناك مشعوذاً يستطيع أن يرينا مثل هـذه الألاعيب الحاذقة ! قد يستطيع بحيلته أن يحيل نقد تركيا وبيزنطة إلى نقد هولندا وأسبانيا ، ولـكنه لا يستطيع بفنه أن يقلب الفارس المسيحى — الذى كان أبداً موضع التقدير بين أشجع الشجعان فى الحرب الصليبية المقدسة — إلى عبد يلثم الأديم للسلطان المشرك ، وإلى رجل يحمل الخِطبة من مسلم وقح إلى فتاة مسيحية ؛ كلا بل وينسى قواعد الفروسية الشريفة وقواعد الدين ! ولـكن ماذا عسى أن يجدى الحديث مع عبد مخلص لـكلب مشرك ؟ قل لمولاك ، حينما يحل بسوطه عقدة لسانك ، ما رأيتنى أفعل » — وما إن أتمت حديثها هذا حتى رمت برسالة السلطان فوق الأرض ، وداستها بقدميها ثم قالت : « وقل له إن أديث بلانتاجنت تزدرى ولاء مسلم لم يعتنق دين المسيح » .

وأوشكت بعد هـذه الـكلمات أن تنطلق من الفارس ، ولـكنه جثا لدى قدميها ، وهو يعانى مرارة الألم ، ثم استجمع جرأته ، ووضع يده على ثوبها معترضاً رحيلها عنه .

فقالت : وقد التفتت إليه التفاتة يسيرة ، وتـكلمت بلهجة التأكيد « أفلم تسمع ماقلت لك أيها العبد الغبى ؟ قل للسلطان المنافق مولاك إنى أزدرى خطبته ،

كما أحتقر انكباب رجل زرى خرج على الدين والفروسية — ارتدّ عن الله وعن حبيبة قلبه ! » — .

وما إن فرغت من كلامها حتى فصلت عنـه وتمزق ثوبها من قبضته ، ثم خلفت الفسطاط .

وآنئذ علا صوت ثقيل من الخارج يستدعى صاحبه ، فخرج الفارس البائس وتبع البارون الانجليزى ، وهو يتعثر فى مشيته منهوكا مسترخياً من المحنة التى كابد عناءها خلال المقابلة التى ما خلص منها إلا بعد أن حنث فى العهد الذى أخذ على نفسه أمام الملك رتشارد ، وهكذا سار الرجلان معاً حتى بلغا السرادق الملـكى ، وكانت أمامه جماعة من الخيالة نزلت عن ظهور الجيـاد ، وكان داخل الفسطاط ضياء وحركة ، ولما دخل ثقيل وتابـعه المتنـكر ألفيا الملك وكثيراً من النبلاء مشتغلين بالترحيب بالقادمين .

الفصل السادس والعشرون

« لأذرفن الدمع دهر الداهرين ،
فإنى ما أبكى عاشقاً غائباً ؛
فقد يعيد الزمن ساعات الهناء ،
ويلتقى بعد الفراق العاشقان .

وما أبكى الموتى الصامتين ؛
فقد انقضت آلامهم ، وانتهت أحزانهم ،
وسوف يتبعهم من أحب خطاهم ،
ويجمعهم الموت ، وما بعده من فراق . »

ولكنها بكت شرا من الفراق وشرا من الموت ،
بكت فى حبيبها ذكراً ملطخاً ،
وبكت فى الجندى اسمه الجريح ،
وكرمُ أرومتها يشعلها ناراً موقدة .

من أغنية شعبية

علا صوت رتشارد الجهورى الصريح وهو يحيى القادمين مستبشراً مسروراً ، ويقول : « أى توماس دى ڤو ! يا توم جلز البدين ! أقسم برأس الملك هنرى إنك لرغيب إلى نفسى كقدح النبيذ إلى مدمن الخمر المرح ! والله ما كان لى أن أعرفه كيف أرتدى زى القتال إلا إن كان جسمك البدين ماثلا أمام عينى أسترشد به فى تنسيق هندامى ؛ وسوف نقتتل عما قريب يا توماس إن حبانا القديسون بالرضا ، ولن يتم القتال فى غيبتك إلا إن كنتَ معلقاً بشجر السيسبان » .

فقال توماس دى ڤو : « إذن لاحتملتُ الفشل بجلد المسيحى أكثر مما أحتمل لو أنى مت ميتة المارق عن دينه ، ولكنى أشكر جلالتك على ترحيبك بى ، وقد أسرفتَ فيه إكراماً لأنى أتيتك بشأن النزال — وأنت متأهب أبدا لأن تأخذ فيه بأكبر نصيب . ولكنى أتيتك برجل أعرف أن جلالتك سوف توليه ترحيباً أحر مما أوليتنى » .

وتقدم للخضوع إلى رتشارد رجل صغير السن ، قصير القامة نحيل القوام ، متواضع فى زيه ، لا تؤثر فى الرائى بزته ، ولكنه يلبس على قلنسوته مشبكا من الذهب ، وجوهرة لا يباريها بريقاً إلا تألق العين التى كانت تظللها القلنسوة ، وتلك العين كانت الملمح الوحيد الذى يلفت النظر فى طلعته ؛ وما إن رآها الناظر مرة حتى أثرت فيه تأثيراً قويا متواصلا ؛ وكان يتعلق برقبته وشاح من الحرير فى زرقة السماء ، عليه مفتاح من الذهب الخالص لإحكام النغم على القيثار .

وكاد الرجل أن يجثو على ركبتيه إجلالا لرتشارد لولا أن رفعه الملك بعجلة وبشر ، وضمه إلى صدره بحرارة وقبله فى وجنتيه .

وصاح مسروراً : « مرحباً (بيلندل دى نزل) الذى أتانا من قبرص ، مرحباً بملك المنشدين ! على الرحب والسعة عند ملك انجلترا الذى لا يرفع كرامته الشخصية فوق كرامتك . لقد أصابنى المرض يارجل ، وبروحى ما كان مرضى إلا افتقادك ؛ فوالله لو أنى كنت فى منتصف الطريق إلى أبواب السماء ، لردتنى إلى الأرض أصوات أنغامك — والآن ما وراءك من بلد القيثار يا سيدى الكريم ؟ هل من جديد عن منشدى بروفنس ؟ هل من نبأ عن المغنين فى بلد النورماندى الطروب ؟ وفوق هذا وذاك — خبرنى هل كان وراءك ما يشغلك ؟ — ولكن لا حاجة بى إلى سؤالك — إنك لا تستطيع أن تلبث خاملا حتى إن أردت — إن صفاتك النبيلة كالنار ، تحترق فى أحشائك وتكرهك على أن تخرجها من بين جنبيك غناء وموسيقى » .

فأجاب بلندل الشهير قائلا : « هذا شىء تعلمته فقلته أيها الملك النبيل » . وتراجع تواضعاً ولم يستطع رتشارد — بكل حماسته — وإعجابه بحذقه ، أن يزيل عنه الحياء .

وقال الملك : « سوف نستمع إليك أيها الرجل — لنصغين إليك الآن » ثم لمس كتف بلندل برفق وقال : « ذلك إن لم تكن متعباً من السفر ، وإلا فوالله

إنه لأحب إلى نفسى أن أمتطى صهوة جوادى وأسير نحو الموت من أن أوذى نغمة من نغمات صوتك » .

فرد عليه بلندل وقال : « صوتى — كما كان أبداً يا مولاى المليك — فى خدمتك » ثم لمح بضعة أوراق على المائدة وقال : « ولكن يبدو لى أن جلالتك مشتغل بما هو أهم ، ونحن فى ساعة متأخرة من النهار » .

« كلا يا رجل ، كلا يا عزيزى بلندل ؛ إنما كنت أرسم زيا للقتال أرتديه حين ألاقى الأعراب ، ولن يشغلنى هذا أكثر من لحظة قصيرة ، وسوف لا يستغرق أكثر مما تستغرق هزيمتهم » .

وقال توماس دى ڤو : « ولكنى أظن أنه كان من اللائق بجلالتك أن تستعلم كذلك عن الجند الذين سوف تعدهم معك ، لقد أتيت بنبأ فى هذا الشأن من عسقلان » .

فقال الملك : « والله يا توماس إنك لحمار ، حمار فى غبائك وعنادك ! تعالوا أيها النبلاء — افسحوا جميعا ، افسحوا ! التفوا حوله — أعطوا بلندل هذا المقعد — أين حامل قيثاره ! أو — مهلا — أعيروه قيثارتى ، فلربما أتلف السفر قيثارته » .

وقال توماس دى ڤو : « وددت لو أن جلالتك استمعت إلى نبئى ؛ لقد سافرت على مطيتى طويلا ، وأنا الآن إلى الفراش أشوق منى إلى العبث بأذنىّ » .

قال الملك : العبث بأذنيك ! إن هذا إنما يكون بريش الدجاج لا بحلو النغم ، استمع إلى يا توماس ، هل تفرق أذناك بين غناء بلندل ونهيق الحمار ؟ » .

فأجابه توماس قائلا : « حقا مولاى أنى لا أستطيع الجواب ، ولكننا إن أبعدنا عن دائرة الحديث بلندل ، وهو رجل كريم المولد وذو صفات عالية بغير مراء ، فإنى من أجل صالح جلالتك لن أنظر إلى منشد إلا وكأنى أنظر إلى حمار ».

فقال رتشارد : « أفما كان من أدب اللياقة أن تستثنينى ، وأنا رجل كريم المولد كبلندل ، وزميل مثله فى نقابة المطربين ؟ » .

فأجابه دى ڤو باسماً وقال : « لتذكر جلالتك أنه من العبث أن تتطلب آداب اللياقة من حمار » .

فقال الملك : « لقد أصبت القول ، وإنك لحيوان زرى الهيئة . ولكن تعال هنا يا سيدى الحمار ، واطرح عنك عبثك حتى تستطيع أن تأوى إلى مخدعك دون أن نضيع فى سبيلك شيئا من الموسيقى ؛ وأنت ، أخى صاحب سولزبرى ، إلى أن ينتهى دى ڤو من ذلك ، اذهب إلى فسطاط مليكتنا وقل لها إن بلندل قد أتانا وجعبته مفعمة بأحدث الأغانى ، ومرْها أن تأتى توا إلى هنا ، وقم على حراستها ، ولاحظ أن ابنة عمنا أديث بلانتاجنت لا تتخلف عن الحضور » .

ثم رنا النوبى هنيهة بنظره ، وفى محياه معنى الشك والارتياب ، الذى يبدو على ملامحه عادة حينما يرمقه .

وقال : « أو قد عاد رسولنا الصامت الكتوم ؟ قف أيها العبد وراء ظهر دى نفيل ، وسوف تطرق أذنيك عما قريب أنغام تحمد الله من أجلها على أنه قد أصابك بالبكم لا بالصمم » .

وما إن أتم حديثه حتى أشاح عن بقية الجماعة ، وقصد دى ڤو ، واسترسل معه فى الحين عن دقائق الشؤون العسكرية التى عرضها عليه هذا البارون .

وحينما أوشك اللورد جلزلاند أن ينتهى من حديثه ، دخل رسول يعلن أن الملكة ووصيفاتها دانيات من السرادق الملكى — فقال الملك : « هيا ، وآتونى بقدح من النبيذ ! آتونى بقدح الملك إسحق القديم ، ملك قبرص ، الذى عاش طويلا فى أمن وطمأنينة ، ذلك القدح الذى غنمناه حين اقتحمنا (فجمستا) ؛ املأوا الكأس للورد جلزلاند البدين يا كرام الرجال ؛ تالله ما أحرز أمير خادما مثله أشد عناية وأكثر إخلاصا » .

وقال توماس دى ڤو : « يسرنى أن جلالتك قد ألفيت فى الحمار عبدا نافعا ، وإن يكن صوته أقل فى موسيقاه من أنغام الأسلاك وشعر الخيل » .

فقال رتشارد : « ماذا تقول ؟ أفلم تقبل هذه النكتة عن الحمار ؟ إذن فلتمحها

يارجل بكأس مفعمة حتى حافتها ، وإلا غُصصت بها . عجبا ! أجل — لقد أجدت الاحتساء ! والآن استمع إلى ، إنك جندى مثلى ، وينبغى لنا أن نطيق ما بيننا من نكات فى الإيوان كما نطيق الضراب فى المباراة ، وأن نوثق ما بين قلبينا من محبة كلما احتدم النزال ؛ تالله إن لم تردّ على نكاتى بمثل الشدة التى ضربتك بها حينما التقينا أخيرا ، إذن فلقد أسلمتَ كل ما بك من فطنة للطعان ؛ ولكن هنا الفارق بينك وبين بلندل ، ما أنت إلا زميلى — بل تلميذى — فى فن القتال ، أما بلندل فأستاذى فى فنون الغناء والموسيقى ؛ فلك أسمح بحريه الإخاء الحميم ، أما له فعلىّ الاحترام ، لأنه أرفع منى منزلة فى فنه . تعال يا رجل ، ولا تكن ضجورا ، والبث واستمع إلى جذلنا وحبورنا » .

فقال لورد جلزلاند : « إن كان لا بد أن أشهد جلالتك وأنت فى نشوتك ، فو الله لألبثن حتى يسرد بلندل قصة الملك آرثر الخيالية بأسرها ، وهى تستغرق ثلاثة أيام » .

فقال الملك : « كلا ، إنا لن نحمّلك مالا تطيق عليه صبراً ؛ ولكن انظر ، هنالك ترى وميض المشاعل خارج السرادق إيذانا بمقدم مليكتنا — اخرج أيها الرجل واستقبلها ، وأصب لنفسك الرضا فى أشد العيون بريقا فى العالم المسيحى طرا — كلا ، لا تتريث حتى تُحكم عباءتك ؛ انظر ! لقد سمحتَ لنفيل أن يحول بينك وبين أداء واجبك ! » .

ولم يرق لدى ڤو أن يسبقه كبير الحجاب — وهو (نفيل) أوفر منه نشاطا — فقال : « إنه لم يسبقنى قط فى ميدان القتال » .

فقال الملك : « كلا ، هنالك لم يسبقك لا هو ولا أحد غيره يا أخى العزيز توم جلز ، اللهم إلا أنا بين الحين والآخر » .

فأجاب دى ڤو وقال : « أجل مولاى ، ودعنا لا نغمط التعساء حقهم ؛ لقد سبقنى كذلك مرة فارس النمر الشق ، لأنه خفيف على ظهر الجواد ، ولذا ... » .

فعارضه الملك بصيغة الجزم وقال : « صه ! لا تذكره بكلمة واحدة ! » ثم

تقدم فى الحال لتحية زوجه الملكة ؛ وبعدما فعل ذلك ، قدم إليها (بلندل) باعتباره ملك الغناء وأستاذه فى فن اللهو والمرح ، وكانت برنجاريا تعلم جيداً أن عشق زوجها الملك للشعر والموسيقى يكاد يوازى حبه للشهرة الحربية ، وأن بلندل هو عزيزه الحميم ، فعنيت واهتمت بلقائه لقاء فيه من الملق والإطراء ما يليق برجل يسر الملكَ أن يعلو شأنه ، ورد بلندل بما يليق على ما أمطرته به صاحبة الجمال الملكى من وابل الثناء ؛ ولكنه لا مراء فى أنه تلقى التحية الساذجة النبيلة من أديث بإجلال من الأعماق ، وبالشكر والامتثال ، وبدا له أن ترحيبها الرقيق ربما كان خالصا رغم إيجازه وبساطته .

وكانت الملكة وزوجها الملك كلاهما يعلمان بهذه التفرقة ، ولما رأى رتشارد أن زوجه قد أغضبها ما خُصت به ابنة عمه من فضل ، لم يرضَ عنه هو نفسه كثيرا قال على مسمع منهما : « نحن المنشدين ، يابرنجاريا ، كما ترين من مسلك أستاذنا بلندل ، نحترم الحكَمَ الصارم كقريبتنا هذه أكثر مما نحترم صديقاً متميزاً رقيقاً مثلك ، يطيب له أن يسلم بقدرنا جدلا » .

فثارت نفس أديث لهذا التهكم من قريبها المليك ، وترددت فى الجواب ، ولكنها قالت : « ما حكمى الصارم الجازم بالصفة التى أتصف بها وحدى من بين أبناء بلانتاجنت جميعاً » .

وأديث فتاة عليها مسحة من مزاج ذلك الليث الذى يشتق اسمه وشعاره من عشب وضيع[1] زعموا أنه شارة الذلة والخضوع ، ولكنه من البيوتات الشديدة الأنفة ، الشامخة ، التى حكمت انجلترا ، ولذا فلربما تفوهت بأكثر مما قالت ، لولا أن عينيها — وهى تتقد فى جوابها — التقتا بغتة بعينى النوبى رغم محاولته التخفى وراء النبلاء الحاضرين ، فارتمت على مقعد ، وشحب لونها شحوباً اضطر الملكة أن تطلب الماء والعطور ، وأن تقوم بغير ذلك من الشعائر التى تليق بسيدة سقطت

(١) (بلانتاجنت) عشب تصنع منه المكانس .

مغشيا عليها ؛ أما رتشارد ، فكان يقدر قوى أديث العقلية خيراً من ذلك ، فأومأ إلى بلندل أن يعود إلى مقعده ويشرع فى النشيد ، معلنا أن الغنـاء خير من كل دواء آخر لإعادة الرجل أو المرأة من بيت بلانتاجنت إلى الحيـاة — ثم قال : « غننا أنشودة (الثوب الدامى) التى حدثتنى عنها مرة قبل أن أغادر قبرص ، ولا بد وأن تكون الآن قد بلغت بها حد الإتقان ، أو انكسرت قوسك — كما يقول العامة — » .

ولـكن عينى المنشد الشفيقتين اتجهتا نحو أديث ، ولم يطع أوامر الملك المتكررة إلا بعد أن رآها تسترد احمرار خديها ، فأخذ حينئذ يتغنى — وكأنه يتلو قصة محفوظة — بإحدى مغامرات الحب والفروسية القديمة التى كانت أبداً فى قديم الزمان تملك على الناس قلوبهم ، وصحب صوته بالضرب على القيثار ضربا يحلو معه معنى النشيد ولا يغيض الصوت . وما إن شرع فى الديباجة حتى اختفى عن الرائى ظاهره الزرى ، وتألقت ملامحه بالنشاط والوحى ، وأطرب الآذان والقلوب بصوته العريض المسترجل اللين الذى كان مشبعاً كل التشبع بالذوق الرفيع ، فابتهج رتشارد وتهلل كما يتهلل بعد النصر ، ونادى بالصمت نداء يليق بالمقام وقال :

« أنصتوا يا كرام القوم فى المخادع والأبهاء »

وبحماس الحامى للفن والمتلمذ فيه صف الحاضرين فى دائرة ، وألزمهم الصمت وأسكتهم ، وجلس هو نفسه وعلى محياه أمارات التسمع واللذة ممزوجة ببعض الشىء برزانة النـاقد الفنى ، وحول رجال البلاط أبصارهم نحو الملك حتى يكونوا على استعداد لتقفى ما قد يبدو على ملامحه من عواطف ثم محاكاته ، وتثاءب توماس دى ڤو طويلا كأنه يستسلم — كارها — لـكفارة شاقة ، وكانت أنشودة بلندل بطبيعة الحال باللسان النورماندى ، ولـكنا فيما يلى نعربها معنى وأسلوبا .

الثوب الدامى

على مقربة من مدينة ، (بَنَـڤَـنْتْ) الجميلة ،
والشمس تغيب فوق الأغصان والثنايا ،
والفوارس تتأهب فى المخادع والخيام
ليلة الاستباق إلى العماد ،
حينما أرسلت الأميرة غلاماً فتيا
يلبس حرير « لنكلن » الأخضر اللامع ،
ويحكى بزيه الحاجب ،
فجاس خلال الخيام
باحثاً أنّى سار عن الإنجليزىّ « توماس بن كنت »

* * *

فأمعن فى الرحيل ، وسيمعن ويمعن ،
حتى يجد سرادقه ، وما هو بذى أبهة أو سناء —
وما هناك سوى الصلب والحديد إلا القليل ،
والفارس الكريم لا يملك المال يستأجر به صانع السلاح
كى يعنى له بسلاحه ؛
فبساعدين مفتولين ، إلى الكتفين عاريتين ،
انكب يصلح بالمطرقة والمسحل
زردا سوف يراه الغدُ وهو يرتديه
إجلالا « لسنت چون » ولمحبوبته الحسناء .

* * *

قال الرسول ، وأحنى له الفارس رأسه وركبتيه ،
« هذا ما تقول سيدتى : هى أميرة بنڤنت عالية المقام ،

وأنت وضيع كأوضع الفرسان ؛
من يتسلق مثل هذه الشجرة العالية ،
أو يثب فوق مثل هذا الحاجز يفصل ما بينها وبينك ،
ينبغي أن يخاطر بعمل جليل
حتى يرى أطاعه الناسُ جميعاً
تؤيدها الفروسية العلياء .

* * *

وقال الحاجب ، والفارس خافض الرأس واليدين ،
« ولذا هذا ما تقول سيدتى :
ألق عنك السلاح الكريم الذى ترتدى ،
والبس هذا العشب من ردائها بديلا عنه ،
واستعض بثوبها الخيطى زرد الحديد ،
واخرج بهذا الزى إلى فزع السجال .
وقاتل كما ألفت حيث تجرى أكثر الدماء ،
وعد بالشرف أو البث مع الموتى . »

* * *

فما بدا على الفارس فى محياه الجزع ،
وما لعب فى صدره القلق ،
والعشبَ استلم ، وباجلال لثم : —
« بارك الله فى ذا الزمن ، وبارك الله فى ذا الرسول !
ما أرانى إن صدعت بأمر سيدتى العالى إلا عظيم الشرف ؛
قل لسيدتى إنى بهذا اللباس العزيز
لن أضن بشجاعتى على خير الأبطال المسلحين ؛
ولكنى إن حييت ، وأجدت القتال ،

فعليها تدور الدائرة وتؤدى الاختبار . »

وهنا ، كرام الرجال ، ينتهى من أنشودة الثوب الدامى نصفها الأول .

فقال الملك : « لقد غيرت لنا وزن النشيد فى البيت الأخير يا عزيزى بلندل ونحن غافلون ! » .

فقال بلندل : « حقا مولاى ، فلقد نقلت الأبيات عن الإيطالية ، وكنت سمعتها من رجل هرم يضرب على القيثار لاقيته فى قبرص ، ولما كنت لا أجد من الوقت ما يكفى لنقلها نقلاً صحيحاً ، أو لحفظها عن ظهر قلب ، فإنى أكتفى بأن أسد ما فى الموسيقى والنظم من عجز بداهة على قدر ما أستطيع ، كما ترى أهل الريف وهم يصلحون بالحطب السياج على عجل » .

فقال الملك : « كلا وربى ، إنى لأحب هذه الأبيات الطويلة ذات الرنين ، وأرى أنها أكثر ائتلافاً مع نغم الموسيقى من الأبيات القصيرة » .

فأجابه بلندل قائلا : « لنا فى كليهما حرية الوزن كما تعرف جلالتك جيداً » .

فقال رتشارد : « أجل إنهما لكذلك يا بلندل ، ولكنى أظن رغم هذا أن المنظر — إذا كان فيه احتمال القتال — يتسق خير اتساق مع البحر الطويل والأبيات الرنانة التى لها جرس كانطلاق الفرسان ؛ أما الوزن الآخر فليس إلا كسير خيول الآنسات ليناً وانحرافاً » .

فرد عليه بلندل وقال : « لتكن إرادة جلالتك » وشرع يقدم للنشيد من جديد .

وقال الملك : « أجل ، ولكن هلا أرهفت خيالك أولا بقدح من نبيذ (كيوس) ؛ أصغ إلىّ ، إنى أريدك أن تطرح عنك هذه القيود الجديدة التى كبلت بها نفسك ، وهى انتهاؤك بقواف متشابهة محكمة ، فما هى إلا قيود لخيالك المتدفق تجعلك أشبه برجل يرقص فى الأصفاد » .

فقال بلندل : « إن الأصفاد يتيسر على الأقل نزعها » ، وشرع يجيل أصابعه ثانية بين الأوتار كأن العزف أحب إليه من النقد .

وواصل الملك كلامه وقال : « لِمَ تكبل نفسك بها يا رجل ؟ لِمَ ترمى ينبوعك فى سوار من حديد ؟ إنى لأعجب لك كيف تقدمت ، وإنى على يقين أنى ما كنت بمستطيع أن أنشد بيتاً واحداً فى هذا البحر المقيد » .

فحسر بلندل بصره ، واشتغل بأوتار قيثارته كى يخفى بسمة ارتسمت على طلعته رغماً عنه ، ولكنها لم تغب عن عين رتشارد .

فقال : « أقسم يا بلندل أنك لتضحك منى ، وحقا إن كل من يزعم أنه أستاذ — وهو لما يزل تلميذاً — لقمين بالسخرية . ولكننا نحن الملوك نكتسب حسن الظن بالنفس ، وهى عادة ذميمة . هيا ، وشنف آذاننا بغنائك يا عزيزى بلندل ، وغننا كما شئت ، فإنه لخير مما نقترح ، وإن يكن لا بد لنا من التعليق » .

فعاود بلندل الغناء ، ولما كان يألف ارتجال النشيد فإنه لم يعجز عن أن ينصاع لما أشار به الملك ، وربما سره أن يبين السهولة التى يستطيع أن يكيف بها القصيد من جديد حتى وهو يلقيه .

الثوب الدامى

النصف الثانى

شهد صباح العماد الجميلُ جليل الفعال —
فكان اكتساب للشرف ، وكان ضياع للمنازل ،
وكان ضرب بالسيوف ، وكان قرع بالعصى ،
وأحرز الظافرون مجداً ، وفاز بالقبور المنهزم .
كم من فارس استبسل وأجاد القتال ،
ولكن واحداً من بين أقرانه برّز وبرع ،
وذلك من لم يكن على جسمه وصدره درع
سوى قميص فتاة ترتديه حين تأوى إلى الفراش .

* * *

وكان من أصابه بمر الجراح ورامى الكلوم ،
وأشفق لحاله الآخرون فكرّوا راجعين ،
وقالوا : « إنها يمين الشرف أقسمها ،
ومن النذالة أن نقتله وهو يبر باليمين . »
ثم من أجله أوقف الأمير النزال
ورمى بحارسه ، ونفخوا فى البوق بالسلم مؤذنين ،
وكان للقضاة الحكم ، وعلى المبارين التسليم ؛
وكان الفارس ، وترسه القميص ، فى الحلبة المجلى .

* * *

ودنت ساعة المأدبة واحتشد الجميع ،
وأمام الأميرة الحسناء انحنى الوصيف خاشعاً ،
وأسلمها قميصاً تعافه العيون
مزقته السيوف ، ووخزته الرماح ، وكله خروق وكله ثقوب ،
مهلهلا مشققاً ، بالدماء ملطخاً ،
عليه زبد الخيول وأثر الوحل والأديم ،
لو لمسته السيدة بطرف خنصرها
ما وقع الطرف على مكان نقىّ لم يلوّث .

« سيدى سير توماس كَنْتْ
إلى أميرة بنقت الحسناء يرد هذا الشعار ؛
من يصعد عالى الشجر ينل حقا منه الثمر ؛
من يثب فوق الحواجز ينجح فيما سعى ؛
استهدفتُ حياتى لأشد المخاطر فنلت الجزاء ،
والآن على سيدتى بيان الولاء .
من تحفز الفرسان لمثل هذا الخطر ،

تقر لهم بخالص الفعال أمام الشمس .

* * *

يقول سيدى : « إنى أرد القميص الذى ارتديت ،
وإلى الأميرة أطلب ارتداءه بدورها ،
وليعل فى عينها قدره لما به من خروق ،
فعار إن لم يلوث أو يصطبغ قرمزا ولو بخاثر الدماء . »
فاحمرت الأميرة خجلا ،
ولثمت الثوب وقد تلطخ بالدماء ،
وعلى شفتيها وإلى صدرها ضمته .
إذهب وقل لفارسى الأمين لتظهرن الدولة والكنيسة
إن كنتُ أقدُر أو لا أقدر ما على هذا القميص من دماء .

* * *

وحان الحين للنبلاء أن يسيروا
فى موكب موقر إلى القس والقداس .
وسارت فى المقدمة الأميرة فى بساط الرحمة والأرجوان ،
وفوقها تلفعت برداء الليل الملطخ بالدماء ؛
بل وفى الردهة حيث التأم الجمع للغداء ،
وعلى ركبتيها جثت لأبيها وقدمت النبيذ ،
وفوق كل غالى الثياب وثمين الجواهر
لبست ذاك الوشاح المعيب المخضب بالدماء .

* * *

وحقا لقد همس للسيدات كرام الرجال ،
وبالإيماء والبسمات وغمزات العيون أجاب السيدات ؛
وأطرق الأمير غضبا وخزيا ،

ثم التفت إلى ابنته أخيراً وكلها مقطب الجبين :
« الآن وقد صدرت عنك الحماقة والذنوب ،
فلتكفرى بيدك عما أرقت من دماء ؛
ولتندمان كلاكما على القحة أشد الندم ،
وتهيمان من ينفثنت الجميلة شريدين » .

***

وفى الردهة وقف توماس البدين ،
منهوكا مخذولا ولكن قلبه جسور مقدام ،
وبأعلى صوته صاح : « إن ما أرقت من دماء فى سبيل ابنتك
قذفت به راغبا ، كما يلفظ الوعاء النبيذ ؛
ولئن عانت من قبلى عقوبة أو عذلا ،
فثق أنى لأنجينها من العناء والعار ،
ولن تأبه بالإمارة أو ريعها إلا قليلا ،
فلسوف أناديها بها فى انجلترا أميرة كنت ! » .

فسرت بين الحاضرين دمدمة الاستحسان ، متابعين فى ذلك رتشارد نفسه الذى أخذ يكيل لمنشده المحبوب الثناء كيلا ، واختتم بتقديم خاتم عظيم القيمة إليه ، وسارعت الملكة إلى التعطف على هذا المغنى العزيز بسوار نفيس ، وتبع كثير من النبلاء الحاضرين هذه السابقة الملكية .

وقال الملك : « هل باتت ابنة عمنا أديث لا تستسيغ نغم القيثار الذى عشقته يوماً ؟ »

فأجابت أديث قائلة : « إنها تشكر بلندل على أغنيته ، وتضاعف الشكر لرقة قريبها الذى أشار بها . »

وقال الملك : « إنك لغاضبة يا ابنة عمى ، غاضبة لأنك سمعت بامرأة أشد منك عناداً ، ولكنك لن تفلتى منى — سوف أسير معك بضع خطوات نحو

مبيتك من سرادق الملكة — ينبغى أن نتشاور معاً قبل أن يشحب ظلام الليل ويسطع نور النهار » .

وكانت الملكة ووصيفاتها إذ ذاك قد نهضن على أقدامهن ، وانسحب الضيوف الآخرون من فسطاط الملك ، وكان ينتظر برنجاريا خارج السرادق رتلٌ من الناس يحملون المشاعل الوهاجة ، وحرس من رماة السهام ، وسرعان ما كانت فى طريقها إلى بيتها ؛ وسار رتشارد إلى جوار قريبته كما اقترح وأكرهها على أن تقبل ذراعه متكأً لها حتى يستطيعا أن يتحادثا دون أن يسمعهما أحد .

وقال رتشارد : « أى جواب إذن أرد به على السلطان النبيل ؟ إن الملوك والأمراء ينصرفون عنى يا أديث ؛ وهذا النزاع الجديد قد باعدهم عنى ثانية ، إنى قد أستطيع أن أقوم ببعض الواجب نحو القبر المقدس بالاتفاق إن لم يكن بالظفر ؛ وتتوقف — واحسرتاه ! — فرصة قيامى بهذا على امرأة ؛ والله لخير لى أن أنازل بحربة واحدة عشرة من خيرة الرماحين فى العالم المسيحى من أن أجادل امرأة عنيدة لا تعرف صالح نفسها . أى جواب يا ابنة العم أرد به على السلطان ؟ ينبغى أن يكون الجواب حاسما » .

فقالت أديث : « قل له إن أفقر بنات بلانتاجنت خير لهـا أن تتزوج من البؤس والشقاء من أن تقترن بالشرك والكفران » .

فقال الملك « أو (بالرق) يا أديث ، والله ما أظن إلا أن هذا أقرب إلى ذهنك» .

فأجابت أديث قائلة : « ليس هذا مجال الشك الذى تشير إليه بهذه الغلظة ؛ إن استرقاق الجسم قد يدعو إلى الإشفاق ، ولكن استرقاق الروح يستثير التحقير والازدراء ؛ عار عليك يا ملك انجلترا الطروبة ! لقد استعبدت فارساً جسما وروحا ، وكان يوماً يكاد لا يقل عنك صيتاً وذكراً » .

فرد عليها الملك وقال : « هلا ينبغى لى أن أمنع قريبتى عن شرب السم ، فألوث الإناء الذى يحتويه ، إن لم أر وسيلة أخرى تقززها من الشراب القاتل ؟ »

فأجابت أديث وقالت : « إنما هو أنت الذى تدفع بى إلى شرب السم لأنه يقدَّم إلىَّ فى كأس من الذهب » .

وقال رتشارد : « أى أديث ، إنى لا أستطيع أن أقسرك على البت قسراً ، ولكن حذار من إغلاق الباب الذى تفتحه السماء ؛ إن ناسك عين جدة ، الذى يعتبره البابا وتعتبره المجامع رسولا ، قد استطلع النجم ، ورأى أن قرانك سوف يُصلح ما بينى وبين خصم قوى ، وأن زوجك سوف يكون مسيحيا ، ولذا فالأمل قوى فى أن زواجك من السلطان سوف يؤدى إلى اعتناقه المسيحية والإتيان بأبناء إسماعيل إلى حظيرة الكنيسة . هيا ، هيا ، إنما ينبغى أن تقدمى بعض الفداء ، ولا تقفى فى سبيل مثل هذا المطمح السعيد » .

فقالت أديث : « قد يضحّى الرجال بالأكباش والماعز ، لا بالشرف والضمير . وقد نما إلىَّ أن الأعراب ما دخلوا أسبانيا إلا عن سبيل عار فتاة مسيحية ؛ وليس عار الأخرى بالسبيل التى يرجى منها إخراجهم من فلسطين » .

فقال الملك : « هل ترين من العار أن تبيتى عاهلة ؟ »

« إنما عار وخزى أن ننتهك حرمة السر المسيحى المقدس بأن ندخل فيه مشركاً لا يرتبط به ؛ وأقول إنه عار وشنار أن أبيت — راضية — وأنا سليلة أميرة مسيحية ، على رأس حريم من الإماء المشركات » .

فسكت الملك قليلا ثم قال : « إذن ينبغى لى يا قريبتى أن لا أشتبك معك فى الجدل ، وإن كنت أظن أن اعتمادك على كان ينبغى أن يملى عليك الطاعة أكثر من ذلك » .

فأجابت أديث قائلة : « مولاى ، إن جلالتك قد ورثت بحق كل ما كان لبيت بلانتاجنت من ثروة وجاه وملك ، فلا تضنن على قريبتك المسكينة بنصيب زهيد من عزهم ونخارهم » .

فأجابها الملك وقال : « أقسم أيتها المرأة لقد أنزلتنى من عليائى بهذه الكلمة ! إذن فلنتصافح وليقبّل أحدنا الآخر ؛ سوف أبعث بجوابك قريباً إلى صلاح الدين .

ولـكن بعد هذا كله ، ألم يكن خيراً يا ابنـة العم أن تعلق جوابك حتى تريه ؟ فإن الرجال يقولون عنه إنه فائق الملاحة والظرف » .

فقالت أديث : « ليست هناك يا مولاى فرصة للقائنا » .

وقال الملك : « وحق القديس چورچ إن اللقاء لا بد منه ، فإن صلاح الدين لا مراء فى أنه سوف يعطينا ميداناً طلقاً نقوم فيه بهذه المعركة الجديدة ، معركة العَـلَم ، وسوف يشهدها بنفسه ، وإن برنجاريا لتتحرق شوقاً لرؤياها ؛ وأقسم أنـكنّ ، رفيقاتها ووصيفاتها ، سوف لا تتخلف منـكن ريشة — أنت فى مقدمتهن جميعاً يا ابنة العم الحسناء ؛ ولـكن دعينا من هذا وهيا بنا ، لقد بلغنا السرادق وينبغى أن نفترق ، بل وأن نفترق على غير عداء — كلا بل يجب أن تؤيدى يا أديث ، يا ذات الحسن ، مودتنا بشفتيك وبكلتى يديك — إنه من حق كملك أن أقبل أتباعى من ذوات الحسن » .

وعانقها بإقبال ومحبة ، وعاد خلال المعسكر والقمر يسطع ، وهو يهمهم لنفسه بضع فقرات مما يذكر من أنشودة بلندل .

ولما بلغ السرادق خف إلى إنشاء رسائله إلى صلاح الدين ، وأسلمها إلى النوبى ، وأمره أن يرحل عند منبثق النهار عائداً إلى السلطان .

الفصل السابع والعشرون

طرق التكبير منا الآذان —
والتكبير ما يطلقه الأعراب على نداء الهجوم ،
حينما يهللون بصوت عال
يدعون الله أن ينصرهم —
حصار دمشق

وفى صباح اليوم التالى دعا فيليب ملك فرنسا رتشارد إلى لقائه ، ولما التقيا أبلغ فيليب رتشارد بعد ديباجة طويلة من التقدير السامى لأخيه ملك انجلترا ، وفى عبارة غاية فى الرقة ، ولكنها جد صريحة لا يخطئ معناها السامع ، أبلغه بعزمه المؤكد على عودته إلى أوروبا ، وإلى شؤون مملكته ، لأنه يئس كل اليأس من النجاح فى الغاية مما شرعوا فيه بعد ما تضعضعت قواهم ودب النزاع بين صفوفهم ، وعارضه رتشارد ولكن دون جدوى ؛ ولما انتهيا من المقابلة ، تلقى رتشارد بغير دهشة إخطاراً من دوق النمسا وكثير غيره من الأمراء ، يعلنون فيه عزماً كعزم فيليب ، وبعبارة ليس فيها شيء من التهوين ، وقد عزوا ارتدادهم عن قضية الصليب ، إلى أطماع رتشارد المفرطة وسيطرته وتحكمه ؛ فضاع بعد هذا كل رجاء فى متابعة القتال مع الأمل فى الفوز بالنصر آخر الأمر ، وتحدر الدمع المرير من رتشارد على خيبة آماله فى الظفر والمجد ، ولكنه تعزى قليلا حينما ذكر أن الفشل يرجع بعضه إلى المزايا التى منحها خصومه بسجيته المتعجلة وقلة رويته .

فقال لدى فو : وهو فى مرارة غضبه وحنقه : « إنهم ما كانوا ليجسروا على هجران أبى هكذا ، وما كان العالم المسيحى يصدق أنهم يلفظون هذا القذف فى وجه ملك حكيم مثله ؛ أما الآن — وما أشد غفلتى ! — فإنى لم أيسر لهم الحجة لهجرانى فحسب ، بل لقد أعطيتهم كذلك سبباً لإسناد الملامة على هذا الشقاق إلى نقائصى وعيوبى » .

وكانت هذه الخواطر شديدة الإيلام على نفس الملك حتى أن دى ڤو استبشر حينما وصل من صلاح الدين سفير حول تفكيره إلى مجرى آخر .

هذا الرسول الجديد كان أميراً له لدى السلطان احترام كبير ، واسمه عبد الله الحاج ، وهو ينتسب إلى أسرة كريمة ، وكان يلبس عمامة كبيرة خضراء إشارة إلى نسبه ، وقد أدى الحج إلى مكة ثلاث مرات فاتصف (بالحاج) ، ولكن عبد الله — رغم هذه المظاهر التى تدل على قداسته — كان فى نظر الأعراب نديماً يحب القصص المرح ، وينزع عن نفسه الرزانة إلى حد يجترع معه كأس الخمر — وهو يطفح بشراً — إذا ما تخفى تخفياً يكفل له كتمان الفضيحة ؛ وكان إلى ذلك سياسيا أفاد صلاح الدين من كفاءته فى مفاوضات عدة مع الأمراء المسيحيين ، وبخاصة مع رتشارد الذى كان يعرف (الحاج) معرفة شخصية ويستظرفه ، وما إن علم رتشارد من رسول السلطان بإذعانه عن طيب خاطر لتقديم ميدان للنزال على أرض محايدة ، ولقيادته كل من أراد أن يشهد المبارزة آمناً إلى هناك ، مقدماً نفسه ضماناً لصدقه ، حتى امتلأ بالحياة ، ونسى آماله المحطمة ، وإيذان العصبة المسيحية بالانحلال ، واسترسل فى البحث الممتع الذى يسبق النزال فى ميدان المبارزة .

وضُرب المكان الذى يعرف (بدرة الصحراء) ملتقى للنضال ، لأنه يكاد يتوسط بين معسكر المسيحيين ومعسكر الأعراب ، واتُّفق على أن يظهر كنراد منتسرا المتهم ومؤيداه أرشدوق النمسا وكبير رجال المعبد هناك فى اليوم الذى حدد للمبارزة ، ومعهم مائة من الأتباع المسلحين ليس غير ، وأن يحضر رتشارد ملك انجلترا وأخوه سولزبرى الذى يؤيد الاتهام ومعهما هذا العدد عينه من الرجال لحماية بطل الملك ، وأن يأتى السلطان ومعه حرس من خمسمائة من خيار الأتباع ، وهى فرقة لا ترجح — رغم عديدها — المائتى مسيحى من رماة الرماح ؛ أما ذوو المكانة من الرجال الذين يختارهم أى الفريقين للدعوة لمشاهدة النزال ، فكان عليهم ألا يصطحبوا سلاحاً غير سيوفهم ، وأن يأتوا بغير دروع للدفاع ؛ وتعهد السلطان بإعداد

الأماكن وشهىّ الطعام من كل لون لكل من يحضر هذا الحفل المهيب ؛ وقد عبر فى رسائله بكل رقة عن السرور الذى يرتقبه من الأمل فى مقابلة الملك رتشارد مقابلة شخصية سلمية ، وعن رغبته الشديدة فى أن يجعل استقباله لائقاً بقدر ما يستطيع .

وبعد ما تم التمهيد ، وعلم بذلك المتهم وأعوانه ، دخل عبد الله الحاج فى مقابلة خاصة استمع فيها لأغانى بلندل وانشرح لها صدره ؛ وقد أخفى عن الأبصار أول الأمر عمامته الخضراء بكل عناية ، واستبدلها بتقية إغريقية ، ثم رد على موسيقى المنشد النورماندية بأغنية شراب فارسية ، واجترع كأساً من نبيذ قبرص حتى ثمالتها كى يثبت أن فعاله تتفق ومبادئه ؛ وفى اليوم التالى ظهر بمظهر الرصانة والصحو كأنه « مرچلب » الذى لم يشرب سوى الماء ، وانحنى بجبينه إلى الأرض لدى موطىء قدمى صلاح الدين وسرد للسلطان بيانا عن سفارته .

وفى اليوم الذى كان يسبق اليوم المحدد للنزال فصل كنراد وصحابه عند مطلع النهار يقصدون المكان المعين ، وترك رتشارد المعسكر فى ذات الوقت ولنفس الغرض ، ولكنه سلك فى رحيله طريقاً أخرى كما اتُّفق من قبل ، وهى حيطة رؤيت ضرورتها لمنع إمكان شبوب النزاع بين أتباعهم المسلحين .

ولم يكن الملك الصالح نفسه على أهبة للقتال مع أى كان ؛ وما كان ليزيد من سروره وتطلعه إلى المبارزة الدامية المستقتلة فى ساحة النزال إلا أن يكون بشخصه الملكى أحد المتبارزين ؛ واسترد بعض رضا النفس ثانية ، وهدأت ثائرته حتى نحو كنراد متنسرا ، وسار يترنح يميناً ويساراً ، خفيف السلاح ، نفيس اللباس ، منشرحاً كالعريس ليلة زفافه ، إلى جوار محفة الملكة برنجاريا ، مشيراً لها إلى المناظر العديدة التى كانا يتخللانها ، ومُدخلا بالقصص والغناء بعض البهجة على صدر القفر المجدب القاحل ؛ وكانت الطريق التى سلكت الملكة من قبل فى حجها إلى عين جدة على الجانب الآخر من سلسلة الجبال ، فكان السيدات غريبات على هذا الجانب البادى من الصحراء ؛ وكانت برنجاريا تعلم ميل زوجها حق العلم ،

وتحاول أن تظهر حبها لما كان يسره من قول أو غناء ، إلا أنها — رغم ذلك — لم يسعها إلا أن تسترسل فى بعض مخاوف نسوية ، حينما ألفت نفسها فى قفر بلقع مع قليل من الخفراء كانوا يبدون كذرة متحركة على صدر السهل ، وحينما أدركت كذلك أنهم على مقربة من معسكر صلاح الدين ، وأن هذا الوثنى قد تبلغ به الخيانة أن ينتهز هذه الفرصة فيبعث بجيش قوى من فرسانه خفاف الحركة يباغتهم ويسحقهم فى لحظة واحدة ؛ ولكنها ما إن ألمعت إلى رتشارد بهذه الريب حتى دوأها غاضباً مزدريا وقال : « إنه لشر من نكران الجميل أن نرتاب فى صدق نية السلطان الكريم . »

ولكن هذه المخاوف والشكوك عادت أكثر من مرة لا إلى عقل الملكة الهيوب وحدة ، ولكن إلى نفس أديث بلانتاجنت كذلك ، وهى أشد ثباتاً وأكثر صراحة ، ولم تبلغ بها الثقة فى إخلاص المسلمين مبلغاً تطمئن معه إلى هذا الحد ، إن هى باتت فى قبضتهم ؛ ولو كان ما حواليها من أرض يباب يردد صدى النداء « بالله » على حين غرة ، ثم تنقض عليهم عصابة من فرسان العرب كما تنقض النسور على الفريسة ، لكانت دهشتها من ذلك أقل من رعبها بكثير ؛ ولم تفتر هذه الشكوك حينما أقبل المساء ، ورأوا فارساً عربيا — يتميز بعمامته ورمحه الطويل — يحوم على حافة جبل نائى كالصقر يحلق فى الهواء ، وقد انطلق فى الحال عند ما ظهر الملك وأتباعه انطلاق الطائر حينما يشق الريح ويختفى وراء الأفق .

فقال الملك رتشارد : « لا بد وأن نكون قد اقتربنا من المكان ، وذلك الفارس أحد طلائع صلاح الدين — يخيل لى أنى أسمع أصوات الأبواق والصنوج المغربية ؛ رتبوا صفوفكم يا أحباء قلبى ، واصطفوا حول السيدات واثبتوا ثبات الجنود » .

وفى خلال كلامه خف كل فارس وتابع ونبال على عجل إلى مكانه المعين ، وساروا فى صفوف متلاصقة أشد التلاصق حتى بدا عديدهم قليلا ، وحقا إن لم يسر بينهم الخوف ، فقد تملكهم الجزع وحب التطلع وهم يتسمعون منصتين

إلى أنغام الموسيقى المغربية وهى تصدح ، وتبلغهم الحين بعد الآخر واضحة من الجهة التى اختفى فيها الخيال العربى .

وقال دى ڤو همساً : « أما كان خير لنا يا مولاى أن نبعث برسول إلى قمة هذه الرابية الرملية ؟ أم هل تريدنى أن أسبق إلى الأمام ؟ يخيل لى من كل هذا الضجيج وذاك الطنين أنه إن لم يكن هناك ما يربو على خمسمائة رجل وراء الكثبان الرملية ، فلا بد وأن يكون نصف حاشية السلطان من الطبالين واللاعبين بالصنوج — هل لى أن أسبق ؟ » .

وشد البارون على جواده بزمامه ، وأوشك أن يحفزه بمهمازه ، لولا أن صاح به الملك « كلا ، لو أُعطيتُ ملك الدنيا ؛ إن مثل هذا الحذر يدل على الريبة ولن يحول دون انقضاضهم علينا ، وهو أمر لا أخشاه » .

وتقدم الجمع بعد هذا فى نظام محكم متقاربين ، حتى تخطوا الكثبان الرملية المنخفضه ، وباتوا على مرأى من المكان المقصود ، فإذا بانتظارهم مشهد رائع جليل ، ولكنه يثير الرعب فى النفوس .

كانت (درة الصحراء) إلى عهد قريب عينا منعزلة لا يميزها وسط القفار سوى عدد من أشجار النخيل المتباعدة ، ولكنها الآن محط لخيام عديدة مضروبة ، وعليها أعلام مزركشة وزينات من الذهب تتألق تألقا شديدا وتعكس ألوفا من الألوان الزاهية ، والشمس تسطع عليها وهى مائلة للغروب . وكانت السرادقات الضخمة مغطاة بأزهى الألوان ، من قرمزى إلى أصفر فاقع ، إلى أزرق شاحب ، وغير ذلك من الأصباغ ذات الرونق والسناء ، وأعالى عمدها — أو قوائم الخيام — كانت محلاة برمان من الذهب ، وأعلام صغيرة من الحرير ؛ ولكن إلى هذه السرادقات المتميزة كان هناك ، على ما رأى توماس دى ڤو ، عدد كبير من خيام العرب المألوفة السوداء ، تكفى — على ظنه — لإيواء جيش من خمسة آلاف رجل على الطريقة الشرقية ؛ وكان هناك عدد من الأعراب والكرد يتناسب واتساع المخيم ، يتجمعون على عجل ، وكل منهم يقود جواده بيده ، ويصحب

حشدهم ضجيج يكاد يصم الآذان ، يصدر عن آلاتهم الصخابة التى كانوا يضربون عليها موسيقاهم العسكرية ، والتى أشعلت فى العرب طوال العصور حماس الحرب والقتال .

وسرعان ما تجمعوا أمام خيامهم فى حشد مضطرب شديد الزحام من الفرسان المترجلين ، وما إن أشير إليهم بصيحة عالية تعلو رنين الموسيقى ، حتى خف كل فارس إلى ظهر جواده ، وثار النقع سحباً حينما قاموا بهذه الحركة العسكرية ، فاختفى عن ناظر رتشارد وأتباعه المعسكر والنخيل وحافة الجبل البعيدة ، كما اختفى الجند الذين أثاروا سحب التراب بحركتهم المباغتة ؛ وارتفع الغبار فوق رؤوسهم ، واتخذ أشكالا عجيبة من عمد ملتوية وقباب ومآذن ، وارتفعت صيحة عالية أخرى منبعثة عن صدر هذا الهيكل المنشأ من سحب التراب ، وكانت هذه الصيحة إشارة للفرسان بأن يتقدموا ؛ وقد فعلوا ، راكضين بأقصى سرعة . وكلما ساروا إلى الأمام اصطفوا محيطين بالمقدمة والجناحين والمؤخرة من حراس رتشارد القليلين ، وقد باتوا محاصرين ، ويكادون يختنقون بسحب التراب الكثيفة التى تغشتهم من كل جانب ، والتى كانت تتبين من خلالها حيناً وتختفى حيناً آخر جسوم الأعراب الكالحة ، ووجوههم البربرية ، وهم يلوحون برماحهم ، ويهزون بها فى كل متجه مهللين هاتفين ، ولا يمسكون بزمام خيولهم إلا غراراً ، وذلك حينما يبيتون على قيد رمح من المسيحيين ؛ بينما كانت مؤخرتهم تمطر على رؤوس الفريقين وابلا من السهام ، وقد أصاب أحدها المحفة التى كانت تجلس فيها الملكة ، فعلا صياحها واحمر جبين رتشارد فى لمح البصر .

فصاح مذعوراً : « وحق القديس چورچ ليكونن لنا مع هذه الطغمة من الكفار شأن ! » .

أما أديث التى كانت محفتها على كثب ، فقد أطلت برأسها ، وأمسكت بإحدى يديها نبلة وصاحت : « أى رتشارد المليك ، حذار مما أنت فاعل ! أنظر ، إن هذه السهام بغير رؤوس ! » .

فصاح بها رتشارد : « ما أنبلك وأحكمك من امرأة ! والله إنك لتخجليننا جميعاً بسرعة خاطرك ونفاذ بصرك » — وصاح بأتباعه : « لا تتحركوا يا أعزاء قلبي من الإنجليز ، إن سهومهم ليس لها رؤوس ، وإن رماحهم كذلك تنقصها أطراف الحديد . إنما جاءونا مرحبين ترحيبا وحشيا على طريقتهم البربرية ، ولكنهم رغم هذا — لا مراء — يبتهجون إذا رأونا مرتاعين أو مضطربين ؛ سيروا إلى الأمام بتؤدة وثبات » .

فسارت الكتيبة الصغيرة قُدُما ، يصحبها الأعراب من كل جانب ، وهم يصيحون صياحا نافذاً أجش ؛ وحملة القسى يعرضون حذقهم وخفتهم فيرمون بسهامهم على قيد شعرة من رؤوس المسيحيين دون أن يصيبوهم بأذى ، والرماحون يتقارعون بغلظة بأسلحتهم الكليلة ، حتى كثر منهم من فقد سرجه وكاد يفقد حياته فى هذا اللعب الهمجى ؛ وقد أرادوا بهذا كله إلى التعبير عن ترحابهم ، ولكن ظاهر الأمر كان مريبا فى أعين أبناء أوروبا .

وما إن بلغوا منتصف الطريق نحو المعسكر ، والملك رتشارد وأتباعه يؤلفون النواة التى تجمع حولها هذا العدد الصخاب من الخيالة ، مهللين هاتفين ، ومناوشين ومهطعين ، وهم على صورة من الاضطراب لا يحيط بها وصف ، حتى انبعثت صيحة عالية أخرى ، كر لسمعها الجنود المختلون ، الذين كانوا بالمقدمة وعند الجناحين من الكتيبة الأوروبية الصغيرة ، وألفوا من أنفسهم صفا طويلا عريضا ، وساروا فى مؤخرة عسكر رتشارد ، وهم أكثر نظاما وألزم صمتا ؛ وبدأ التراب الآن ينقشع أمامهم حينما تقدم للقائهم خلال ذلك الحجاب القاتم جماعة من الفرسان يختلفون عنهم هيئة ويفوقونهم نظاما ، مسلحين إلى الأطراف بأسلحة الدفاع والهجوم ، يليق بهم أن يكونوا حراسا لأكثر ملوك الشرق صلفا وكبرا ؛ وهذه الفرقة الفاخرة كانت تتألف من خمسمائة رجل ، وكل جواد من جيادهم يليق فداء لرجل شريف ؛ والركبان رقيق من أهل جورجيا أو چراكسة فى ريعان الشباب ، وخوذاتهم وقمصانهم المصنوعة من الزرد كلها من حلق الحديد ، شديدة البريق ،

تتألق كالفضة ، ونطُقهم مجدولة بالحرير والذهب ، وعمائمهم الغالية مرصعة بالريش والجواهر ، وسيوفهم وخناجرهم من الصلب المحلى بالفضة ، مزينة بالذهب واللآلئ على مقابضها وأغمدتها .

تقدم هؤلاء الجند ذوو الأزياء الفاخرة على أنغام الموسيقى العسكرية ، ولما التقوا بفرقة المسيحيين فتحوا صفوفهم يمينا ويسارا ، وأدخلوهم بينهم ، واتخذ رتشارد الآن مكانة فى طليعة جنده ، وهو يعلم أن صلاح الدين نفسه يدنو . ولم يمض زمن طويل حتى أقبل السلطان وسط حرسه ، وكأنه بملامحه وهيئته رجل كتبت الطبيعة على جبينه (هذا ملك) ، وأحاط به خدمه من الضباط وأولئك الزنوج الدميمين الذين يخفرون الحريم فى الشرق ، والذين زاد قبحَ أشكالهم رعبا نفاسةُ ملبسهم . وصلاح الدين بعمامته الناصعة البياض ، وصداره وسراويله الشرقية الفضفاضة ، ونطاقه الحريرى القرمزى ، دون أية زينة أخرى ، ربما كان أكثر من حرسه سذاجة فى لباسه ؛ ولكنك إن دنوت منه وأمعنت فيه ، رأيت فى عمامته تلك الجوهرة التى لا تقدر ، والتى سماها الشعراء (بحر النور) ؛ واللؤلؤة المنقوشة باسمه ، والتى كان يلبسها فى خاتمه ، ربما كانت تساوى فى قيمتها كل ما بالتاج الإنجليزى من جواهر ، والياقوت الذى ينتهى به مقبض سيفه لا يقل عنها فى قيمتها كثيرا ؛ وفوق ذلك كان السلطان يلبس نوعا من القناع يتصل بعمامته ، ويحجب عن الأنظار جانباً من ملامحه النبيلة ، وذلك إما وقاية له من التراب الذى يشبه فى جوار البحر الميت أدق الرمال ، أو ربما كان ضربا من الكبرياء الشرقى ؛ وكان يمتطى حصانا عربيا ناصع البياض ، يحمله وكأنه يحس ويفخر براكبه النبيل .

ولم تكن هناك حاجة إلى تقدمة جديدة ، فلقد نزل الملكان الشهمان — وحقا لقد كانا كذلك — عن ظهرى جواديهما توا ، ووقف الجند ، وسكتت الموسيقى بغتة ، وتقدما للقاء فى صمت رهيب ، وبعد ما انحنى كل منهما مجاملة تعانقا كأخوين ونديين ؛ ولم تعد الأبهة والمظهر لدى أيهما لتجتذب النظر ، إذ لم ير

أحد شيئاً غير رتشارد وصلاح الدين ، ولما ير أحدهما غير الآخر ، ولكن النظرة التي كان يرمق بها رتشارد صلاح الدين كانت أكثر إمعانا وتطلعا من نظرات السلطان التي صوبها نحوه ؛ وكان السلطان كذلك أول من شق ما كان يسود من سكون .

وقال : « إن صلاح الدين يرحب بالملك رتشارد كما يرحب بالماء لهذه الصحراء ! وإنى على يقين من أنه لا يرتاب فى هذا العدد العديد من الجنود ، فإذا استثنيت العبيد المسلحين من حاشيتى ، فإن أولئك الذين يحيطونك بنظرات من العجب والترحاب هم جميعاً — حتى أكثرهم خضوعا — من النبلاء ذوى المكانة فى القبائل الألف التى تتبعنى ؛ إذ من ذا الذى يكون له حق المثول ويلبث فى بيته ، والأمير القادم رتشارد ، وهو الذى بمخاوف اسمه — حتى فوق رمال اليمن — تدلل المرضعة الوليد ويخضع العربى جواده الجموح ! »

فأجاب رتشارد وقال : « وكل هؤلاء نبلاء من الأعراب ؟ » وتلفت حواليه ، ووقع بصره على جسوم خشنة ، ورجال متلفعين بالثياب ، اسودت من حرارة الشمس ملامحهم ، وأسنانهم بيضاء كالعاج ، وعيونهم السود يتألق فيها بريق نافذ غير طبيعى تحت ظلال عمائمهم ، ولباسهم على الجملة ساذج بل وضيع .

فقال السلطان : « أجل إن لهم لهذه المرتبة ، وهم وإن يكونوا عديدين إلا أنهم يخضعون لشروط المعاهدة ، ولا يحملون سلاحا غير السيوف — وحتى حديد رماحهم قد خلفوه وراءهم » .

فتمتم دى ڤو بالإنجليزية قائلا : « إنى أخشى أن يكونوا قد خلفوه حيث يتيسر لهم إن أرادوه سريعا — إنى أقر بأنهم مجلس من الشيوخ جليل ، وربما ضاقت بهم قاعة وستمنستر » .

وقال رتشارد : « صه يا دى ڤو — إنى آمرك بالصمت » ثم قال : « أيها السلطان ، إنك والشك لا توجدان على أرض واحدة » وأشار إلى المحفات وقال : « ألا ترى أنى كذلك قد أتيت معى ببعض الأبطال ، ولكنهم مسلحين ؛ ولربما

كان فى ذلك إخلال بالاتفاق ؛ ولـكن العيون النجل ، والملامح الفاتنة ، أسلحة لا نستطيع أن نخلفها وراءنا » .

فالتفت السلطان نحو المحفات ، وطأطأ رأسه إجلالا كأنه يولى وجهه شطر مكة ، ولثم الرمال إشارة على الاحترام والتبجيل .

وقال رتشارد : « كلا ، إنهن يا أخى لا يخشين لقاء أقرب من هذا . هلا ركبت صوب محفاتهن ، وسترفع الستر بعد زمن وجيز ؟ » .

فقال صلاح الدين : « حرام على هذا ! وليس للعربى أن ينظر إلى النساء ، وعار على السيدات النبيلات أن يبدين وجوههن بغير قناع » .

فأجاب رتشارد : « إذن لتراهن فى خلوة يا أخى المليك » .

فأجابه صلاح الدين محزوناً وقال : « لِمَ أراهن ؟ لقد كانت رسالتك الأخيرة لآمالى التى أشدت كالماء للنار ، فما لى بعد هذا أشعل لهيباً قد يحرق قلبى ولا يدخل السرور على نفسى ؟ — ولـكن هلا سار أخى إلى الفسطاط الذى أعده له خادمه ؟ إن عبدى الأسود الخاص قد تلقى الأمر للقاء الأميرات — وسوف يستقبل الضباط من حاشيتى تابعيك ، وسأقف بنفسى على خدمة رتشارد المليك » .

وعلى إثر هذا شق طريقه إلى سرادق فخم أعد به كل طريف من ترف الملوك ، وكان دى ڤو حاضراً فأزال عبــاءة الركوب الطويلة التى كان يلبسها رتشارد ، ووقف الملك أمام صلاح الدين فى لباسه الضيق الذى أبان عن متانة قوته وجمال اتساق جسمه ، وهو يباين كل التباين الثياب الفضفاضة التى كانت تستر جسم الملك الشرقى النحيل ؛ وكان أشد مااسترعى انتباه الملك العربى سيف رتشارد الطويل ذو المقبضين ، وظباته العريضة المستقيمة التى يمتد طولها الفارط من كتف حامله إلى عقبه .

فقال السلطان : « والله لولا أنى رأيت هذا المهند يتألق فى طليعة المعركة كسيف عزرائيل لمــا كدت أصدق أن ذراعاً بشرية تستطيع أن تهز به ، وهل لى أن ألتمس رؤية الملك رتشارد وهو يضرب به ضربة واحدة سلمية لمحض امتحان قوته ؟ » .

فأجابه رتشارد : « لك هذا منى راغباً أيها السلطان النبيل » ؛ وتلفت حواليه يبحث عن شيء يختبر به قوته ، فوقعت عينــه على صولجان من الصلب يمسك به أحد الواقفين ، له مقبض كذلك من الصلب ، قطره نحو بوصة ونصف البوصة ، فأخذه ووضعه على كتلة من الخشب .

وأدى بدى ڤو جزعه على شرف سيده أن يهمس بالإنجليزية قائلا : « وحق العذراء البتول ، حذار مولاى مما أنت مقدم عليه ! إنك لم تسترد بعد كامل قواك . لا تشمت فيك هذا الـكافر » .

فقال رتشارد وقد ثبت فى مكانه ورنا حواليه بنظرة حادة : « أنصت أيها الغافل ، أفتظن أنى أحبط فى حضرته ؟ » .

وأمسك مهنده العريض البراق بكلتا يديه ، ورفعه عالياً إلى كتفه اليسرى ، وأداره حول رأسه ، وهوى بقوة كأنه قوة آلة مروعة ، فتدحرج القضيب الصلب فوق الأديم وقد قصمه نصفين كما يبتر الحاطب الشجيرة بفأسه .

فأخذ السلطان القضيب الصلب الذى انكسر شطرين ، وفحصه بدقة وإمعان ، وقال : « والله إنها لضربة عجيبة ! » ، وكانت ظباة السيف من اللين بحيث لم يبد عليها أقل إشارة إلى تأثرها بالعمل الجليل الذى أنجزته ؛ ثم تناول يد الملك وحدق فى حجمها وقواها العضلية التى بدت عليها ، وضحك حينما وضعها بجانب يده الضامرة الهزيلة التى لا تدانيها قوة ولا عصباً .

وقال دى ڤو بالإنجليزية : « أجل ، انظر وأمعن فى النظر ، إن أصابعك التى تشبه أصابع القرد لن تستطيع أن تقوم بمثل هذا العمل الباهر بسيفك هذا الرقيق المموه بالذهب » .

فقال رتشارد : « الزم الصمت يا دى ڤو ، أقسم بالعذراء إنه قد يدرك أو يتخرص بمـا تعنى — وإنى أرجوك أن لا تكون فظا كذلك » .

وحقا لقد أسرع السلطان بقوله : « إنى أريد أن أحاول أمراً ، ورغم أن الضعيف ليس له أن يظهر ضعفه أمام القوى ، إلا أن لـكل بلد ما ألف من مران ،

وقد يكون هذا جديداً على الملك رتشارد » . وبعد ما أتم حديثه رفع عن الأديم وسادة من الحرير والزغب ، ووضعها مستقيمة على أحد أطرافها ، وقال للملك رتشارد: « هل تستطيع بسلاحك يا أخى أن تقصم هذه الوسادة ؟ » .

فأجابه الملك : « كلا ، وايم الحق ، وما على الأرض سيف — حتى ولا حسام الملك أرثر — يستطيع أن يقطع شيئاً لا يثبت لوقع الضربة الراسخة » .

فقال صلاح الدين : « إذن فانظر إلى » وشمر عن ساعده ، فبدت منه ذراع نحيلة ، هزيلة حقا ، ولكنها من أثر المران تصلبت وباتت كتلة ليس بها غير العظام والعضلات والأعصاب ؛ ثم جرد سيفه الأحدب من غمده ، وهو نصل منحن ضيق ليس له بريق سيوف الفرنجة ، وإنما لونه أزرق قاتم ، عليه عشرة ملايين من الخطوط الملتوية ، مما يدل على أن صانعه أحمى المعدن بالنار وطرقه بكل عناية ؛ ووقف السلطان مرتكزاً بثقله على قدمه اليسرى ، وقد قدمها إلى الأمام قليلا ، وهز بسلاحه وظاهره الضعف إذا قيس بمهند رتشارد ، واتزن السلطان قليلا كأنه يريد أن يتثبت من هدفه ، ثم خطا إلى الأمام بغتة وجذب الأحدب فوق الوسادة مطبقاً شفرته عليها بحذق وبقليل من الجهد ، حتى لكأن الوسادة قد انقصمت من تلقائها شطرين ولم يمزقها العنف والقوة .

فانطلق دى ڤو إلى الأمام ، واختطف نصف الوسادة التى انفصمت كأنه يريد أن يتثبت من صدق ما وقع ، وقال : « إن هذه إلا حيلة مشعوذ ، وإن فى هذا لسحرا » .

ويظهر أن السلطان قد أدرك قوله ، لأنه أزال ذلك الضرب من اللثام الذى كان يتلثم به حتى آنئذ ، ونزعه عن وجهه ، وعلقه بطرف سيفه ، ومد حسامه فى الجو مستعرض الشفرتين ، وجذبه بغتة من خلال اللثام رغم تعلقه بالظباة مرسلا غير موثوق ، فمزق اللثام كذلك نصفين ، وتطاير فى ناحيتين مختلفتين فى الفسطاط ، مبيناً كذلك عن لين السلاح وحدته الفائقة ، ومهارة حامله مهارة رائعة .

وقال رتشارد : « والآن وايم الحق يا أخى إنك فى حيل السيف لا تبارى ، وإنك لجد خطر لمن يلاقيك ! ولكنى ما زلت رغم هذا أثق بعض الثقة فى الضربة

الإنجليزية القاصمة ، فإن ما لم نستطعه بالدهاء ندبره بالقوة ، وعلى ذلك فحقا إنك فى ثلم الجروح لحاذق حذق حكيمى النطاسى فى ضمدها ؛ إنى أعتقد أنى سوف أرى الطبيب العالم — إن على له لشكراً جزيلا ، وقد أتيت له بهدية صغيرة » .

وبينما هو يتكلم ، استبدل صلاح الدين عمامته بتقية تترية ، وما إن فعل ذلك حتى فغر دى ڤو فى الحال فمه العريض وعينيه الكبيرتين المستديرتين ، وحملق رتشارد بما لا يقل عن ذلك دهشة ، بينما أخذ السلطان يتكلم بصوت رزين متغير ويقول : « يقول الشاعر ما معناه : إن المريض ما دام عليلا يعرف طبيبه بخطاه ، ولكنه إن عوفى لا يعرف منه حتى وجهه حينما ينظر إليه » .

فصاح رتشارد : « إنها لمعجزة ! — إنها لمعجزة ! »

وقال توماس دى ڤو : « معجزة من فعل محمد ولا مراء » .

وقال رتشارد : « كيف لى أن أفتقد حكيمى النطاسى لمجرد غياب تقيته وثوبه ، ثم أجده ثانية فى شخص أخى المليك صلاح الدين ! » .

فأجابه السلطان : « هذه حال الدنيا فى كثير من الأحيان ؛ إن الثياب البالية لا تنم عن الدرويش فى كل حين » .

فقال رتشارد : « وإذن لقد كنت الوسيط فى نجاة فارس النمر من الموت ، وبحيلتك كانت عودته إلى المعسكر متنكرا ؟ » .

قال صلاح الدين : « أجل ، لقد كان ذلك ؛ وقد علمنى طبى أن جراح شرفه الدامى ، إن لم تلتئم ، فإن أيام حياته سوف لا تطول ؛ ولقد كان كشف تنكره أيسر مما توقعت لنجاح تنكرى » .

فقال الملك رتشارد : « إن حادثا قد وقع حدا بى أول الأمر إلى أن أدرك أن بشرته كانت ملونة بلون مصطنع (وربما يشير بهذا إلى الظرف الذى دفعه إلى أن يطبق شفتيه على جرح النوبى المزعوم) ، وما إن أدركت هذه الإشارة حتى أصبح كشف الأمر سهلا ميسورا ، فإن هيئته وجسمه لا يغيبان عن الذكر ، وإنى على ثقة من أنه سوف يتقدم للنزال فى الغد » .

فقال السلطان : « إنه على تمام الأهبة وعلى أمل عظيم ، فلقد أعددته بالسلاح والحصان لأنى أحسن به الظن مما رأيت وأنا متخف فى مختلف الأزياء » .

فقال رتشارد : « وهل يعرف هو الآن لمن هو مدين ؟ » .

فأجاب العربى : « أجل فلقد اضطررت إلى الاعتراف له بشخصى حينما كشفت له عن غرضى » .

فقال ملك انجلترا : « وهل أقر لك بشىء ما ؟ »

فأجاب السلطان : « لم يقر بشىء صراحا ، ولكن من كثير مما دار بيننا ، أدركت أن حبه معقود بفتاة من بيت كريم أرفع من أن ينتهى وإياها إلى السعادة والرفاهية » .

فقال رتشارد : « وهل تعلم أن حبه هذا الوقح الجرىء يتعارض ورغبتك ؟ »

فقال صلاح الدين : « قد يبلغ بى الظن إلى هذا الحد ؛ ولكن حبه قد ظهر إلى حيز الوجود قبل أن تنشأ فىّ الرغبة — وينبغى أن أقول إن حبه أبقى على الزمن من حبى ، وإن شرفى لا يسمح لى بأن أنتقم لخيبتى ممن لم تكن له يد فيها ، ولئن كانت هذه الكريمة النسب تحبه أكثر مما تحبنى فمن ذا الذى يقول إنها لم تنصف فارساً من دينها كله شرف ونبل ؟ » .

فقال رتشارد شامخا بأنفه : « ولكنه من ذرية أوضع من أن تختلط بدم بلانتاجنت » .

فأجابه السلطان : « ربما كانت هذه مبادئكم فى بلاد الفرنجة ، أما نحن فشعراؤنا من أهل الشرق يقولون بأن الحادى المقدام جدير بتقبيل ثغر الملكة الحسناء ، أما الأمير النذل فليس قمينا بأن يحيي أهداب ثيابها — ولكنى أستأذنك أخى النبيل فى أن أفارقك الآن ، كى أستقبل دوق النمسا وذلك الفارس النصرانى ، وهما أقل منك حقا بالإكرام ، ولكنا ينبغى لنا أن نحسن لقاءهم ، لا إجلالا لهم ، ولكن احتفاظا بشرفى — ولقد قال فى ذلك الحكيم لقمان : (إن الطعام الذى تقدمه للغريب

لا يضيع ، فإن اشتد به جسمه وقوى ، ارتفع اسمك عزة وشهرة » .

ثم فصل الملك العربى عن سرادق الملك رتشارد ، وبعد أن أومأ إليه بالإشارة لا بالكلام عن المكان الذى ضرب به سرادق الملكة ووصيفاتها ، ذهب للقاء مركيزمنتسرا وحاشيته الذين أعد لهم السلطان كذلك أماكن يستقرون فيها ، توازى ما أعد لغيرهما أبهة وعظمة ، ولكن بقلب أقل ترحيبا . وقُدّم الطعام الوفير على الطريقة الشرقية وعلى النمط الغربى لضيوف صلاح الدين من الملوك والأمراء ، كل فى سرادقه الخاص ؛ وكان السلطان شديد التنبه لعادات زائريه وأذواقهم ، فأوقف رقيقا من اليونان يقدمون لهم كؤوس الخمر ، وهى حرام على المسلمين ، وقبل أن يفرغ رتشارد من طعامه دخل (عبد الله) الذى كان قد حمل رسالة صلاح الدين إلى معسكر المسيحيين ، ومعه خطة الطقوس والرسوم التى سوف تتبع فى اليوم الذى يلى يوم النزال ؛ وكان رتشارد يعرف هوى صاحبه القديم ، فدعاه لأن يشاركه فى قدح من نبيذ (شيراز) ، ولكن (عبد الله) أومأ إليه — وعلى وجهه سيما الحزن والأسى — بأن إنكار الذات فى الظرف الراهن أمر يتعلق بحياته ، لأن صلاح الدين — رغم تسامحه فى كثير من الشؤون — كان يرعى شريعة النبى وينفذها بالعقوبة القاسية .

فقال رتشارد : « إذن إن كان لا يحب الخمر — وهى ذلك الشراب الذى يخفف عن قلب الإنسان — فإن اعتناق المسيحية لا أمل فيه ، ولسوف تذهبن نبوءة كاهن عين جدة المجنون أدراج الرياح » .

ثم شرع الملك يعد أدوات المبارزة ، واستغرق فى ذلك وقتا طويلا ، إذ كان لزاما عليه أن يتشاور فى بعض الأمور مع الفريق المنازل ومع السلطان .

وأخيراً تم بينهم الاتفاق فى كل شىء ، وسوّوا ما بينهم فى ميثاق بالفرنسية والعربية ، وقع عليه صلاح الدين كحكم فى ميدان القتال ، ورتشارد وليوبولد كضامنين

للمتبارزين ؛ ودخل دى ڤو و(عبدالله) يستأذن من الملك رتشارد بالانصراف نهائيا ذلك المساء .

وقال دى ڤو : « إن الفارس الكريم الذى سوف يشترك فى النزال غداً يرجو أن يعرف إن كان يجوز له هذه الليلة أن يقدم ولاءه لمتبوعه المليك ؟ » .

فقال الملك باسماً : « وهل رأيته يا دى ڤو ؟ وهل عرفت فيه صديقاً قديماً ؟ » .

فأجابه دى ڤو « أقسم بسيدة (لانركست) إن بهذه البلاد من المفاجآت والتغييرات الكثيرة ما يضطرب له عقلى الضعيف . والله ما كدت أن أعرف السر كنث الاسكتلندى حتى جاءنى كلبه الصالح ، الذى لبث تحت رعايتى زمناً قصيراً ، وتمسح بى ؛ وحتى حينئذ ما عرفت الكلب إلا باتساع صدره واستدارة قدمه وأسلوب نباحه ، فلقد كان الكلب المسكين مصطبغاً بالألوان كعاهرات البندقية » .

فقال الملك : « إنك فى معرفة الحيوان أحذق منك فى معرفة الرجال يادى ڤو » .

فقال دى ڤو : « لا أنكر أنى كثيراً ما ألفيتهم أكثر الفريقين أمانة وإخلاصاً ، وفوق ذلك فإن جلالتك قد يسرك أحياناً أن تدعونى بالوحش ، وفضلا عن هذا فإنى أخدم الأسد الذى يعترف له الرجال جميعاً بأنه ملك الوحوش » .

فقال الملك : « أقسم بالقديس چورچ إنك حقا هنا قد كسرت رمحك على جبينى (أى غلبتنى) ، لقد كنت أبداً أقول إن لديك شيئاً من الفطنة يا دى ڤو . ولكن ينبغى للمرء أن يضربك بالمطرقة قبل أن يتطاير منها الشرر ، أما هذا الترس ... قل لى هل الفارس الكريم كامل التسليح والعدة ؟ » .

فأجابه دى ڤو : « أجل ، مولاى ، وإنه لكامل النبل كذلك ؛ إنى أعرف الدرقة جيداً ، إنها تلك التى قدمها إلى جلالتك رسول البندقية قبل مرضك بقليل نظير خمسمائة بيزنطة » .

« ويقيناً لقد باعها السلطانَ المشركُ وربح فيها بضع دنانير وتسلم الثمن فوراً ؛ والله إن أهل البندقية هؤلاء ليبيعن القبر المقدس ذاته ! » .

فقال دى ڤو « إن الدرقة لن تُحمل فى أمر أنبل من هذا » .

وقال الملك : « والفضل فى هذا لنبل العربى لا لجشع البندق » .

فقال دى ڤو وهو قلق : « إنى لأرجو الله أن تكون جلالتك أشد حذراً ، وها نحن وقد هجرنا أحلافنا لإساءة لحقت بهذا أو بذاك ؛ إنا لا أمل لنا فى النجاح برا ، وإذا اشتبكنا مع الجمهورية البرية البحرية فسوف نفقد سبيل التراجع بحراً » .

فأجاب رتشارد جازعاً وقال : « سوف أحذر ، ولكن لا تقف منى موقف المعلم بعد هذا ، وإنما قل لى هل لدى الفارس قسيس ؟ فإن هذا الأمر يهمنى » .

فأجاب دى ڤو قائلا : « أجل ، وذلك هو ناسك عين جدة الذى قام له بهذه الخدمة من قبل وهو يتأهب للموت ، وهو يقف بجانبه فى هذا الظرف ، وقد أتت به إلى هنا شهرة المبارزة » .

فقال رتشارد : « نعم الخبر ، والآن ماذا يطلب الفارس ؟ قل له إن رتشارد سوف يقابله بعد ما يقوم بواجبه بجانب (درة الصحراء) تكفيراً عن إثمه بجانب جبل القديس چورچ ؛ وإذا ما مررت بالمعسكر فقل للملكة إنى سوف أزور سرادقها ، وقل لبلندل أن يلقانى هناك » .

وفصل دى ڤو ، وبعد نصف ساعة تلفع رتشارد بعباءته ، وأخذ بيده حسامه ، وسار فى طريقه إلى سرادق الملكة ، ومر به كثير من الأعراب ، ولكنهم كانوا دائماً ينصرفون عنه بوجوههم ، ويعقدون بالأديم أبصارهم ؛ ومع ذلك فقد استطاع أن يرى أنهم جميعاً كانوا يتبعونه بالنظر متطلعين ، بعد ما ينأى عنهم ؛ وقد حدا به هذا إلى الظن حقا بأن شخصه كان معروفاً لهم ، ولكنهم تحاشوا أن يبدو عليهم أنهم يراقبون ملكاً أراد أن يتنكر ، إما لأمر من صلاح الدين أو لآدابهم الشرقية .

ولما بلغ الملك سرادق الملكة ، ألفاه مخفوراً بأولئك الضباط الأشقياء الذين توقفهم الغيرة الشرقية على حراسة الحريم ، وكان بلندل يسير لدى المدخل ، ويتغنى بين الفينة والأخرى بأسلوب يجعل هؤلاء الإفريقيين يبرزون أسنانهم العاجية ،

ويقومون بحركاتهم الغريبة مهللين بأصواتهم المجلجلة العجيبة » .

فقال الملك : « ماذا تريد من هذا القطيع من الماشية السوداء يا بلندل ؟ ولماذا لا تدخل السرادق ؟ » .

فأجابه بلندل وقال : « لأن صناعتى لا تغنينى عن رأسى ولا عن أصابعى ، وهؤلاء المغاربة السود الأمناء هددونى بتقطيعى إرباً إرباً إن أنا تقدمت إلى الأمام » .

فقال الملك : « إذن فلتدخل معى وسوف أكون لك حارساً » .

ثم نكس هؤلاء السود حرابهم وسيوفهم إجلالا للملك رتشارد ، وطأطأوا رؤوسهم كأنهم لا يليق بهم أن ينظروا إليه . وفى داخل السرادق ألفى الملك توماس دى ڤو قائماً على خدمة الملكة ؛ وبينا برنجاريا ترحب ببلندل ، انتحى رتشارد وقريبته الحسناء ناحية ، وأخذ يحادثها سرا فترة من الزمن .

وقال لها همساً « أو ما زلنا بعد هذا خصوماً يا أديث الحسناء ؟ »

فقالت أديث بصوت خافت لا يعارض الموسيقى : « كلا يا سيدى ، إن أحداً لن يسعه أن يحمل فى نفسه العداوة للملك رتشارد ، وهو يتعطف علينا بالكرم والنبل ، وهما من شيمته حقا ، كما أنه رجل شهم كريم » .

وما إن فرغت من حديثها حتى مدت يدها إليه ، فلثمها الملك إيماء إلى التئام القلوب ثم قال :

« إنك تحسبين يا ابنة عمى الحسناء أنى كنت أتكلف الغضب فى هذا الأمر ؛ كلا ، لقد خدعتك نفسك ؛ إن العقوبة التى وقعت على هذا الفارس كانت عادلة ، ومهما بلغ به الإغراء يا ابنة عم الفاتنة فلقد خدعنا فيما وكلنا إليه من ثقة ؛ ولكن سرورى كسرورك عظيم بأن الغد سوف يهيئ له الفرصة ليكسب المعركة ويرد العار — الذى التصق به زمناً — إلى السارق والخائن الحق . كلا ! إن المستقبل قد يعذل رتشارد على تهوره وحمقه ، ولكنهم سوف يقولون إنه فى حكمه كان يعدل حين تجب العدالة ، ويرحم حينما يجد إلى الرحمة سبيلا » .

فقالت أديث : « لا تسبح بحمد نفسك يا ابن عمى ، فلربما رأوا فى عدالتك القسوة ، وفى رحمتك الهوى » .

فقال لها الملك : « وأنت لا تفخرى بنفسك ، كأن فارسك الذى لما يمتشق سلاحه قد أخذ ينزعه بعد الظفر والانتصار — إن كنراد منتسرا معروف بمهارته فى الضرب بالرماح ، فماذا لو خسر الأسكتلندى فى النزال ؟ »

فأجابت أديث مؤكدة متثبتة وقالت : « هذا محال ! لقد شهدت بعينى رأسى كنراد هذا وهو يرتعد ويتغير لونه كاللص الدنىء . إنه آثم — وامتحانه بالمبارزة احتكام إلى عدالة السماء — لو كان لى أنا نفسى أن أنازله فى مثل هذا الأمر لنازلته بغير وجل » .

فقال الملك : « وحق القداس إنى لأظنك تستطيعين ذلك أيتها المرأة ، ثم توقعين به الهزيمة ؛ فما تنفس من أبناء بلانتاجنت من هو أصدق منك قولا » .

وسكت قليلا ثم قال فى نغمة الجد الصارم : « ولكنى أوصيك أن تذكرى أبداً ما يجب لكرم منبتك » .

فقالت أديث : « وماذا تعنى بهذا النصح الذى تنصحنى به فى هذه اللحظة جادا ؟ هل أنا من خفة الطبع بحيث أنسى اسمى — وحالى ؟ »

فأجابها الملك قائلا : « سوف أكلمك صريحاً يا أديث ، وكما يكلم الصديق الصديق — ما شأن هذا الفارس بك لو أنه خرج من هذه المبارزة ظافراً ؟ »

فاشتد احمرار أديث خجلا وغضباً وقالت : « شأنه بى ؟ ماذا عساه أن يكون لى أكثر من فارس كريم ، قمين بما قد توليه الملكة برنجاريا من رضا وعطف ، لو أنه اختارها سيدة له بدلاً من انتقائه من هى أقل منها قدراً ؟ » ثم قالت وهى تفخر : « إن أدنى فارس قد يكرّس نفسه لخدمة العاهلة ، ويكفيه منها عظمتها جزاءً » .

فقال الملك : « ولكنه قد قام بخدمتك وعانى من أجلك كثيراً » .

فأجابته أديث بقولها : « ولقد جازيته على خدماته شرفاً وثناءً ، وعلى آلامه

دموعاً وبكاءً ؛ فلئن كان يطمح إلى غير هذا من ثواب فمن الحكمة أن يعقد حبه بفتاة من مرتبته » .

فقال لها الملك رتشارد : « إنك إذن لا تلبسين قميص الليل الدامى من أجله ؟ »

فأجابته أديث قائلة : « كلا ، وما كان لى أن أطلب إليه أن يستهدف بحياته للخطر بعمل فيه من الجنون أكثر مما فيه من الشرف » .

فقال الملك : « هكذا أبداً تتكلم العذارى ؛ وإذا ما تقدم العشيق المحبوب يطلب يد فتاته تنهدت وقالت له إن نجمها يحكم بغير هذا » .

فأجابت أديث عزيزة النفس وقالت : « إن جلالتك الآن تهددنى للمرة الثانية بتأثير طالعى ؛ صدقنى ، مولاى ، إنه مهما يكن من سلطان النجوم ، فإن قريبتك المسكينة لن تقترن بكافر أو مغامر مجهول — إسمح لى أن أصغى إلى موسيقى بلندل ، لأن نغم تحذيرك الملكى لا يشنف الآذان » .

ولم يحدث بقية المساء ما يستحق الذكر .

الفصل الثامن والعشرون

هل سمعت ضجيج المعركة وضوضاءها
حينما يتكسر النصال على النصال ، ويلتقي بالجواد الجواد ؟
جراى

ورؤى نظراً لحرارة الجو أن تتم المبارزة الحاسمة التى بعثت على اجتماع هذا الحشد من الأمم العديدة عند (درة الصحراء) بعد مشرق الشمس بساعة ، وكانت أرض النزال الفسيحة التى تم إعدادها تحت إشراف فارس النمر تضم مساحة من الرمل الصلب ، طولها مائة وعشرون ذراعاً وعرضها أربعون ، وكانت تمتد طولا من الشمال إلى الجنوب حتى تهيئ للفريقين الانتفاع بإشراق الشمس على السواء ، وأقيم الكرسى الملكى لصلاح الدين فى الجهة الغربية من الحظيرة فى قلب المكان ، حيث كان ينتظر من المتبارزين أن يلتقيا فى منتصف العراك ، وأقيم تجاه هذا رواق من حجرات مغلقة أنشئ بحيث تستطيع السيدات اللائى أقيم لإيوائهن أن يرين القتال دون أن يتعرضن للنظر ، وفى نهايتى أرض النزال أقيمت الحواجز التى يمكن فتحها أو إغلاقها حسبما يريد المرء ، وأقيمت كذلك العروش ، ولكن لما رأى الأرشدوق أن عرشه أسفل من عرش رتشارد أبى أن يشغله ؛ أما قلب الأسد الذى كان على أهبة لأن يسلم بالكثير حتى لا تقف الرسوم فى سبيل النزال فقد رضى لساعته أن يبقى الكفيلان — كما كان يطلق عليهما — على ظهرى جواديهما أثناء القتال ؛ وفى طرف من أطراف الميدان وقف أتباع رتشارد تقابلهم صحبة كنراد ؛ وحول العرش الذى أعد للسلطان اصطف حرسه الفاخر من أهل چورچيا ، وشغل بقية الساحة النظارة من المسيحيين والمسلمين .

وقبل منبثق النهار بوقت طويل أحاط بساحة النزال عدد من الأعراب أكثر مما رأى رتشارد فى المساء السالف ، ولما أشرقت فوق الصحراء من قرص الشمس البهىّ خيوط الشعاع الأولى ، قام السلطان نفسه ينادى : « حى على الصلاة ،

حى على الصلاة ! » بصوته الجهورى ، فأجابه الآخرون الذين تخول لهم مرتبتهم وتدفعهم حماستهم إلى النداء مؤذنين ، وكان مشهداً رائعاً أن تراهم جميعاً وقد خروا على الأرض سجداً يكررون دعواتهم مولين شطر مكة ، ولكنهم ما إن نهضوا من السجود حتى بدت أشعة الشمس — وسرعان ما اشتد اتقادها — وكأنها تؤيد ما زعم اللورد جلزلاند فى الليلة السابقة ، فلقد انعكس ضياؤها من رؤوس الحراب العديدة ؛ ولا مرية فى أن رماح الأمس الجرداء لم تعد كما كانت بغير سنان ، فأشار دى ڤو لسيده إلى هذا ، وأجابه الملك جازعاً إنه يثق كل الثقة فى إخلاص السلطان ونزاهته ، ولئن كان دى ڤو يرتاع لجسمه الضخم فلينسحب .

وسرعان ما علا بعد هذا صوت الدق على المزاهر ، وما إن طرق هزيمها أسماع الفرسان حتى نزلوا جميعاً عن ظهور خيولهم ، واستلقوا على وجوههم كأنهم يصلون الصبح ثانية ، وإنما كان ذلك لتهيئة الفرصة للملكة وأديث ووصيفاتها كى يخرجن من السرادق إلى الرواق الذى أعد لهن ؛ وقد خفرهن خمسون حارساً من سراى صلاح الدين شاهرى السلاح ، وقد أمروا أن يمزقوا إربا إربا كل من يجرؤ — أميراً كان أو حقيراً — على النظر إلى السيدات وهن سائرات ، أو يحاول أن يرفع رأسه ، حتى يعلن سكوت الموسيقى للرجال جميعاً أنهن قد أوين إلى رواقهن حيث لا تراهن العيون المتطلعة .

هذه الرعايه الشرقية لاحترام الجنس اللطيف رعاية لا يتصورها العقل ، حدت بالملكة برنجاريا أن تتفوه ببعض النقد والقدح الشديد فى صلاح الدين وبلده ، ولكن عرينهن — كما أطلقت على الرواق الملكة الحسناء — كان مغلقاً فى أمن ، ووقف على حراسته أتباعهن السود ، فاضطرت إلى القناعة بأن ترى وتناست إلى حين حبها لأن تُرى ، وهو إلى نفسها أشهى » .

وحينئذ ذهب كفيلا البطلين — كما يحتم عليهما الواجب — ليطمئنا على تمام تسليح رجليهما واستعدادهما للنزال ؛ ولم يسارع أرشدوق النمسا إلى تأدية هذا الجانب من طقوس الحفل إذ أنه كان قد أدمن فى شراب نبيذ شيراز فى الليلة

السالفة إدماناً شديداً لم يألفه ، ولـكن كبير رجال المعبـد ، وقد كان أكثر منه اهتماماً بنتيجة النزال ، بكر إلى خيمة كنراد منتسرا ، ولشد ما كانت دهشته حينما أنكر عليه الأتباع الدخول .

فقال لهم كبير رجال المعبد وقد اشتد به الحنق : « ألا تعرفونى أيها الأوغاد ؟ » .

فأجاب خادم كنراد وقال : « إنا نعرفك أيهـا الرجل الشجاع المبجل ، ولـكن حتى أنت لا يجوز لك الدخول الآن — إن المركيز قد أوشك أن يقر بما فى نفسه » .

فصاح رجل المعبد فى نغم اختلط فيه الذعر بالدهشة والازدراء وقال : « كيف يقر بما فى نفسه ؟ ولمن ؟ ناشدتكم الله إلا خبرتمونى » .

فقال الخادم : « لقد أمرنى سـيدى أن أكتم السر » ؛ وما إن سمع كبير رجال المعبد هذا حتى دفعه وخلّفه وراءه ودخل الفسطاط عنوة .

فألفى مركيز منتسرا جاثياً لدى قدمى ناسك عين جدة وهو يوشك أن يعترف .

فقال كبير رجال المعبد : « ما ذا تعنى بهذا أيها المركيز ، هيا وانهض واستح وإلا فإن كان لا بد لك من الاعتراف ، فهأنذا » .

فأجاب كنراد بوجه شاحب وصوت متهدج وقال : « لقد اعترفت لك كثيراً قبل الآن ، فناشدتك الله أيها الرئيس الأعظم أن تعزب ، ودعنى أكشف عن مكنون نفسى لهذا الرجل الطاهر » .

فأجابه رئيس الفرسان وقال : « فيم هو أطهر منى ؟ أيها الناسك ، أيها المجنون — قل لى إن كنت تجسر على القول ، فيم أنت تفضلنى ؟ » .

فأجابه الناسك قائلا : « أيها الرجل الوقح الدنىء ، إعلم أنى كالنافذة الشبكية ، ينفذ النور الإلـهى خلالى لصالح الآخرين وليس لى — واحسرتاه — فيه خير ، وما أنت إلا كالدعامة الصلبة لا تتاق لنفسها النور ولا تبلغه غيرها » .

فقال كبير رجال المعبد : « لا تهذر لى بهذا ، إن المركيز لن يعـترف هذا الصباح إلا إن كان الاعتراف لى لأنى لن أفارق جانبه » .

فقال الناسك لكنراد : « هل هذه مشيئتك ؟ ولا تظنن أنى سوف أصدع بأمر هذا الرجل المتكبر إن كنت ما زلت ترغب فى معونتى » .

فقال كنراد مترددا : « ياويلتى ! ماذا تريدنى أن أقول ؟ — استودعتك الله الآن ، فسوف نتحدث فى هذا الشأن بعد حين » .

فصاح الناسك : « قاتل الله التسويف ! إنه يقتل النفس ! — وداعا أيها الرجل التعس — وداعا ، لا إلى حين ، ولكن إلى أن يلتقى كلانا حيثما كان » ثم التفت إلى كبير رجال المعبد وقال : « أما أنت (فلترتجف) ! » .

فأجابه صاحب المعبد مزدريا وقال : « (أرتجف !) والله إن أردتُ هذا ما استطعته » .

ولكن الناسك كان قد فصل عن الفسطاط فلم يستمع إلى جوابه .

وقال الرئيس الأعظم : « تعال ! إلى هذا الترس على عجل ؛ وما دمت تريد أن تؤدى هذا العمل الطائش فاستمع إلىّ ؛ أظننى أعرف أكثر مواطن الضعف فى نفسك عن ظهر قلب ، وإذن فلنغض الطرف عن التفصيل فقد يطول ، ولنبدأ بالغفران ؛ لا طائل من سرد الآثام الدنسة ونحن نقدم على إزالتها من أيدينا » .

فقال كنراد : « إنك تعرف من أنت ، فمن الكفر بالله أن تتحدث عن مغفرة الآخرين » .

فقال صاحب المعبد : « إن هذا لا يتفق ونص الكتاب يا سيدى المركيز ؛ إنك أكثر وسوسة من الأرثوذكس ؛ إن غفران القس اللئيم له من الأثر كما لو كان قديساً — وإلا فاللهم ارحم التائب المسكين ! من هذا الجريح الذى يسأل إن كان الجراح الذى يضمد جراحه طاهر اليدين ؟ — تعال وهيا بنا إلى هذا العبث » .

فقال كنراد : « كلا ، والله لخير لى أن أموت بغير اعتراف من أن أهزأ بالسر المقدس » .

فقال صاحب المعبد : « تعال أيها المركيز النبيل ، استنهض شجاعتك ، ولا تقل بهذا القول ، إنك سوف تقف بعد ساعة ظافراً فى ساحة النزال ، أو

تعترف وأنت فى خوذتك كما يعترف الفارس المقدام » .

فأجاب كنراد قائلا : « يا للويل أيها الرئيس الأعظم ؛ إن كل شىء فى هذا الشأن كان مشئوما ، وما اكتشاف الكلب بغريزته عن الأمر هذا الكشف العجيب — وإعادة الفارس الاسكتلندى إلى الحياة ، ومجيئه إلى ساحة النزال كالطيف — ما هذا إلا من علائم الشر » .

فقال صاحب المعبد : « ما هذا الهراء ! لقد رأيتك وأنت تصوب رمحك نحوه جسوراً وأنتما تلهوان ، وقد تعادلتما فى الظفر — فاحسبْ أنك فى مباراة ، ومن ذا الذى يقف فى ميدان الطعان خيراً من وقفتك ؟ تعالوا أيها الحشم وخدام السلاح ؛ إن سيدكم ينبغى أن يتأهب لميدان القتال » .

فدخل الخدم على إثر ذلك وشرعوا فى تسليح المركيز .

وقال كنراد : « كيف جو الصباح فى الخارج ! » .

فأجابه أحد الخدم قائلا : « لقد أشرقت الشمس معتمة » .

فقال كنراد : « ها أنت ذا ترى أيها الرئيس الأعظم أن لا شىء يبسم لى » .

فأجابه صاحب المعبد وقال : « لسوف يكون قتالك أكثر جرأة يا بنى ، واحمد الله الذى خفف من حدة شمس فلسطين كى توائم ما أنت مقبل عليه » .

وهكذا كان يمزح الرئيس الأعظم ، ولكن نكاته فقدت تأثيرها على عقل المركيز المضطرب ، ورغم أنه حاول أن يظهر بالابتهاج ، إلا أن صاحب المعبد قد أدرك كآبته .

ففكر فى نفسه : « إن هذا النذل سوف يخسر المعركة لمحض وهنه ، وخور قلبه الذى يسميه رقة الضمير . كان ينبغى لى أنا — وأنا لا يهزنى خيال ولا طيرة ، ثابت فى مرماى ثبوت الصخر — أن أقاتل فى المعركة بنفسى ؛ وددت والله لو أن الأسكتلندى ضربه الضربة القاضية وقضى عليه فى حينه ؛ فما بعد فوزه بالنصر ما هو خير من هذا ، ولكن مهما يكن من شىء ، فينبغى أن لا يكون له قس غيرى يعترف له ، فإن إثمى شديد الاشتباك بإثمه ، وقد يقر بذنبى فى إثر ذنبه » .

وبينا هذه الخواطر تلعب برأسه ، كان يواصل معونة المركيز على التسليح وهو صامت .

وأخيراً حانت الساعة ونفخ فى الأبواق ، ونزل الفارسان فى ساحة النزال راكبين مسلحين إلى الأطراف ، وكانا على ظهرى جواديهما أشبه برجلين أوشكا أن يشتبكا فى معركة فى سبيل شرف أمة بأسرها ، ورفعا خوذتيهما وطوفا بالميـدان ثلاثاً عرضاً للناظرين ، وكان كلاهما جميل المحيا ، ولـكن الاسكتلندى كانت على جبينه مسحة من ثقة الرجولة — أمل مشرق تـكاد تبتهج له النفس ؛ بينما كانت تخيم على جبين كنراد سـحابة من اليأس المشئوم ، رغم أن كبرياءه وتـكلفه قد أعادا إليه كثيراً من شجاعته الطبيعية ، وحتى جواده كان يسير على صوت البوق وهو أقل نشوة وسروراً من الحصان العربى النبيل الذى كان يمتطى صهوته السر كنث ؛ وهز المحدث برأسه حينما رأى أن المدعى يطوّف بميدان النزال مع مسير الشمس — أى من اليمين إلى اليسار — بينما كان المتهم يدور الدورة نفسها ولـكن من اليسار إلى اليمين ؛ وهو مسير مشئوم فى عقيدة كثير من البلدان .

وأقيم تحت الرواق الذى تشغله الملـكة مباشرة محراب مؤقت ، وقف الناسك إلى جانبه فى زى طائفته كقس من كرمل ، وكان بين الحاضرين كذلك غيره من رجال الـكنيسة ؛ وإلى هذا المحراب سيق المدعى والمتهم كلاهما ، متتابعين ، يتقدم كلا منهما كفيله . ولما بلغا المحراب ترجلا ، وأقر كل منهما بعدالة قضيته ، وأقسم بأصحاب الإنجيل يميناً مغلظة ، ودعا ربه أن يصيب من النجاح بمقدار ما فى قسمه من حق أو باطل ، وأقسما كذلك أنهما أتيا للقتال فى لباس الفروسية وبالأسلحة المعتادة ، وأنكر كل منهما استخدام الرقى والتمائم والحيل السحرية لاستمالة النصر إلى جانبه ؛ ونطق المدعى اليمين بصوت ثابت مسترجل ، وطلعته عليها سيما الجرأة والبهجة ؛ ولمـا فرغا من هذه الطقوس ، تطلع الفارس الأسكتلندى إلى الرواق ، وطأطأ رأسه نحو الأرض إجلالا لذلك الجمال المستتر الذى كان محتجباً فى الداخل ، ثم وثب وهو مثقل بالسلاح على ظهر جواده دون أن يستخدم الركاب ، واستحث

الحصان على أن يسير به تارة عن يمين وطوراً عن شمال ، حتى يبلغ به موقفه فى الطرف الشرقى من الميدان ؛ وتقدم كنراد كذلك نحو المحراب وفيه من الإقدام الكفاية ، ولكن صوته وهو يقسم اليمين كان أجوف كأنه يسيخ فى خوذته ، ودعا الله أن يحكم بالنصر للقضية العادلة بشفتين أخذتا تشحبان وهما تلفظان بهذه السخرية الكافرة ؛ ولما أن عطف على جواده يركبه ، دنا منه الرئيس الأعظم واقترب كأنه يريد أن يصلح شيئاً فى وضع درعه وهمس فى أذنه : « ما أنذلك وما أغفلك ! استجمع حواسك وأدّ لى هذه المبارزة بشجاعة ، وإلا فوالله لو نجوت منه لما نجوت منى ! » .

وربما كان فى النغمة القاسية التى همس بها الرئيس فى أذن المركيز تتمة اضطراب أعصابه ، إذ أنه زل وهو يمتطى الحصان . وحقا لقد أعاد قدميه إلى الثبوت ، ووثب على ظهر الجواد برشاقته المعهودة ، وأبدى حذقه فى ركوب الخيل وهو يتخذ مكانه أمام المدعى ، إلا أن الزلة لم تغب عن أعين أولئك الذين وقفوا يترقبون الطيرة التى قد تتكهن بقضاء ذلك اليوم . .

ودعا القساوسة ربهم خاشعين أن يحصحص الحق فى النزاع ، ثم فصلوا عن الميدان ؛ ونفخ فى بوق المهاجم عالياً ، ونادى مناد مدجج بالسلاح فى الطرف الشرقى من الحلبة وقال : « هنا يقف فارس كريم ، هو السر كنث الإسكتلندى ، بطلٌ نائب عن الملك العظيم رتشارد ملك انجلترا ، الذى يتهم كنراد مركيز منتسرا بالخيانة الشنعاء وبجرح عزته . »

ولما ذكر النداءُ « كنث الأسكتلندى » فأعلن بذلك اسم البطل وصفته — وما كانت العامة تعرفهما حتى ذاك — انبعث عن أتباع الملك رتشارد هتاف عال مرح ، وما كادوا يطيقون سماع جواب المتهم رغم الأوامر المتكررة بالتزام الصمت ؛ أما المتهم فقد أعلن بطبيعة الحال براءته وتقدم للقتال ؛ ثم دنا أتباع المتبارزين وقدم كل فريق لسيده درعه ورمحه ، معينا إياه على تعليق الدرع برقبته بحيث تبقى كلتا يديه طليقتين ، إحداهما لتمسك بالزمام ، والأخرى لتضرب بالرمح .

وكان يظهر على درع الاسكتلندى « النمر » شعاره القديم ، مزيد عليه طوق وسلسلة محطمة إشارة إلى أسره فى الأيام الأخيرة ؛ أما درع المركيز فكان يحمل صورة جبل صخرى ناتىء إيماء إلى لقبه [منت = جبل ، سرا = ناتىء] ، وهز كل منهما برمحه فوق رأسه كأنه يريد أن يتثبت من وزن السلاح الضخم وصلابته ، ثم أقره فى غمده ثانية ، وتراجع الكفيلان والمنادون والأتباع بعدئذ إلى الحواجز ، وجلس المتضاربان متقابلين وجهاً لوجه برماح منكسة وخوذات مسترخية ، وجسداهما مستتران كل التستر ، حتى لقد كانا إلى تمثالين من الحديد المسبوك أقرب منهما إلى مخلوقين من اللحم والدم ، وساد بين الحشد صمت الانتظار — وغلظت أنفاس الرجال ، وباتت أرواحهم وكأنها فى عيونهم جاثمة ، ولم يعل صوت غير نفخ الجوادين الكريمين بالمنخرين ونبشهما بالحوافر ، وقد أحس الجوادان بما أوشك أن يقع ، فكانا على قلق لأن يندفعا إلى العراك ؛ ووقفا كذلك نحواً من ثلاث دقائق إلى أن صدرت عن صلاح الدين إشارة ما ، فشق الهواء مئين الآلات بجلبتها النحاسية ، وحفز كل بطل حصانه بالمهماز وأرخى الزمام ، وعدا الجوادان عدوا سريعاً ، والتقى الفارسان وسط الميدان يهزان الأرض كالرعد القاصف ؛ وما كان فى الظفر ريبة — كلا ، ولم يكن ثمة لحظة من شك ، فلقد كان يبدو على كنراد حقاً أنه مقاتل مدرب ، إذ أنه ضرب خصمه ضربة الفارس وسط درعه ، وهو يحمل رمحه مستقيما مسددا ، حتى لقد سقط الرمح محطما من رأسه الصلب إلى طرف القفاز ؛ وكر حصان السر كنث متراجعاً ذراعين أو ثلاث ، وسقط على عجزيه ، ولكن راكبه خف إلى إنهاضه بيده وعنانه ؛ أما كنراد فنزل ولم ينهض ، لأن السر كنث طعنه برمحه فاخترق الدرع ثم زرداً مموّهاً من صلب « ميلان » ثم سترة من حلق الحديد تحت الزرد ، وجرحه فى صدره جرحاً بليغاً ، ثم رفعه عن ظهر جواده تاركا قناة الرمح فى الجرح راسخة ؛ وحينئذ احتشد حول الجريح الكفيلان والمنادون وصلاح الدين نفسه بعد أن نزل عن عرشه ؛ أما السر كنث فقد جرد سيفه ، قبل أن يدرك أن خصمه قد بات عاجزاً كل العجز ، وأمره

حينئذ أن يقر بإثمه ، فرفع الرجل الجريح خوذته على عجل ، وحدّق ببصره فى السماء وأجاب : « ماذا تريد منى أكثر من ذلك ؟ لقد حكم الله بالعدل — أنا آثم ؛ ولكن بالمعسكر من هم شر منى خيانة — آتونى بالقس إشفاقاً على روحى ! » .

وعادت إليه الحياة وهو ينبس بهذه الكلمات .

فقال الملك رتشارد لصلاح الدين : « بالتميمة — بذلك العلاج الناجع ، يا أخى المليك ! » .

فأجاب السلطان قائلا : « إنما أخلقُ بالخائن أن يُجذب من عقبه ويُبعد عن الميدان إلى المقصلة ، لا أن ينتفع بمزاياها » . ثم قال بعد ما حدق ببصره فى الرجل الجريح : « وإن فى نظرته لمثل هذا القضاء ، لأن جرمه قد يشفى ، ولكن عزرائيل قد ختم على جبين اللئيم » .

فقال رتشارد : « ورغم هذا ، فإنى أتوسل إليك أن تقوم له بما تستطيع ، حتى يتسع له الوقت للاعتراف على الأقل ؛ لا تقتل فيه الروح والجسد ! إن نصف ساعة من الزمن قد تعادل حياة أكبر البطارقة سناً عشرة آلاف مرة » .

فقال صلاح الدين : « سأطيع إرادة أخى المليك . أيها العبيد ، احملوا هذا الرجل الجريح إلى سرادقنا » .

وكان صاحب المعبد حتى آنئذ واقفاً مكتئباً ينظر فى صمت فقال : « لا تفعلوا ذلك ، إنى ودوق النمسا الملكى لا نقبل أن يأخذ العرب هذا الأمير المسيحى التعس ، ويختبروا فيه تمائمهم ؛ نحن المتكفلين به نطالب إيداعه تحت رعايتنا » .

فقال رتشارد : « أى أنكما تأبيان هذه الوسيلة بعينها التى تقدم لشفائه ؟ » .

فقال الرئيس الأعظم وقد استجمع نفسه : « كلا ، ليس الأمر كذلك . إذا كان السلطان يستخدم أدوية شرعية فإنه يستطيع أن يعنى بالمريض فى خيمتى » .

فقال رتشارد للسلطان : « أتوسل إليك يا أخى الكريم أن تفعل ذلك ، وإن يكن الإذن قد صدر بفظاظة وخشونة — والآن هلم بنا إلى عمل أجل من هذا — انفخوا فى الأبواق — واهتفوا يا أبناء الإنجليز — إجلالا لبطل انجلترا ! » .

فدقت الطبول ونفخ فى الأبواق ، وضربت الصنوج فى الحال ، وعلت الأصوات بالهتاف المتواصل ، وهو طريقة التهليل الانجليزية التى ألفوها دهوراً ، وذلك وسط صياح الأعراب المجلجل الذى لا يسير على ترتيب ، كما ترن أنغام الأرغن وسط عويل العواصف ، وأخيراً ساد الصمت بين الحاشدين .

وواصل قلب الأسد حديثه وقال : « أى فارس النمر الشجاع ، لقد بينت لنا أن الأتيوبى قد يبدل جلداً غير جلده ، والنمر الأرقط سمات غير سماته ، وذلك رغم أن الكهنة لا يعرفون من المستحيلات إلا ماجاء فى الكتاب المقدس ، ولكنى أريد أن أحدثك حديثاً آخر حينما أسير بك إلى حضرة السيدات وهن خير حكم وخير من يجازى أعمال الفروسية » .

فانحنى فارس النمر انحناء القبول .

« وأنت أيها الأمير صلاح الدين سوف تمثل لديهن كذلك ، وإنى أؤكد لك أن ملكتنا لن تحسب أنها على الرحب إلا إذا تهيأت لها الفرصة لتشكر مضيفها المليك لاستقبالها هذا الاستقبال الفاخر » .

فطأطأ صلاح الدين رأسه برشاقة ولكنه رفض الدعوة .

وقال : « إنما يجب أن أعنى بالرجل الجريح ، إن الطبيب لا يترك مريضه إلا كما يترك البطل ساحة الوغى ، حتى وإن دُعى إلى مخدع كمخادع الفردوس . وفوق هذا ، أيها الملك رتشارد ، لتعلمن أن دم الشرق لا يتدفق هادئاً فى حضرة الجمال كدم أبناء بلادكم ، ولقد قيل : (إن عينى المرأة كظباة السيف ، فمن ذا الذى يستطيع أن يحدق فيهما ؟) . من أراد أن لا يحترق ، فليتجنب أن يسير على النار الحامية . إن عقلاء الرجال لا ينشرون الكتان أمام اللهيب المتقد ، ويقول الحكماء : « من أضاع كنزاً ، فليس من الحكمة أن يتطلع إلى الخلف كى يملأ منه ناظريه » .

ونعتقد أن رتشارد قدر هذه الدوافع الرقيقة التى انبعثت عن خلُق يختلف عن خلقه ، ولم يلح فى مطلبه بعد ذلك .

وهم السلطان بالرحيل وهو يقول : « أملى أن تقبلوا جميعاً دعوتى إياكم إلى الطعام فى منتصف النهار تحت الخيمة السوداء المصنوعة من جلد الجمل ، وهى خيمة زعيم من زعماء كردستان » .

وأذيعت هـذه الدعوة بين المسيحيين ، وشملت كل من كانت له من المكانة ما يكفيه لأن يجلس على مائدة أعدت للأمراء .

وقال رتشارد : « أنصتوا ! إن المزاهر تعلن أن ملكتنا ووصيفاتها خارجات من رواقهن ؛ وانظر إلى العمائم ترها وقد غاصت فى الأرض كأن ملكا من ملائكة الهلاك قد ضرب فوقها ؛ لقد انكبوا جميعاً على وجوههم كأن نظرة واحدة من عين العربى تطفئ بريق خدود السيدات ! هيا بنـا إلى السرادق ، وسيروا برجلنا الظافر إلى هناك منتصرا — والله إنى لأشـفق على هذا السلطان النبيل الذى لا يعرف عن الحب إلا كما يعرف من هم أدنأ منه طبعاً ! » .

وضرب (بلندل) على قيثارته أعلى أنغامها ترحيبا بمقدم الظافر إلى سرادق الملكة برنجاريا ، وقد دخل مستنداً يميناً ويساراً على ضامنيه رتشارد وتوماس لنجسورد ، ثم جثا خاشعاً أمام الملكة ، ولكن أكثر من نصف الولاء كان موجهاً فى صمت إلى أديث التى كانت تجلس إلى يمينها .

وطفحت نفس الملك بشراً ، وأراد أن يقوم بتقاليد الفروسية فقال : « جردوه عن سلاحه ، سيداتى ، وليشرف الجمالُ الشهامة ! انزعى عنه مهمازيه يا برنجاريا ؛ إنك ملكة ، ولكنك تدينين له بكل شارة من شارات الرضا بوسعك أن تمنحيها إياه . حلى رباط خوذته يا أديث — حليها بيدك حتى وإن كنت أشد ذرية بلانتاجنت كبراً ، وكان هو أفقر فارس على وجه البسيطة ! » .

وصدع السيدتان بالأمر الملكى — وشرعت برنجاريا تعمل بمثابرة واهتمام ، حريصة على أن تشبع رغبات زوجها ، وأديث تنتابها حمرة الحياء حينا والشحوب المتزايد حيناً آخر ، وهى تفك بتؤدة واضطراب — يعاونها لنجسورد — الروابط التى كانت توثق الخوذة بالزرد .

ولما نزعت الخوذة عن السر كنث بدت للعيان طلعته ، ووجهه ينبض بالجهد الذى بذل حديثاً ، كما ينبض — بما لا يقل عن ذلك شدة — بالعاطفة الثائرة فى نفسه إذ ذاك ، فقال رتشارد : « ماذا تنتظرون من وراء هذا الرداء الحديدى ؟ ماذا ترون فيه أيها الشجعان وأيتها الحسان ؟ » ثم قال : « هل هو يشبه العبد الأتيوبى ، أم هل يبدى وجه مغامر مجهول غير ذائع الصيت ؟ كلا ومهندى الكريم ! — هنا نهاية تنكره على ضروبه المختلفة ، لقد جئنا أمامك وما تعرفين عنه غير فضله ، ولينهض كذلك مميزاً بكرم أرومته وبحسن طالعه ، لينهض الفارس الجرىء (كنث) باسم (داڤيد إيرل هنتنجدن) أمير اسكتلندا الملكى ! » .

فساد بين الجميع العجب والدهشة ، وسقطت من يد أديث الخوذة التى أمسكت بها منذ حين .

وقال الملك : « أجل ، سادتى ، إنه لكذلك . إنكم تعرفون كيف أن أسكتلندا قد خدعتنا حينما ارتأت أن تبعث إلينا بهذا (الإيرل) الجسور يصحبه جماعة من الشجعان من خيار أبنائها ونبلائهم ليعاونوا جيوشنا فى هذه الحملة على فلسطين ، ثم أخلت بوعدها ؛ ولكن هذا الشاب النبيل ، الذى كان على الصليبيين الاسكتلنديين أن يسيروا تحت لوائه ، أدرك أن من فحش العار أن يمسك سلاحه عن الحرب المقدسة ، فانضم إلينا فى صقلية ومعه ثلة صغيرة من الأتباع الغيورين المخلصين ، انضم إليها الكثير من مواطنيه ، الذين كانوا يجهلون مرتبة قائدهم ؛ وقد حصد الموت كل من يثق فيهم الأمير الملكى سوى تابع واحد مسن ، فى وقت كاد سره المختبئ فى طى الكتمان أن يدفعنى إلى أن أقطع — فى شخص مغامر أسكتلندى — أملا من أنبل آمال أوروبا . لِمَ لَمْ تذكر مرتبتك يا هنتنجدن النبيل ، وأنت محفوف بخطر أحكامى العاجلة الشديدة الانفعال ؟ هل كنت تحسب رتشارد بمستطيع أن يسيء استخدام ما له من فضل على وريث ملك كثيراً ما ألفاه معادياً له ! » .

فأجاب (إيرل هنتنجدن) وقال : « إنى لم أصمك بهذا العسف أيها الملك رتشارد ، ولكنى لم أطق أن أقر بأنى أمير اسكتلندا كى أنجو بحياتى — وقد استهدفت للخطر لتقصيرى فى واجب فى الولاء — وفوق ذلك فإنى كنت قد أقسمت أن أبقى مرتبتى مجهولة حتى تنتهى الحرب الصليبية ، وما ذكرتها إلا وأنا أتأهب للموت وأعترف لهذا الناسك الواقف هناك » .

فقال رتشارد : « إذن فلقد كانت معرفة هذا السر هى التى حدت بالرجل الكريم أن يتعجلنى فى الرجوع عن حكمى الشديد الذى حكمت ؟ ما كان أجدره أن يقول لى إن هذا الفارس الكريم لو سقط من جراء حكمى لوددت فيما بعد لو أن الحادث لم يقع حتى وإن كلفنى ذلك شلواً من أشلائى — شلواً ! كلا بل لوددت أن لم يقع حتى وإن كلفنى حياتى — ما دام العالم لا بد قائل إن رتشارد قد أساء إلى مآل وريث اسكتلندا — وقد وثق الرجل فى كرمه » .

فقالت الملكة برنجاريا : « ومع ذلك فهل لنا أن نعرف من جلالتك بأية صدفة عجيبة سعيدة انحل هذا اللغز بعد لأى ؟ » .

فقال الملك : « وردت إلينا الرسائل من انجلترا ، وعلمنا منها من خلال ما حملت من أنباء أخرى غير سارة أن ملك اسكتلندا قد ألقى القبض على ثلاثة أو أربعة من نبلائنا وهم يحجون إلى القديس « نينان » ، وذريعته فى ذلك أن وريثه الذى ظن الناس أنه يقاتل فى صفوف الفرسان التيوتون ضد المنافقين فى « بروسة » هو فى الحقيقة فى معسكرنا وتحت سلطاننا ؛ ولذا فقد رأى وليم أن يقبض على هؤلاء النبلاء رهناً لسلامته ، فرمى لى هذا الحادث الشعاعَ الأول على مرتبة فارس النمر الحق ، وأيد شكوكى دى ڤو ، الذى عاد من عسقلان ومعه خادم إيرل هنتنجدن الأوحد ، وهو رقيق صلب الرأى ، سار مع دى ڤو ثلاثين ميلا كى يفشو له سراً كان ينبغى له أن يبوح لى به » .

فقال لورد جلزلاند : « التمسوا المعذرة « لستروخان » العجوز ، فلقد علمته التجارب أن قلبى أشد ليناً من قلوب بلانتاجنت » .

فصاح به رتشارد : « قلبك لين ؛ كيف هذا وأنت سلعة من الصلب العتيق ، أو حجر من صوّان (كمبرلاند) ! » . ثم التفت إلى ابنة عمه وتكلم بأسلوب صعد منه الدم فى وجنتيها ، وقال : « إنما نحن ، يا أديث ، أبناء بلانتاجنت ، الذين نفخر بالقلوب اللينة الحساسة ؛ هاتِ يدك يا ابنة عمى الحسناء ، وأعطنى يدك يا أمير أسكتلندا » .

فتراجعت أديث وجاهدت أن تخفى اضطرابها ، وهى تزعم أنها تحاول المزاح بسلامة طوية قريبها المليك ، وقالت : « أقلع عن هذا مولاى ؛ ألا تذكر أن يدى قد كتب عليها أن تهدىَ صلاحَ الدين المسلم العربى — وكلَّ جيوشه من ذوى العمائم — إلى الدين المسيحى ؟ » .

فاجابها رتشارد قائلا : « أجل ، ولكن ريح التنبؤ قد انقلبت ، وهى الآن تهب من ركن آخر » .

فتقدم الناسك وقال : « لا تسخر وإلا اشتد إثمك ؛ إن ملائكة السماء لا تكتب غير الحق فى سجلها المنير ؛ إنما هو بصر الإنسان الذى بلغ به الوهن أن لا يقرأ ما سطروا صواباً ؛ اعلم أنى حينما هجع صلاح الدين العربى وكنت فى مغارتى ، طالعت النجم وعلمت أن تحت سقيفتى أميراً ، هو عدو رتشارد الطبيعى ، وأن حياة أديث بلانتاجنت معقودة بحياته ، فما كان لى أن أشك فى أن ذلك هو صلاح الدين الذى كنت بمكانته عليما ، لأنه كثيراً ما أتى لزيارتى بالكهف يحادثنى فى دورات الأجسام السماوية ؛ ثم هدتنى بعد ذلك أنوار الكون إلى أن الأمير ، زوج أديث بلانتاجنت ، سوف يكون مسيحيا ، وأنا فى تأويل النجوم ضعيف ساذج ، فاستنبطت إذ ذاك اعتناق السلطان النبيل للمسيحية ، وهو رجل كثيراً ما مالت به صفاته الكريمة نحو الحق . إن إحساسى بضعفى قد أذلّ أنفى إلى الرغام ، ولكنى فى الرغام وجدت راحة الضمير ! إنى لم أصب مطالعة أقدار الآخرين — ومن يدرينى لعلى كنت أخطئ حساب نجمى أنا نفسى ؟ إن الله لا يريدنا أن نسطو على حقوق الملائكة أو نستطلع أسراره الخفية . إنما واجبنا أن

ننتظر يوم الدين ساهرين خاشعين يعمر قلوبنا الخوف والأمل . لقد أتيت إلى هنا رسولا متقشفاً ، ونبيا شامخاً ، أجيد — حسب ظنى — إرشاد الأمراء ، وقد وهبنى الله قوى غير طبيعية ، وأثقلنى بحمل حسبت أن لا يطيقه غير عاتق ، ولكن مواثيق قد تقطعت ! فلأعودن من هنا متواضعاً فى جهالتى ، نادماً ، ولكنى لست قانطاً بغير أمل » .

وبعد ما أتم هذا الحديث انسحب من الجمع ؛ ويسجل التاريخ أن نوبات الجنون قل أن عاودته من منذ ذلك الحين ، وأن كفارته باتت من الضرب الخفيف ، مصحوبة بأمل فى المستقبل خير من أمله السالف ؛ وكان لديه من الاعتداد بالرأى — حتى فى جنونه — الشيء الكثير ، حتى إنه لما أيقن أنه كان يرحب بنبوءة لا أساس لها — بل ويبشر بها بحماسة شديدة — كان لذلك على نفسه أثر كأثر الدم يغيض من جسم الإنسان فيلطف من حرارة الذهن ويخفف عنها .

ولا حاجة بنا إلى أن نتتبع بالبيان المفصل مؤتمرات السرادق الملكى ، أو أن نعرف هل « داڤيد إيرل هنتنجدن » كان فى حضرة أديث بلانتاجنت صامتاً صمته حينما كان مضطراً إلى العمل وهو متنكر فى شخص مغامر مجهول لا اسم له ؛ ويجوز لنا أن نعتقد صواباً أنه كان فى هذا المقام يعبر بالحماسة اللائقة عن عاطفته التى كثيراً ما تعسر عليه من قبل أن يلبسها ثوب الكلام .

واقتربت الظهيرة ، ولبث صلاح الدين ينتظر أمراء العالم المسيحى فى خيمة لا تختلف كثيراً عن الخيام المألوفة بين عامة الكرد والعرب ، اللهم إلا فى ضخامة حجمها ؛ ومع ذلك فقد أعدت تحت طرفها الأسود الفسيح مأدبة على أفخر طراز فى الشرق ، ومدت على بسط من أنفس الأنواع ، نثرت عليها الوسائد للزائرين ؛ ولكننا لا نستطيع أن نقف بالقارئ ونصف له صحائف الذهب والفضة — والتفويف الفاخر بالنقوش العربية — وشملات الكشمير — وحرير الهند ، التى كانت منشورة هناك بكل جلالها وجمالها ؛ كما أنا لا نستطيع ألبتة أن نتحدث عن أصناف الحلوى العديدة ، والطعام المحفوف بالأرز الملون على أشكال عدة ، وكل ما لذ وطاب

من غير ذلك من ألوان الطهى الشرقى ، من خراف مشوية بأسرها ، وصيد وطير وطهى بالأرز واللحم والتوابل ، مكدساً فى أوان من ذهب ومن فضة وخزف ، ومختلطا بأقداح من حلو الشراب المبرد بالثلج والجليد من كهوف جبل لبنان ؛ وكان على رأس المأدبة كَدْس عظيم من الوسائد كأنه أعد لصاحب الوليمة ، ولمن يدعوهم من أصحاب المقام الرفيع لأن يتخذوا مكانهم فى ذلك الموضع المميز ؛ وكم من راية وعلم ، وكم من شارة من شارات الظفر فى الحروب وقهر الممالك والدول كانت ترفرف فوق الخيمة فى كل ناحية ، وبخاصة فوق هذا المقعد الرفيع الشأن. ولكن بين هذا كله ، وفوق هذا كله ، كان هناك رمح طويل يتعلق به كفن ، هو علم الموت ، وقد كتبت عليه هذه العبارة القوية : « صلاح الدين ملك الملوك — صلاح الدين قاهر القاهرين — صلاح الدين يجب أن يموت » ووسط هذا الإعداد ، وقف العبيد — الذين أعدوا ألوان الطعام — برؤوس منكسة وسواعد مطبوقة ، صامتين لا حراك بهم كأنهم تماثيل للذكرى ، أو شخوص آلية تنتظر مسّ الفنان لتتحرك .

وكان السلطان يعتقد — كغيره — فى الكثير من خرافات زمانه ، فوقف — وهو ينتظر اقتراب زائريه الأمراء — يستطلع بروج السماء وبيده كتاب مسطور بعث به إليه ناسك عين جدة حينما فصل عن المعسكر .

وتمتم لنفسه قائلا : « ما أعجب هذا العِلْم وما أغمضه ! إنه يزعم أنه يكشف عن المستقبل الحجاب ، ولكنه يُضِل أولئك الذين يتظاهر بإرشادهم ، ويُظلم المنظر الذى يزعم إضاءته ! من ذا الذى كان لا يقول أنى كنت ألدّ خصوم رتشارد وأشدهم عليه خطرا ، وأن عداوته سوف تنتهى بالزواج من قريبته ؟ ولكن الآن يظهر أن اقتران ذلك (الإيرل) الشهم بالسيدة ، سوف يؤدى إلى الصداقة بين رتشارد واسكتلندا ، وهى بلد أشد منى عداوة وخطراً ، فهى كالقط الوحشى فى الغرفة يُخشى بأسه أكثر من الليث فى الصحراء النائية ... » ، ثم وسوس لنفسه قائلا : « ولكن النجم كان يشير إلى أن هذا الزوج سوف يكون مسيحيا

وسكت قليلا وكرر الكلمة وقال : « أجل ، مسيحيا ؛ ولقد بعث ذلك فى المنجم المهوس المجنون الأمل فى احتمال ارتدادى عن دينى ! ولكن ما كان هذا ليخدعنى أنا ، أنا ذلك التابع المخلص للنبى » ، ثم رمى بالمكتوب تحت أكداس الوسائد وقال : « البث هنا أيها المكتوب الخفى الغامض ، ما أعجب ما نبأت به ، وما أشده على النفوس وقعا ، ما دمت — حتى إن صدقت فيما جاء بك — لن تصيب من يحاول حل رموز معانيك إلا بكل أثر من آثار الباطل — ماذا يقصد هذا القادم ؟ » .

وقد وجه عبارته الأخيرة هذه إلى القزم نكتبانس الذى اندفع إلى داخل الخيمة وهو يرتعد اضطرابا ، وكل لمحة من ملامحه العجيبة ، التى لا نسق فيها ، قد التوت فزعا ورعباً ، حتى صار شديد القبح ، فارط الكآبة — وفمه فاغر ، وعيناه محملقتان ، ويداه ممدودتان ذعراً ، وأصابعه ممسوخة مجعدة .

فقال السلطان عابساً : « ما وراءك ؟ » .

فأجابه القزم متأوهاً وقال : « خذ هذه » .

فقال صلاح الدين : « ماذا تقول ؟ » .

فأجابه هذا المخلوق المذعور قائلا : « خذ هذه » ، وربما كان لا يدرك أنه إنما يكرر اللفظ بعينه .

فقال العاهل : « عنى ، إن أعصابى الآن لا تحتمل الهزل » .

فقال القزم : « وما أنا الآن بهازل ، إلا إن كان هزلى يعاون فطنتى على كسب القوت ، وأنا ذلك اليائس البائس ! استمع إلى ، واصغ لى أيها السلطان الأعظم ! » .

فقال صلاح الدين : « إن كان لديك مظلمة عادلة تشكوها — جادا كنت أم هازلا — فلك الحق فى بثها إلى أذنى مليك ؛ تراجع معى إلى هنا » وسار به إلى الفسطاط الداخلى .

ومهما يكن الأمر الذى تباحثا فيه ، فلقد ارفض اجتماعهما على عجل حينما

عت إليهما أصوات الأبواق التى أعلنت مقدم الأمراء المسيحيين العديدين ، الذين رحب بهم صلاح الدين إلى فسطاطه بملاطفة ملكية تليق بمكانتهم ومكانته ؛ ولكنه حيا (إيرل هنتنجدن) الشاب تحية خاصة وأسرف له فى التهنئة بالأمانى التى أحرزها ، والتى تقف فى سبيل آماله السالفة وتخيم عليها .

وقال السلطان : « ولكن لا تحسبن أيها الشاب النبيل أن أمير اسكتلندا أكثر قبولا لدى صلاح الدين من (كنث) لدى (الضريم) حينما التقيا فى الصحراء ، أو من الأتيوبى المنكود لدى الحكيم (أدنبك) ؛ إن طبيعته سمحة مقدامة — كطبيعتك — لها قيمة مستقلة عن الحسب والنسب ، كما أن هذا الشراب البارد الذى أقدم إليك الآن لذيذ المذاق من قدح الخزف كما هو من كأس الذهب » .

فأجابه (إيرل هنتنجدن) بما يليق ، واعترف شاكراً بالخدمات العديدة التى أداها له السلطان الكريم ، ولكنه لما تناول كأس الشراب السائغ التى قدم إليه السلطان ، وهم بأن يشرب نخبه ، لم يسعه إلا أن يقول مبتسما : « إن الفارس الشجاع (الضريم) لم يعرف كيف يتكون الجليد ، ولكن السلطان السخى يبرد رحيقه بالثلج » .

فقال السلطان : « أفتريد أن يكون العربى أو الكردى عاقلا كالحكيم ؟ من يعمل متنكراً ينبغى له أن يوفق بين ما فى قلبه من هوى وما فى عقله من علم ، وبين الزى الذى يرتدى ؛ لقد أردت أن أعرف ماذا يصنع الفارس الفرنجى الجسور الخالص الطوية فى الجدل مع زعيم من الزعماء ، كما كان يدل ظاهرى ؛ وقد أثرت الشك فى صدق حقيقة ذائعة معروفة ، كى أعرف بأى الحجج أنت تؤيد مزاعمك» .

وبينما هما يتحادثان سمع أرشدوق النمسا — وكان قريباً منهما — ذكر الشراب السائغ المثلج ، فدهش لذلك ، وتناول الكأس المترعة مغتبطاً مقبلا وإيرل هنتنجدن يوشك أن يردها إلى مكانها .

وبعد ما احتسى جرعة كبيرة ، ضاعفت من لذة مذاقها حرارة الجو والحمى التى عقبت دعارة اليوم السابق ، صاح قائلا : « ما ألذها ؟ » وتنهد وهو يناول

الـكأس رئيس رجال المعبد الأعظم ، وأشار صلاح الدين إلى القزم ، فتقدم وقال بصوت أجش : « خذ هذه » ، ففزع صاحب المعبد ، كالحصان يرى ليثاً تحت شجيرة على جانب الطريق ، ولـكن سرعان ما ثاب إلى ثباته ، وربما أراد أن يخفى اضطرابه فرفع الـكأس إلى شـفتيه — ولـكنهما لم يمسا حافة الـكأس ، وجرد صلاح الدين سيفه عن غمده وسله كما يُسل البرق من السحاب ، وهز به فى الهواء — ثم تطوح رأس الرئيس الأعظم إلى أقصى الخيمة ، بينما بقى الجذع مكانه لحظة ، والـكأس ما تزال مثبتة فى قبضته ، ثم سقطت الـكأس ، واختلط الشراب بالدماء التى كانت تتدفق من العروق .

فعم الصياح بالخيانة والغدر ، وتقهقر مذعوراً دوق النمسا ، وكان صلاح الدين يقف على مقربة منه ، والسيف فى يده يقطر دماً ، وكأن الدوق كان يخشى أن تدور عليه الدائرة ، ووضع رتشارد والآخرون أيديهم على سيوفهم .

وقال السلطان مطمئنا كأن لم يحدث شيء : « لا تخف شيئاً يا دوق النمسا النبيل ، ولا تغضب يا ملك الإنجليز مما شهدت ؛ ما لتكرار الخيانة منه ، ولا من أجل المؤامرة التى دبر للقضاء على حيـاة الملك رتشارد — كما يقر بذلك خادمه الخاص — ولا لأنه طاردنى وأمير اسكتلندا فى الصحراء ، وما أبقى لنا من سبيل للنجاة بحياتنا إلا خفة جوادينا — ولا لأنه حث (المارونيين) على مهاجمتنا فى هذا الظرف عينه ، لولا أنى أتيت عفواً بكثير من الأعراب حتى ماتت الحيلة فى مهدها — ما من إحدى هذه الجرائم ولا من أجلها جميعاً ترونه هناك مجنـدلا ، وإن تكن كل واحدة منها تستحق هـذا القضاء — وإنمـا لأنه منذ أقل من نصف ساعة — قبل أن يفسد علينا حفلنا بعقدمه كما تسمم السموم الجو — طعن بخنجره زميله وصاحبه كنراد منتسرا خشية أن يعترف بالمؤامرات التى اشتغلا بها معاً » .

فصاح رتشارد . « كيف هذا ! أقُتل كنراد ؟ — وبيد الرئيس الأعظم ، وليه وصديقه ! أيها السلطان النبيل ، إنى لا أشك فيما تقول ، ولـكن هذا الخبر يجب إثباته ، وإلا . . . » .

•

فقال صلاح الدين وقد أشار إلى القزم المذعور : « هنالك يقف الشاهد والدليل ، إن الله الذى يرسل الحباحب كى تضىء بالليل ، يستطيع أن يكشف عن خفى الجرائم بأحقر الوسائل وأدناها » .

ثم أخذ السلطان يقص قصة القزم ومؤداها ما يلى : — اشتد بنكتبانس حب الاستطلاع الطائش أو — كما أقر تنويهاً — فكر فى النهب والاختلاس ، فتسلل إلى خيمة كنراد بعد أن هجرها أتباعه ، وقد خلف بعضهم المعسكر ليحملوا خبر انكساره إلى أخيه ، وأخذ بعضهم الآخر يغتنم ما أعد صلاح الدين للقصف والمرح ؛ واستغرق الرجل الجريح فى النوم تحت تأثير تميمة صلاح الدين العجيبة ، فسنحت للقزم الفرصة أن يتجسس كما يشاء ، حتى سمع خطى ثقيلة فارتاع واختفى ، وتوارى خلف ستار بحيث يستطيع أن يرقب حركات الرئيس الأعظم ويتسمع إلى كلماته ، وقد دخل الرئيس وأسدل غطاء السرادق خلفه بحرص وحذر ، فهبت من النوم فريسته ، ويظهر أن الرجل ارتاب فى الحال فى أغراض صاحبه القديم ، فسأله وفى صوته نغمة الذعر لماذا جاء يزعجه ؟

فأجابه الرئيس الأعظم قائلا : « جئت لتعترف لى وأنجيك » .

ولم يذكر القزم الخائف من حديثهم بعد هذا كثيراً ، سوى أن كنراد توسل إلى الرئيس الأعظم ألا يقضى على رجل جريح ، وأن صاحب المعبد طعنه فى قلبه بخنجر تركى وقال له : « خذ هذه » وهما كلمتان أخذتا بعد هذا مدة تنتابان الخيال المرتاع ، خيال الشاهد المتوارى .

ثم قال صلاح الدين : « ولقد أمرت بفحص الجثة ، وتحققت من صدق القصة ؛ وجعلت هذا المخلوق البائس ، الذى بعثه الله ليكشف عن الجريمة ، يكرر فى حضرتكم الكلمات التى لفظها القاتل ، ولقد شهدتم بأنفسكم الأثر الذى تركت على فؤاده » .

وسكت السلطان قليلا ثم شق ملك انجلترا الصمت السائد وقال :

« إن كان هذا صدقاً — وهو ما لا أشك فيه — فلقد شهدنا عملا جليلا من

أعمال العدل ، وإن يكن إلى الموت لا إلى الحياة ، ولـكن لِمَ كان ذلك فى هـذا الحفل ولِمَ كان بيدك ؟ » .

فقال صلاح الدين : « كنت رسمت لنفسى خطة أخرى ، ولـكن لو أننى ما سارعت إلى قتله لانقلبت نهايته كل منقلب ، لأنى لو كنت سمحت له بارتشاف كأسى — كما أوشك أن يفعل — فكيف كان يسعنى ، دون أن أصم نفسى بوصمة الخيانة للضيف فى إقرائه ، أن أنزل به الموت الذى يستحق ؟ لو أنه قتل أبى ثم شاركنى بعد ذلك فى طعامى وشرابى ، ما كان لى أن أوذى شعرة من شـعرات رأسه ، ولـكن دعونا منه — ولنبعد من بيننا جثته وذكراه » .

فنقلت جثته ومحيت علامات القتل أو ووريت بحذق وعلى عجل ، مما كان يدل على أن أمثال هـذا الحادث كانت مألوفة معهودة ، حتى أن أعوان صلاح الدين والضباط من حاشيته لم يصعق منهم أحد .

ولـكن الأمراء المسيحيين أحسوا بأن المنظر الذى شهدوا كان شديد الوقع على نفوسهم ، وقد اتخذوا مقاعدهم فى المأدبة نزولا عنـد دعوة السلطان ومجاملته لهم ، إلا أن ذلك قد تم فى صمت الشك والدهشة ؛ ولم تعل على كل أسباب الريبة والارتباك نفس غـير نفس رتشارد وحده ، ومع ذلك فقد بدا عليه كأن خاطراً طرأ له يجب أن يسوقه فى أسـلوب مقبول شديد الإيحاء على قدر ما يستطيع ، وأخيراً احتسى قدحاً كبيراً من النبيذ حتى ثمالته ، ووجه الخطاب إلى السلطان ، وأراد أن يعرف إن كان حقا أن (إرل هنتنجدن) قد تشرف بمنازلته .

فأجاب صلاح الدين باسماً وقال : إنه امتحن حصانه وسلاحه مع وريث اسكتلندا ، كما يفعل الفرسان عادة فيما بينهم حينما يلاقى فى الصحراء بعضهم بعضا ؛ ثم قال متواضعاً إن الضراب لم يكن حاسماً قاطعاً ، إلا أنه من ناحيـة ليس لديه سبب قوى يحمله على أن يفخر بنفسه فى هذا الحادث ؛ وأنكر الاسكتلندى من ناحية أخرى هذا الفضل الذى نسب إليه ، وأراد أن يعزوه إلى السلطان .

فقال رتشارد : « حسبك ما نلت من شرف فى هذا النزال ، وإنى لأحسدك على هذا أكثر مما أحسدك على بسمات أديث بلانتاجنت ، وإن كان أحد الأمرين يكفى جزاء على جهد يوم دام — ولكن ماذا أنتم قائلون أيها الأمراء الأشراف ؛ هل يليق بحلقة ملكية من الفرسان كهذه أن تنفض دون أن تعمل شيئاً لمستقبل الأيام تتحدث به ؟ ما نبذ خائن ، وما قتله ، لهذه الجماعة الشريفة النبيلة الحاشدة فى هذا المكان ، والتى ينبغى أن لا تتفرق دون أن تشهد شيئاً جديراً باعتبارها ؟ ماذا تقول أيها السلطان المليك — ماذا لو فصلنا الآن أمام هذه الجماعة الطيبة فى الإشكال الذى طال عليه النزاع ، إشكال هذه الأرض ، أرض فلسطين ، فنختم فى الحال هذه الحروب الشاقة ؟ ها هى ذى الرحبة على استعداد ، ولن يطمح الإسلام إلى بطل خير منك ، ولسوف أرمين بقفازى نيابة عن العالم المسيحى ، إلا إن تقدم من هو أجدر منى ، وفى محبة الشرف نعترك عراكا فاصلا لحيازة بيت المقدس » .

وساد صمت عميق ارتقابا لجواب السلطان ، وعلت الحمرة الشديدة جبينه وخديه ، وظن الكثير من الحاضرين أنه تردد فى قبول المبارزة ، وأخيراً قال : « إن أنا قاتلت فى سبيل المدينة المقدسة ، فى وجه من نراهم من الوثنيين وعبدة الأخشاب والحجارة والتماثيل المنحوتة — وإنى على يقين من أن الله سوف يشد أزرى — ولئن سقطت تحت حسام الملك رتشارد ، فإنى لن أنتقل إلى الفردوس بميتة أشرف من هذه ، ولكن الله قد أعطى بيت المقدس للمسلمين المؤمنين ؛ وإنه لمن الكفر برب النبى أن أسوق إلى المخاطر — رهنا بقوتى وحذقى — ما أملك مطمئناً بتفوق جيوشى » .

فقال رتشارد بنغمة من يطلب الرضا من صديق حميم : « إن لم يكن من أجل بيت المقدس ، إذن فلنتبارز حبا للشرف ثلاث مرات على الأقل برماح مسنونة » .

فابتسم صلاح الدين قليلا لهذا الشغف القوى بالنزال عند قلب الأسد وقال :

« وحتى هذا ليس لى شرعا أن أفعله ؛ إن السيد يضع الراعى على رأس القطيع ، لا من أجل الراعى ، ولكن من أجل الغنم ؛ لو كان لى ابن يحمل الصولجان بعد سقوطى لكانت لى الحرية — كما أن لى الإرادة — فى مجابهة هذا النزال الجرىء ، ولكن لقد جاء فى إنجيلكم ذاته أنه إذا ضُرب الراعى تشتتت الرعية » .

فالتفت رتشارد إلى (إيرل هنتنجدن) وتنهد وقال : « لقد فزت بكل توفيق ، والله إنى لأعطى خير سنى حياتى لنصف ساعة بجوار (درة الصحراء) ! » .

وحرك فرط الفروسية فى رتشارد نفوس الحافلين ، ولما نهض أخيراً للرحيل تقدم صلاح الدين ، وأمسك قلب الأسد من يده .

وقال : « أى ملك انجلترا النبيل ، إنا نفترق الآن على غير لقاء ، وإنى أعرف جيداً — كما تعرف أنت — أن عصابتك قد تفككت عراها ولن تلتئم ، وأن جيوش بلدك قليل عديدها ، ولا تمكنك من مواصلة ما شرعت فيه ؛ إنى لا أستطيع أن أسلم لك بيت المقدس هذا الذى تتحرق شوقا إلى حيازته ، فهو لنا — كما هو لكم — بلد مقدس ، ولكن أية شروط أخرى يطلب رتشارد إلى صلاح الدين أسلم لك فيها راغبا كما تتدفق المياه من تلك العين ؛ أجل ، ولسوف يهب صلاح الدين كما تهب العين ، بغير مواربة ، حتى وإن وقف رتشارد فى الصحراء ، وما يتبعه غير اثنين من رماة السهام ! » .

* * *

وشهد اليوم الثانى عودة رتشارد إلى معسكره ، وبعد فترة وجيزة تزوج (إيرل هنتنجدن) الشاب من (أديث بلانتاجنت) ، وبعث السلطان (بالطلسم) الشهير هدية بمناسبة القران ؛ ولقد تم به شفاء الكثيرين فى أوروبا ، غير أنه لم ينجح فى أيهم ، ولم يشتهر أمره ، نجاحه وشهرته فيما أنجز صلاح الدين ؛ وهو ما يزال على قيد البقاء ، فلقد ورثه (إيرل هنتنجدن) فارساً شجاعا من أبناء اسكتلندا ، هو (السر سيمن لى) ، وما تزال أسرته العريقة ، صاحبة الشرف

الرفيع ، تحتفظ به ، ورغم أن الحجارة المسحورة قد نُبِذت من علم الصيدلة الحديث ، إلا أن فضائل هـذا الطلسم ما زالت تستخدم فى إيقاف الدم ، وفى حالات الجنون الـكلبى .

وهنا تنتهى قصتنا ، إذ أن الشروط التى كف من أجلها رتشارد عن غزواته مبسوطة فى كل كتاب من كتب التاريخ عن ذلك العهد .

